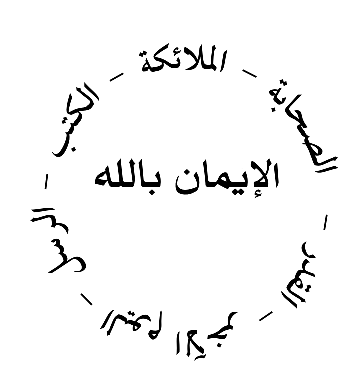


الجامع الصحيح لأدلة الاعتقاد



❑ كتاب الإيمان باللّه ❑

تأليف

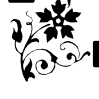
سيد عبد العزيز

إشراف

أبي إسحاق السمنودي

مجدي بن عطية حمودة

المجلد الأول



الجامع الصحيح لأدلة الاعتقاد

كتاب الإيمان بالله

الطبعة الثانية
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

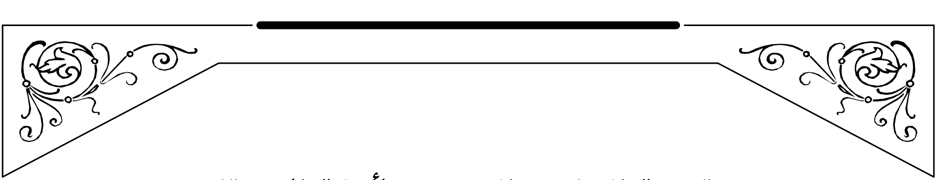


رقم الإيداع: ٨٢٨١ / ٢٠١٥م

الناشر

المكتب العلمي لتحقيق التراث
٠١٠٠٢٠٥٧٢٣٩


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الجامع الصحيح لأدلة الاعتقاد

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمَّد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده النجيب، ورسوله الأمين، اصطفاه لرسالته، وابتعثه بوحيه، داعيًا خلقه إلى عبادته، فصدع بأمره، وجاهد في سبيله، ونصح لأمته، وعبده حتى أتاه اليقين من عنده، غير مقصر في بلاغ، ولا وانٍ في جهاد، صلى الله عليه

أفضل صلاة وأزكاها، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن توضيح العقيدة الإسلامية الصحيحة وبيانها للناس من آكد الواجبات؛ لأنها هي الطريق لمعرفة الله حقًّا، وهي واجبة على العبد أن يتعلمها فهي التي من أجلها أرسل الله ﷻ الرسل، وأنزل الكتب، وانقسم الناس بسببها إلى أشقياء وسعداء، ورَتَّب على تحقيقها السعادة في الدنيا والآخرة، وخَلق من أجلها الجنة والنار، فينبغي الاهتمام بها، لا سيما مع كثرة الضلال فيها، واشتباه الحق بالباطل على كثير من المسلمين.

وقد اهتم أئمة السنة وعلماء الأمة بشأن العقيدة اهتمامًا بالغًا، فألَّفوا فيها كتبًا مطولة وكتبًا مختصرة، فمنها الجامع، ومنها المقتصر.

وقد استعنا بفضل الله وتوفيقه على جمع أبواب العقيدة مستدلين بآيات الله، وبالأحاديث الثابتة، والأدلة الصحيحة، وأقوال أهل العلم، واعتمدنا على مراجع أهل السنة والجماعة، القديم منها والمعاصر، وحرصنا أن تكون شاملة لمسائل وموضوعات العقيدة، مع تحقيقها، وتنقيحها، والتأليف بينها، وتخريج أحاديثها، وتصنيفها تضنيفًا موضوعيًّا.

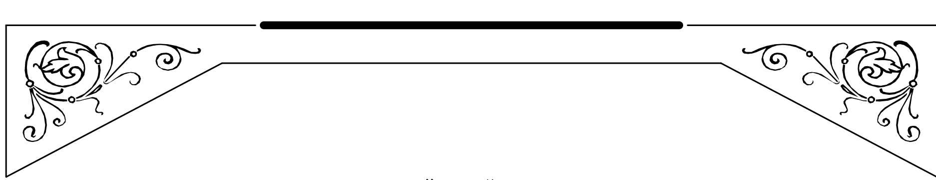
فنسأله ﷻ أن يجعله عملًا خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين.

وكتبه

أبو إسحاق السمنودي

مجدي بن عطية حمودة

ت/ ٠١٠٠٢٠٥٧٢٣٩



مقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ الْحَقَّ وَأَوْضَحَهُ، وَكَشَفَ عَنْ سَبِيلِهِ وَبَيَّنَهُ، وَهَدَى مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ إِلَى طَرِيقِهِ، وَشَرَحَ بِهِ صَدْرَهُ، وَأَنْجَاهُ مِنَ الضَّلَالَةِ حِينَ أَشْفَى عَلَيْهَا، فَحَفِظَهُ وَعَصَمَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ فِي دِينِهِ، فَأَنْقَذَهُ مِنْ مَهَاوِي الْهَلَكَةِ، وَأَقَامَهُ عَلَى سُنَنِ الْهُدَى وَثَبَّتَهُ، وَآتَاهُ الْيَقِينَ فِي اتِّبَاعِ رَسُولِهِ وَصَحَابَتِهِ وَوَفَّقَهُ، وَحَرَسَ قَلْبَهُ مِنْ وَسَاوِسِ الْبِدْعَةِ وَأَيَّدَهُ، وَأَضَلَّ مَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ وَبَعَّدَهُ، وَجَعَلَ عَلَى قَلْبِهِ غِشَاوَةً، وَأَهْمَلَهُ فِي غَمْرَتِهِ سَاهِيًا، وَفِي ضَلَالَتِهِ لَاهِيًا، وَنَزَعَ مِنْ صَدْرِهِ الْإِيمَانَ، وَابْتَزَّ مِنْهُ الْإِسْلَامَ، وَتَيَّهَهُ فِي أَوْدِيَةِ الْحَيْرَةِ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ؛ لِيَبْلُغَ الْكِتَابُ فِيهِ أَجَلَهُ، وَيَتَحَقَّقَ الْقَوْلُ عَلَيْهِ بِمَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ فِيهِ مِنْ قَبْلِ خَلْقِهِ لَهُ وَتَكْوِينِهِ إِيَّاهُ؛ لِيَعْلَمَ عِبَادُهُ أَنَّ إِلَيْهِ الدَّفْعَ وَالْمَنْعَ، وَبِيَدِهِ الضُّرَّ وَالنَّفْعَ، مِنْ غَيْرِ غَرَضٍ لَهُ فِيهِ، وَلَا حَاجَةٍ بِهِ إِلَيْهِ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، إِذْ لَمْ يُطْلِعْ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، وَلَا جَعَلَ السَّبِيلَ إِلَى عِلْمِهِ فِي خَلْقِهِ أَبَدًا، لَا الْمُحْسِنُ اسْتَحَقَّ الْجَزَاءَ مِنْهُ بِوَسِيلَةٍ سَبَقَتْ مِنْهُ إِلَيْهِ، وَلَا الْكَافِرُ كَانَ لَهُ جُرْمٌ أَوْ جَرِيرَةٌ حِينَ قَضَى وَقَدَّرَ النَّارَ عَلَيْهِ.

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَهُ لِإِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ أَلْهَمَهُ إِيَّاهَا، وَجَعَلَ مَوَارِدَهُ وَمَصَادِرَهُ نَحْوَهَا، وَمُتَقَلَّبَهُ وَمُتَصَرَّفَاتِهِ فِيهَا، وَكَدَّهُ وَجَهْدَهُ وَنَصَبَهُ عَلَيْهَا؛ لِيَتَحَقَّقَ وَعْدُهُ الْمَحْتُومُ، وَكِتَابُهُ الْمَخْتُومُ، وَغَيْبُهُ الْمَكْتُومُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] مِنْ رَبِّهِمْ، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَيُنْشِئُ وَيُقِيتُ وَيُبْدِئُ وَيُعِيدُ، شَهَادَةَ مُقِرٍّ بِعُبُودِيَّتِهِ، وَمُذْعِنٍ بِأُلُوهِيَّتِهِ، وَمُتَبَرِّئٍ عَنِ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، بَعَثَهُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ عَامَّةً؛ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَوْجَبَ مَا عَلَى الْمَرْءِ مَعْرِفَةُ اعْتِقَادِ الدِّينِ، وَمَا كَلَّفَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ مِنْ فَهْمِ تَوْحِيدِهِ وَصِفَاتِهِ وَتَصْدِيقِ رُسُلِهِ بِالدَّلَائِلِ وَالْيَقِينِ، وَالتَّوَصُّلِ إِلَى طُرُقِهَا وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهَا بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ.

وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ مَقُولٍ، وَأَوْضَحِ حُجَّةٍ وَمَعْقُولٍ:

كِتَابُ اللَّهِ الْحَقُّ الْمُبِينُ.

ثُمَّ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَصَحَابَتِهِ الْأَخْيَارِ الْمُتَّقِينَ.

ثُمَّ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُونَ.

ثُمَّ التَّمَسُّكُ بِمَجْمُوعِهَا وَالْمُقَامُ عَلَيْهَا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

ثُمَّ الِاجْتِنَابُ عَنِ الْبِدَعِ وَالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهَا مِمَّا أَحْدَثَهَا الْمُضِلُّونَ.

فَهَذِهِ الْوَصَايَا الْمَوْرُوثَةُ الْمَتْبُوعَةُ، وَالْآثَارُ الْمَحْفُوظَةُ الْمَنْقُولَةُ، وَطَرَائِقُ الْحَقِّ الْمَسْلُوكَةُ، وَالدَّلَائِلُ اللَّائِحَةُ الْمَشْهُورَةُ، وَالْحُجَجُ الْبَاهِرَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّتِي عَمِلَتْ عَلَيْهَا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ خَاصَّةِ النَّاسِ وَعَامَّتِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَاعْتَقَدُوهَا حُجَّةً فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. ثُمَّ مَنِ اقْتَدَى بِهِمْ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُهْتَدِينَ، وَاقْتَفَى آثَارَهُمْ مِنَ الْمُتَّبِعِينَ، وَاجْتَهَدَ فِي سُلُوكِ سَبِيلِ الْمُتَّقِينَ، وَكَانَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.

فَمَنْ أَخَذَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَحَجَّةِ، وَدَاوَمَ بِهَذِهِ الْحُجَجِ عَلَى مِنْهَاجِ الشَّرِيعَةِ؛ أَمِنَ فِي دِينِهِ التَّبِعَةَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَتَمَسَّكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى

الَّتِي لَا انْفِصَامَ لَهَا، وَاتَّقَى بِالْجُنَّةِ الَّتِي يُتَّقَى بِمِثْلِهَا؛ لِيَتَحَصَّنَ بِجُمْلَتِهَا، وَيَسْتَعْجِلَ بَرَكَتَهَا، وَيَحْمَدَ عَاقِبَتَهَا فِي الْمَعَادِ وَالْمَآبِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا وَابْتَغَى الْحَقَّ فِي غَيْرِهَا مِمَّا يَهْوَاهُ، أَوْ يَرُومُ سِوَاهَا مِمَّا تَعَدَّاهُ؛ أَخْطَأَ فِي اخْتِيَارِ بُغْيَتِهِ وَأَغْوَاهُ، وَسَلَكَهُ سَبِيلَ الضَّلَالَةِ، وَأَرْدَاهُ فِي مَهَاوِي الْهَلَكَةِ فِيمَا يَعْتَرِضُ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ وَدَفْعِهِمَا بِأَنْوَاعِ الْمِحَالِ وَالْحَيْدَةِ عَنْهُمَا بِالْقِيلِ وَالْقَالِ، مِمَّا لَمْ يُنَزِّلِ اللَّهُ بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ، وَلَا عَرَفَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ وَاللِّسَانِ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ عَاقِلٍ بِمَا يَقْتَضِيهِ مِنْ بُرْهَانٍ، وَلَا انْشَرَحَ لَهُ صَدْرُ مُوَحِّدٍ عَنْ فِكْرٍ أَوْ عِيَانٍ، فَقَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَأَحَاطَ بِهِ الْخِذْلَانُ، وَأَغْوَاهُ بِعِصْيَانِ الرَّحْمَنِ، حَتَّى كَابَرَ نَفْسَهُ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ.

وَالْآنَ أَيُّهَا الحَبِيبُ، فَهَلُمَّ إِلَى تَدَيُّنِ الْمُتَّبِعِينَ، وَسِيرَةِ الْمُتَمَسِّكِينَ، وَسَبِيلِ الْمُتَقَدِّمِينَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّتِهِ، وَالْمُنَادِينَ بِشَرَايِعِهِ وَحِكْمَتِهِ، الَّذِينَ قَالُوا: ﴿ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]، وَتَنَكَّبُوا سَبِيلَ الْمُكَذِّبِينَ بِالإِيمَانِ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فَاتَّخَذُوا كِتَابَ اللَّهِ إِمَامًا، وَآيَاتِهِ فُرْقَانًا، وَنَصَبُوا الْحَقَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ عِيَانًا، وَسُنَنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جُنَّةً وَسِلَاحًا، وَاتَّخَذُوا طُرُقَهَا مِنْهَاجًا، وَجَعَلُوهَا بُرْهَانًا، فَلَقُوا الْحِكْمَةَ، وَوُقُوا مِنْ شَرِّ الْهَوَى وَالْبِدْعَةِ؛ لِامْتِثَالِهِمْ أَمْرَ اللَّهِ فِي اتِّبَاعِ الرَّسُولِ، وَتَرْكِهِمُ الْجِدَالَ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ.

ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ فِي كُلِّ عَصْرٍ مِنَ الْأَعْصَارِ إِمَامٌ مِنْ سَلَفٍ، أَوْ عَالِمٌ مِنْ خَلَفٍ، قَائِمٌ لِلَّهِ بِحَقِّهِ، وَنَاصِحٌ لِدِينِهِ فِيهَا، يَصْرِفُ هِمَّتَهُ إِلَى جَمْعِ اعْتِقَادِ أَهْلِ الْحَدِيثِ عَلَى سُنَنِ كِتَابِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَآثَارِ صَحَابَتِهِ، وَيَجْتَهِدُ فِي تَصْنِيفِهِ، وَيُتْعِبُ نَفْسَهُ فِي تَهْذِيبِهِ؛ رَغْبَةً مِنْهُ فِي إِحْيَاءِ سُنَّتِهِ، وَتَجْدِيدِ شَرِيعَتِهِ، وَتَطْرِيَةِ

ذِكْرِهِمَا عَلَى أَسْمَاعِ الْمُتَمَسِّكِينَ بِهِمَا مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِ، أَوْ لِزَجْرِ غَالٍ فِي بِدْعَتِهِ، أَوْ مُسْتَغْرِقٍ يَدْعُو إِلَى ضَلَالَتِهِ، أَوْ مُفْتَتِنٍ بِجَهَالَتِهِ لِقِلَّةِ بَصِيرَتِهِ.

فَأَفْرَغْتُ فِي ذَلِكَ جَهْدِي، وَأَتْعَبْتُ فِيهِ نَفْسِي؛ رَجَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ وَاسْتِنْجَازِ مَوْعُودِهِ فِي اسْتِبْصَارِ جَاهِلٍ، وَاسْتِنْقَاذِ ضَالٍّ، وَتَقْوِيمِ عَادِلٍ، وَهِدَايَةِ حَائِرٍ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ فِيمَا أَخُطُّهُ في الحَدِيثِ عَنِ الإيمَانِ بِالله، وَالْإِقَالَةَ مِنَ الْخَطَأِ فِيمَا أَنْحُوهُ وَأَقْصِدُهُ[١].

إن الإيمان بالله ﷻ هو أهم أصول الإيمان، وأعظمها شأنًا، وأعلاها قدرًا، بل هو أصل أصول الإيمان، وأساس بنائه، وقِوام أمره، وبقية الأصول متفرعة منه، راجعة إليه، مبنية عليه. والإيمان بالله ﷻ هو الإيمان بوحدانيته سبحانه في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، فهذه أصول ثلاثة يقوم عليها الإيمان بالله، بل إن الدين الإسلامي الحنيف إنما سُمي توحيدًا لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وأسمائه وصفاته لا نظير له، وواحد لا ندَّ له، فالقرآن كله في التوحيد، وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم[٢].

فالإيمان بالله ﷻ يتضمن التصديق الجازم بوجود الله وربوبيته - جل وعلا - واتصافه بكل صفات الكمال، ونعوت الجلال، واستحقاقه وحده العبادة، واطمئنان القلب بذلك اطمئنانًا تُرى آثاره في سلوك الإنسان، والتزامه بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، وهو أساس العقيدة الإسلامية ولبها؛ فهو الأصل، وكل أركان العقيدة مضافة إليه، وتابعة له.

وهو أساس العقيدة وأصلها، وهو يعني الاعتقاد الجازم بأن الله لَا شَرِيكَ

---

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ٥) بتصرف يسير.

(٢) «أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة» (ص: ١٠).

لَهُ فِي الْمُلْكِ وَلَا مُنَازِعَ لَهُ فِيهِ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَاحِدٌ أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ لم يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا، وَلَا ضِدَّ لَهُ وَلَا نِدَّ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ «ذِي الْجَلَالِ» ذِي الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ الَّذِي هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ، وَيُوَحَّدَ فَلَا يُشْرَكُ مَعَهُ غَيْرُهُ، وَلَا يُوَالَى إِلَّا هُوَ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الْأَنْعَام: ١٦٤] ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الْأَنْعَام: ١٤] ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ [الْأَنْعَام: ١١٤] ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٤] ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الْأَنْعَام: ١٠٢، ١٠٣].

وَالْإِيمَانُ بِـ«مَا لَهُ» تَعَالَى «مِنْ صِفَةِ الْكَمَالِ» مِمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ مِنَ الْأَسْمَاءِ الحُسْنَى وَالصِّفَاتِ العُلَا وَإِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ وَلَا تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَأَنَّ كُلَّ مَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى وَوَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ الْكُلُّ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ وَأَرَادَ رَسُولُهُ، وَعَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٧].

فالإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بوحدانيته، واستحقاقه للعبادة؛ لأن وجوده - جل وعلا - لا شك فيه ولا ريب.

وقد دل على وجوده ﷻ: الفطرة، والعقل، والشرع، والحس.

والإقرار بوجود الله تعالى هذا أمرٌ فطريّ في الإنسان، وأكثر الناس يعترفون بوجود الله، ولم يخالف في ذلك إلا قلة قليلة من الملاحدة.

فمن لم يؤمن بوجود الله فليس بمؤمن، ومن آمن بوجود الله لا بانفراده

بالربوبية فليس بمؤمن، ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية فليس بمؤمن، ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية والألوهية لكن لم يؤمن بأسمائه وصفاته فليس بمؤمن، وإن كان الأخير فيه من يُسلب عنه الإيمان بالكلية وفيه من يُسلب عنه كمال الإيمان.

ولا يمكن أن يتواجد هذا الكون صدفة؛ لأن كل حادث لا بد له من مُحْدِث، ولأن وجوده على هذا النظام البديع، والتناسق المتآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب ومسبباتها، وبين الكائنات بعضها مع بعض - يمنع منعًّا باتًّا أن يكون وجوده صدفة، إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده فكيف يكون منتظمًا حال بقائه وتطوره؟!

لذا فإن معرفة الإيمان بالله وتحقيقه غاية كلّ مسلم، ومنتهى كلّ طالب للحقّ؛ لأنّ شرف العلم من شرف المعلوم.

فمعرفة الله وعبادته أشرف المطالب وأعلى المقاصد، وبإخلاص العبادة وصوابها يكون العبد من أولياء الله تعالى ومن أهل دار كرامته وممن تناله رحمته وهداه.

ومَن قَصَّر في هذا الجانب العظيم كان ممن عَرَّض نفسه لسخط الله تعالى ومقته، وحرمها من فضله وكرمه.

وقد قسمت البحث علي طرائق أهل العلم كما سترى بإذن الله تعالى، والله أسأل حسن القصد والثواب، وأعوذ به سبحانه من سوء السريرة وعدم قبول الأعمال

فيا أيها الأخ الكريم، إن الذي تراه أمامك هو ما كتبته يداي المذنبتان انتخبته لك من بين أطايب كلام أهل العلم أضعه بين يديك لتشهد على صاحبه بالإحسان أو التقصير.

ولقد تقرر في القواعد أن عمل البشر مناطه النقص؛ لأنهم ناقصون في ذواتهم وصفاتهم، والمعصوم من عصمه الله تعالى، ويبعد جدًّا ألاَّ نجد عيبًا أو خللًا، فإن تجد عيبًا فسُدّ الخللا فجَلّ من لا عيب فيه وعلا، وانظر فيه بعين المحب المشفق الناصح المستفيد المفيد، لا بعين الناقد الذي همه إخراج الخطأ والبحث عن الزلة.

والله أعلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.





الباب الأول: معنى الإيمان بالله جل جلاله

وبه مطلبان:

المطلب الأول: معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله وفضلها وشروطها، وبه أربعة مباحث:

المبحث الأول: معنى لفظ الجلالة «الله»، وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: معنى كلمة «الإله».

الفصل الثاني: أصل لفظ الجلالة «الله».

الفصل الثالث: معنى لفظ الجلالة «الله» والاشتقاقات التي يرجع إليها.

الفصل الرابع: سبب تسمية الأصنام آلهة.

المبحث الثاني: معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله، وبه فصلان:

الفصل الأول: معنى لا إله إلا الله.

الفصل الثاني: معنى محمد رسول الله.

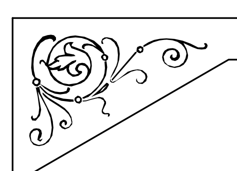
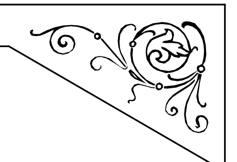
المبحث الثالث: فضل كلمة لا إله إلا الله، وبه فصلان:

الفصل الأول: ما ورد في فضل: «لا إله إلا الله» والتنويه إليها في آيات القرأن الكريم.







المطلب الأول:
معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله وفضلها وشروطها

وبه أربعة مباحث:

المبحث الأول: معنى لفظ الجلالة «الله»

وبه أربعة فصول:

الفصل الأول: معنى كلمة «الإله»

«الله» عَلَم على الذات الواجب الوجود.

اسم «الله»: علم على الذات الواجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، فهو اسم للموجود الحق الواجب الوجود المستحق للعبادة[1].

وهذا الاسم أعظم أسمائه سبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء: إنه اسم الله الأعظم. ولم يَتَسَمَّ به غيره ولذلك لم يُثنَّ ولم يُجمع، وهو أحد تأويلي قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: الآية ٦٥]، أي: هل تعلم من

(١) انظر: «تاج العروس» (٩/ ٣٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٠٢)، و«التنبيهات السنية» (ص٤).

تسمى باسمه الذي هو «الله».

ولأن اسم الله علم دال على الإله الحق دلالة جامعة لجميع الأسماء الحسنى، فهو يوصف بجميع الصفات ولا يوصف به غيره؛ لأنه الغاية لجميع الأسماء، فكل اسم بعده لا يتعرف إلا به كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

ولذلك نقول مثلًا: الله هو السلام المؤمن المهيمن الرحمن الرحيم القابض الباسط، ولا نقول: السلام المؤمن المهيمن الرحمن الرحيم القابض الباسط الله؛ لأن لفظ (الله) يُعرِّف غيره وغيره لا يُعرفه[1].

قال الزمخشري: «فإن قلت: أسم هو أم صفة؟ قلت: بل اسم غير صفة، ألا تراك تصفه ولا تصف به ولا تقول: (شيء إله) كما لا تقول: (شيء رجل)، وتقول: (إله واحد صمد) كما تقول: (رجل كريم خير).

وأيضًا: فإن صفاته تعالى لا بد لها من موصوف تجري عليه، فلو جعلتها كلها صفات بقيت غير جارية على اسم موصوف بها وهذا محال»[2][3].

(١) انظر: «الدين الخالص» (١/ ٦٧).

(٢) «تفسير الكشاف» (١/ ٣٧).

(٣) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» (ص: ٧١).

الفصل الثاني: أصل لفظ الجلالة «الله»

اختلف النحاة في لفظ الجلالة هل هو موضوع للذات علم فيكون اسمًا جامدًا، أو هو مشتق وله أصل في اللغة؟

أولًا: ذهب الشافعي والخطابي والغزالي والمفضل وغيرهم إلى أن لفظ الجلالة «الله» اسم جامد غير مشتق من شيء البتة؛ لأنه علم لزمته الألف واللام ولا يجوز حذفهما منه[(١)].

قال الرازي: وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء، وقال الخليل: لا تطرح الألف من لفظ الجلالة فإنما هو الله عز ذكره على التمام، فليس هو من الأسماء التي يجوز اشتقاق فعل منها كما يجوز في الرحمن الرحيم[(٢)].

وقد استدل أصحاب هذا الرأي بأدلة، منها:

١- أن لفظ الجلالة لو كان مشتقًّا لاشترك في معناه كثيرون.

٢- أن بقية الأسماء تُذكر صفات له فنقول: الله الرحمن الرحيم الملك القدوس، فدل على أنه ليس بمشتق، فأما قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]، على قراءة الجر فذلك من باب عطف البيان.

٣- قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: الآية ٦٥]، فدل على أن لفظ الجلالة اسم جامد غير مشتق.

قال ابن كثير: وفي الاستدلال بها على كون الاسم جامدًا نظر.

---

(١) انظر: «المصباح المنير» (١/ ٢٤).

(٢) انظر: «لسان العرب» (١٣/ ٤٦٧).

٤- أن الألف واللام من بنية هذا الاسم ولم يدخلا للتعريف؛ لدخول حرف النداء عليه، كقولك: (يا ألله) وحروف النداء لا تجتمع مع (أل) التعريف، ألا ترى أنهما من بنية الاسم وأنه اسم جامد غير مشتق[١].

٥- قال السهيلي وشيخه أبو بكر ابن العربي: إن اسم «الله» غير مشتق؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يُشتق منها، واسمه تعالى قديم فيستحيل الاشتقاق[٢].

ثانيًا: قال سيبويه: وأكثر أهل العلم أن لفظ الجلالة «الله» مشتق وله أصل في اللغة، وهو الأصح لقراءة ابن عباس رضي الله عنهما: «ويذرك وإلاهتك» لأن فرعون كان يُعبد ولا يَعبد.

ولفظ الجلالة «الله» أصله «إلاه» دخلت عليه الألف واللام فبقي الإلاه ثم نُقلت حركة الهمزة التي هي فاء الاسم إلى اللام وأسقطت الهمزة فبقي «ألِلَاه» فالتقت اللام التي هي عين الاسم واللام الزائدة التي دخلت مع الألف الزائدة فأسكنت اللام الأولى التي هي فاء الاسم ثم أدغمت في اللام الأخرى التي هي عين الاسم فصارتا في اللفظ لامًا واحدة مشددة، فقالوا: (الله) بالتفخيم، والتفخيم بلفظ الجلالة «الله» للتعظيم لكنها ترقق مع كسر ما قبلها[٣].

وهذا القول بأن أصل لفظ الجلالة «الله» هو «إلاه» قال به الخليل

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١/ ١٠٣).

(٢) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص١٤).

(٣) انظر: «تاج العروس» (٩/ ٣٧٤)، و«لسان العرب» (٣/ ٣٦٧)، و«المصباح المنير» (١/ ٢٤)، و«تفسير الطبري» (١/ ٥٤)، ومخطوطة «سفر السعادة وسفير الإفادة» للسخاوي الهمداني (١/ ٤).

والكسائي والفراء، حيث قالوا: إن أصل لفظ الجلالة «الله» هو «إلاهٌ» مثل فِعال فحذفوا الهمزة وأدخلوا بدلها الألف واللام.

قال سيبويه: ونظيره (الناس) أصله (أُناس)؛ ولذلك قيل في النداء: (يا ألله) بالقطع كما يقال: يا إله[1].

وقد مثل الكسائي لهذا الحذف والإدغام في لفظ الجلالة بقوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٨]، فأصله لكن أنا. ثم إن العرب لما سمعوا (اللهم) جرت في كلام الخلق توهموا أنه إذا ألقيت الألف واللام من لفظ الجلالة كان الباقي «لاه» فقالوا: لاهمّ. وأنشدوا:

لاهمَّ أنت تجبر الكسيرا   أنت وهبت جلة جُرجُورا

واستدل أبو الهيثم بأن أصل لفظ الجلالة «إلاه» بقوله تعالى:

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: الآية ٩١].

وأما بالنسبة لتفخيم لفظ الجلالة «الله» فقد ذكر الزمخشري عن الزجاج أن العرب كلهم على ذلك، وإطباقهم عليه دليل على أنهم ورثوه كابرًا عن كابر[2].

وقيل: إن أصل الكلمة «لاه» وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم فصار «الله» ومنه قول الشاعر:

لاهِ ابنُ عمك لا أفضلت في حسبٍ   عني ولا أنت دياني فتخزوني

أي: تسوسني[3].

---

(١) انظر: «تفسير الكشاف» (١/ ٣٦).

(٢) «تفسير الكشاف» (١/ ٤٠).

(٣) «تفسير القرطبي» (١/ ١٠٢).

وقد رد ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ على القائلين بأن لفظ الجلالة جامد غير مشتق وليس له أصل في اللغة، فبَيَّن أنه ليس مراد القائلين بالاشتقاق أن هناك مادة لغوية تسبق هذا الاسم فاشتق منها؛ لأن اسم الله تعالى قديم وليس مستمدًّا من أصل آخر، ومَن اعتقد هذا منهم فاعتقاده باطل، والحق أنهم لم يريدوا هذا المعنى ولا ألمّ بقلوبهم، وإنما أرداوا أنه دال على صفة له تعالى، وهي صفة الإلهية كسائر أسمائه الحسنى كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير، فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب وهي قديمة، والقديم لا مادة له ولا شيء قبله، ومعنى اشتقاقها أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منه تولد الفرع من أصله، وتسمية النحاة للمصدر المشتق منه أصلًا وفرعًا ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر، وإنما باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة؛ لأن معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعدًا معنى واحد[١].

ويرد الطبري كذلك فيقول: «فإن قال قائل: فهل لذلك في فعل ويفعل أصل كان منه بناء هذا الاسم؟ قيل: أما سماعًا من العرب فلا ولكن استدلالًا، فإن قال: وما دل على أن الألوهية هي العبادة وأن الإله هو المعبود وأن له أصلًا في فعل ويفعل؟ قيل: لا تمانع بين العرب في الحكم لقول القائل يصف رجلًا بعبادة ويطلب مما عند الله جل ذكره: تأله فلان»[٢][٣].

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص١٤)، و«بدائع الفوائد» (١/ ٢٢).

(٢) «تفسير الطبري» (١/ ٥٤).

(٣) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» (ص: ٧٥).

الفصل الثالث: معنى لفظ الجلالة «الله» والاشتقاقات التي يرجع إليها

أجمع العلماء على أن الهمزة واللام والهاء أصل واحد في الكلمة[١]، وقد وردت في كتبهم عدة معانٍ للفظ الجلالة والأصل الذي اشتق منه نجملها فيما يلي:

١- قال بعضهم: هو مشتق من (ألِهَ يألَهُ) على وزن (تَعِب يتعَبُ)، أي: عَبَد يَعْبُد، والإلاهة: العبادة، يقال: ألِه الرجل وتَألَّه: إذا تَعَبَّد.

فالإله: هو المبعود. والتأليه: التعبيد. والتأله: التعبد والتنسك. ومنه قول رؤبة بن العجاج:

لله دَرُّ الغانيات المُدَّهِ سبحن واسترجعن من تألهي

أي: من تعبدي. والتأله: التفعل من أله يَأْلَهُ، و«أَلِه إلاهةً» بالكسر، و«أُلوهة وأُلوهية» بالضم معناه: عبد عبادة، ومنه قراءة ابن عباس: «ويذرك وإلاهتك» بكسر الهمزة: أي يتركك ويترك عبادتك.

قال الطبري: «ولا شك أن الإلاهة على ما فسره ابن عباس ومجاهد - مصدر من قول القائل: ألِه اللهَ فلانٌ إلاهةً، كما يقال: عَبَد اللهَ فلانٌ عبادة. وعَبَر الرؤيا عِبارة» فقد بَيَّن تفسيرهما: أن أله عبد وأن الإلاهةَ مصدره[٢].

---

(١) **قال في «المصباح المنير»:** قال أبو حاتم: وبعض العامة يقول: لا «والله» فيحذف الألف ولا بد من إثباتها في اللفظ، وهذا كما كتبوا (الرحمن) بغير ألف ولا بد من إثباتها في اللفظ، واسم الله تعالى يجل أن يُنطق به إلا على أجمل الوجوه. قال: وقد وضع بعض الناس بيتًا حذف فيه الألف، فلا جُزي خيرًا، وهذا خطأ، ولا يعرف أئمة اللسان هذا الحذف، ويقال في الدعاء: «اللهم، ولاهمّ».

(٢) «تفسير الطبري» (١/ ٥٤)، والمخطوطة السابقة (ص٥-٦).

مما سبق يتبين لنا أن معنى لفظ الجلالة «الله» أنه المقصود بالعبادة، ومنه قول الموحدين: (لا إله إلا الله): أي: لا معبود غير الله، ولفظ (إلا) في كلمة التوحيد بمعنى (غير) لا بمعنى الاستثناء[١].

فالإله: هو المعبود وهو الله سبحانه، وهو على وزن (فِعال) بمعنى مفعول مثل كتاب بمعنى مكتوب وبساط بمعنى مبسوط.

فالإله إذن على معنى ما رُوي عن ابن عباس: «هو الذي يألهه كل شيء ويعبده كل خلق، والله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين»[٢].

٢- وقال بعضهم: إن اسم الباري سبحانه مأخوذ من (أَلِهَ يَأْلَه) إذا تحير، وأصله (وَلِهَ يَوْلَهُ وَلَهًا) على وزن (تَعِبَ يَتْعَبُ تَعَبًا)، والوَلَهُ: ذَهاب العقل، يقال: رجل واله وامرأة والهة ووالِه. وماء مُولَه أو ماء مُولَّه: إذا أُرسل في الصحراء.

فالله ﷻ تتحير الألباب والفكر في حقائق صفاته ومعرفته، وعلى هذا فأصل كلمة (إله): (ولاه) وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت في إشاح ووشاح وإسادة ووسادة، فأصل الكلمة منتظمة معنى التحير والدهشة، ويقال: ألهت على فلان، واشتد جزعي عليه مثل ولهت[٣]. وقد أنكر أبو الحسين ابن فارس هذا المعنى واعتبر أن قولهم في التحير: (أله يأله) ليس من الباب لأن الهمزة واو، وعنده أن الشمس تسمى الإلاهة لأن قومًا كانوا يعبدونها ومنه قول شاعرهم:

فبادرنا الإلاهة أن تؤوبا[٤]

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١/ ١٠٣).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٥٤).

(٣) انظر: «لسان العرب» (١٣/ ٣٦٧)، والقرطبي (١/ ١٠٣)، وابن كثير (١/ ١٩).

(٤) انظر: «معجم مقاييس اللغة» (١/ ١٢٧).

٣- وقال بعضهم: إن لفظ الجلالة مأخوذ من أله يأله إلى كذا: أي لجأ إليه، فيقال: أله الرجل إلى الرجل: إذا فزع إليه من أمر نزل به فألهه، أي أجاره، ورُوي عن الضحاك أنه قال: إنما سُمي الله إلهًا لأن الخلق يتألهون إليه في حوائجهم ويتضرعون إليه عند شدائدهم، وذكر عن الخليل بن أحمد أنه قال: لأن الخلق يألَهون إليه «بنصب اللام» ويألهون أيضًا «بكسرها» وهما لغتان[(١)].

فيكون معنى لفظ الجلالة على هذا الاشتقاق هو مَن يُفزع إليه في النوائب لأنه المجير لجميع الخلائق من كل المضار، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: الآية ٨٨]، وهو وحده المنعم بجميع النعم كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: الآية ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: الآية ٦٢]، وهو وحده المطعم الرازق كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: الآية ١٤].

٤- وقال بعضهم: إن لفظ (الإله) مشتق من «لاه يليه ويلوه لِيهًا» إذا احتجب[(٢)]. فلفظ الجلالة يتضمن معنى الاحتجاب، كما قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

٥- وقال الرازي: إنه مشتق من ألِهتُ «إلى فلان» أي: سكنت إليه، فالقلوب لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته، والنفوس لا تطمئن إلا بالتقرب إليه، فكل شيء تخافه فتهرب منه، ومن خاف الله تقرب

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١/ ١٠٣)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٩)، والمخطوط السابقة (ص٥).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١٩).

إليه فيحصل له الاطمئنان والسكون[١]، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: الآية ٢٨].

٦- وقيل: إنه مشتق من «أَلِه الرجل إلى الرجل» إذا اتجه إليه لشدة شوقه إليه، ومنه «أَلِه الفصيل بأمه» إذا أولع بأمه.

وعلى هذا فيكون لفظ الجلالة متضمنًا لمعنى أن العباد يتوجهون إليه وحده ﷻ، والمعنى كما قال ابن كثير: إن العباد مألوهون: أي: مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧][٢].

٧- وقيل: إنه مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لاها، وإذا طلعت الشمس يقولون: لاهت[٣].

وعلى هذا يتضمن لفظ الجلالة معنى العلو والارتفاع.

وقد رجح جماعة من العلماء القول الأول وأن لفظ الجلالة «الله» مشتق من (أَلِه يأْلَه) إذا عبد، فهو إله بمعنى مألوه، أي معبود، وكل الاشتقاقات والمعاني الأخرى تدخل تحت هذا المعنى الأول، فهو متضمن لها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذ الإله هو الذي يُؤْله فيُعبد محبة وإنابة وإجلالًا وإكرامًا، فالإله من يستحق أن يألهه العباد، ويدخل فيه حبه وخوفه، فما كان من توابع الألوهية فهو حق الله محض»[٤].

وفي معرض الرد على من زعم أن الإله بمعنى الفاعل، فهو القادر على الاختراع،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١٩).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (١/ ١٠٣).

(٤) «الفتاوى» (١/ ٢٢).

والإلهية هي القدرة، يقول رَحِمَهُ اللهُ: «والإله» هو المألوه، أي المستحق لأن يُؤْلَه، أي يُعبد، ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده، وكل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل.

وقد غلط طائفة من أهل الكلام فظنوا أن الإله بمعنى الفاعل وجعلوا الإلهية هي القدرة والربوبية، فالإله هو القادر وهو الرب، وجعلوا العباد مألوهين كما أنهم مربوبون، يقول ابن عربي: الأعيان ثابتة في العدم ووجود الحق فاض عليها. فلهذا قال: فنحن جعلناه بمألوهيتنا إلهًا. فزعم أن المخلوقات جعلت إلهًا لها حيث كانوا مألوهين، ومعنى مألوهين عنده مربوبين، وكونهم مألوهين حيث كانت أعيانهم ثابتة في العدم، وفي كلامهم من هذا وأمثاله مما فيه تنقص بالربوبية ما لا يحصى»[١].

وقال كذلك: «وليس المراد بالإله هو القادر على الاختراع، كما ظنه من ظنه من أئمة المتكلمين، حيث ظن أن الإلهية هي القدرة على الاختراع دون غيره، وأن مَن أقر بأن الله هو القادر على الاختراع فقد شهد بأن لا إله إلا هو، فإن المشركين كانوا يُقرون بهذا وهم مشركون... بل الإله الحق هو الذي يستحق أن يُعبد، فهو إله بمعنى مألوه.. والتوحيد أن يُعبد الله وحده لا شريك له، والإشراك أن يجعل مع الله إلهًا آخر»[٢].



(١) «الفتاوى» (١٣/ ٢٠٣).

(٢) «الفتاوى» (١٣/ ١٠١).

الفصل الرابع: سبب تسمية الأصنام آلهة

قلنا: إن لفظ الجلالة «الله» أصله «إله» فحذفت همزته وأدخل عليه الألف واللام فخص بالباري تعالى، ولاختصاصه به سبحانه قال تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، ولفظ (الإله) اسم من أسماء الأجناس كالرجل والفرس، فهو اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل ثم غلب على المعبود بحق، كما أن النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا، وكذلك السنة اسم لكل عام ثم غلبت على عام القحط، وغلب اسم البيت على الكعبة[١].

فكل ما اتخذه المشركون معبودًا من دون الله، فهو إله عندهم، وجمعه آلهة، والآلهة: الأصنام، سميت بذلك لاعتقاد المشركين أنها تستحق العبادة، وأسماؤها تتبع اعتقاداتهم فيها لا ما هي عليه في نفس الأمر وحقيقته[٢].

فكون هذه الأصنام أُطلق عليها اسم الآلهة، وعُبدت من دون الله ﷻ - لا يغير من حقيقتها شيئًا وأنها مخلوقة، ولا تكون آلهة حقيقة؛ لأن الإله الحق لا يكون معبودًا بحق حتى يكون لعابده خالقًا ورازقًا ومدبرًا له، وعليه مقتدرًا، فمن لم يكن كذلك كالأصنام وغيرها فليس بإله على الحقيقة، وإطلاقهم اسم الآلهة عليها إنما هو من حيث المعاني والاعتقادات، ومن حيث أنهم خصوها ببعض صور العبادة التي هي حق الله تعالى، ومن حيث إنهم كانوا يرجون شفاعتها ويعتقدون فيها النفع والضر كما قال تعالى عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر الآية ٣]. وغير ذلك مما كان من

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٦).

(٢) انظر: «لسان العرب» (١٣/ ٤٦٧).

توابع الألوهية وهو حق محض لله تعالى؛ لأنه هو سبحانه المستحق لجميع صفات الكمال والمنزه عن جميع صفات النقص، فلا يستحق أن يكون معبودًا محبوبًا لذاته إلا هو تعالى، فعبادة غيره وحب غيره موجب للفساد كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢][١].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **حول قوله تعالى:** ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [يوسف: الآية ٤٠]:

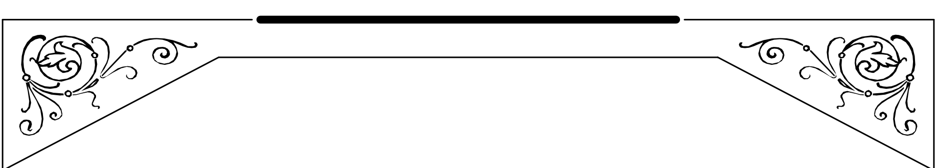
«ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة كاللات والعزى وهي مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها في الحقيقة، فإنهم سموها آلهة وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الإلهية لها، وليس لها من الإلهية إلا مجرد الأسماء لا حقيقة المسمى، فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها، وهذا كمن سمى قشور البصل لحمًا وأكلها، فيقال: ما أكلت من اللحم إلا اسمه لا مسماه، وكمن سمى التراب خبزًا وأكله، فيقال: ما أكلت إلا اسم الخبز، بل هذا النفي أبلغ في نفي الإلهية عن آلهتهم فإنه لا حقيقة لإلهيتها بوجه، وما الحكمة ثَمَّ إلا مجرد الاسم»[٢].



---

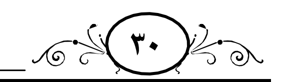
(١) انظر: «لسان العرب» (١٣/ ٤٦٧)، و«التنبيهات السنية» (ص٤).

(٢) «التفسير القيم» (ص٤٨١).



المبحث الثاني: معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله

وبه فصلان:



الفصل الأول: معنى لا إله إلا الله

اعلم رحمك الله أنّ هذه الكلمة هي الفارقة بين الكفر والإسلام، وهي كلمة التقوى، وهي العروة الوثقى، وهي التي جعلها إبراهيم عليه السلام كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون.

وليس المراد قولها باللسان مع الجهل بمعناها، فإنّ المنافقين يقولونها وهم تحت الكفار في الدّرك الأسفل من النار، مع كونهم يُصلون ويتصدقون، ولكن المراد قولها مع معرفتها بالقلب ومحبتها ومحبة أهلها وبغض ما خالفها ومعاداته، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**من قال لا إله إلاّ الله مخلصًا**»، وفي رواية: «**خالصًا من قلبه**»، وفي رواية: «**صادقًا من قلبه**» وفي حديث آخر: «**من قال: لا إله إلاّ الله وكفر بما يُعبد من دون الله**»، إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على جهالة أكثر الناس بهذه الشهادة.

فاعلم أن هذه الكلمة نفي وإثبات: نفي الإلهية عمّا سوى الله تعالى من المخلوقات، حتى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وجبرائيل، فضلًا عن غيرهم من الأولياء والصالحين.

إذا فهمت ذلك فتأمل هذه الألوهية التي أثبتها الله لنفسه، ونفاها عن

محمد وجبرائيل وغيرهما، أن يكون لهم مثقال حبة من خردل، فاعلم أنّ هذه الألوهية هي التي تسميها العامة في زماننا السر والولاية، والإله معناه الولي الذي فيه السرّ، وهو الذي يسمونه الفقير والشيخ، وتسميه العامة السيد وأشباه هذا، وذلك أنهم يظنون أنّ الله جعل لخواص الخلق منزلة، يرضى أنّ الإنسان يلتجئ إليهم ويرجوهم ويستغيث بهم ويجعلهم واسطة بينه وبين الله، فالذي يزعم أهل الشرك في زماننا أنهم وسائطهم وهم الذين يسميهم الأولون (الآلهة)، والواسطة هو الإله، فقول الرجل لا إله إلاّ الله، إبطال الوسائط.

فإذا أردت أن تعرف هذا معرفة تامة، فذلك بأمرين:

الأول: أن تعرف أنّ الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقتلهم ونهب أموالهم، واستحلّ نساءهم - كانوا مقرين لله سبحانه، بتوحيد الربوبية، وهو أنه لا يخلق، ولا يرزق، ولا يحيي، ولا يميت، ولا يدبّر الأمور إلاّ الله وحده، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: الآية ٣١].

وهذه مسألة عظيمة مهمة، وهي أن تعرف أنّ الكفار شاهدون بهذا كله ومقرّون به، ومع ذلك لم يُدخلهم ذلك في الإسلام ولم يحرم دماءهم ولا أموالهم، وكانوا أيضًا يتصدّقون ويحجون ويعتمرون ويتعبّدون ويتركون أشياء من المحرمات خوفًا من الله ﷻ، الثاني هو الذي كفّرهم وأحلّ دماءهم وأموالهم، وهو أنهم لم يشهدوا لله بتوحيد الألوهية، وهو أنه لا يُدعى ولا يُرجى إلاّ الله وحده لا شريك له ولا يُستغاث بغيره ولا يُذبح لغيره ولا يُنذر لغيره، لا لملَك مقرّب ولا نبي مرسل، فمن استغاث بغيره فقد

كفر، ومن ذبح لغيره فقد كفر، ومن نذر لغيره فقد كفر... وأشباه ذلك.

وتمام هذا، أن تعرف أنّ المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يدعون الصالحين مثل الملائكة وعيسى وعُزير وغيرهم من الأولياء، فكفروا بهذا مع إقرارهم بأنّ الله هو الخالق الرازق المدبّر.

وإذا عرفت هذا عرفت معنى لا إله إلاّ الله، وعرفت أن من دعا نبيًّا أو ملكًا أو ندبه أو استغاث به فقد خرج من الإسلام، وهذا هو الكفر الذي قاتلهم عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فإن قال قائل من المشركين: نحن نعرف أنّ الله هو الخالق الرازق المدبّر، يمكن هؤلاء الصالحين أن يكونوا مقرّبين ونحن ندعوهم وننذر لهم وندخل عليهم ونستغيث بهم ونريد بذلك الوجاهة والشفاعة، وإلاّ نحن نفهم أنّ الله هو الخالق المدبّر.

فقل: كلامك هذا مذهب أبي جهل وأمثاله، فإنّهم يدعون عيسى وعزيرًا والملائكة والأولياء يريدون ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: الآية ٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨].

فإذا تأمّلت هذا تأملًا جيدًا، عرفت أنّ الكفار يشهدون لله بتوحيد الربوبية، وهو تفرده بالخلق والرزق والتدبير، وهم ينخون عيسى والملائكة والأولياء يقصدون أنهم يقرّبونهم إلى الله ويشفعون عنده.

وعرفت أنّ من الكفار - خصوصًا النصارى منهم - من يعبد الله الليل والنهار، ويزهد في الدنيا، ويتصدق بما دخل عليه منها، معتزل في صومعة عن الناس، ومع هذا: كافر عدو لله.. مخلّد في النار، بسبب اعتقاده في

عيسى أو غيره من الأولياء، يدعوه أو يذبح له أو ينذر له.

وتبيّن لك كيف صفة الإسلام، الذي دعا إليه نبيك صلى الله عليه وآله وسلم، وتبين لك أن كثيرًا من الناس عنه بمعزل، وتبين لك معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ**».

فالله الله يا إخواني، تمسّكوا بأصل دينكم، وأوله وآخره وأسّه ورأسه: شهادة أن لا إله إلاّ الله.. واعرفوا معناها، وأحبّوها وأحبوا أهلها، واجعلوهم إخوانكم ولو كانوا بعيدين، واكفروا بالطواغيت وعادوهم وأبغضوهم، وأبغضوا من أحبّهم أو جادل عنهم أو لم يكفّرهم أو قال: (ما عليّ منهم) أو قال: (ما كلّفني الله بهم)، فقد كَذَب هذا على الله وافترى، فقد كلّفه الله بهم وافترض عليه الكفر بهم والبراءة منهم ولو كانوا إخوانهم أو أولادهم.

فالله الله، تمسّكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئًا، اللهم توفّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين.

ولنختم الكلام بآية ذكرها الله في كتابه، تبيّن لك أن كفر المشركين من أهل زماننا أعظم كفرًا من الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ [الإسراء: ٦٧].

فقد سمعتم أنّ الله سبحانه ذكر عن الكفار أنهم إذا مسّهم الضرّ تركوا السادة والمشائخ ولم يستغيثوا بهم، بل أخلصوا لله وحده لا شريك له واستغاثوا به وحده، فإن جاء الرخاء أشركوا. وأنت ترى المشركين من أهل زماننا ولعل بعضهم يدّعي أنه من أهل العلم وفيه زهد واجتهاد وعبادة، إذا مسّه الضرّ قد يستغيث بغير الله؛ مثل معروف أو عبد القادر الجيلاني،

وأجلّ من هؤلاء مثل زيد بن الخطاب والزبير، وأجلّ من هؤلاء مثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. والله المستعان... وأعظم من ذلك وزرًا أنّهم يستغيثون بالطواغيت والكفرة والمردة، مثل شمسان وإدريس ويونس وأمثالهم. والله سبحانه أعلم.

والحمد لله أولًا وآخرًا وصلى الله على خير خلقه محمد وآله أجمعين[(١)].

الفصل الثاني: معنى محمد رسول الله

أما حقيقة شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ فهي متضمنة لأمور، رأسها وأساسها الإيمان به، وذلك بالإيمان واليقين التام بأنه رسول الله حقًّا ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] وأن رسالته عامة للبشر، عربهم وعجمهم، يقول الله - سبحانه-: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: الآية ١٥٨] ويقول ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: الآية ٢٨].

ويقول ﷺ: «**وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة**»[(٢)] متفق عليه، ويقول أيضًا ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[(٣)].

بل رسالته ﷺ تعم الجن أيضًا: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ إلى قوله

---

(١) «معنى لا إله إلا الله» لمحمد بن عبد الوهاب (ص: ١ - بترقيم الشاملة آليًّا).

(٢) البخاري (١/ ٨٦)، واللفظ له، ومسلم (١/ ٣٧٠، ٣٧١) رقم الحديث (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) مسلم (١/ ١٣٤) رقم الحديث (١٥٣).

تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢].

ومن الإيمان به: الإيمان بأنه ﷺ عبد لا يعبد، ورسول لا يكذب.

ومن الإيمان به: الإيمان بأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن كتابه القرآن الكريم هو آخر الكتب المنزلة المهيمن عليها، وشريعته ناسخة للشرائع قبلها، يقول ﷻ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية [الأحزاب: الآية ٤٠]، ويقول ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧] ويقول – سبحانه –: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: الآية ٨٥].

وقد أجمع المسلمون على ذلك، وهو عندهم من العقائد الثابتة بيقين.

والإيمان بالرسول ﷺ قد جاءت به الآيات صريحة قاطعة للمعذرة، يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ﴾ [النساء: الآية ١٧٠] ويقول – سبحانه –: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٨] ويقول – سبحانه –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

بل إن الله أخذ ميثاق النبيين على الإيمان بمحمد ﷺ ونصرته، فلا يسع

أحدًا منهم لو كان حيًّا وقت بعثته ﷺ إلا اتباعه، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: الآية ٨١].

ومن حقيقة شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والاستجابة لدعوته ﷺ. فقد جعل الله طاعة الرسول طاعة له سبحانه، وقرن طاعته بطاعة الرسول في أكثر من موضع في كتابه، يقول ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ [النساء: الآية ٨٠] ويقول - سبحانه -: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ﴾ [النور: ٥٤] ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ [النساء: الآية ٥٩].

وعلق ﷻ الهداية على طاعته ﷺ فقال - سبحانه -: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ﴾ [النور: الآية ٥٤].

وجعل مَن حقق طاعته وطاعة رسوله في زمرة أشرف الخلق فقال ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: الآية ٦٩].

بل علق الفوز العظيم، ألا وهو دخول الجنات على طاعته سبحانه وطاعة رسوله، قال - سبحانه -: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: الآية ١٣].

وأما تصديق خبره فهو حقيقة الشهادة، ولا تتم الشهادة إلا بتصديقه، وإلا كان كاذبًا منافقًا، وقد أثنى الله على المسلمين بتصديقهم النبي ﷺ فقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣].

قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد: الذي جاء بالصدق هو

الرسول ﷺ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ هو رسول الله ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ قال: المسلمون.

وقد ذم الله من كفر بالرسول ﷺ وتوعده بأشد العذاب، قال تعالى: ﴿۞ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِى جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزمر: ٣٢] وقال في سورة المدثر فيمن كَذَّب خبر الرسول ﷺ فيما جاء به من القرآن - يقول الله ﷻ: ﴿ذَرۡنِى وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالًا مَّمۡدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ١١- ٢٦].

بل إن سنة الله فيمن كَذَّب رسله ماضية في نزول العذاب والهوان بهم، يقول الله - سبحانه -: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: الآية ١٤] ويقول - سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٤٤].

ودليل الاستجابة لدعوته ﷺ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤].

فأمر بالاستجابة للرسول ﷺ، وقرنها بالاستجابة لله ﷻ، وسمى ما يدعو إليه ﷺ حياة؛ لما فيه من نجاتهم وبقائهم، وحياتهم بالإسلام بعد موتهم بالكفر.

وحَذَّر من عدم الاستجابة للرسول ﷺ فقال - سبحانه -: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: الآية ٥٠].

ومن حقيقة شهادة أن محمدًا رسول الله: محبته ﷺ ونصرته وموالاته وتعظيمه، وبعد وفاته ﷺ تكون النصرة لسنته ﷺ.

فدليل محبته ﷺ قوله ﷺ: «**فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده**»(١) وفي حديث أنس عنه ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»(٢) متفق عليه. وقوله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...**» الحديث(٣).

وتوعد الله - سبحانه - مَن قَدَّم محبة أحد - كائنًا من كان -على محبة الله ورسوله، فقال - سبحانه -: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: الآية ٢٤].

ولما قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه وأرضاه - لرسول الله ﷺ: والله يا رسول الله، لأنت يا رسول الله أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي. قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون عنده أحب إليه من نفسه**». قال عمر: فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي. فقال رسول الله ﷺ: «**الآن يا عمر**»(٤).

---

(١) البخاري (١/ ٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسلم (١/ ٦٧) رقم الحديث (٤٤) (٧٠).

(٣) البخاري (١/ ٩، ١٠)، و(٨/ ٥٦)، واللفظ له، ومسلم (١/ ٦٦) رقم الحديث (٤٣) (٦٧، ٦٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أحمد (٤/ ٣٣٦)، واللفظ له، والبخاري (٧/ ٢١٨).

ودليل النصرة والتعظيم قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقوله – سبحانه–: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: الآية ٩] وقوله – سبحانه –: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١].

ووَصَف طائفة من المؤمنين، وأثنى عليهم بقوله – سبحانه –: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: الآية ٨] ويقول – سبحانه –: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] ويقول – سبحانه –: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

ودليل الولاية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

ومما يدخل في حقيقة هذه الشهادة العظيمة: التسليم له ﷺ، وتحكيم شرعه، والتحاكم إليه، والرضا به.

والدليل قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء: ٩٥].

وقوله – سبحانه – في صفة المؤمنين مثنيًا عليهم ومشيدًا بهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١].

وقوله - سبحانه - واصفًا المنافقين الذين يُظهرون خلاف ما يُبطنون: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٤٧- ٥٠].

وقوله - سبحانه - أيضًا فاضحًا أمرهم، مشددًا في ترك طريقهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

فتحكيم شرع الله ﷻ وما جاء به الرسول ﷺ في كل صغيرة وكبيرة: الأفراد على أنفسهم، وكذلك الحكام وولاة الأمر على رعاياهم ومَن تحت أيديهم - واجب فرض متحتم، لا محيد عنه لمؤمن مسلم، بل هو من حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

ومن حقيقة هذه الشهادة العظيمة - شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ: الاقتداء والتأسي به ﷺ، واتباع سنته، والرد إليه في حياته عند التنازع، وإلى سنته بعد وفاته ﷺ، وتقديم سنته على رأي كل أحد كائنًا من كان، والحذر من مخالفته ومشاقته ومحادته ﷺ.

يقول الله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١] ويقول ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: ٧].

ولما ادعى أقوام محبة الله - سبحانه - أنزل آية الامتحان في سورة آل

عمران، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

ويقول أيضًا - جل وعلا -: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات: ١] ويقول ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقال ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء! أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!

وقال الشافعي رحمه الله: أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد.

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك. اهـ.

هذا قول أحمد فيمن اتبع رأي سفيان، وهو: الثوري، الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه، إذا كان رأيه يخالف الحديث، فكيف بمن هو دونه؟!

ويقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥] ويقول - سبحانه -: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

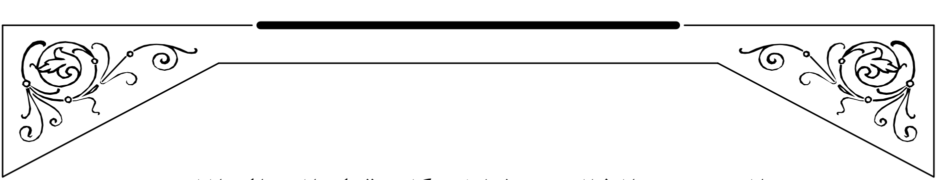
فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال: ١٣] ويقول ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة: ٦٣].

هذه هي حقيقة شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ بشيء من التفصيل والبيان.

وقد أجملها بعض أهل العلم – وهو الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله – فقال في معناها: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع[1].



(١) «حقيقة شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ» (ص: ٦٠).



المبحث الثالث: فضل كلمة لا إله إلا الله

وبه فصلان:

الفصل الأول: ما ورد في فضل: «لا إله إلا الله» والتنويه إليها في آيات القرآن الكريم

اعلم أن كلمة «لا إله إلا الله» لها فضائل أشهر من أن تُذكر، وأكثر من أن تُحصر، قد نطقت بذلك الآيات الكثيرة، والأحاديث الشهيرة.

فهي القطب الذي يدور عليه رحى الإسلام، والقاعدة التي يبنى عليها أركان الدين، وهي أعلى شعب الإيمان.

وما من علم من علوم الغيب والشهادة إلا وهو منتظم في سلك «لا إله إلا الله»، فجميع العلوم فروع لعلم: «لا إله إلا الله».

ولهذا اكتفى سبحانه وتعالى بتعليمها للنبي ﷺ إجمالًا بهذا اللفظ الموجز، وتفصيلًا بأن أطلعه الله تعالى على ما احتوت عليه من العلوم والأسرار، فقال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

رُوي أن عيسى عليه السلام قال: يا رب أنبئني عن هذه الأمّة المرحومة. قال: «أمّة أحمد، هم علماء حكماء كأنهم أنبياء؛ يَرضون مني بالقليل من العطاء، وأرضى منهم باليسير من العمل، وأُدخلهم الجنّة بلا إله إلا الله. يا عيسى هم أكثر سكّان الجنّة؛ لأنه لم تذلّ ألسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلّت

ألسنتهم، ولم تذلّ رقاب قوم قط بالسجود كما ذلّت به رقابهم»[(١)].

وقد ورد في فضلها والتنويه إليها آيات كثيرة تفوق الحصر، منها:

١ - أنها كلمة التوحيد التي شهد الله تعالى بها لنفسه فقال تبارك وتعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]. وشهد له بها ملائكته وأولو العلم من خلقه. فقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

٢ - وهي أعظم النعم، إذ ذكرها الله تعالى في النعم التي عدَّها في سورة النحل التي هي سورة النِّعَم، وأخبر جل وعلا في كتابه المبين أنه أوحى إلى المرسلين أن أنذروا بها.

فقال عز من قائل عليم: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني بـ «لا إله إلا الله»[(٢)].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

قرأ مجاهد: «وأَسْبَغَ عَلَيْكُم نِعْمَتَهُ ظاهِرَةً وباطِنَةً» قال: لا إله إلا الله[(٣)].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾

---

(١) رواه ابن عساكر كما أورده ابن كثير في «البداية والنهاية» -بيان شجرة طوبى ما هي وما يتصل بها من الكلام على آيات عيسى ومعجزاته) - (٢/ ٨٦).

(٢) قال البيضاوي في «تفسيره»: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام لتذكركم المنعم وترغبكم في شكره. انظر: «تفسير البيضاوي» - سورة المائدة: من الآية (٧) (٢/ ١١٧).

(٣) «تفسير الطبري» المسمى «جامع البيان في تفسير القرآن» - سورة لقمان (من الآية: ٢٠).

[ص: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]. يعني قول: «لا إله إلا الله»[١]، وقال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦] من الأوثان بقول: «لا إله إلا الله»[٢].

٣ - وهي الكلمة التي أمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يدعو الثقلين: الإنس والجن، إلى «شهادة أن لا إله إلا الله».

يقول تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] يعني الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله[٣].

٤ - وهي العروة الوثقى التي من تمسك بها نجا، ومن حُرِمَ منها هلك.

يقول الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. يعني بلا إله إلا الله»[٤].

٥ - وهي القول الثابت، الذي ثَبَّت الله عليه الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

---

(١) قال ابن كثير في «تفسيره»: عن عكرمة في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] قال: لا إله إلا الله. انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة طه: (من الآية٤٤) - (٣/ ٢٥٤).

(٢) قال ابن كثير في «تفسيره»: قال قتادة ومجاهد: من الشرك. انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة الحج: (من الآية٢٦) - (٣/ ٣٥٨).

وقال الشوكاني في «تفسيره»: قال المبرد: كأنه قيل له: وحدني في هذا البيت؛ لأن معنى لا تشرك بي: وحدني ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ من الشرك وعبادة الأوثان. انظر: «فتح القدير» للشوكاني - سورة الحج: (من الآية٢٦) - (٣/ ٤٤٦).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة يوسف (الآية: ١٠٨) - (٢/ ٨٠٣).

(٤) قال ابن كثير في «تفسيره»: قال سعيد بن جبير والضحاك: يعني لا إله إلا الله. انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة البقرة: (من الآية٢٥٦) - (١/ ٤٨٨).

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم: ٢٧] يعني بلا إله إلا الله»[١].

٦- وهي الكلمة الطيبة: أي المقبولة عند الله تعالى، التي تُثْمِر دوام العمل الصالح، وتُثْمِر صعود العمل إلى السماء.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ [إبراهيم: ٢٤] أي: «لا إله إلا الله»[٢].

٧- وهي كلمة العدل.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] يعني بـ«لا إله إلا الله»[٣].

٨- وهي الطيب من القول.

قال الله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [الحج: ٢٤] ولا قول أطيب

---

(١) أخرج البخاري في كتاب تفسير القرآن - (٥/ ٢٦٢): عنِ البَراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**المسلمُ إذا سُئلَ في القبر يشهدُ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله، فذلك قوله:** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم: ٢٧]».

(٢) قال ابن كثير في «تفسيره»: قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾، وهو المؤمن، ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة إبراهيم: ٢٤) - (٢/ ٨٦١).

(٣) قال ابن كثير في «تفسيره»: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل: ٩٠] قال: شهادة أن لا إله إلا الله. انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة النحل: (من الآية٩٠) - (٢/ ٩٤٩).

وأطهر وأزكى من قول «لا إله إلا الله»[١].

٩ - وهي الكلمة التي تشرح الصدور.

قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ بـ «لا إله إلا الله»[٢].

١٠ - وهي كلمة العهد.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]. وهي شهادة أن لا إله إلا الله[٣].

١١ - وهي كلمة الاستقامة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ يعني على شهادة أن لا إله إلا الله[٤].

---

(١) قال ابن كثير في «تفسيره»: وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: القرآن وقيل: لا إله إلا الله وقيل: الأذكار المشروعة. انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة الحج: (من الآية٢٤) - (٣/ ٣٥٤).

(٢) عن ابن جريج، قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ بـ«لا إله إلا الله». «تفسير الطبري» - سورة الأنعام: (الآية١٢٥).

(٣) قال ابن كثير في «تفسيره» - سورة مريم الآية: (٨٧) (٣/ ٢٢٧): وهو شهادة أن لا إله إلا الله والقيام بحقها. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧] قال: العهد شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله عز وجل.

(٤) قال ابن كثير في «تفسيره»: قال عكرمة سئل ابن عباس رضي الله عنهما: أي آية في كتاب الله تبارك وتعالى أرخص؟ قال: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله.. انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة فصلت: (من الآية٣٠) - (٤/ ١٥٧).

١٢ - وهي الحسنى التي قال الله فيها: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل: ٥، ٦] أي: بلا إله إلا الله[١].

وقد وعد الله أهل الحسنى بالجنة وزيادة، وهي النظر إلى وجهه الكريم، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][٢].

١٣ - وهي كلمة الإحسان التي من قالها باللسان، واعتقدها بالجنان، وعمل بالأركان، فجزاؤه الجنة.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠] فقيل: الإحسان في الدنيا «لا إله إلا الله» وفي الآخرة «الجنة»[٣].

١٤ - وهي كلمة الحق الثابتة.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾. أي: شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ[٤].

---

(١) قال ابن كثير في «تفسيره»: قال أبو عبد الرحمن السلمي والضحاك: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ أي: بلا إله إلا الله. انظر: «تفسير ابن كثير» - (سورة الليل الآية: ٦) - (٤/ ٨٦١).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة (يونس: من الآية٢٦) (٢/ ٦٧٠).
قال ابن كثير: هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضًا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته.

(٣) قال ابن كثير في «تفسيره» سورة الرحمن (٤/ ٤٥٥): عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾، وقال: «**هل تدرون ما قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟**».

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: شهد أن لا إله إلا الله وأن =

١٥ - وهي دعوة الحق.

قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [الرعد: ١٤] يعني قوله: «لا إله إلا الله»[١].

١٦ - وهي الكلمة الباقية، أي: التي لا تزول ولا تَحُول، وهي التي أوصى بها الأنبياء أولادهم.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨]. يعني لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها[٢].

١٧ - وهي كلمة الله العليا.

قال الله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ [التوبة: الآية ٤٠]. وهي «لا إله إلا الله»[٣].

١٨ - وهي المثل الأعلى.

= محمدًا رسول الله. انظر: «تفسير القرطبي» المسمى «الجامع لأحكام القرآن» - (الزخرف: ٨٦) (١٦/ ١٢٢).

(١) قال ابن كثير في «تفسيره»: قال ابن عباس وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ لا إله إلا الله. انظر: «تفسير ابن كثير» - (سورة الرعد: من الآية١٤). (٢/ ٨٢٣).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة الزخرف من الآية: (٢٨) (٤/ ٢٠٢).

قال ابن كثير: وهي لا إله إلا الله، أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي: إليها. قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾: يعني لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها.

(٣) قال ابن كثير: (سورة التوبة: من الآية٤٠) (٢/ ٥٨٣) - قال ابن عباس ﭫ: يعني بكلمة الذين كفروا الشرك، وكلمة الله هي لا إله إلا الله.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ [النحل: ٦٠] وهي: شهادة أن لا إله إلا الله[١].

١٩ - وهي كلمة السواء.

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. وهي: شهادة أن لا إله إلا الله[٢].

٢٠ - وهي كلمة النجاة. حيث لا نجاة من عذاب الله إلا بها. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

٢١ - وهي القول السديد.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ [الأحزاب: ٧٠]. يعني «لا إله إلا الله»[٣].

---

(١) قال قتادة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله. انظر: «تفسير الطبري» (سورة النحل: من الآية٦٠). وقال ابن كثير في «تفسيره»: قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الروم: ٢٧] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾، وقال قتادة: مثله أنه لا اله إلا هو ولا رب غيره، وقال مثل هذا ابن جرير. وعن مالك في «تفسيره» المروي عنه عن محمد بن المنكدر في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله. انظر: «تفسير ابن كثير» -سورة الروم من الآية: (٢٧)، (٣/ ٧١١). بتصرف.

(٢) قال الإمام البخاري: قال أبو سفيانَ: «كتب النبي ﷺ إلى هِرقلَ: تعالوا إلى كلِمةٍ بيننا وبينكُم». وقال مجاهدٌ: كلمة التقوى لا إله إلا اللهُ. - انظر: صحيح البخاري - كتاب الأيمان والنذور - باب إذا قال: (والله لا أتكلم اليومَ) فصلَّى أو قرأ أو سَبَّح أو كَبَّر أو حَمِد أو هَلَّلَ فهو على نِيتِهِ- (٧/ ٢٩١).

(٣) قال ابن كثير في «تفسيره»: قال عكرمة: القول السديد لا إله إلا الله. انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة الأحزاب: (٧٠) - (٣/ ٨٦٠).

٢٢ - وهي كلمة البر.

قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] هو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو[١].

٢٣ - وهي كلمة الصدق.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣]. يعني بـ «لا إله إلا الله»[٢].

٢٤ - وهي كلمة التقوى.

قال الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] يعني «لا إله إلا الله»[٣].

٢٥ - وهي الحَسنة التي ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ

---

(١) قال ابن كثير في «تفسيره»: قال الثوري: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية قال: هذه أنواع البر كلها، وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ، فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وأنه لا اله إلا هو، وصَدَّق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله. انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة البقرة: من الآية (١٧٧). (١/ ٣٢٤).

(٢) قال ابن كثير في «تفسيره»: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله. انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة الزمر: من الآية (٣٣) (٤/ ٨٦).

(٣) قال ابن كثير: قال الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، وهي قول «لا إله إلا الله». انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة الفتح: من الآية (٢٦) (٤/ ٣١٤). وأخرج الترمذي: عن الطفيل عن أبيه أنه سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله». رواه الترمذي - كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - باب ومن سورة الفتح (٥/ ٣٨٦).

خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ [النمل: ٨٩]. هي لا إله إلا الله[١].

٢٦ - وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ [غافر: ١٢] يعني بـ«لا إله إلا الله»[٢].

٢٧ - وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [المائدة: ٥] يعني بـ «لا إله إلا الله»[٣].

٢٨ - وقال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ [النبأ: ٣٨]. أي قال: لا إله إلا الله[٤].

٢٩ - وقال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء: ٨٩] أي: سليم بلا إله إلا الله»[٥].

---

(١) «تفسير ابن كثير» - سورة النمل: من الآية (٨٩) - (٣/ ٦٢٤) قاله زين العابدين.

(٢) قال الشوكاني في «تفسيره»: أي: ذلك الذي أنتم فيه من العذاب بسبب أنه إذا دُعي الله في الدنيا وحده دون غيره، كفرتم به وتركتم توحيده. انظر: فتح القدير للشوكاني - سورة غافر من الآية (١٢) - (٤/ ٤٦٦).

(٣) عن عطاء: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ قال: بالإيمان بالله. وقال أيضًا: الإيمان: التوحيد. وعن مجاهد: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ قال: بالله. وعن ابن عباس، قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ قال: أخبر الله سبحانه أن الإيمان هو العروة الوثقى، وأنه لا يقبل عملًا إلا به، ولا يحرّم الجنة إلا على من تركه. انظر: جامع البيان في تفسير القرآن - سورة المائدة من الآية (٥).

(٤) قال ابن كثير في «تفسيره»: أي: حقًّا، ومن الحق لا إله إلا الله كما قاله أبو صالح وعكرمة. انظر«تفسير ابن كثير» - سورة النبأ: من الآية (٣٨) - (٤/ ٧٦٧).

(٥) قال ابن كثير في «تفسيره»: قال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ القلب السليم أن يشهد أن لا إله إلا الله. انظر: «تفسير ابن كثير» - سورة الشعراء: (٨٩) - (٣/ ٥٦١).

٣٠ – وقال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر: ٩٢] عَنْ قَوْلِ: «لا إله إلا الله»[(١)].

٣١ – وقال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى: ١٤]. أي: قال: لا إله إلا الله[(٢)(٣)].

الفصل الثاني: ما ورد في الحديث الشريف من فضائل لا إله إلا الله

كلمة التوحيد لها فضائل عظيمة تفوق الحصر لا يمكن ها هنا استقصاؤها، فلنذكر بعض ما ورد فيها من الأحاديث عن رسول الله ﷺ:

١- من فضائلها أن قائلها يسعد بشفاعة رسول الله ﷺ.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: قيلَ: يا رسولَ اللهِ، مَنْ أسعدُ الناسِ بِشَفاعَتِكَ يومَ القيامةِ؟ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لقد ظننتُ يا أبا هُريرةَ أن لا يَسْأَلني عن هذا الحديثِ أحدٌ أوَّلَ منكَ، لِما رأيتُ من حِرصِكَ على الحديث. أَسعدُ الناسِ بشفاعتي يومَ القيامةِ من قال: لا إله إلا الله خالِصًا مِن قَلبِه – أو: نفسِه–**»[(٤)].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» – سورة الحجر – آية (٩٢) (٢/ ٩٠٩).

(٢) قال ابن كثير في «تفسيره»: عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى: ١٤] قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله**».
انظر: «تفسير ابن كثير» – سورة الأعلى: (١٤)، (٤/ ٨٢٩).

(٣) من كتاب «تنبيه المؤمن الأواه بفضائل لا إله إلا الله» (ص: ٥٣).

(٤) أخرجه البخاري في مواضع متعددة، منها في:- كتاب العلم، باب الحِرصِ على الحَدِيث (١/ ٣٨). وفي كتاب الرقاق – باب صفة الجنة والنار – (٧/ ٢٦٠).

وفي حديث الشفاعة الطويل أن رسولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «**ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لا إله إلا الله. فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لا إله إلا الله**»[1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**شَفاعَتي لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لا إله إلا الله مُخْلِصًا يُصَدِّقُ قَلْبُهُ لِسانَهُ وَلِسانُهُ قَلْبَهُ**»[2].

---

(١) رواه البخاري - كتاب التوحيد، باب كلام الربِّ عز وجل يوم القيامةِ مع الأنبياء وغيرهم- (٨/ ٢٥٢)، ورواه مسلم - كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها - (١/ ١٢٧).

(٢) **حسن**: رواه أحمد (٨٠٥٦) (٢/ ٣٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤٠٧): رجاله رجال الصحيح غير معاوية بن معتب وهو ثقة.

وقال أحمد شاكر في «مسند أحمد» (١٥/ ٢٠٧): إسناده صحيح.

وقال الوادعي في «الشفاعة» (٧٤): من طريق معاوية بن معتب أو مغيث وهو مستور الحال يصلح حديثه في الشواهد والمتابعات.

وله شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجَّل كل بني دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئًا».

قال ابن القيم رحمه الله في معنى حديث أبي هريرة: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تُنال بها شفاعته تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تُنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذٍ يأذن الله للشافع أن يشفع.

. . . .

وقد أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٠) قال: حدثنا أبو بكر بن إسحاق الفقيه أنبأ أحمد بن إبراهيم بن ملحان، حدثنا يحيى بن بكير... فذكره. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، فإن معاوية بن معتب مصري من التابعين. وقد أخرج البخاري حديث عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول اللّه من أسعد الناس بشفاعتك... الحديث بغير هذا اللفظ والمعنى قريب منه. وأقرّه الذهبي في «التلخيص».

وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠٧) قال: حدثنا هاشم والخزاعي - يعني أبا سلمة - قالا: حدّثنا ليث... فذكره.

وأخرجه (٢/ ٥١٨) حدثنا عثمان بن عمر حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن يزيد بى أبي حبيب... فذكره.

وأخرجه ابن حبّان في «صحيحه» (٨/ ١٣١) كتاب التاريخ: باب الحوض والشفاعة: ذكر الأخبار عن وصف القوم الذين تلحقهم شفاعة المصطفى ﷺ في العقبى. قال: أخبرنا عبد اللّه بن محمد بن سلم، حدّثنا حرملة بن يحيى قال: حدّثنا ابن وهب قال: أخبرني عمرو بن الحارث عن يزيد بن أبي حبيب... فذكره.

وأخرجه ابن عبد البرّ في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٢٧) قال: أخبرنا سعيد- يعني ابن نصر- قال: أخبرنا قاسم- يعني ابن أصبغ- قال: أخبرنا إسماعيل بن إسحاق قال: حدثنا عاصم قال: حدّثنا ليث... فذكره.

وأخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد (ص٢٩٠ - ٢٩١) قال: حدّثنا محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكم قال: حدثنا أبي وشعيب قالا: حدثنا الليث عن يزيد... فذكره. ثم قال: حدّثنا يونس بن عبد الأعلى قال: حدثنا ابن وهب قال: أخبرني ابن لهيعة- وأنا أبرأ من عهدته- عن ابن أبي حبيب عن أبي الخير وسالم الجيشاني، عن معاوية بن معتب... فذكر بمثل حديث الليث. وقال: حدّثنا يونس في عقبه قال: أخبرنا ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن يزيد بن أبي حبيب عن =

٢- من فضائلها أن قائلها معصوم بها دمه وماله.

عنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله، ويُقِيموا الصلاةَ، ويُؤْتوا الزَّكاةَ. فإذا فَعَلوا ذلكَ عَصَموا مِنِّي دِماءَهُم وأموالَهُم إلاّ بِحَقِّ الإِسلام، وحسابُهُم عَلَى الله**»(١).

عَنْ أَبي مَالِكٍ عَن أبيه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ قَالَ: لا إلـه إلا الله، وَكَـفَـرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ. وَحِسَابُهُ عَلَى الله**»(٢).

عَنْ عَبْدِ الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ،**

= أبي سالم عن ابن معتب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللّه ﷺ هكذا حدثنا بهما يونس، جعل متن الخبر كخبر ابن لهيعة، وقال في خبر عمرو بن الحارث بمثله لولا ذلك لم أقدّم ابن لهيعة على عمرو بن الحارث، ليس ابن لهيعة رحمه اللّه من شرطنا ممن يحتجّ به.

قال أبو بكر- أي: ابن خزيمة- رواية ليث أوقع على القلب من رواية عمرو بن الحارث، إنما الخبر علمي عن سالم بن أبي سالم كما رواه الليث لا عن أبي سالم. اللهمّ إلا أن يكون سالم كنيته أبو سالم أيضًا.

وشاهده في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئًا**».

(١) رواه البخاري -كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ التوبة: (٥) - (١/ ١٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الايمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله (١/ ٤٠).

وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ»(١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إله إلا الله. وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ. فَإِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا. وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله**»(٢).

وقال النَّبِيُّ ﷺ لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما أعطاه الراية يوم خيبر: «**قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إله إلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، فَإِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا. وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله**»(٣).

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلامِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا، صَبَأْنَا. فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ.

وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ.

فَقُلْتُ: وَالله لا أَقْتُلُ أَسِيرِي وَلا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ. حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْنَاهُ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ: «**اللهمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ**» مَرَّتَيْنِ(٤).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الديات، باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، (٨/ ٤٨). ورواه مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم (٥/ ٩٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، (١/ ٣٩).

(٣) ورواه مسلم - كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، باب من فضائل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - (٧/ ١٢١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بَعْثِ النَّبِيِّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي =

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي سَرِيَّةٍ. فَصَبَّحْنَا الْحُرُقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ. فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ: لا إله إلا الله. فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذلِكَ فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَقَالَ: لا إله إلا الله وَقَتَلْتَهُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ. قَالَ: «**أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أقالها أم لا؟!**» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ[1].

وفي رواية جُنْدَبِ بْنَ عَبْدِ الله الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لأسَامَة بن زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لِمَ قَتَلْتَهُ؟**» قَالَ: يَا رَسُولَ الله أَوْجَعَ فِي الْمُسْلِمِينَ. وَقَتلَ فُلاَنًا وَفُلاَنًا. وَسَمَّى لَهُ نَفَرًا. وَإِنِّي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ قَالَ: لا إله إلا الله. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَقَتَلْتَهُ؟**» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلا إله إلا الله إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**» قَالَ: يَا رَسُولَ الله، اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: «**وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلا إله إلا الله إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**» قَالَ: فَجَعَلَ لَا يَزِيدُهُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «**كَيْفَ تَصْنَعُ بِلا إله إلا الله إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**»[2].

٣- من فضائلها أنها نجاة من النار.

عن عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَنْ يُوافِيَ عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: لا إله إلا الله يَبْتَغِي بِها وَجْهَ الله إلا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ**»[3].

= جَذِيمَة، (٥/ ١٢٥).

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، (١/ ٦٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، (١/ ٦٨).

(٣) رواه البخاري كتاب الرقاق، باب العملِ الذي يُبتغى به وجهُ الله - (٧/ ٢٢١).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «**لاَ يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لا إله إلا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله فَيَدْخُلَ النَّارَ أَوْ تَطْعَمَهُ**»(١).

الحديث الثالث: وعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إله إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله. حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ**»(٢).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: الله أَكْبَرُ الله أَكْبَرُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**عَلَى الْفِطْرَةِ**». ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله أَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ**»(٣).

عن سهيل بن بيضاء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنه قال: نادى رسول الله ﷺ ذات ليلة وأنا رديفه: «**يا سُهَيْلُ بْنَ بَيْضَاءَ**» رافعًا بها صوته مرارًا، حتى سمع من خلفنا وأمامنا، فاجتمعوا وعلموا أنه يريد أن يتكلم بشيء. قال رسول الله ﷺ: «**إنه من قال: لا إله إلا الله أَوْجَبَ الله** عز وجل **لَهُ بِها الجَنَّةَ وَأَعْتَقَهُ بِها مِنَ النّارِ**»(٤).

---

(١) رواه مسلم كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار- (١/ ٤٥)، وأخرجه أحمد في المسند -مسند أنس بن ملك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- (٤/ ٣٥٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا- (١/ ٤٢)، ورواه الترمذي - كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، (٥/ ٢٣).

(٣) رواه مسلم - كتاب الصلاة، باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان (٢/ ٣).

(٤) **حسن لغيره:** أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٣/ ٤٥١)، و(٤٦٧) من ثلاث طرق، عن يزيد بن عبد الله بن الهاد، به نحوه. =

. . . .

= وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٦/ ٢٥٧و (٢٥٨ رقم٦٠٣٣و٦٠٣٤) من طرق عن ابن الهاد، به نحوه.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٥ - (١٦)، وعزاه لأحمد والطبراني، وقال: «ومداره على سعيد بن الصلت، قال ابن أبي حاتم: قد رُوي عن سهيل بن بيضاء مرسلًا، وابن عباس متصلًا».

«المستدرك» (٣/ ٦٣٠): حدثنا أبو النضر الفقيه، ثنا عثمان بن سعيد الدارمي، ثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني يزيد بن عبد الله بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن سعيد بن الصلت، عن سهيل بن بيضاء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بينما رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وسهيل بن بيضاء رديف رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- معه على ناقة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «**يا سهيل بن بيضاء**»، ورفع صوته مرتين أو ثلاثًا، على ذلك يجيبه سهيل، فسمع الناس صوت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، فعرفوا أنه يريدهم، فجلس من كان بين يديه، ولحقه من كان خلفه، حتى إذا اجتمعوا؛ قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «**من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار، وأوجب له الجنة**».

الحديث قال عنه الذهبي: «سنده جيد»، وإنما أعله بالإرسال.

سعيد بن الصلت بن عبد الله بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف القرشي، المطلبي، أبو يعقوب المصري؛ ذكره البخاري وسكت عنه، وابن أبي حاتم وبيّض له، وأورده ابن حبان في الثقات، وقد روى عنه محمد بن إبراهيم التيمي، وبكر بن سوادة، فهو مجهول الحال، وروى هو عن سهيل بن بيضاء مرسلًا. انظر: «التاريخ الكبير» (٣/ ٤٨٣رقم١٦١٦)، و«الجرح والتعديل» (٤/ ٣٤ رقم١٤٣)، و«الثقات» لابن حبان (٤/ ٢٨٥)، و«تعجيل المنفعة» (ص ١٠٤ رقم ٣٧٣).

ومحمد بن إبراهيم التيمي، ويزيد بن الهاد.

والليث بن سعد إمام مشهور، ثقة، ثبت، فقيه.

وعبد الله بن صالح كاتب الليث صدوق كثير الغلط، فيه غفلة.

وعثمان بن سعيد الدارمي إمام حافظ حجة. «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣١٩ رقم ١٤٨)، و«تذكرة الحفاظ» (٢/ ٦٢١ رقم ٦٤٨). =

٤- ومن فضائلها أنها سيد الاستغفار.

عَن شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: **«ألاَ أَدُلُّكَ عَلَى سَيِّدِ الاسْتِغْفَارِ؟ اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِله إلاّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأنَا عَبْدُكَ، وَأنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ ما صَنَعْتُ، وأَبُوءُ إِلَيْكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأعتَرِفُ بِذُنُوبِي، فاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي إنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاّ أنْتَ، لَا يَقُولُهَا أحَدُكُمْ حِينَ يُمْسِي فَيَأْتِي عَلَيْهِ قَدَرٌ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ إلاّ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَلاَ يَقُولُهَا حِينَ يُصْبِحُ فَيَأْتِي عَلَيْهِ قَدَرٌ قَبْلَ أنْ يُمْسِي إلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»**[1].

= وشيخ الحاكم أبو النضر الفقيه اسمه محمد بن محمد بن يوسف الطوسي، إمام، حافظ فقيه، علامة، قدوة. «المنتظم» (٦/ ٣٧٩ رقم ٦٣٢)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٤٩٠ رقم ٢٧٦).

الحكم على الحديث:

الحديث بإسناد الحاكم ضعيف جدًّا لأمور ثلاثة:

١- جهالة حال سعيد بن الصلت.

٢ - الانقطاع بين سعيد هذا وسهيل بن بيضاء.

٣ - ما قيل عن حفظ عبد الله بن صالح كاتب الليث.

وهو ضعيف من الطرق التي رواها الإمام أحمد، والطبراني؛ لأن مدارها على سعيد ابن الصلت، وحاله كما تقدم، والله أعلم.

وأما أصل الحديث فهو في الصحيح من طرق كثيرة عن عدة من الصحابة، فانظر: صحيح مسلم (١/ ٥٥ - ٦٢) من حديث (٤٣ إلى ٥٥) كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٢)، و(١٢٤)، و(١٢٥)، والبخاري (٦٣٠٦) في الدعوات: باب أفضل الاستغفار، و(٦٣٢٣) باب ما يقول إذا أصبح، وفي «الأدب المفرد» (٦١٧)، والنسائي (٨/ ٢٧٩، ٢٨٠) في الاستعاذة: باب الاستعاذة من شر ما صنع، وفي «عمل اليوم والليلة» (١٩)، و(٤٦٤)، و(٥٨٠)، والطبراني (٧١٧٢)، و(٧١٧٣)، والبغوي (١٣٠٨)، من طرق عن حسين بن ذكوان المعلم، عن =

٥- ومن فضائلها أنها تهدم الذنوب هدمًا.

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِله إِلاَّ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِالله رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ**»[1].

= عبد الله بن بريدة، عن بشير بن كعب، عن شداد بن أوس، قال: قال رسول الله ﷺ.

وأخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٦٥)، و(٥٨١) من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الله بن بريدة، عن نفر صحبوا شدادًا، عنه.

وأخرجه الترمذي (٣٣٩٣) في الدعوات، عن الحسين بن حريث عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن كثير بن زيد، عن عثمان بن ربيعة، عن شداد، وحسنه. قال الحافظ في «النكت الظراف» (٤/ ١٤٥): خالفه زيد بن الحباب، فقال: عن كثير بن زيد، حدثني المغيرة بن سعيد بن نوفل، عن شداد بن أوس به. أخرجه جعفر الفريابي في كتاب «الذكر» له عن أبي بكر وعثمان بن أبي شيبة، عنه. قلت: والطبراني (٧١٨٩).

وفي الباب عن جابر عند النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٦٧)، و(٤٦٨).

وقوله: «أنا على عهدك ووعدك» قال البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٩٤): يريد على ما عاهدتك عليه، وواعدتك من الإيمان بك، وإخلاص الطاعة لك. وقد يكون معناه: إني مقيم على ما عهدت إليّ من أمرك، ومتمسك به، ومتنجز وعدك في المثوبة والأجر عليه. واشتراط الاستطاعة في ذلك معناه: الاعتراف بالعجز والقصور عن كنه الواجب من حقه ﷻ.

وقوله: «**أبوء بنعمتك**» معناه: الاعتراف بالنعمة، وكذلك قوله. «أبوء بذنبي» معناه: الإقرار به، وفيه معنى ليس في الأول، تقول العرب: باء فلان بذنبه: إذا احتمله لا يستطيع دفعه، وأصل البواء: اللزوم، معناه: أُقر به، وأُلزم نفسي، يقال: أباء الإمام فلانًا بفلان: إذا ألزمه دمه، وقتله به، ومنه قوله ﷻ: ﴿فباؤوا بغضب﴾ أي: لزمهم ورجعوا به.

(١) رواه مسلم - كتاب الصلاة، (باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، =

٦ – ومن فضائلها أنه لا يعادلها شيء في الوزن، فلو وُزنت السموات والأرض لرجحت بهن.

حديث البطاقة المشهور عن عَبْد الله بن عَمْرِو بنِ العَاص ﵄، يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الله سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هذا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ. فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ. فَيَقُولُ: يَا ربِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَع هَذِهِ السِّجِلاَّتِ؟! فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قالَ: فَتُوْضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ في كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ الله شَيْءٌ**»[1].

= ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يسأل له الوسيلة) (٢/ ٥).

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده» (٢/ ٢١٣) من طريق إبراهيم بن إسحاق الطالقاني عن ابن المبارك عن الليث به. و(٢/ ٢٢١ – ٢٢٢) من طريق قتيبة عن ابن لهيعة عن عامر بن يحيى به.

وأخرجه الترمذي في جامعه كتاب الإيمان: باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله. من طريق سويد بن نصر عن ابن المبارك عن الليث به. وقال: حسن غريب. ثم قال: حدّثنا قتيبة، حدّثنا ابن لهيعة عن عامر بن يحيى بهذا الإسناد نحوه.

وأخرجه ابن ماجه في سننه كتاب الزهد: باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة. من طريق محمد بن يحيى، عن ابن أبي مريم عن الليث بن سعد به.

وأخرجه ابن حبّان في «صحيحه» من طريق عبد الوارث بن عبيد الله عن ابن المبارك. انظر: «الموارد» (ص٦٢٥).

وأخرجه المصنّف في «الشعب» (٢/ ٧٠ – ٧١) من طريق الحاكم (١/ ٦) قال: أخبرنا عبد الله بن الحسين القاضي بمرو، حدثنا الحارث بن أبي أسامة، حدّثنا =

٧- ومن فضائلها أنها تُفتح لها أبواب السماء حتى تُفضي إلى العرش.

عَن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا قالَ عَبْدٌ لا إله إلا الله قَطُّ مُخْلِصًا إلاَّ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ حَتَّى تُفْضِي إلى العَرْشِ ما اجْتَنَبَ الكَبَائِرَ**»(١).

٨- ومن فضائلها أن الله ﷻ يُصَدِّق قائلها.

عَن الأغَرِّ أَبي مُسْلمٍ قالَ: أشْهَدُ عَلَى أَبي سعِيدٍ وَأبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «**مَنْ قال: لا إله إلا الله واللهُ أكْبَرُ، صَدَّقَهُ رَبُّهُ فقَالَ: لا إلَهَ إلاّ أَنَا وَأَنَا أكْبَرُ. وَإذَا قالَ: لا إله إلا الله وَحْدَهُ، قالَ: يَقُولُ: لا إلَهَ إلاّ أنَا وَأنَا وَحْدِي. وَإذَا قال: لا إله إلا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ الله: لا إلهَ إلاّ أنا وَحْدِي لا شَرِيكَ لِي. وَإذَا قالَ: لا إله إلا الله لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، قالَ: لا إلَهَ إلاّ أنَا لِيَ المُلْكُ وَلِيَ الحَمْدُ. وَإذَا قالَ: لا إله إلا الله ولاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاّ بالله، قالَ: لا إلَهَ إلاّ أنا وَلا**

= يونس بن محمد عن الليث به وقال: هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين وهو صحيح على شرط مسلم، فقد احتجّ بأبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، وعامر بن يحيى مصري ثقة، والليث بن سعد إمام، ويونس المؤدب متفق على إخراجه في الصحيحين. وأقرّه الذهبي.

وأخرجه (١/ ٥٢٩) قال: حدّثنا علي بن حمشاذ العدل، حدثنا عبيد بن شريك وأحمد ابن إبراهيم بن ملحان قالا: حدثنا يحيى بن عبد اللّه بن بكير عن الليث به، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

وأخرجه البغوي في «شرح السنّة» (١٥/ ١٣٤) من طريق إبراهيم بن عبد اللّه الخلّال عن ابن المبارك. وقال: حسن غريب.

طاشت: أي: خفّت، والطيش خفّة العقل.

وأخرجه ابن مردويه واللالكائي أيضًا كما في الدرّ.

(١) **حسن**: رواه الترمذي - كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، بابٌ دعاء أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، (٥/ ٥٧٥). وهو عند النسائي في «الكبرى» (٦/ ٢٠٨).

حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاّ بِي». وَكانَ يَقُولُ: «**مَنْ قالَهَا في مَرَضِهِ ثُمَّ مَاتَ لَمْ تَطْعَمْهُ النّارُ**»[١].

٩- وهي أفضل الذكر.

عن جَابِرِ بنِ عَبْدِ الله ﵁ قال: سَمِعْتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ لله**»[٢].

---

(١) **هذا الحديث مختلف في رفعه ووقفه:** وأخرجه الترمذي في الدعوات (٥/ ٤٩٢)، باب (٣٧): ما يقول العبد إذا مرض، وقال الترمذي عقبه: «وقد رواه شُعْبَةُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ الْأَغَرِّ أَبِي مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هريرة وأبي سعيد بنحو هذا الحديث بمعناه ولم يرفعه شعبة، حدثنا بذلك بندار حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ شُعْبَةَ بهذا.

وأخرج ابن ماجه من طريق حَمْزَةَ الزَّيَّاتِ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْأَغَرِّ أَبِي مُسْلِمٍ: أَنَّهُ شَهِدَ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بنحوه.

وعزاه المزي في «الأطراف» إلى النسائي في «اليوم والليلة» من طريق زهير بن معاوية وحمزة الزيات وإسرائيل، ثلاثتهم عن أبي إسحاق نحوه، وحديث إسرائيل مختصر.

قلت: ورواية إسرائيل تأتي في الحديث التالي لهذا، وحاصل الخلاف هنا أن حمزة الزيات وإسرائيل وزهيرًا رووه مرفوعًا، وشعبة رواه موقوفًا، وانظر: الحديثين الآتيين.

(٢) **حسن:** أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٨٠) باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة. والنسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم (٨٣١)، والحاكم (١/ ٥٠٣)، وابن حبان (٨٤٦ - إحسان).

وقال الترمذي: «هذا حديث حسن، غريب، لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم. وقد روى علي بن المديني وغير واحد عن موسى بن إبراهيم هذا الحديث».

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، =

١٠- وهي أفضل الكلام.

عَن عَمْرِو بنِ شعَيْبٍ عَن أبِيهِ عَن جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أنَا والنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لا إله إلا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَديرٌ**»(١).

وقال رَسُولُ الله ﷺ: «**أفْضَلُ الْكَلامِ أرْبَعٌ: سُبْحانَ الله، والحمدُ للهِ، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»(٢).

= وهو كما قالا.

وأخرجه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٠) باب: فضل الحامدين، من طريق عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي، وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٤٩، برقم (١٢٦٩) من طريق يحيى بن خالد بن أيوب، وأخرجه الحاكم (١/ ٤٩٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص١٠٥).

وقال الحاكم: «هذا الحديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي.

وانظر: «تحفة الأشراف» (٢/ ١٩٠) برقم (٢٢٨٦)، وجامع الأصول (٤/ ٣٨٢).

ونسبه الحافظ في «هداية الرواة» (٢/ ٧٥) إلى الترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(١) **حسن لغيره**: رواه مالك في «الموطأ» (١/ ٢١٤، ٢١٥) باب ما جاء في الدعاء، من مرسل طلحة بن عبيد الله بن كريز، مرسل صحيح. والبغوي في شرح السنة (٧/ ١٥٧)، وقال: هذا حديث مرسل.

قلت: وفي الباب عن المطلب بن حنطب، أخرجه الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (٢٥٠٩). وهو مرسل أيضًا. أخرجه أحمد (٢/ ٢١٠) (٦٩٦١) قال: حدثنا روح ووصله الترمذي (٣٥٨٥) بسند ضعيف وله شواهد أخرى (٣٥٨٥) قال: حدثنا أبو عمرو مسلم بن عمرو، قال: حدثني عبد الله بن نافع كلاهما (روح بن عبادة، وعبد الله) عن محمد بن أبي حميد، قال: أخبرني عمرو بن شعيب، عن أبيه... فذكره.

(٢) رواه البخاري - كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال: والله لا أتكلم اليومَ! فصلَّى أو قرأ أو سَبَّح أو كَبَّر أو حَمِد أو هَلَّلَ فهو على نِيتِهِ - (٧/ ٢٩١). =

١١ – ومن فضائلها أن أهلها وإن دخلوا النار بتقصيرهم في حقوقها فإنهم لابد أن يخرجوا منها.

عنْ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**يَخرُجُ مِنَ النَارِ مَنْ قال: لا إله إلا الله وفي قَلبِهِ وَزْنُ شَعِيرةٍ مِن خَير، وَيَخرُجُ مِنَ النارِ مَنْ قال: لا إله إلا الله وفي قَلبِهِ وزنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيرٍ، ويَخرُجُ مِن النارِ مَنْ قال: لا إله إلا الله وفي قَلبِه وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَير**»(١).

وفي حديث الشفاعة الطويل أن رسولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «.. **ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لا إله إلا الله، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لا إله إلا الله**»(٢).

١٢– ومن فضائلها أنها أفضل الأعمال، وأكثرها تضعيفًا للحسنات، وتعدل عتق الرقاب، وتمحو الذنوب والخطايا، وهي حرز من الشيطان.

= قال الحافظ في الفتح: هذا من الأحاديث التي لم يصلها البخاري في موضع آخر، وقد وصله النسائي من طريق ضرار بن مُرة عن صالح عن أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعًا بلفظه، وأخرجه مسلم من حديث سمرة بن جندب لكن بلفظ: «أَحَب» بدلا «أفضل» انتهى باختصار، انظر: «فتح الباري» (١١/ ٦٩١).

(١) أخرجه البخاري في مواضع متعددة، منها في: – كتاب الإيمان – باب زِيادَةِ الإيمانِ وَنُقْصانِهِ (١/ ١٩) – وكتاب التوحيد، باب قولُ الله تعالى: ﴿تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ﴾ [ص: ٧٥]– (٨/ ٢١)، وأخرجه مسلم – كتاب الإيمان – وأخرجه أحمد (٤/ ٤٤٦)، وأخرجه الترمذي (٤/ ٧١١).

(٢) رواه البخاري – كتاب التوحيد – باب كلام الربِّ ﷻ يوم القيامةِ مع الأنبياء وغيرهم– (٨/ ٢٥٢)، ورواه مسلم – كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها – (١/ ١٢٧).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَالَ لا إله إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلاَّ أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ**»(١).

عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي النَّبِيتِ. قَبِيلٍ مِنَ الأَنْصَارِ. فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله، وَأَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَمِلَ هذا يَسِيرًا، وَأُجِرَ كَثِيرًا**»(٢).

وعَن عبْدِ الله بنِ عَمْرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا عَلَى الأَرْضِ أَحَدٌ يَقُولُ: لا إله إلا الله وَالله أَكْبَرُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاّ بالله، إِلاّ كُفِّرَتْ عَنْهُ خَطَاياهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع متعددة، منها في: - كتاب بدء الخلق، - (٤/ ١١٤) - وكتاب الدعوات- (٧/ ٢١٤). وأخرجه الترمذي- كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، (٥/ ٥١٢).

(٢) رواه مسلم - كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد- (٦/ ٤٤).

(٣) **حسن:** أخرجه أحمد (٢/ ١٥٨) (٦٤٧٩). وفي (٢/ ٢١١) (٦٩٧٣) قال: حدثنا عبد الله بن بكر، يعني السهمي. وفي (٢/ ٢١٠) (٦٩٥٩) قال: حدثنا روح. والترمذي (٣٤٦٠) قال: حدثنا عبد الله بن أبي زياد الكوفي، قال: حدثنا عبد الله ابن بكر السهمي (ح)، وحدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا ابن أبي عدي. والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٢٤) قال: أخبرنا محمد بن بشار، قال: حدثنا ابن أبي عدي. وفي (٨٢٢) قال: أخبرنا إسماعيل بن مسعود، قال: حدثنا خالد بن الحارث.

أربعتهم - عبد الله بن بكر، وروح بن عبادة، ومحمد بن أبي عدي، وخالد =

١٣ – وهي أعلى شعب الإيمان.

عن أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ – أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ – شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إله إلا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»[(١)].

١٤– ومن فضائلها أنه لم يَدْعُ بها رجل مسلم إلا استجاب الله له.

عنِ عُبادة بن الصامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**مَن تَعارَّ منَ الليلِ فقال: لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، له المُلكُ وله الحمدُ، وهوَ على كلِّ شيءٍ قدير، الحمدُ لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبرُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاّ بالله. ثم قال: اللهمَّ اغفِرْ لي – أو دَعا – استُجيبَ. فإنْ توضَّأَ قُبلَتْ صلاتُه**»[(٢)].

= ابن الحارث – عن حاتم بن أبي صغيرة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون... فذكره.

أخرجه الترمذي (٣٤٦٠) قال: حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا محمد بن جعفر. والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٢٢) قال: أخبرنا محمد بن المثنى، قال: حدثنا أبو النعمان الحكم بن عبد الله. وفي (١٢٣) قال: أخبرنا محمد بن بشار، قال: حدثنا محمد كلاهما – محمد بن جعفر، وأبو النعمان – قالا: حدثنا شعبة، عن أبي بلج، قال: سمعت عمرو بن ميمون يحدث عن عبد الله بن عمرو... فذكره موقوفًا.

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الدين، (١/ ١٠)، ورواه مسلم، كتاب الإيمان أيضًا، باب بيان شعب الإيمان، (١/ ٤٦). وأخرجه الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه، (٥/ ١٠)، واللفظ لمسلم.

(٢) رواه البخاري – كتاب التهجد، باب فَضْلِ مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، (٢/ ٦٢)، والترمذي – كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ – باب ما جاء في الدعاء إذا انتبه من الليل– (٥/ ٤٨٠). واللفظ للبخاري.

١٥- ومن فضائلها أنها سبب في دخول الجنة.

عن سعيد بن المسيَّبِ عن أبيهِ أنه أخبرَهُ «أنه لما حَضَرَتْ أبا طالبٍ الوَفاةُ جاءهُ رسولُ الله ﷺ فوَجَد عندَهُ أبا جهل بنِ هشامٍ وعبدَ الله بنَ أبي أُميَّةَ بنِ المُغيرةِ، قال رسولُ الله ﷺ لأبي طالبٍ: **«يا عَمّ، قلْ لا إله إلا الله كلمةً أشهَدُ لكَ بها عندَ الله»**[(١)].

عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لا إله إلا الله دَخَلَ الْجَنَّةَ»**[(٢)].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا كَانَ غَزْوَةُ تَبُوكَ أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله لَوْ أَذِنْتَ لَنَا فَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«افْعَلُوا»**، قَالَ: فَجَاءَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ وَلَكِنِ ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ ثُمَّ ادْعُ اللَّهَ لَهُمْ عَلَيْهَا بِالْبَرَكَةِ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«نَعَمْ»**، قَالَ: فَدَعَا بِنِطَعٍ فَبَسَطَهُ ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ. قَالَ: فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفِّ ذُرَةٍ، قَالَ وَيَجِيءُ الآخَرُ بِكَفِّ تَمْرٍ، قَالَ: وَيَجِيءُ الآخَرُ بِكِسْرَةٍ، حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النِّطَعِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ، قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَيْهِ بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ قَالَ: **«خُذُوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ»**، قَالَ: فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَتِهِمْ حَتَّى مَا تَرَكُوا فِي الْعَسْكَرِ وِعَاءً إِلَّا مَلَئُوهُ، قَالَ: فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا وَفَضِلَتْ فَضْلَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«أَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله، لا يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فَيُحْجَبَ**

---

(١) رواه البخاري -كتاب الجنائز- باب إذا قال المُشرِكُ عندَ المَوتِ: لا إله إلا الله - (٢/ ١٢٠).

(٢) رواه مسلم-كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا- (١/ ٤١).

عَنِ الْجَنَّةِ»[١].

وفي رواية: فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ ﷺ: **«أَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله، لا يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»**[٢].

وقال رسولُ الله ﷺ لأبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: **«اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هاتَيْنِ فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هذا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله. مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ. فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»**[٣].

١٦- ومن فضائلها أنها تفرج الكَرْب.

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، أن رسولَ الله ﷺ كان يقول عند الكَرْب: **«لا إله إلا الله الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لا إِلَهَ إلا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لا إله إلا الله رَبُّ السَّماواتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»**[٤].

قَالَ وَكِيعٌ، مَرَّةً: لا إله إلا الله. فِيهَا كُلِّهَا[٥][٦].

❊ ❊ ❊

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (١/ ٤٢).

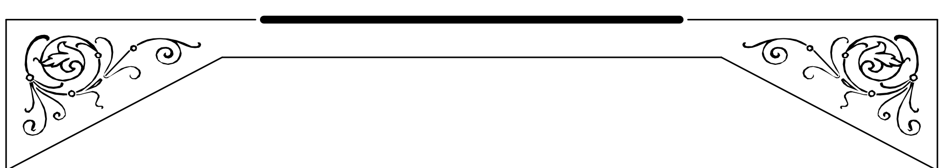
(٢) رواه مسلم-كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا- (١/ ٤١).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، (١/ ٤٤).

(٤) رواه البخاري - كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب - (٧/ ١٩٩)، ورواه مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب دعاء الكرب- (٨/ ٨٥).

(٥) أخرجه ابن ماجه - كتاب الدعاء، باب الدعاء عند الكرب- (٢/ ١٢٧٨).رقم (٣٨٨٣).

(٦) من كتاب «تنبيه المؤمن الأواه بفضائل لا إله إلا الله» بتصرف (ص: ٦٤).



المبحث الرابع: شروط لا إله إلا الله

تَعْرِيف الشَّرْط:

الشَّرْط لُغَة: - بِسُكُون الرَّاء - هُوَ إِلْزَام الشَّيْء والتزامه فِي البيع وَنَحْوه. جمعه شُرُوط. تَقول: شَرَط لَهُ أمرًا: الْتَزمهُ وَعَلِيهِ أمرًا: ألزمهُ إِيَّاه(١).

وَفِي الِاصْطِلَاح: مَا يتَوَقَّف ثُبُوت الحكم عَلَيْهِ(٢).

وَقيل: مَا لَا يُوجد الْمَشْرُوط مَعَ عَدمه وَلَا يلْزم أَن يُوجد عِنْد وجوده(٣).

وَقيل: مَا يتَوَقَّف عَلَيْهِ صِحَة شُرُوطه(٤).

وَقيل: مَا توقف الشَّيْء على وجوده وَلم يكن جُزْءًا من حَقِيقَته. كَالْوضُوءِ فِي الصَّلَاة. فَإِنَّهُ شَرط لصِحَّة الصَّلَاة. فَإِذا لم يُوجد لم تصح الصَّلَاة، وَلَيْسَ الْوضُوء جُزْءًا من حَقِيقَة الصَّلَاة. وَهَكَذَا كل مَا جعله الشَّارِع شرطًا لشَيْء. فَإِن هَذَا الشَّيْء لَا يتَحَقَّق وَلَا يُعْتد بِهِ - فِي نظر الشَّارِع إِلَّا إِذا تحقق ذَلِك الشَّرْط - وَإِن لم يكن جُزْءًا من حَقِيقَته(٥).

---

(١) انْظُر: «مُعْجم مَتن اللُّغَة» مَادَّة شَرط (٣/ ٣٠٤)، و«المعجم الْوَسِيط» مَادَّة شَرط (١/ ٤٧٨).

(٢) «التعريفات» (ص١٣١).

(٣) «رَوْضَة الناظر» (ص١٣٥).

(٤) «إتحاف الْمُسلمين بِمَا تيَسّر من أَحْكَام الدّين» (١/ ١٢٢).

(٥) «أصُول الْفِقْه الإسلامي» (ص٣١٥).

وَهَذَا التَّعْرِيف هُوَ الأولى، لِأَنَّهُ يتَضَمَّن مَا أشارت إِلَيْهِ التعاريف السَّابِقَة وَعَلِيهِ:
فشروط الشَّيْء هِيَ الَّتِي لَا يَصح إِلَّا بتوافرها.

إِذن فشروط لَا إله إِلَّا الله. هِيَ الَّتِي لَا تصح لَا إله إِلَّا الله إلاّ بتوافرها. وَهِي سَبْعَة نظمها أحد الْعلمَاء فِي قَوْله:

علم يَقِين وإخلاص وصدقك مَعَ ... محبَّة وانقياد وَالْقَبُول لَهَا[1]

كَمَا جمعهَا الشَّيْخ حَافظ فِي قَوْله:

وبشروط سَبْعَة قد قيدت ... وَفِي نُصُوص الْوَحْي حَقًّا وَردت
فَإِنَّهُ لم ينْتَفع قَائِلهَا ... بالنطق إِلَّا حَيْثُ يستكملها
وَالْعلم وَالْيَقِين وَالْقَبُول ... والانقياد فادرِ مَا أَقُول
والصدق وَالْإِخْلَاص والمحبه ... وفقك الله لما أحبه[2]

والآن نشرع فِي بَيَان كل شَرط مِنْهَا بِشَيْء من الْإِيضَاح:

الشَّرْط الأول: الْعلم.

الْعلم لُغَة: نقيض الْجَهْل. تَقول: عَلِمه عِلْمًا - أَي: عرفه حق الْمعرفَة، وَفِي التَّنْزِيل: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ الْآيَة.

وَعلم الرجل: خَبره، وَأحب أَن يُعلمهُ: أَن يُخبرهُ. وَعلم بالشَّيْء: شعر بِهِ ودرى. يُقَال: مَا علمت بِخَبَر قدومك، أَي: مَا شَعرت. وَفِي التَّنْزِيل: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ [يس: ٢٦، ٢٧] الْآيَة. وَعلم الْأَمر وتعلمه: أتقنه.

وَعلمت الْعلم نَافِعًا: أيقنت وصدقت. وفى التَّنْزِيل: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ

(١) لم أَقف على قَائِله.
(٢) «معارج الْقبُول» (٢/٤١٨ - ٤١٩).

مُؤۡمِنَٰتٍ﴾ الْآيَة[١].

وَفِي الِاصْطِلَاح: عُرِّف بتعاريف كَثِيرَة، اخْتَرْت مِنْهَا هَذَا التَّعْرِيف، وَهُوَ: معرفَة الْمَعْلُوم على مَا هُوَ بِهِ[٢].

وَقد اخْتَارَهُ أَبُو يعلى فِي كِتَابه «الْعدة»[٣]. - بعد أَن عرض بعض التعاريف وناقشها مُبينًا عدم صِحَّتهَا وَأَن هَذَا التَّعْرِيف هُوَ الصَّحِيح. وَذَلِكَ أَن هَذَا الْحَد - كَمَا قَالَ القَاضِي أَبُو بكر: «يحصره على مَعْنَاهُ وَلَا يدْخل فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَلَا يخرج مِنْهُ شَيْئًا هُوَ مِنْهُ. وَالْحَد إِذا أحَاط بالمحدود على هَذَا السَّبِيل وَجب أَن يكون حدًّا ثَابتًا صَحِيحًا... وَقد ثَبت أَن كل علم تعلق بِمَعْلُوم فَإِنَّهُ معرفَة لَهُ، وكل معرفَة لمعلوم فَإِنَّهَا علم بِهِ، فَوَجَبَ تَوْثِيق الْحَد الَّذِي حددنا بِهِ الْعلم»[٤].

وَعَلِيهِ فالعلم بِلَا إِلَه إِلَّا الله: مَعْرفَتهَا بحقيقتها. وَهُوَ: أَن تعلم بمعناها نفيًا وإثباتًا علمًا منافيًا للْجَهْل.

وَمَعْنَاهَا: الْبَرَاءَة من كل مَا يُعبد من دون الله، وإخلاص الْعِبَادَة لله وَحده بِاللِّسَانِ وَالْقلب وَسَائِر الْجَوَارِح[٥].

وَقد دلّ الْكتاب وَالسّنة على ذَلِك: فَمن الْكتاب: قَوْله تَعَالَى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الْآيَة.

وَهَذِه الْآيَة - كَمَا نرى - صَرِيحَة فِي اشْتِرَاط الْعلم بِلَا إِلَه إِلَّا الله.

(١) انظر: «لسان العرب» مَادَّة علم (٢/ ٨٧٠ - ٨٧١)، و«المعجم الْوَسِيط» مَادَّة علم (٢/ ٦٢٤)، و«معجم متن اللُّغَة» مَادَّة علم (٤/ ١٩٤).

(٢) هَذَا التَّعْرِيف لِلْقَاضِي أبي بكر انظر: «التَّمْهِيد» (ص٣٤).

(٣) (١/ ٧٦).

(٤) «التَّمْهِيد» للباقلاني (ص٣٤).

(٥) انظر: «الفتاوى» (١٣/ ٢٠٠).

قال الْوَزِير أَبُو المظفر فِي الإفصاح: «قَوْله: «شَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله» يَقْتَضِي أَن يكون الشَّاهِد عَالمًا بِأَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا الله. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1].

وَقَوله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦].

وَالشَّاهِد قَوْله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

إِذن الْمُرَاد بِشَهَادَة الْحق: قَول لَا إِلَه إِلَّا الله[2]. فَيكون الْمَعْنى: إِلَّا من شهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وهم يعلمُونَ معنى مَا نطقوا بِهِ.

وَقَوله تَعَالَى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الْآيَة.

وَمن السّنة: قَوْله ﷺ: «**من مَاتَ وَهُوَ يعلم أَن لَا إِلَه إِلَّا الله دخل الْجنَّة**»[3].

وَقَوله ﷺ فِيمَا رَوَاهُ عبَادَة بن الصَّامِت قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**من شهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ وَأَن مُحَمَّدًا عَبده وَرَسُوله وَأَن عِيسَى عبد الله وَرَسُوله وكلمته أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَم وروح مِنْهُ، وَالْجنَّة حق، وَالنَّار حق؛ أدخلهُ الله الْجنَّة على مَا كَانَ من الْعَمَل**»[4].

---

(١) «فتح الْمجِيد» (ص٣٦ - ٣٧).

(٢) انْظُر: «تَفْسِير الْبَغَوِيّ» (٧/ ٢٢٤)، و«تَفْسِير المراغي» (٢٥/ ١١٦)، و«فتح الْقَدِير» (٤/ ٥٦٧).

(٣) رَوَاهُ مُسلم فِي كتاب الْإِيمَان، بَاب الدَّلِيل على أَن من مَاتَ على التَّوْحِيد دخل الْجنَّة قطعًا (١/ ٢١٨). وَأحمد فِي «مُسْنده» (٣/ ١١).

(٤) رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي كتاب الْأَنْبِيَاء، بَاب قَوْله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾... الْآيَة (٦/ ٤٧٤). وَمُسلم فِي كتاب الْإِيمَان، بَاب الدَّلِيل على أَن من مَاتَ على التَّوْحِيد دخل الْجنَّة قطعًا (١/ ٢٢٣).

وَالشَّاهِد: قَوْله: «من شهد» كَيفَ يشْهد وَهُوَ لَا يعلم، إِذْ مُجَرّد النُّطْق بالشَّيْء لَا يُسمى شَهَادَة بِهِ[(١)].

هَذِه بعض الْأَدِلَّة من الْكتاب وَالسّنة الَّتِي توضح شَرْطِيَّة الْعلم بِلَا إِلَه إِلَّا الله، ولاشك أَن الْعلم لَا يكون علمًا إِلَّا إِذا كَانَ نَافِعًا، وَلَا يكون نَافِعًا إِلَّا مَعَ الْعَمَل. فَمن لم يَنْتَفع بِهَذِهِ الشَّهَادَة بِالْعَمَلِ بِمَا تَقْتَضِيه لم يَتَحَقَّق لَدَيْهِ شَرط الْعلم.

قال البقاعي: ««لَا إِلَه إِلَّا الله» أَي: انْتَفَى انْتِفَاء عَظِيمًا أَن يكون معبودًا بِحَق غير الْملك الْأَعْظَم، فَإِن هَذَا الْعلم هُوَ أعظم الذكرى المنجية من أهوال السَّاعَة، وَإِنَّمَا يكون علمًا إِذا كَانَ نَافِعًا، وَإِنَّمَا يكون نَافِعًا إِذا كَانَ مَعَ الإذعان وَالْعَمَل بِمَا تَقْتَضِيه، وَإِلَّا فَهُوَ جهل صِرف»[(٢)].

وَالْمرَاد من هَذِه الْكَلِمَة - كَمَا ذكرت آنِفًا - مَعْنَاهَا وتحقيقها بِالْعَمَلِ بمقتضاها لَا مُجَرّد لَفظهَا، فَإِن الْمُنَافِقين كَانُوا يَقُولُونَهَا وهم تَحت الْكفَّار فِي الدَّرك الْأَسْفَل من النَّار.

وَالْكفَّار - مَعَ جهلهم بِمَا جَاءَ فِي الْكتاب وَالسّنة - يعلمُونَ أَن مُرَاد النَّبِي ﷺ بِهَذِهِ الْكَلِمَة هُوَ إِفْرَاد الله بالتعلق وَالْكفْر بِمَا يُعبد من دون الله والبراءة مِنْهُ، فَإِنَّهُ لما قَالَ لَهُم: «قُولُوا: لَا إِلَه إِلَّا الله» قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

فَإِذا عَرَفت أَن جهال الْكفَّار يعْرفُونَ ذَلِك، فالعجب مِمَّن يَدعِي الْإِسْلَام وَهولا يعرف من تَفْسِير هَذِه الْكَلِمَة مَا عرفه جهال الْكَفَرَة، بل يظنّ أَن ذَلِك هُوَ التَّلَفُّظ بحروفها من غير اعْتِقَاد الْقلب لشَيْء من الْمعَانِي، والحاذق مِنْهُم

---

(١) انْظُر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٥٣).

(٢) «فتح الْمجِيد» (ص٣٨)، و«تيسير العزيز الحميد» (ص٥٦).

يظنّ أَن مَعْنَاهَا: لَا يخلق وَلَا يرْزق إِلَّا الله. فَلَا خير فِي إِنْسَان جهال الْكفَّار أعلم مِنْهُ بِلَا اله إِلَّا الله.

وبسبب هَذَا الْجَهْل ضل من ضل مِنْهُم حِين قلبوا حَقِيقَة الْمَعْنى فأثبتوا الإلهية المنفية لمن نفيت عَنهُ من المخلوقين أَرْبَاب الْقُبُور والمَشاهد وَالْأَشْجَار والأحجار وَالْجِنّ وَغير ذَلِك. فَلهَذَا تجدهم يَقُولُونَ: (لَا إِلَه إِلَّا الله) وهم يدعونَ مَعَ الله غَيره، وَمَا ذَاك إِلَّا بِسَبَب الْجَهْل بِمَعْنى لَا إِلَه إِلَّا الله[(١)].

وَالْحد الْأَدْنَى للْعلم بِشَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله الْعلم بمعناها بِصُورَة إجمالية، وَيَأْتِي بعد هَذَا الْحَد دَرَجَات يتفَاوَت النَّاس فِيهَا فِي الْعلم بِهَذِهِ الشَّهَادَة، أَعْلَاهَا البصيرة الَّتِي تكون بِنِسْبَة الْمَعْلُوم فِيهَا إِلَى الْقلب كنسبة المرئي إِلَى الْبَصَر[(٢)].

وبقدر الْعلم وَالْجهل يحصل التَّفَاضُل فِي الإيمان بهَا، إِذْ إِن الْعلم يسْتَلْزم الْعَمَل، فَكلما زَاد الْعلم زَاد الْعَمَل، وَبِذَلِك يزْدَاد الْإِيمَان وَمن ثَمَّ يحصل التَّفَاضُل فِيهِ.

رُوِيَ عَن أنس عَن النَّبِي ﷺ أَنه قَالَ: **«يخرج من النَّار من قَالَ لَا إله إِلَّا الله وَفِي قلبه وزن شعيرَة من خير، وَيخرج من النَّار من قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله وَفِي قلبه وزن بُرّة من خير، وَيخرج من النَّار من قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله وَفِي قلبه وزن ذرة من خير»**[(٣)].

وَفِي رِوَايَة عَن أنس عَن النَّبِي ﷺ: **«من إِيمَان»** مَكَان **«من خير»**[(٤)].

(١) انْظُر: «كشف الشُّبُهَات» (ص٩)، و«فتح الْمجِيد» (ص٣٥) (الْمَتْن والحاشية).
(٢) انْظُر: «فتح الْمجِيد» (ص٨١).
(٣) رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي الْإِيمَان، بَاب زِيَادَة الْإِيمَان ونقصانه (١/ ١٠٣).
(٤) المصدر السابق.

الْمُرَاد بقوله: «من خير» من إِيمَان. بِدَلِيل الرِّوَايَة الْأُخْرَى.

والْحَدِيث ظَاهر الدّلَالَة بمنطوقه على تفاضل أهل الْإِيمَان فِيهِ، وبمفهومه على زِيَادَته ونقصانه(١).

وَهَذَا التَّفَاضُل فِي الْإِيمَان من أثر الْعلم وَالْجهل، فَكلما ازْدَادَ الْإِنْسَان علمًا كَانَ إيمَانه أفضل.

وَيُؤَيّد ذَلِك قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابْن كثير: «أَي: إِنَّمَا يخشاه حق خَشيته الْعلمَاء العارفون بِهِ... لِأَنَّهُ كلما كَانَت الْمعرفَة بِهِ أتم وَالْعلم بِهِ أكمل، كَانَت الخشية لَهُ أعظم وَأكْثر»(٢).

وَعَلِيهِ فإيمان الْعلمَاء أفضل من إِيمَان غَيرهم.

وَقَوله تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

أَشَارَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي هَذِه الْآيَة - إِلَى أَن الْعَالم(٣). لَا يَسْتَوِي مَعَ غير الْعَالِم بل بَينهمَا تفاضل، وَمِن أوجه التَّفَاضُل: التَّفَاضُل فِي الْإِيمَان.

وَعَلِيهِ: فَكلما ازْدَادَ الْإِنْسَان علمًا بِلَا إِلَه إِلَّا الله كَانَ إيمَانه بهَا أفضل.
وَبِذَلِك يَتَّضِح أَن الْعلم بِلَا إِلَه إِلَّا الله (بمعناها ومقتضاها المستلزم للْعَمَل) أحد شُرُوط لَا إِلَه إِلَّا الله الَّتِي لَا تصح إِلَّا بهَا. وَأَن الْعلم بهَا يتَفَاوَت، وبقدر الْعلم وَالْجهل يحصل التَّفَاضُل فِي الْإِيمَان بهَا. وَالله أعلم.

---

(١) انْظُر: «معارج الْقبُول» (٣/ ١٠٠٥ - ١٠٠٦).

(٢) «تَفْسِير ابْن كثير» (٣/ ٥٥٣).

(٣) الْمُرَاد الْعَالم: الْعَامِل بِعِلْمِهِ، إِذْ إن الْعلم لَا يُسمى علمًا إِلَّا إِذا كَانَ نَافِعًا، وَلَا يكون نَافِعًا إِلَّا مَعَ الْعَمَل.

الشَّرْط الثَّانِي: الْيَقِين.

الْيَقِين: لُغَة: هُوَ زَوَال الشَّك، وَتَحْقِيق الْأَمر، وَالْعلم بِهِ.

وَهُوَ: نقيض الشَّك، كَمَا أَن الْعلم نقيض الْجَهْل.

وَالْمَوْت، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩].

وَرُبمَا عبروا بِالظَّنِّ عَن الْيَقِين وباليقين عَن الظَّن، قَالَ: أَبُو سِدْرَة الْأَسدي وَيُقَال الهُجَيْمِي:

تحسب هواس وأيقن أنني بهَا مقتد من وَاحِد لَا أغامره

يَقُول: تشمم الْأسد نَاقَتي يظنّ أنني أفتدي بهَا مِنْهُ وأستحمي نَفسِي فأتركها لَهُ وَلَا أقتحم المهالك بمقاتلته.

وَحقّ الْيَقِين، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١﴾ [الحاقة: ٥١] هُوَ خالصه وأصحه[١].

وَفِي الِاصْطِلَاح: اعْتِقَاد الشَّيْء بِأَنَّهُ كَذَا مَعَ اعْتِقَاد أَنه لَا يُمكن إِلَّا كَذَا مطابقًا للْوَاقِع غير مُمكن الزَّوَال[٢].

وَالْمرَاد هُنَا: أَن يكون قَالَ: لَا إِلَه إِلَّا الله مُسْتَيْقنًا قلبه بمدلول هَذِه الْكَلِمَة يَقِينًا جَازِمًا منافيًا للشَّك.

فَمن قَالَهَا وهوشاك فِي شَيْء مِمَّا دلّت عَلَيْهِ من مَعْنَاهَا لم يتَحَقَّق لَدَيْهِ هَذَا الشَّرْط[٣].

---

(١) انْظُر: «لسان العرب» مَادَّة يقن (٣/ ١٠١٥)، و«معجم متن اللُّغَة» مَادَّة يقن (٥/ ٨٣٨)، و«الصحاح» للجوهري مَادَّة يقن (٦/ ٢٢١٩).

(٢) انْظُر: «التعريفات» للجرجاني (ص٢٨٠).

(٣) انْظُر: «بَيَان مسَائِل الْكفْر وَالْإِيمَان» (ص١٦٣ - ١٦٤)، و«الكواشف الجلية» =

والأدلة على ذَلِك كَثِيرَة من الْكتاب وَالسّنة.

فَمن الْكتاب: قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥] فالآية تدل على أَن من شُرُوط صدق إِيمَان الْمُؤمنِينَ بِاللَّه وَرَسُوله الَّذِي هُوَ معنى الشَّهَادَة - كَونهم متيقنين بهَا لم يرتابوا - أَي: لم يشكّوا - فَمن ارتاب فَلَيْسَ بِمُؤْمِن بل هُوَ من الْمُنَافِقين الَّذين قَالَ الله تَعَالَى فيهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: ٤٥].

وَمن السّنة مَا ورد فِي الصَّحِيح عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أشهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُول الله، لَا يلقى الله بهما عبد غير شَاك فيهمَا إِلَّا دخل الْجنَّة**»(١).

وَقَوله ﷺ لأبي هُرَيْرَة: «**اذْهَبْ بنعلي هَاتين، فَمن لقِيت وَرَاء هَذَا الْحَائِط يشْهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله مُسْتَيْقنًا بهَا قلبه فبشره بِالْجنَّةِ**»(٢).

وَقَوله ﷺ فِيمَا رَوَاهُ معَاذ أَنه ﷺ قَالَ: «**مَا من نفس تَمُوت وَهِي تشهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُول الله يرجع ذَلِك إِلَى قلب موقن إِلَّا غفر الله لَهَا**»(٣).

= (ص٢١)، و«فتح الْمجِيد» (ص٣٥).

(١) رَوَاهُ مُسلم فِي كتاب الْإِيمَان، بَاب الدَّلِيل على أَن من مَاتَ على التَّوْحِيد دخل الْجنَّة قطعًا (١/ ٢٢٤)، وأحمد فِي «مُسْنده» (٣/ ١١)، وانْظُر: «كنز الْعمَّال» حديث (١١٦).

(٢) رَوَاهُ مُسلم فِي كتاب الْإِيمَان، بَاب أَن من مَاتَ على التَّوْحِيد دخل الْجنَّة قطعًا (١/ ٢٣٧).

(٣) **حسن**: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٩٩٨)، وفيه من طريق أنس بن مالك بالأرقام (٢٢٠٠٣)، و(٢٢٠٠٩)، و(٢٢٠٨٣)، و(٢٢٠٩١). =

فَهَذِهِ الْأَحَادِيث - كَمَا نرى - تدل صَرَاحَة على اشْتِرَاط الْيَقِين بِالشَّهَادَةِ بل سَمَّاهُ بعض الْأَئِمَّة أصل الْإِيمَان كَمَا قَالَ ابْن حجر فِي شَرحه لقَوْل ابْن مَسْعُود: (الْيَقِين الْإِيمَان كُله)[1].

إِن مُرَاد ابْن مَسْعُود أَن الْيَقِين هُوَ أصل الْإِيمَان، فَإِذا أَيقَن الْقلب - كَمَا يَنْبَغِي - انبعثت الْجَوَارِح كلهَا للقاء الله بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَات. حَتَّى قَالَ

= ومن طريق كثير بن مُرة (٢٢٠٣٤)، و(٢٢١٢٧).

ومن طريق جابر بن عبد الله عمن شهد معاذًا حين حضرته الوفاة برقم (٢٢٠٦٠).

وفيه بنحوه من طريق شهر بن حوشب (٢٢١٠٢).

و«صحيح ابن حبان» (٢٠٣)، وفي الباب عن عبد الله بن عمرو.

وعن أبي هريرة في «المسند» برقم (٩٤٦٦). وانظر: تتمة الشواهد عندهما.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ (٧٢)، وفي «الدعاء» (١٤٦٧) عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، بإسناده.

وأخرجه البزار في «مسنده» (٢٦٢١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١١٣٦)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٧٩٢-٧٩٣)، والمزي في ترجمة هصان بن الكاهن من «تهذيب الكمال» (٢٠/ ٢٩١) من طريق إسماعيل بن علية، به.

وأخرجه الحميدي (٣٧٠)، وابن ماجه (٣٧٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ (٧٢)، وفي «الدعاء» (١٤٦٧) من طرق عن يونس بن عبيد، به.

وأخرجه البزار (٢٦٢٣) من طريق سهل بن أسلم العدوي، والشاشي في «مسنده» (١٣٣٦)، و(١٣٣٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٧١)، وفي «الدعاء» (١٤٦٦) من طريق أيوب بن أبي تميمة السختياني، كلاهما عن حميد بن هلال، به.

وأخرجه الحاكم (٣/ ٢٤٧) من طريق موسى بن جبير، عن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف، عن نفر، عن معاذ. وذكر فيه قصة أخرى.

(١) هَذَا طرف من أثر وَصله الطَّبَرَانِيّ بِسَنَد صَحِيح. وبقيته (وَالصَّبْر نصف الْإِيمَان) وقد تعلق بِهَذَا الْأَثر من قَالَ: إِن الْإِيمَان مُجَرّد التَّصْدِيق. وَأجِيب بِأَن مُرَاد ابْن مَسْعُود أَن الْيَقِين أصل الْإِيمَان. انْظُر: «فتح الْبَارِي» (١/ ٤٨).

سُفْيَان الثَّوْرِيّ: «لَو أَن الْيَقِين وَقع فِي الْقلب - كَمَا يَنْبَغِي - لطار اشتياقًا إِلَى الْجنَّة وهربًا من النَّار»[١].

إِذا عرفنَا مَا ذكر اتَّضَح أهمية الْيَقِين بِالشَّهَادَةِ وَأَنه فضلًا عَن كَونه شرطًا لتحققها وفارقًا بَين الْمُؤمن وَالْمُنَافِق وشرطًا للمغفرة وَدخُول الْجنَّة - أَنه أصل الْإِيمَان، كَمَا قَالَ ابْن حجر.

أما القَوْل بِأَن التَّلَفُّظ بِالشَّهَادَتَيْنِ بِدُونِ استيقان الْقلب كافٍ فِي الإِيمان فَهُوَ مَذْهَب غلاة المرجئة - والآيات وَالْأَحَادِيث الآنف ذكرهَا كلهَا تدل على فَسَاده، بل هُوَ مَذْهَب مَعْلُوم الْفساد من الشَّرِيعَة لمن وقف عَلَيْهَا، وَلِأَنَّهُ يلْزم مِنْهُ تسويق النِّفَاق وَالْحكم لِلْمُنَافِقِ بِالْإِيمَان الصَّحِيح، وَهُوَ بَاطِل قطعًا[٢] وَالله أعلم.

الشَّرْط الثَّالِث: الْإِخْلَاص.

الْإِخْلَاص: لُغَة: مصدر أخلص يخلص. وَهُوَ يرد لمعانٍ. مِنْهَا: تنقية الشَّيْء وتهذيبه، تَقول: أخلصت السّمن: أَي جعلته خَالِصًا. وأخلص لله دينه: أمحضه وَترك الرِّيَاء فِيهِ. فَهُوَ عبد مخلص. وأخلص الشَّيْء: اخْتَارَهُ.

وَقُرِئَ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: ٤٠] بِكَسْر اللَّام وَفتحهَا - قَالَ ثَعْلَب: يَعْنِي بالمخلِصين: الَّذين أَخْلصُوا الْعِبَادَة لله تَعَالَى، وبالمخلَصين: الَّذين أخلصهم الله عز وَجل.

وقال الزّجاج فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ الْآيَة [مريم: ٥١] وَقُرِئَ: مخلِصًا. والمخلَص: الَّذِي جعله الله مُخْتَارًا خَالِصًا

---

(١) «فتح الْبَارِي» (١/ ٤٨).

(٢) انْظُر: «الْمُفْهم شرح صَحِيح مُسلم» (١/ ١٦٠)، و«المعلم بفوائد مُسلم» لِلْإِمَام أبي عبد الله مُحَمَّد بن عَليّ الْمَازرِيّ (١/ ١٩٤).

من الدنس. والمخلِص: الَّذِي وَحّد الله تَعَالَى خَاصًّا. وَلذَلِك قيل لسورة «قل هُوَ الله أحد» سُورَة الْإِخْلَاص.

قَالَ ابْن الْأَثِير: سميت بذلك لِأَنَّهَا خَالِصَة فِي صفة الله، تَعَالَى وتقدس. أَو لِأَن اللافظ بهَا قد أخلص التَّوْحِيد لله عز وَجل. وَسميت كَذَلِك (لَا إِلَه إِلَّا الله) كلمة الْإِخْلَاص لِأَن اللافظ بهَا قد أخْلص التَّوْحِيد لله عز وَجل[١].

وَحَقِيقَة الْإِخْلَاص: هُوَ تصفية الْعَمَل لله بالتبري من دونه[٢].

قال الْغَزالِيّ – فِي بَيَان حَقِيقَة الْإِخْلَاص –: «اعْلَم أَن كل شَيْء يُتصّور أَن يشوبه غَيره فَإِذا صفا عَن شوبه وخلص عَنهُ سُمي خَالِصًا، وَيُسمى الْفِعْل الْمُصَفّى: المخلص. والتصفية إخلاصًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وَالْإِخْلَاص يضاده الْإِشْرَاك... فمهما كَانَ الْبَاعِث وَاحِدًا على التجرد سُمي الْفِعْل الصَّادِر عَنهُ إخلاصًا... وَلَكِن الْعَادة جَارِيَة بتخصيص اسْم الْإِخْلَاص بتجريد قصد التَّقَرُّب إِلَى الله تَعَالَى عَن جَمِيع الشوائب...»[٣].

فَمَن لم يخلص الْعِبَادَة لله تَعَالَى بِأَن أَرَادَ بهَا الرِّيَاء أَو السمعة أَو الدُّنْيَا أَو نَحْوهَا، لم يُحَقّق الشَّهَادَة لانْتِفَاء شَرط الْإِخْلَاص[٤].

---

(١) انْظُر: «لسان العرب» مَادَّة خلص (٢٨/ ٢٦ – ٢٨)، و«معجم مقاييس اللُّغَة» مَادَّة خلص (٢/ ٢٠٨)، و«الصحاح» للجوهري مَادَّة خلص (٣/ ٣٣ ١٠)، و«تاج العروس» مَادَّة خلص (٤/ ٣٨٩ – ٣٩٠).

(٢) انظر: «تاج العروس» (٤/ ٣٩٠).

(٣) «الْإِحْيَاء» (٤/ ٣٧٩).

(٤) انْظُر: «فتح الْمجِيد» (ص٣٨)، و«الْكَلَام الْمُنْتَقى» (ص٣٠).

قال شيخ الْإِسْلَام ابْن تيمية: «وأصل الْإِسْلَام أشهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَن مُحَمَّدًا رَسُول الله، فَمن طلب بِعِبَادَتِهِ الرِّيَاء والسمعة فَلم يُحَقق شَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله»[1] لِأَنَّهُ لم يخلص فِي مقتضاها.

وَإِلَيْك بعض الْأَدِلَّة من الْكتاب وَالسّنة الَّتِي تُشِير إِلَى هَذَا الشَّرْط:

فَمن الْكتاب: قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ١، ٢] الْآيَة.

وَقَوله تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤﴾ [الزمر: ١٤].

وَقَوله تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥] الآية.

وَمن السّنة مَا يَلِي:

عَن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**قَالَ الله تَعَالَى: أَنا أغْنى الشُّرَكَاء، مَن عَمِل عملاً أشرك فِيهِ معي غَيْرِي تركته وشركه**»[2].

وَعَن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قيل: يَا رَسُول الله من أسعد النَّاس بشفاعتك يَوْم الْقِيَامَة؟ فَقَالَ ﷺ: «**لقد ظَنَنْت يَا أَبَا هُرَيْرَة أَن لَا يسْأَل عَن هَذَا الحَدِيث أحد أوَّل مِنْك لما رَأَيْت من حرصك على الحَدِيث، أسعد النَّاس بشفاعتي يَوْم الْقِيَامَة من قَالَ: لَا إِلَه إِلَّا الله خَالِصًا من قلبه**». وَفِي رِوَايَة: «**خَالِصَة من قلبه**»[3].

وَعَن عتْبَان بن مَالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَن النَّبِي ﷺ قَالَ: «**الله حرم على النَّار من قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله يَبْتَغِي بذلك وَجه الله عز وَجل**»[4].

---

(١) «الفتاوى» (١١/ ٦١٧).

(٢) رَوَاهُ مُسلم فِي الزّهْد بَاب تَحْرِيم الرِّيَاء (١٨/ ١١٥).

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيّ وَكتاب الْعلم، بَاب الْحِرْص على الحَدِيث (١/ ١٩٣)، وَأحمد فِي «مُسْنده» (٢/ ٣٧٣).

(٤) رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي الرقَاق، بَاب الْعَمَل الَّذِي يُبتغى بِهِ وَجه الله (١١/ ٢٤١)، =

وَعَن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**مَا قَالَ عبد لَا إِلَه إِلَّا الله مخلصًا من قلبه، إِلَّا فُتحت لَهُ أَبْوَاب السَّمَاء حَتَّى تُفْضِي إِلَى الْعَرْش مَا اجتنب الْكَبَائِر**»(١).

هَذِه بعض الْأَدِلَّة من الْكتاب وَالسّنة الَّتِي تؤكد شَرْطِيَّة الْإِخْلَاص وأهميته، بل هُوَ حَقِيقَة الْإِسْلَام.

قَالَ شيخ الْإِسْلَام: «وَأما الْإِخْلَاص فَهُوَ حَقِيقَة الْإِسْلَام إِذِ «الْإِسْلَام» هُوَ الاستسلام لله لَا لغيره كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ﴾ [الزمر: ٢٩] فَمن لم يستسلم لله فقد استكبر، وَمن استسلم لله وَلغيره فقد أشرك، وكل من الْكِبر والشرك ضد الْإِسْلَام، وَالْإِسْلَام ضد الشّرك وَالْكبر»(٢).

فلابد من الْإِخْلَاص لله تَعَالَى فِي جَمِيع أَنْوَاع الْعِبَادَة، وَهُوَ مَا تَقْتَضِيه شَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله.

قَالَ الشَّيْخ عبد الرَّحْمَن بن حسن فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وَلم يُحَقّق الْإِخْلَاص لله تَعَالَى من دَعَا غَيره وَإِن كَانَ نَبيًّا أَو صَالحًا أَو مَلَكًا أَو استشفع بجاههم أَو ذاتهم إِلَى الله تَعَالَى فِي طلب خير أَو كشف ضرّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ

= وَمُسلم فِي كتاب الْمَسَاجِد ومواضع الصَّلَاة، بَاب الرُّخْصَة فِي التَّخَلُّف عَن الْجَمَاعَة لعذر (٥/ ١٦٠).

(١) **حسن:** أخرجه التِّرْمِذِيّ فِي كتاب الدَّعْوَات، بَاب رقم (١٢٧) برقم (٣٥٩٠) بِإِسْنَاد حسن وَانْظُر: «جَامع الْأُصُول» (٤/ ٣٩) (الْمَتْن والحاشية).

(٢) «الفتاوى» (١٠/ ٨٣).

ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

كَذَلِك لم يُحَقّق الْإِخْلَاص لله تَعَالَى من أطَاع غَيره وَغير رَسُوله فِي تَحْلِيل مَا حرم الله أَو تَحْرِيم مَا أحل الله عَن رضَا وطمأنينة قلب، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

هَذَا هُوَ الْإِخْلَاص الْمُشْتَرط فِي الشَّهَادَة، فَالْعَمَل لَا يُقبل إِذا لم يكن خَالِصًا وَإِن كَانَ صَوَابًا.

قَالَ الفضيل بن عِيَاض: فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الْآيَة [هود: ٧]. قَالَ: «أخلصه وأصوبه. قَالُوا: يَا أَبَا عَليّ مَا أخلصه وأصوبه؟ قَالَ: إِن الْعَمَل إِذا كَانَ خَالِصًا وَلم يكن صَوَابًا لم يُقبل، وَإِذا كَانَ صَوَابًا وَلم يكن خَالِصًا لم يُقبل، حَتَّى يكون خَالِصًا صَوَابًا. والخالص: أَن يكون لله. وَالصَّوَاب: أَن يكون على السّنة. وَذَلِك تَحْقِيق قَوْله تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]»[1].

الشَّرْط الرَّابِع: الصدْق الْمنَافِي للكذب.

الصدْق: لُغَة: مصدر صدق، تَقول: صدق يصدق صَدقًا وصِدقًا - يفتح وَيكسر، وَالْكَسْر أفْصح - أَو الْفَتْح للمصدر، وَالْكَسْر للاسم. ضد الْكَذِب. وَهُوَ مُطَابقَة الْكَلَام للْوَاقِع بِحَسَب اعْتِقَاد الْمُتَكَلّم. والشجاعة، والصلابة والشدة، ومحض النَّصِيحَة والإخاء وكل مَا نسب إِلَى الْخَيْر وَالصَّلَاح

(١) انظر: «مَجْمُوع الفتاوى» لشيخ الْإِسْلَام (١/ ٣٣٣).

أضيف إِلَى الصدْق وَالْأَمر الصَّالح لَا شية فِيهِ من نقص أَو كذب. وَفِي التَّنْزِيل قَوْله تَعَالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ الْآيَة [الإسراء: ٨٠][١].

وَالْمرَاد هُنَا: أَن يَقُول الْمَرْء لَا إِلَه إِلَّا الله صَادِقا من قلبه بمعناها ومقتضاها صدقا منافيًا للكذب.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١- ٣]. وقال تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة: ٨- ١٠] وقال تَعَالَى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ الْآيَة [الأحزاب: ٢٤].

وقال تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

وقال تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١١٩﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝٣٣﴾ [الزمر: ٣٣].

---

(١) انْظُر: «لسان العرب» مَادَّة صدق (٢/ ٤٢٠ - ٤٢١)، و«معجم متن اللغة» (٣/ ٤٣٤)، والصحاح للجوهري مَادَّة صدق (٤/ ١٥٠٥ - ١٥٠٦). و«المعجم الْوَسِيط» مَادَّة صدق (١/ ٥١١).

عَن ابْن عَبَّاس قَالَ: «من جَاءَ بِلَا إِلَه إِلَّا الله»[١].

وقال ابْن الْقيم: «هُوَ مَن شَأْنه الصدْق فِي قَوْله وَعَمله وحاله: فالصدق فِي الْأَقْوَال: اسْتِوَاء اللِّسَان على الْأَقْوَال كاستواء السنبلة على سَاقهَا. والصدق فِي الْأَعْمَال: اسْتِوَاء الْأَفْعَال على الْأَمر والمتابعة كاستواء الرَّأْس على الْجَسَد. والصدق فِي الْأَحْوَال: اسْتِوَاء أَعمال الْقلب والجوارح على الْإِخْلَاص واستفراغ الوسع وبذل الطَّاقَة. فبذلك يكون العَبْد من الَّذين جَاءُوا بِالصّدقِ وبحسَب كَمَال هَذِه الْأُمُور فِيهِ وقيامها بِهِ تكون صدقيته»[٢].

من كَلَام ابْن الْقيم يَتَّضِح أَن الصدْق الْوَاجِب - وَهُوَ مَا دلّت عَلَيْهِ الْآيَات - بِمَعْنى الشَّهَادَة ومقتضاها قولًا وَعَملًا وَحَالًا.

هَذِه بعض الْأَدِلَّة من الْكتاب وَهِي - كَمَا نرى - إِمَّا وَعِيد للكاذبين أَو وعد للصادقين.

أما الْأَدِلَّة من السّنة - فيضيق عَنْهَا الْمقَام - وَإِلَيْك بعضها:

قَوْله ﷺ فِي الْأَعرَابِي الَّذِي علمه شرائع الْإِسْلَام: «**أَفْلح إِن صدق**»[٣].

هَذَا الحَدِيث صَرِيح فِي شَرْطِيَّة الصدْق فِي الْأَقْوَال وَفِي الْأَعْمَال (فِي الصَّلَاة وَالصِّيَام وَالزَّكَاة) وَهِي من مقتضيات لَا إِلَه إِلَّا الله.

وَقَوله ﷺ لأبي مُوسَى - وَمَعَهُ نفر من قومه -: «**أبشروا وبشروا من وَرَائِكُمْ: أَنه من شهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله صَادِقًا بهَا دخل الْجنَّة**»[٤].

---

(١) «الكواشف الجلية» (ص٢٢).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٠).

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي الْإِيمَان بَاب: الزَّكَاة من الْإِسْلَام (١/ ١٠٦). وَمُسلم فِي الْإِيمَان بَاب: بَيَان الصَّلَوَات الَّتِي هِيَ أحد أَرْكَان الْإِسْلَام (١/ ١٦٦ - ١٦٧) عَن طَلْحَة بن عبيد الله.

(٤) **حسن:** في «المسند» (٤/ ٤٠٢) من طريق مؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد بن =

. . . .

= سلمة، حدثنا أبو عمران الجوني، عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه قال: . . . وإن كان سيِّء الحفظ- تابعه بهزُ بنُ أسد العَمِّي وروح بنُ عبادة- كما عند الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٤٠٠٣) - وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، غير حماد بن سلمة، فمن رجال مسلم. أبو عمران الجَوْني: هو عبد الملك بن حبيب الأزدي، وأبو بكر بن أبي موسى: اسمه عمرو أو عامر.

وأخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٤٠٠٣) من طريق روح بن عبادة، عن حماد بن سلمة، بهذا الإسناد.

وفي الباب عن أنس: وفيه أن معاذًا قال للنبي ﷺ: أفلا أبشر الناس؟ فقال ﷺ: «**لا، إني أخاف أن يتكلوا عليها**» وإسناده صحيح.

وعن أبي هريرة، عند مسلم (٣١)، وفيه أن النبي ﷺ أمره أن يُبشر بالجنة من يشهد أن لا إله إلا الله موقنًا بها، فلقيه عمر، فردَّه، وقال للنبي ﷺ: إني أخشى أن يتكل الناس عليها، فخلِّهم يعملون. قال رسول الله ﷺ: «**فخلِّهم**».

وعن جابر عند ابن حبان (١٥١)، وفيه أن النبي ﷺ أمر جابرًا أن يبشر الناس، فردَّه عمر كذلك.

وعن أبي سعيد الخُدري عند البزار (٨) «زوائد»، وفيه أن النبي ﷺ أذن لمعاذ في التبشير، فلقيه عمر، فقال: «**لا تعجل...**» وفي إسناده محمدُ بنُ أبي ليلى وعطية العوفي.

قلنا: وفي النفس شيء من تعدُد القصة على هذا النحو، فهل حصلَتْ مع أبي هريرة وأبي موسى وجابر ومعاذ جميعًا، وفي كل مرة يأمرُ رسولُ الله ﷺ أحدَهم أن يُبشر الناس، ويلقاه عمرُ، ويردُه؟! وإن ردَّ عمرُ الأولَ منهم، ووافقه رسولُ الله ﷺ، فهل يسوغ لعمر إنْ أَمَرَ رسولُ الله ﷺ غيرَه بالتبشير أن يرده كذلك؟! إن الذي تميل إليه النفسُ أن القصةَ وقعت مع أبي هريرة في الحديث الذي رواه مسلم، فإسناد حديث أبي سعيد الخدري ضعيفٌ، ولعل في حديث أبي موسى هذا علَةً لم نقف عليها، وحمادُ بنُ سلمة في بعض حديثه وهم، وكذا في حديث جابر عند ابن حبان! والله أعلم.

وفي باب أن من قال لا إله إلا الله، دخل الجنة: عن عبد الله بن عمرو، في =

وَقَوله ﷺ لِمعَاذ: «... **مَا من أحد يشْهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَن مُحَمَّدًا رَسُول الله صدقًا من قلبه، إِلَّا حرمه الله على النَّار...**» الحَدِيث[1].

هَذِه بعض الْأَدِلَّة من الْكتاب وَالسّنة الَّتِي تَأمر بِالصّدقِ بِلَا إِلَه إِلَّا الله. وَفيها - كَمَا نرى - وعد لمن قَالَهَا صَادِقًا بِأَن يحرمه الله على النَّار ويدخله الْجنَّة. فَأَما من دخل النَّار من أهل هَذِه الْكَلِمَة فلقلة صدقه فِي قَوْلهَا، فَإِن هَذِه الْكَلِمَة إِذا صدق قَائِلهَا طهر قلبه من كل مَا سوى الله، وَمَتى بَقِي فِي الْقلب أثر سوى الله فَمن قلَّة الصدْق فِي قَوْلهَا[2].

وَالْمرَاد بِالصّدقِ: الصدْق بمعناها ومقتضاها قولًا وَعَملًا وَحَالًا - كَمَا اتَّضَح من قَوْل ابْن الْقيم رَحِمَهُ اللهُ - آنِفًا.

أما من قَالَهَا بِلِسَانِهِ فَقَط وَلم يواطئ قَوْله مَا فِي قلبه - كالمنافقين - فَقَوله

= المسند برقم (٦٥٨٦)، وعن أبي هريرة في المسند برقم (٩٤٦٦)، وعن أنس، في المسند برقم (١٢٣٣٢)، وذكرنا في تخريج رواياتهم أحاديث الباب، ونزيد عليها: حديث سهيل بن بيضاء، في المسند برقم (١٥٧٣٨)، وحديث رفاعة بن عرابة، في المسند برقم (١٦٢١٥)، وحديث عتبان بن مالك، في المسند برقم (١٦٤٨١)، وحديث حذيفة، في المسند (٥/ ٣٩١).

قال السندي: قوله: «دخل الجنة» الظاهر أنه ابتداء، ولولا ذلك لما ظهر الاتكال، إلا أن يقال: هو اتكالٌ على الظاهر، والله تعالى أعلم بالسرائر.

(إذًا يتكل الناس): أي: إذا بُشِّروا بهذا يتكلون على التوحيد، ويتركون الأعمال. والحديث هذا في الجزء المفقود من «معجم الطبراني الكبير»، وقد نسبه المتقي الهندي في «كنز العمال» (١/ ٤٧ - ٤٨) برقم (١٣١) إلى أحمد، والطبراني في الكبير.

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ عَن أنس بن مَالك فِي كتاب الْعلم، بَاب من خص الْعلم قومًا دون قوم كَرَاهِيَة أَن لَا يفهموا (١/ ٢٢٦).

(٢) انْظُر: «كلمة الْإِخْلَاص» (ص٥١).

كذب[١]. وَلم يُحَقّق شَيْئًا من هَذَا الشَّرْط. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون: ١].

الشَّرْط الْخَامِس: المحبَّة.

المحبَّة لُغَة: اسْم للحب. وَالحب: نقيض البغض، وَهُوَ الوداد كَمَا يَأْتِي وَيُرَاد بِهِ: الجرة، والخشابات الْأَرْبَع الَّتِي تُوضَع عَلَيْهَا الجرة ذَات العروتين - جمعه: أحباب، وحِببة، وحِبان، وحبوب[٢].

وَفِي اصْطِلَاح الفلاسفة: ميل إِلَى الْأَشْخَاص أَو الْأَشْيَاء العزيزة أَو الجذابة أَو النافعة[٣].

وَالْمرَاد هُنَا: الْمحبَّة، وَهِي: الْمَوَدَّة وَالرَّغْبَة لـ(لا إِلَه إِلَّا الله)، وَلِما اقتضته ودلت عَلَيْهِ من الْأَقْوَال وَالْأَفْعَال محبَّة مُنَافِيَة لضدها.

وَمن ذَلِك: أَن يكون الله سُبْحَانَهُ وَرَسُوله أحب إِلَيْهِ مِمَّا سواهُمَا، والمحبة لأَهْلهَا العاملين بهَا الملتزمين بشروطها، وبغض من نَاقض ذَلِك.

ذَلِك أَنه لَا يحصل لقائلها معرفَة وَقبُول إِلَّا بالمحبة؛ لِأَن الْمحبَّة تدل على الْإِخْلَاص الْمنَافِي للشرك، وَمن أحب الله تَعَالَى أحب دينه[٤].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ

---

(١) انْظُر: «مُخْتَصر العقيدة الإسلامية» (ص٥٨).

(٢) انْظُر: «مُعْجم متن اللُّغَة» مَادَّة حبب (٢/ ٦ - ٨)، و«لسان العرب» مَادَّة حبب (١/ ٥٤٤).

(٣) «المعجم الْوَسِيط» (١/ ١٥١).

(٤) انْظُر: «مُخْتَصر العقيدة الإسلامية» (ص٣٨)، و«بَيَان مسَائِل الْكفْر وَالْإِيمَان» (ص١٦٧).

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ الْآيَة [البقرة: ١٦٥].

وقال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ الْآيَة [المائدة: ٥٤].

وقال تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال ﷺ: «**ثَلَاث من كن فِيهِ وجد بِهن حلاوة الْإِيمَان: من كَانَ الله وَرَسُوله أحب إِلَيْهِ مِمَّا سواهُمَا، وَمن أحب عبدًا لَا يُحِبهُ إِلَّا لله، وَمن يكره أَن يعود فِي الْكفْر بعد إِذْ أنقذه الله مِنْهُ كَمَا يكره أَن يُلقى فِي النَّار**»(١).

وَقَال ﷺ: «**لَا يُؤمن أحدكُم حَتَّى أكون أحب إِلَيْهِ من وَالِده وَولده وَالنَّاس أَجْمَعِينَ**»(٢).

وَقَال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين**»(٣).

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي كتاب الْإِيمَان، بَاب (١٤) (١/ ٧٢)، وَمُسلم فِي كتاب الْإِيمَان، بَاب بَيَان خِصَال من اتّصف بِهن وجد حلاوة الْإِيمَان (٢/ ١٣).

(٢) انْظُر: «مُخْتَصر العقيدة الإسلامية» (ص٣٨)، و«بَيَان مسَائِل الْكفْر وَالْإِيمَان» (ص١٦٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه-كتاب الأيمان والنذور-باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ؟ (١١/ ٥٢٣) عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر =

هَذِه بعض الْأَدِلَّة من الْكتاب وَالسّنة الَّتِي تؤكد وجوب محبَّة الله وَرَسُوله وتقديمهما على كل مَحْبُوب، وَهُوَ مَا تَقْتَضِيه لَا إِلَه إِلَّا الله.

وَعَلِيهِ فالمحبة لله وَرَسُوله الْمَشْرُوطَة - هُنَا - لابد أَن تكون أَكثر من محبَّة غَيرهمَا.

وَانْتِفَاء هَذِه الْمحبَّة رِدة، كَمَا قَالَ ابْن تيمية وَهُوَ يتَكَلَّم عَن الْمُرْتَد: «...أَو كَانَ مبغضًا لرَسُوله أَو لما جَاءَ بِهِ اتِّفَاقًا»[1].

بل إِن من سَاوَى بَين محبَّة الله وَرَسُوله وَبَين محبَّة غَيرهمَا فَلَيْسَ بِمُؤْمِن فضلًا عَمَّن أحب مَا سوى الله وَرَسُوله أَكثر من محبتهما، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ الْآيَة [البقرة: ١٦٥].

ومحبة الله وَرَسُوله لَا تتَحَقَّق إِلَّا بِاتِّبَاع مَا بَلَّغه الرَّسُول ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ الْآيَة [آل عمران: ٣١].

قال ابْن كثير: «هَذِه الْآيَة حاكمة على كل من ادّعى محبَّة الله وَلَيْسَ هُوَ على الطَّرِيقَة المحمدية بِأَنَّهُ كَاذِب... حَتَّى يتبع الشَّرْع المحمدي وَالدّين النَّبَوِيّ فِي جَمِيع أَقْوَاله وأفعاله»[2].

وقال يحيى بن معَاذ: «لَيْسَ بصادق من ادّعى محبَّة الله وَلم يحفظ حُدُوده»[3].

وقال أَبُو يَعْقُوب النهرجوري: «كل من ادّعى محبَّة الله وَلم يُوَافق الله فِي

= ابن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده...**» الحديث.

(١) «الْإِقْنَاع» (٤/ ٢٩٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٨).

(٣) «جَامع الْعُلُوم وَالْحكم» (ص٣٤٠).

أمره، فدعواه بَاطِلَة»(١).

وَمن تَمام محبَّة الله محبَّة مَا يُحِبهُ وَكَرَاهَة مَا يكرههُ. فَمن أحب شَيْئا مِمَّا يكرههُ الله أَو كره شَيْئًا مِمَّا يُحِبهُ الله؛ لم يكمل توحيده وَصدقه فِي قَول (لَا إِلَه إِلَّا الله)، وَكَانَ فِيهِ من الشّرك بِحَسب مَا كرهه مِمَّا يُحِبهُ الله، وَمَا أحبه مِمَّا يكرههُ الله. وَلذَلِك ذمّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَؤُلَاءِ فَقَالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾ [محمد: ٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٢٨﴾ [محمد: ٢٨](٢).

وَفِي صَحِيح الْحَاكِم عَن عَائِشَة عَن النَّبِي ﷺ قَالَ: «**الشّرك فِي هَذِه الْأمة أخْفى من دَبِيب النَّمْل على الصَّفَا فِي اللَّيْلَة الظلماء، وَأَدْنَاهُ أَن تحب على شَيْء من الْجور أَو تبغض على شَيْء من الْعدل...**» الحَدِيث(٣).

قَالَ ابْن رَجَب - بعد سِيَاقه هَذَا الحَدِيث -: «وَهَذَا نَص فِي أَن محبَّة مَا يكرههُ الله وبغض مَا يُحِبهُ مُتَابعَة للهوى، والموالاة على ذَلِك والمعاداة فِيهِ من الشّرك الْخَفي»(٤).

وعلامة حب العَبْد ربه تَقْدِيم محابه وَإِن خَالَفت هَوَاهُ، وبغض مَا يبغض ربه وَإِن مَال إِلَيْهِ هَوَاهُ، وموالاة من والى الله وَرَسُوله ومعاداة من عَادَاهُ، وَاتِّبَاع سنة رَسُوله ﷺ وتقديمها على غَيرهَا من السّنَن(٥).

---

(١) «جَامع الْعُلُوم وَالْحكم» (ص٣٤٠).

(٢) انْظُر: «كلمة الْإِخْلَاص» (ص٣٨)، و«جامع الْعُلُوم وَالْحكم» (ص٣٤٠)، و«الدر المنثور» (٢/ ١٧).

(٣) رَوَاهُ الْحَاكِم فِي «التَّفْسِير» (تَفْسِير آل عمرَان) (٢/ ٢٩١)، وَأَبُو نعيم فِي «الْحِلْيَة» (٩/ ٢٥٣).

(٤) «كلمة الْإِخْلَاص» لِابْنِ رَجَب (ص٣٩).

(٥) «معارج الْقبُول» (٢/ ٤٢٤).

وَمن الْمَعْلُوم أَن الْجَوَارِح تعْمل - فِي الْغَالِب - بِمُقْتَضى الْحبّ والبغض، يَدْفَعهَا حب الشَّيْء إِلَى عمله وبغض الشَّيْء إِلَى تَركه؛ وَلذَا إِذا تمكنت محبَّة الله تَعَالَى فِي الْقلب لم تنبعث الْجَوَارِح إِلَّا إِلَى طَاعَته عز وَجل، وَهَذَا - كَمَا قَالَ ابْن رَجَب[١] - هُوَ معنى الحَدِيث الإلهي الَّذِي خرّجه البُخَارِيّ عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي ﷺ عَن ربه، وَفِيه «... **وَلَا يزَال عَبدِي يتقرَّب إِلَيّ بالنوافل حَتَّى أحبه فَإِذا أحببته كنت سَمعه الَّذِي يسمع بِهِ وبصره الَّذِي يبصر بِهِ وَيَده الَّتِي يبطش بهَا وَرجله الَّتِي يمشي بهَا...**» الحَدِيث[٢].

قال الْفَاكِهَانِيّ: «يحْتَمل... أَن يكون معنى سَمْعه مسموعه؛ لِأَن الْمصدر قد جَاءَ بِمَعْنى الْمَفْعُول مثل (فلَان أملي) بمعني مأمولي. وَالْمعْنَى أَنه لَا يسمع إِلَّا ذكري وَلَا يلتذ إِلَّا بتِلَاوَة كتابي وَلَا يأنس إِلَّا بمناجاتي وَلَا ينظر إِلَّا فِي عجائب ملكوتي وَلَا يمد يَده إِلَّا فِي رضاي وَرجله كَذَلِك». وَبِمَعْنَاهُ قَالَ ابْن هُبَيْرَة[٣]. وَهَذَا يُؤَيّد مَا قَالَه ابْن رَجَب - آنِفًا - فِي معنى الحَدِيث.

الشَّرْط السَّادِس: الانقياد.

الانقياد: لُغَة: الخضوع والذل. تَقول: قدته فانقاد. واستقاد لي، إِذا أَعْطَاك مقادته.

وَفِي حَدِيث عَليّ: قُرَيْش قادة ذادة. أَي: يقودون الجيوش. وَهُوَ جمع قَائِد[٤].

---

(١) انْظُر: «كلمة الْإِخْلَاص» (ص٤٣)، و«الدر المنثور» (٢/ ١٧)، و«جامع الْعُلُوم وَالْحكم» (ص٣٢٠).

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي الرقَاق، بَاب التَّوَاضُع (١١/ ٢٤٠ - ٢٤١)، وَانْظُر: «جَامع الْأُصُول» حَدِيث (٧٢٨٢).

(٣) «فتح الْبَارِي» (١١/ ٣٤٤).

(٤) انْظُر: «لسان العرب» مَادَّة قَود (٣/ ١٨٤)، و«الصحاح» للجوهري مَادَّة قَود =

وَالْمرَاد هُنَا: الانقياد التَّام لـ(لا إِلَه إِلَّا الله) وَلِما اقتضته ظَاهرًا وَبَاطنًا انقيادًا منافيًا للترك.

وَيحصل الانقياد بِالْعَمَلِ بِمَا فَرْضه الله وَترك مَا حرمه والتزام ذَلِك؛ لِأَن الْإِسْلَام حَقِيقَة: أَن يسلم العَبْد بِقَلْبِه وجوارحه لله، وينقاد لَهُ بِالتَّوْحِيدِ وَالطَّاعَة[1].

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤﴾ [الزمر: ٥٤]. وقال تَعَالَى: ﴿**وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ**﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

والآيات - كَمَا نرى - تدل على وجوب الْإِسْلَام لله تَعَالَى.

وَالْمرَاد هُوَ: الاستسلام لله بِالتَّوْحِيدِ والانقياد لما جَاءَ بِهِ الرَّسُول ﷺ عَن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالطَّاعَةِ، وَذَلِك بِالْعَمَلِ بِمَا فَرْضه الله وَترك مَا حرمه والتزام ذَلِك.

وَلَا ينْتَفع قَائِل (لَا اله إِلَّا الله) بهَا إِلَّا بِهَذَا الانقياد. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ الْآيَة [لقمان: ٢٢].

والعروة الوثقى - كَمَا قَالَ ابْن عَبَّاس وَابْن جُبَير وَالضَّحَّاك - هِيَ: لَا إِلَه إِلَّا الله[2].

وكما أَن الاستسلام لله وَاجِب كَذَلِك الاستسلام لرَسُوله ﷺ وَاجِب، فَلَا يُسمى الْإِنْسَان مُؤمنًا إِلَّا بِهِ؛ وَلذَا أقسم الْحق بِنَفسِهِ مؤكدًا هَذَا الْوَاجِب،

= (١/ ٥٢٥)، و«المعجم الْوَسِيط» مَادَّة قَود (٢/ ٧٦٥).

(١) انْظُر: «مُخْتَصر العقيدة الإسلامية» (ص٥٨).

(٢) انْظُر: «تَفْسِير ابْن عَبَّاس» (٤/ ٢١٩)، وَابْن كثير (١/ ٣١١).

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابْن الْقيم – فِي تَفْسِير هَذِه الْآيَة –: أقسم سُبْحَانَهُ على نفي الْإِيمَان عَن الْعباد حَتَّى يُحكموا رَسُول الله ﷺ فِي كل مَا شجر بَينهم»[(١)].

وقال الدكتور عبد الْحَلِيم مَحْمُود: «والتحكيم إِذا كَانَ لرَسُول الله ﷺ حَال حَيَاته فَإِنَّهُ لسنته وتعاليمه بعد انْتِقَاله إِلَى الرفيق الْأَعْلَى»[(٢)].

هَذِه بعض الْأَدِلَّة من الْكتاب.

أما من السّنة: فَمِنْهَا قَوْله ﷺ: «**لَا يحل دم امْرِئ مُسلم يشْهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُول الله إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاث: الثّيّب الزَّانِي وَالنَّفس بِالنَّفسِ، والتارك لدينِهِ المفارق للْجَمَاعَة**»[(٣)].

الشَّرْط السَّابع: الْقبُول.

الْقبُول لُغَة: مصدر قَبِل الشَّيْء وتقبله.

وَهُوَ يَرِد لمعانٍ.. مِنْهَا: أَخْذ الشَّيْء عَن طيب خاطر.

تَقول: قَبِلت الْهَدِيَّة أقبلها قبولًا. إِذا أَخَذتهَا.

والرضاء بالشَّيْء: تَقول: قبلت الشَّيْء أقبله قبولًا، إِذا رضيته. وميل النَّفس إِلَى الشَّيْء. تقول: على فلَان قبُول، إِذا قبلته النَّفس. وَفِي الحَدِيث: «**ثمَّ يوضع لَهُ الْقبُول فِي الأَرْض**»[(٤)].

---

(١) «إِعْلَام الموقعين» (١/ ٥١).

(٢) «دَلَائِل النُّبُوَّة ومعجزات الرَّسُول ﷺ» (ص٢٦٤).

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي الدِّيات، بَاب قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ (١٢/ ٢٠١)، ومُسلم فِي الْقسَامَة، بَاب مَا يُبَاح بِهِ دم الْمُسلم (١١/ ١٦٤)، وَأَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ انْظُر: «جَامع الْأُصُول» حَدِيث (٧٧٢٩) (١٠/ ٢١٣) (الْمَتْن والحاشية).

(٤) رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي كتاب بَدْء الْخلق، بَاب (٦) (٦/ ٣٠٣). وَمُسلم فِي كتاب =

وَهُوَ بِفَتْح الْقَاف: الْمحبَّة والرضاء بالشَّيْء، وميل النَّفس إِلَيْهِ.

كَمَا يَأْتِي الْقبُول: وَيُرَاد بِهِ الصِّبَا - وَهِي: ريح تقَابل الدبور. قَالَ الأخطل:

.... فَإِن الرّيح طيبَة قبُول

وَيَأْتِي أَيْضًا وَيُرَاد بِهِ الْقَابِلَة من النِّسَاء، وَهِي: الْمَرْأَة الَّتِي تَأْخُذ الْوَلَد عِنْد الْولادَة.

قال الْأَعْشَى:

.... كصرخة حُبْلَى أسلمتها قبيلها

ويروى: «قبُولهَا» أَي: يئست مِنْهَا[1].

وَالْمرَاد هُنَا: الْقبُول لـ(لا إِلَه إِلَّا الله) وَلما اقتضته بِالْقَلْبِ وَاللِّسَان وَسَائِر الْجَوَارِح - قبولًا منافيًا للرَّدّ، فَلَا يَرُد هَذِه الْكَلِمَة أَو شَيْئًا من مقتضياتها، الَّتِي جَاءَ بهَا الْحق بِوَاسِطَة رَسُوله ﷺ، فَإِن الشَّهَادَة قد يَقُولهَا من يعرف مَعْنَاهَا لكنه لَا يقبل مِمَّن دَعَاهُ إِلَيْهَا بعض مقتضياتها، إِمَّا كِبْرًا أَو حسدًا أَو غير ذَلِك. فَهَذَا لم يُحَقّق شَرط الْقبُول[2].

والأدلة على هَذَا الشَّرْط من الْكتاب وَالسّنة كَثِيرَة.

مِنْهَا: قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧].

وَجه الدّلَالَة: أَن الله تَعَالَى وعد فِي هَاتين الْآيَتَيْنِ بالنجاة والنصر

= الْبر، بَاب إِذا أحب الله عبدًا وضع لَهُ الْقبُول فِي الأَرْض (١٦/ ١٨٤) عَن أبي هُرَيْرَة.

(١) انْظُر: «لسان العرب» مَادَّة قبل (٣/ ١١ - ١٤)، و«الصحاح» للجوهري (٥/ ١٧٩٥ - ١٧٩٦)، و«معجم أَلْفَاظ القرآن الْكَرِيم» (٢/ ١٧٤).

(٢) انْظُر: «مُخْتَصر العقيدة الإسلامية» (ص٣٨).

لِلْمُؤْمنين الَّذين قبلوا مَا تضمنته الشَّهَادَة.

وَقَوله تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الصافات: ٣٥- ٤٣].

فَفِي هَذِه الْآيَات - كَمَا نرى - وَعِيد بِالْعَذَابِ الْأَلِيم فِي الْآخِرَة لمن لم يقبل معنى (لَا إِلَه إِلَّا الله) وَمَا تضمنه من الْإِيمَان برسالة مُحَمَّد ﷺ، كَمَا أَن فِيهَا وَعدًا بالنعيم فِي جنَّات النَّعيم لمن قَبِل ذَلِك.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْأَخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ [ص: ٤- ٨].

فِي هَذِه الْآيَات - أَيْضًا - بَيَان بِأَن الْعَذَاب الَّذِي سيذوقه الْكفَّار فِي الْآخِرَة سَببه تكذيبهم مُحَمَّدًا ﷺ وردهم مَا بَلَّغه إِلَيْهِم من معنى الشَّهَادَة.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: ٢٣- ٢٥].

وَفِي هَذِه الْآيَات - أَيْضًا - إِخْبَار بِأَن عَاقِبَة المكذبين بالرسل الْعَذَاب لردهم مَا تضمنته لَا إِلَه إِلَّا الله.

فالآيات - كَمَا نلاحظ - إِمَّا وعد بالنعيم لمن قَبِل معنى لَا إِلَه إِلَّا الله. أَو وَعِيد بِالْعَذَابِ لمن لم يقبل ذَلِك.

كل ذَلِك دَلِيل على اشْتِرَاط الْقبُول.

هَذِه بعض الْآيَات القرآنية الَّتِي تَضَمَّنت اشْتِرَاط الْقبُول لِمَعْنى الشَّهَادَة.

وَأما من السّنة فَمِنْهَا: مَا روى أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**مثل مَا بَعَثنِي الله بِهِ من الْهدى وَالْعلم كَمثل غيث أصَاب أَرضًا، فَكَانَت مِنْهَا طَائِفَة طيبَة قبلت المَاء فأنبتت الْكلأ والعشب الْكثير، وَكَانَ مِنْهَا أجادب أَمْسَكت المَاء فنفع الله بهَا النَّاس فَشَربُوا مِنْهَا وَسقوا وزرعوا، وَأصَاب طَائِفَة مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قيعان لَا تمسك مَاء وَلَا تنْبت كلأ. فَذَلِك مثل من فقه فِي دين الله ونفعه مَا بَعَثنِي الله بِهِ فَعلم وَعلم، وَمثل من لم يرفع بذلك رَأْسًا وَلم يقبل هدى الله الَّذِي أرْسلت بِهِ**»[1].

وَالشَّاهِد: قَوْله: «... **وَلم يقبل هدى الله الَّذِي أُرْسلت بِهِ**».

وَمن هَدْيه ﷺ: شَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله (مَعْنَاهَا ومقتضاها) والْحَدِيث ظَاهر فِي عدم انْتِفَاع من لم يقبل ذَلِك الْهدى.

وَعَلِيهِ فَلَا ينْتَفع قَائِل الشَّهَادَة إِذا لم يقبل مَعْنَاهَا ومقتضاها.

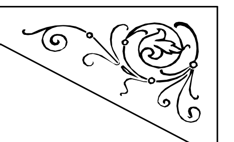
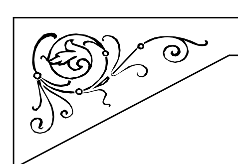
وَبِذَلِك يَتَّضِح أَن الْقبُول للا إِلَه إِلَّا الله وَلما اقتضته يتَحَقَّق بِالْقَلْبِ، وَذَلِكَ بانشراحه لهَذِهِ الْكَلِمَة وَلما اقتضته من أَوَامِر ونواهٍ. وباللسان وَسَائِر الْجَوَارِح، فَلَا يتَكَلَّم أَو يعْمل عملاً فِيهِ رد لهَذِهِ الْكَلِمَة أَو شَيْئًا من مقتضياتها. وَالله أعلم[2].

❊ ❊ ❊

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي الْعلم، بَاب فضل مَن عَلِم وَعَلَّم (١/ ١٧٥)، وَمُسلم فِي الْفَضَائِل، بَاب: مثل مَا بُعِث بِهِ النَّبِي ﷺ (١٥/ ٤٦)، وَأحمد (٤/ ٣٩٩).

(٢) من كتاب «شروط لا إله إلا الله» بتصرف (ص٤١١).

المطلب الثاني: إثبات وجود الخالق

وبه مبحثان:

المبحث الأول: أدلة وجود الخالق سبحانه وتعالى

وبه تسعة فصول:

الفصل الأول: دلالة الفطرة والعهد

الفطرة لغة: هي الخلقة[(١)].

والمراد بدليل الفطرة أن الله تعالى خلق العباد مفطورين على الإقرار به، واعتقاد أنه خالقهم وربهم. وهذا هو المروي عن كثير من السلف، فقد روى ابن جرير الطبري بسنده أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مر بمعاذ بن جبل فقال: «ما قِوام هذا الأمة؟ قال معاذ: ثلاث وهن المنجيات: الإخلاص وهو الفطرة، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم:٣٠]، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة. فقال عمر: صدقت.

وروى عن مجاهد أنه قال: فطرة الله الإسلام»[(٢)].

---

(١) «اللسان» (٥/ ٣٤٣٣).

(٢) «تفسير ابن جرير» (٢١/ ٤٠).

وهو قول أكثر السلف[(١)].

وقد دل على ذلك أدلة عديدة، منها:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١، ١٧٢].

فهذه شهادة أخذها الله على بني آدم وهم في عالم الذر أنه تعالى ربهم وخالقهم، فاستقرت معرفته فطرة في قلوب البشر، وإن دنسها أو حجبها الباطل يومًا ما، فإنها تظهر وتتجلى ويزول عنها هذا الحجاب والغشاوة إما إجابةً لداعي الإيمان، أو تحت ضغط شدة ومصيبة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

بل إن توحيد الله تعالى أمر فطري كذلك، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

(١) انظر: «شفاء العليل» (٢/ ٢٩٧-٣١٥)، و«القائد إلى تصحيح العقائد» (ص١٨).

حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٣٠].

ولهذا كان قول الرسل عليهم الصلاة والسلام لأممهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] وتجد أسلوب القرآن في آيات المعرفة الفطرية أسلوب التذكير بهذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها والتي لأجلها أشهدهم على أنفسهم في الأزل، وشهدوا بذلك(١).

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا قال: «**إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان - يعني عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلًا، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**»(٢).

وكذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء؟**»(٣).

وحديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا...**» الحديث(٤).

---

(١) «حماية الرسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد» (ص: ٢١٦).

(٢) أحمد (١/ ٢٧٢)، وذكر ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٤١ روايات عديدة في هذا المعنى ورجح وقفها على ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، «فتح الباري» (٣/ ٢٤٦).

(٤) أخرجه مسلم كتاب الجنة، باب (١٦) (٤/ ٢١٩٧)، وأحمد (٤/ ١٦٢).

فهذه الأدلة تدل على أن الخلق مفطورون على الإقرار بالخالق وأنه ربهم وخالقهم وأنهم تتغير فطرهم تلك بما يحرفهم إليه آباؤهم من اليهودية والنصرانية وغيرهما[١].

ففطرةَ الإنسان تشهد بوجود الله تعالى- مهما حاول الإنسان إخفاءها- فكم من إنسان ينكر وجود الله تعالى، فإذا ضاقتْ به السبلُ المادية في الأزمات لم يجدْ إلا أن يتوجهَ بقلبهِ إلى السماء، وربما يرفع يديه في خضوع وتذللٍ لعله يجد من القوَّة العليا مخرجًا مما هو فيه من ضيق.

ألم تجرب ذلك بنفسك؟ ربما حدث لك شيء منه فنسيت بعد زوال الكربة. ولكن لا شك أنك ما زلت تذكر حكاية من هذا النوع حدثت لغيرك.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٢، ٦٣].

---

(١) «أصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة» (١/ ٧٩).

نظرة الإسلام للفطرة:

أولًا: إن الله تعالى خلق الإنسان وجعله مفطورًا على معرفة ربه وعبادته، وقد ثبت ذلك في نصوص كثيرة؛ منها:

١ - قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

٢ - وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

٣ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِي ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ؟**»[1].

ثانيًا: إنَّ هذه الفطرة توصل الإنسان إلى المعرفة الإجمالية بخالقه، وتشعره بصلته به وأنه إلههُ وخالقه.

لذا فإنه لا بد لهذه الفطرة من تزكيةٍ وتنميةٍ وذلك لا يكون إلا بوحي من الله تعالى بواسطة رسله. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧- ١٠].

ثالثًا: إن لهذه الفطرة في الإنسان - حتى تقوم بدورها الطبيعي - ركنين:

١- القلب السليم: وهو القلب المؤمن الذي لم يتأثر بالشياطين من الجن

---

(١) صحيح البخاري برقم (١٣٨٥، ١٣٥٩، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩)، ومسلم برقم (٦٩٢٦).

والإنس، بل ظلَّ على فطرته وسلامته التي ينتج عنها الاعتقاد الصحيح. وكلما كان التأثر والانحراف أقل في هذا القلب، ازداد قبوله للحقِّ وتعلقه به. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

٢- العقل الصحيح: وهو العقل النقيُّ الصافي غير المنساق لمؤثرات الهوى والشهوة، المهيأُ لاحترام الحقائق وقبول الحق، الرافضُ للوهم والخرافة. قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩- ٢٣].

رابعًا: إن الإنسان بطبعه قد فُطر على أمور وغرائزَ تُعَدُّ من دعائم حياته المادية والمعنوية، مثلُ حبِّ الحياة وحبِّ المال والولد وحبِّ الملذات، وحبِّ النساء وحبِّ الاختلاط ببني جنسه... وغير ذلك.

غير أن الإسلامَ وضع ضوابطَ لهذه الغرائزَ حيث لا يتجاوز المرء مداه فينغمس فيها.

ففي شهوة الأكل والشرب جعل ضابطًا عامًّا هو عدم الإسرافِ. قال تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف:٣١].

ولقضاء شهوة الجنس والعاطفة شرع الزواج، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

ولشهوة التملك جعل الله السبيل لذلك التعامل المشروع، قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

خامسًا: إن الله تعالى أنزل شريعته وجعلها مناسبةً للفطرة اِلسليمةِ، ولم يرد فيها شيء يصادمُ الفطرة البشرية[(١)].

الفصل الثاني: دلالة الخَلْق والاختراع

دليل الخلق والاختراع والتدبير؛ فما يعلمه كلّ عاقل بالمشاهدة والضّرورة العقليّة من وجود المخلوقات بعد العدم - دليل قاطع على وجود الخالق وتوحيده؛ وذلك لافتقار المخلوق إلى الخالق، واحتياج المحدَث للمحدِث، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطّور: ٣٥، ٣٦]، وقال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشّعراء: ٢٣ - ٢٨].

وهذا النّوع من الاستدلال يرتكز على أصلين معلومين بداهةً:

أحدهما: حدوث المخلوقات؛ وهذا معلوم بالمشاهدة في آحاد الحيوان والنّبات، وبالضّرورة العقليّة في الكواكب وسائر المخلوقات؛ لأنّها مسخّرة مدبّرة، والمسخَّر المأمور مخترَع من قِبَل غيره ضرورةً.

---

(١) «أركان الإيمان» (ص: ٢١).

والثّاني: حاجة المحدَث إلى محدِث؛ وهذا الأصل معلوم بضرورة العقل؛ فالمحدَث لا بُدّ له من محدِث لا يفتقر إلى غيره؛ وهو الله تعالى.

يقول ابن تَيْمِيَّة: «معلوم بضرورة العقل أنّ المحدَث لا بُدّ له من محدِث، وأنّه يمتنع تسلسل المحدثات باتّفاق العقلاء؛ وذلك بأن يكون للمحدِث محدِث، وللمحدِث محدِث إلى غير غاية، وهذا يسمى تسلسل المؤثّرات، والعلل والفاعليّة، وهو لا يزول إلاّ بمحدِث أزليّ لا يحتاج إلى غيره»[(١)(٢)].

وقد تناول القرآن الكريم قضية الخلق والتدبير تناولًا فريدًا، وعُني بتوجيه العقول إلى النظر في آفاق الكون وآيات الله الكثيرة، وأهاب بالعقل أن يستيقظ من سباته ليتفكر في ملكوت السماوات والأرض، وما أودع فيهما من الآيات.

ويكرر القرآن ذلك في أساليب متنوعة ليرى هذا الإنسان ويسمع في آفاق الكون ما يقوده إلى الإيمان بخالقه ﷻ ويعلم أن هذا الكون لم يكن وليد الصدفة كما يزعم الملحدون الجاحدون، بل هو صنع الله الخالق المدبر، المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

فواعجبا كيف يعصى الإله   أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية من الآيات وبين ما فيها من عجائب وحكم وإحكام ودقة نظام، وهي آيات كثيرة يضيق المقام عن حصرها والإحاطة بها.

ومن هذه الآيات قوله تعالى عن خلق الإنسان: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٥- ٧].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤٤٥) [بتصرّف]، وانظر: «الكشف عن مناهج الأدلّة» لابن رشد (ص٦١)، و«الأدلّة العقليّة» للعريفي (ص٢٠٩- ٢٢٦).

(٢) آثار المثل الأعلى (ص: ٨).

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾ [الحج: ٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

ودعا سبحانه إلى التفكر في الخلق المتقن المتناسق فقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِي ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣]، وقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

ومنها قوله تعالى عن خلق السموات والأرض: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

وقوله سبحانه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ

أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧- ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٣، ١٦٤].

وهذه قد جمعت مع خلق السموات والأرض آيات أخرى من آيات الله تعالى التي يراها البشر ويحسونها تتجلى فيها عظمة خالقها سبحانه، وآيات كثيرة تجمع عددًا كبيرًا من آيات الله تعالى ويعرضها القرآن للناس دلائل على الخالق سبحانه وعظمته وتدبيره وعنايته وأنه خالق كل شيء ومالكه، وهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

ومن هذه الآيات قوله سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧- ٤٠].

ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ

﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٠- ١٨].

فبعد أن ذكر بعض آياته ونعمه بالتخصيص ذكرهم بأنه هو خالقها وخالقهم وخالق كل شيء، وغيره ليس له شيء من ذلك، ثم ذكر عموم نعمته عليهم وعجزهم عن الإحاطة بها، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٠- ٢٢].

والآيات في هذا كثيرة جدًّا، ومعظم السور المكية مليئة بهذه الآيات لمن تدبرها، كلها تبين آياته سبحانه ومخلوقاته وعظيم نعمته بذلك، وتدعوهم إلى التفكر في ذلك والتدبر، وأن هذه المخلوقات والآيات العظيمة لها خالق مدبر عظيم، وأن غيره لا يملك من ذلك شيئًا، فكلهم مربوبون مخلوقون، وأنه سبحانه هو المستحق للعبادة سبحانه دون ما سواه، وقد أمر الله الناس بالنظر في هذا الملكوت الكبير وما فيه من الآيات العظيمة، أمرهم بذلك في آيات كثيرة من كتابه الكريم، وذم من لم ينظر في ذلك ويتفكر ليقوده ذلك إلى معرفة ربه الخالق المدبر ليعلم أنه المستحق للعبادة وحده.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى

ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦- ١١][(١)].

الفصل الثالث: دليل العناية

ويسمى دليل النظام أو التناسق؛ لأنه ينطلق بنا ضمن الآيات الكونية ليوصلنا إلى أن الذي نظم الكون وربط أجزاءه بحيث يكمل بعضها بعضًا وقدر كل شيء فيه تقديرًا - هو الله الواحد الأحد.

ومن الآيات القرآنية التي ورد فيها دليل العناية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء ٣١- ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ

(١) «حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد» (ص: ٢١٦).

مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: ١٩- ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: ٦- ١٦].

هذه الآيات القرآنية التي ذكرناها وآيات أخرى كثيرة تَلفت نظر الإنسان لما في هذا الكون من التنظيم الدقيق والتناسق بين أجزاء الكون أقصى غايات الدقة والإتقان؛ ليدل دلالة قاطعة على العناية التامة بهذا الكون وما فيه، وأن إلهًا واحدًا قادرًا هو الذي نظم كل ما فيه أحسن تنظيم(١).

إنه لا يوجد أي شيء في الكون إلا في محله المناسب وبالقدر المناسب، فكل ما فيه في غاية الحكمة والعناية والإتقان، والناظر لهذا الإتقان العجيب والتنظيم المدهش في كل شيء في الأرض وفي السماء وما بينهما، بحيث إن أي تغيير فيه يؤدي إلى الخلل والفساد - لا يسعه إلا أن يؤمن بوحدانية الله تعالى.

لو سألنا عالم الفلك لبَيَّن لنا من دقائق الحسابات الفلكية وتنظيم الكواكب وأحجامها وأبعادها ما يحير العقول.

ولو سألنا عالم التشريح عن جسم الإنسان، وعالم الحيوان عن أنواع الحيوان الطائر والسابح والماشي والزاحف بأشكاله وألوانه وخواصه ومعيشته وغرائبه؛ لأسلمَنا ذلك بلا شك إلى وحدانية الله.

---

(١) انظر: «تلبيس الجهمية» (١/ ١٧٤).

ولو سألنا عالم النبات عن أنواعه وثماره وأوراقه وطعومه وخواصه، لأجابنا بما يدل دلالة قاطعة على وحدانية الله.

ولو نظرنا إلى التنظيم الدقيق في الأرض ببحرها ويابسها وجبالها وأغوارها وسهولها وصخورها ورمالها ومعادنها وينابيعها وأنهارها وطبقاتها، لأدى بنا ذلك إلى الاعتراف بوحدانية الله.

إن العقل السليم يرفض رفضًا تامًّا أن يكون أي ترتيب وتنظيم لشيء ما حدث بصورة عفوية وبطريق الصدفة.

فلو دخلنا دارًا أو محلًّا تجاريًّا منظمًا لأدى بنا النظر لأول وهلة إلى أن منظمًا نظم هذه الدار وهذا المحل، فكيف بهذا الكون المنظم كل شيء فيه أحسن تنظيم؟

فما في الوجود من مظاهر العناية بالمخلوقات عامّةً، والإنسان خاصّة - براهين قاطعة على وجود الخالق، وعلى كماله، وتوحيده.

ويدخل في هذا الدّليل كثيرٌ من صور الاستدلال، منها:

أ- دلالة الإتقان؛ فكلّ مخلوقٍ يحمل من كمال الإتقان ما يدلّ على وجود خالقه وكمال ذاته وصفاته، قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النّمل: ٨٨]، وقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السّجدة: ٧]، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التّين: ٤].

ب- دلالة التناسق؛ فالعالم كلّه علويّه وسفليّه يخضع لنواميس كونيّة متناسقة ثمرتها التّوافق الدّقيق بين المخلوقات، والموافقة التامّة لوجود الإنسان، قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠]، وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ [النبأ: ٦- ١٦]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢﴾ [النحل: ١٢]؛ أي: أدلّة على إثبات الصّانع وعلى التّوحيد والمعاد وصدق الرّسل؛ ولهذا أطلق متعلّق الآية ولم يقيّدها بمطلوب معيّن(١).

ج- دلالة الهداية العامّة؛ فإنّ هداية المخلوقات ودلالتها إلى مصالح معاشها، وسبل بقائها وما يقيمها ويحفظها - من أعظم آيات الربوبيّة، قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

يقول ابن القيّم: «الهداية العامّة قرينة الخلق في الدّلالة على الربِّ - تبارك وتعالى - وأسمائه وصفاته وتوحيده، ومعنى الآية أنّ الله أعطى كلّ شيء من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خُلق له، ثُمَّ هداه لما خُلق له، وهداه لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلّبه وتصرّفه. والخلق إعطاء الوجود العيني الخارجيّ، والهدى إعطاء الوجود العلميّ الذهنيّ. والآية شاملة لهداية الحيوان كلّه ناطقه وبهيمه، وطيره ودوابه، فصيحه وأعجمه»(٢)(٣).

❊ ❊ ❊

(١) «حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد» (ص: ٢١٦).
(٢) «شفاء العليل» (ص١١٩، ١٣٧- ١٤٠) بتصرف.
(٣) «آثار المثل الأعلى» (ص: ١٠).

الفصل الرابع: دليل الشرع

وأما دليل الشرع فهو ما جاءت به الرسل من شرائع الله ﷻ المتضمنة لجميع ما يصلح الخلق، وهذا يدل على أن الذي أرسلهم بها رب رحيم كريم عليم، ولاسيما هذا القرآن المجيد الذي أعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله[1].

الفصل الخامس: دليل الآيات والمعجزات

المراد بدليل الآيات: العلامات الدالة على ربوبية الله تعالى، وهي كثيرة:

١ - الآيات الكونية: وهي جميع ما يحيط بالإنسان ويصل إليه بنظره وفكره من مخلوقات الله، كالسماء والأرض والشجر والجبال والدواب والبحار والإنسان، ففي كل ذلك آيات باهرات واضحات على ربوبية الله تعالى.

وقد لفت الله تعالى نظر الإنسان إلى ذلك، قال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾ [آل عمران١٩٠]، و﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

ولما سأل فرعون موسى عليه السلام عن رب العالمين، أجابه موسى عليه السلام بما يقطع حجته ويفضح كذبه، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ

(١) «شرح صحيح مسلم» حسن أبو الأشبال (٧/٧٨، بترقيم الشاملة آليًّا).

رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٨].

فهذه آيات ظاهرة ألجمت إمام الملاحدة وأخرسته وأظهرت خزيه وفجوره. والآيات الكونية ظاهرة لكل إنسان لا تحتاج إلى كبير عناء في إدراك أن لها موجدًا أوجدها له كل صفات الكمال والجلال.

وقد حدد الله تعالى وحصر الأوجه الممكنة في إيجاد الخلق، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥].

فلا يخرج الأمر عن واحد من هذه الثلاثة: إما أن تكون الأشياء مخلوقة هكذا صدفة بدون موجد وخالق، وذلك باطل ببديهة العقول. وإما أن يكون الإنسان أوجد نفسه وأوجد غيره، وهذا باطل يعلمه كل إنسان من نفسه ويتيقنه. فإذا لم يكن واحدًا من هذين فلا يبقى إلا الأمر الثالث، وهو أن لها خالقًا وهو الله تعالى الذي أوجدها ودبرها وهو المتصرف وحده فيها.

٢ - الآيات التي أظهرها الله تعالى على أيدي أنبيائه.

الآيات والمعجزات التي أجراها الله تعالى على أيدي أنبيائه - هي دلائل عظيمة دالة على ربوبية الله وألوهيته، وصِدق أنبيائه تعالى فيما دعوا إليه أقوامهم من التوحيد، وقد سماها الله تعالى آيات، قال تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠١ - ١٠٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الطريق من أقوى الطرق وأصحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من

ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل، ودلالتها ضرورية بنفسها؛ ولهذا يسميها الله آيات بينات»[(١)].

وَيَنْبَغِي هَاهُنَا مطالعة كتب قصَص الْأَنْبِيَاء، وَمن أَجودهَا كتاب ابْن كثير «الْبِدَايَة وَالنِّهَايَة» وَكتب المعجزات مثل: «الشِّفَاء» للْقَاضِي عِيَاض والمعجزات النَّبَوِيَّة من جَامع الْأُصُول فِي حرف النُّون، ولي فِي ذَلِك كتاب مُخْتَصر سميته «الْبُرْهَان الْقَاطِع فِي معرفَة الصَّانِع».

وَمن أحسن مَا أُشير فِيهِ إِلَى المعجزات الْمَذْكُورَة فِي كتاب الله تَعَالَى هَذِه الأبيات:

هُوَ الله من أعْطى هداه وَصَحَّ من ... هَـوَاهُ أرَاهُ الخارقات بحكمة

بِذَاكَ على الطوفان نوح وَقد نجا ... بِهِ من نجا من قومه فِي السَّفِينَة

وغاض على مَا فاض عَنهُ استجابة ... وجد إِلَى الجودي بهَا واستقرت

وَسَار وَمتْن الرّيح تَحت بساطه ... سُلَيْمَان بالجيشين فَوق البسيطة

وَقبل ارتداد الطّرف احضر من سباله ... عرش بلقيس بِغَيْر مشقة

وَأحمد إبراهيم نَار عدوه ... وَمن نوره عَادَتْ لَهُ روض جنَّة

وَلما دَعَا الأطيار من رَأس شَاهِق ... وَقد ذبحت جَاءَتْهُ غير عصية

وَمن يَده مُوسَى عَصَاهُ تلقفت ... من السحر أهوالًا على النَّفس شقَّتْ

وَمن حجر أجْرى عيُونًا بضربة ... بهَا دَائِمًا سقت وللبحر شقَّتْ

ويوسف إِذْ ألْقى البشير قَمِيصه ... على وَجه يَعْقُوب عَلَيْهِ بأوبة

رَآهُ بِعَين قبل مقدمه بَكَى ... عَلَيْهِ بهَا شوقًا إِلَيْهِ فكفت

وَفِي آل إِسْرَائِيل مائدة من ... السَّمَاء لعيسى أنزلت ثمَّ مدت

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١١٩٧).

وَمن أكمه أبرى وَمن وضح غَدا — شفى وَأعَاد الطير طيرًا بنفخة

وَصَحَّ بأخبار التَّوَاتُر أَنه — أمات وَأَحْيَا بالدعا رب ميت

وَأبْعد من هَذَا عَن السحر أَنه — رَضِيع يُنَادي بِاللِّسَانِ الفصيحة

ينزه عَن ريب الظنون عفيفة — مبرأة من كل سوء وريبة

وَقَالَ لأهل السبت كونُوا إلهنا — قرودًا فَكَانُوا عِبْرَة أَي عِبْرَة

وصرع أهل الْفِيل من دون بَيته — بطير أبابيل صغَار ضَعِيفَة

وأحرق روض الجنتين عُقُوبَة — بكاف وَنون عِبْرَة للبرية[(١)]

٣- الآيات المتلوة.

المراد بالآيات المتلوة كلام الله المنزل على أنبيائه، ومن أعظم ذلك القرآن الكريم، فهو آية مستقلة كافية من جميع الوجوه في الدلالة على الخالق تبارك وتعالى أصرح دلالة وأوضحها وأصدقها وأكملها.

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩ - ٥١].

فمن رام إثبات وجود الخالق تبارك وتعالى وربوبيته وألوهيته من خلال النص على ذلك - فهو متوفر في القرآن.

ومن رام إثبات ذلك من خلال إعجاز النص المنزل فذلك متوفر، فيكون من جنس آيات الأنبياء المحسوسة، بل هو أعظمها. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**ما من نبي إلا وأوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وأوتيت روحًا**

(١) «إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات» (ص: ٥٧).

فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[(١)].

ومن هذه الناحية الأخيرة فإن كل إنسان يستطيع أن يجد في القرآن الدلالة على أن القرآن تنزيل من حكيم حميد، فالعالِم بالتاريخ أو الجغرافيا أو الأحياء أو الطب أو الفلك أو غير ذلك من العلوم - لو نظروا في القرآن لوجدوا فيه الآيات البينات التي ترشدهم إلى أنه حق نزل بالحق، ويدعو إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣][(٢)].

فكل هذه الآيات والمعجزات، وآيات الأنبياء، وما يتبعها من نصر الرّسل وأتباعهم، وإكرامهم بخوارق العادات، وإجابة الدّعوات - برهان حسّيّ عقليّ قاطع على إثبات الخالق وتوحيده وصدق رسله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢]، أي: حجج وأدلّة تبصر بصدق ما يدعو إليه موسى من الإيمان بالله وتصديق رسوله، وآثار واضحة للإله الحقّ وصفاته وأفعاله.

يقول ابن القيّم: «هذه الطّريق من أقوى الطّرق وأصحّها وأدلّها على الصّانع، وصفاته وأفعاله، وارتباط أدلّة هذا الطّريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلّة العقليّة الصّريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحسّ[(٣)]

---

(١) انظر: مسلم، كتاب الإيمان رقم (٣٨٣) (١/ ٣٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «أصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة» (١/ ٨١).

(٣) هذا في حقّ من شاهدها، أمّا من غاب عنها فإنّها في حقّه من باب دلالة الخبر القاطع والعقل. والقطع بثبوت آيات الأنبياء يُعلم بطرق متعدّدة؛ كذكرها في القرآن =

والعقل، ودلالتها ضروريّة بنفسها؛ ولهذا يسميها الله آيات بيّنات، وليس في طرق الأدلّة أوثق ولا أقوى منها؛ فإنّ انقلاب عصا تقلّها اليد ثعبانًا عظيمًا يبتلع ما يمرّ به ثُمَّ يعود عصا كما كانت - من أدلّ الدّليل على وجود الصّانع وحياته وقدرته وإرادته وعلمه بالكليّات والجزئيّات، وعلى رسالة الرَّسول، وعلى المبدأ والمعاد؛ فكلّ قواعد الدِّين في هذه العصا ! وهكذا سائر آياته وآيات الأنبياء، فكلّها من أعظم الأدلّة على الصّانع وصفاته وأفعاله وصدق رسله واليوم الآخر»[١][٢].



= المقطوع بصحّته، وكتواتر بعض آحادها تواترًا عامًّا يعلمه العامّ والخاصّ، أو تواترًا خاصًّا يعلمه العلماء، وكتواتر القدر المشترك بين آحادها تواترًا عامًّا اتّفقت على معرفته جميع الطوائف.

انظر: «الجواب الصّحيح» لابن تيمية (٦/ ٣٢٤ - ٣٨٠)، و«الصواعق المرسلة» لابن القيّم (٣/ ١١٩٦، ١١٩٧).

(١) «الصواعق المرسلة» لابن القيّم (٣/ ١١٩٧، ١١٩٨) [بتصرّف يسير]، وانظر: في الأدلّة الخارجيّة عامّةً: «الكشف عن مناهج الأدلّة» لابن رشد (ص٦٠- ٦٤)، و«الأدلّة العقليّة» للعريفي (ص٢٠٩- ٣٠٨).

(٢) «آثار المثل الأعلى» (ص: ١١).

الفصل السادس: دليل العقل

دل العقل على وجود الله تعالى وانفراده بالربوبية وكمال قدرته على الخلق وسيطرته عليهم، وذلك عن طريق النظر والتفكر في آيات الله الدالة عليه.

وللنظر في آيات الله والاستدلال بها على ربوبيته طرق كثيرة بحسب تنوع الآيات، وأشهرها طريقان:

الطريق الأول: النظر في آيات الله في خلق النفس البشرية، وهو ما يُعرف بـ(دلالة الأنفس)، فالنفس آية من آيات الله العظيمة الدالة على تفرد الله وحده بالربوبية لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧﴾ [الشمس: ٧].

ولهذا لو أن الإنسان أمعن النظر في نفسه وما فيها من عجائب صنع الله، لأرشده ذلك إلى أن له ربًّا خالقًا حكيمًا خبيرًا؛ إذ لا يستطيع الإنسان أن يخلق النطفة التي كان منها، أو أن يحولها إلى علقة، أو يحول العلقة إلى مضغة، أو يحول المضغة عظامًا، أو يكسو العظام لحمًا.

الطريق الثاني: النظر في آيات الله في خلق الكون وهو ما يُعرف بـ (دلالة الآفاق)، وهذه كذلك آية من آيات الله العظيمة الدالة على ربوبيته، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ [فصلت: ٥٣].

ومن تأمل الآفاق وما في هذا الكون من سماء وأرض، وما اشتملت عليه السماء من نجوم وكواكب وشمس وقمر، وما اشتملت عليه الأرض من جبال وأشجار وبحار وأنهار، وما يكتنف ذلك من ليل ونهار وتسيير هذا

الكون كله بهذا النظام الدقيق؛ دله ذلك على أن هناك خالقًا لهذا الكون، موجدًا له مدبِّرًا لشؤونه.

وكلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات وتغلغل فكره في بدائع الكائنات، علم أنها خُلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب براهين ودلالات على جميع ما أخبر به الله عن نفسه وأدلة على وحدانيته.

وقد جاء في بعض الآثار أن قومًا أرادوا البحث مع الإمام أبي حنيفة في تقرير توحيد الربوبية، فقال لهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة تذهب فتمتلئ من الطعام وغيره بنفسها وتعود بنفسها، فترسو بنفسها وترجع، كل ذلك من غير أن يديرها أحد؟».

فقالوا: «هذا محال لا يمكن أبدًا. فقال لهم: إذا كان هذا محالًا في سفينة فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله؟!».

فنبه إلى أن اتساق العالم ودقة صنعه وتمام خلقه دليل على وحدانية خالقه وتفرده[1].



(١) «أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة» (ص: ١٣).

الفصل السابع: دليل الحس

دليل الحس على وجود الله ﷻ: فإن الإنسان يدعو الله ﷻ، يقول: يا رب! ويدعو بالشيء، ثم يستجاب له فيه، وهذه دلالة حِسِّية، هو نفسه لم يدع إلا الله، واستجاب الله له، رأى ذلك رأي العين. وكذلك نحن نسمع عمَّن سبق وعمَّن في عصرنا، أن الله استجاب له.

فالأعرابي الذي دخل والرسول ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة قال: هلكت الأموال، وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا. قال أنس: والله ما في السماء من سحاب ولا قزعة (أي: قطعة سحاب) وما بيننا وبين سلع (جبل في المدينة تأتي من جهته السحب) من بيت ولا دار.. وبعد دعاء الرسول ﷺ فورًا خرجت سحابًا مثل الترس، وارتفعت في السماء وانتشرت ورعدت، وبرقت، ونزل المطر، فما نزل الرسول ﷺ إلا والمطر يتحادر من لحيته عليه الصلاة والسلام»[(١)]. وهذا أمر واقع يدل على وجود الخالق دلالة حسية.

وفي القرآن كثير من هذا، مثل: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤] وغير ذلك من الآيات[(٢)].

فإن الإنسان يدعو ربه ﷻ بما يريد من أمور الدنيا، فيقول: يا رب! ويدعو بالشيء الذي يريده فما يلبث إلا وقد استجيب له، يرى ذلك رأي

(١) رواه البخاري/ كتاب الاستسقاء/ باب الاستسقاء في خطبة الجمعة، ومسلم/ كتاب صلاة الاستسقاء/ باب الدعاء في الاستسقاء.

(٢) «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (٨/ ٤٤).

العين، ألا يدل ذلك على وجوده سبحانه؟ وهذا أمر مشاهد يعترف به الكافرون والملحدون.

وما أجمل هذه القصة التي سمعتها! فقد ذكرها لي أحد الدعاة، فقال: (بينما نحن في سفر إلى بعض البلدان، وكنا قد ركبنا طائرة لهذا السفر، إذا بالطائرة يحدث فيها شيء، وأحس الركاب أنهم هالكون لا محالة، فأخذت مصحفي، وأخذت أقرأ، فجاء ناحيتي ملحد، فقال لي بأعلى صوته: زد من القراءة. ووقف بجانبي وهو يقول: زد، ارفع صوتك، لعل الله أن ينجينا. والحمد لله فقد نجونا من هذا الأمر الخطير)، ولا غرابة من فعله هذا، فقد فعله من قبله من المشركين الذين قال الله تعالى في وصفهم: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥] فهذه دلالة حسية على وجوده ﷻ[١].

فتكون دلالة الحس على وجود الله ﷻ فمن وجهين:

(أ) إننا نسمع ونشاهد من إجابة الداعين وغوث المكروبين ما يدل دلالة قاطعة على وجود الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء: ٧٦]، وغير ذلك.

(ب) إن آيات الأنبياء التي تُسمَّى المعجزات دليل قاطع على وجود الله ﷻ؛ لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر يجريها الله تأييدًا لرسله ونصرًا لهم[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) «أركان الإسلام» الطيار (ص:٦).

(٢) «بيان عقيدة أهل السنة والجماعة ولزوم اتباعها» (ص:١٣).

الفصل الثامن: دلالة الآفاق

وَأما دلَالَة الْآفَاق فَمَا يحدث ويتجدد فِي الْعَالم فِي طُلُوع القمرين وَالْكَوَاكِب وغروبها عِنْد دوران الافلاك الدائرات والسفن الْجَارِيَات والرياح الذاريات والنجوم الثوابت مِنْهَا والمعالم والرواجم، وَالِاسْتِدْلَال بالرواجم جيد لدلالته الْوَاضِحَة على الْفَاعِل الْمُخْتَار، كَمَا يدل على ذَلِك حَرَكَة القمرين الدائمة وَسَائِر النُّجُوم والافلاك، وَكَذَلِكَ تغير أَحْوَال الْهَوَاء بالغيوم وَالصَّوَاعِق والبروق العجيبة المتتابعة المختلطة بالغيوم الثقال الحاملة للْمَاء الْكثير المطفئ بطبعه للنار المضادة لَهُ وَمَا فِي الْجمع بَينهَا وإنشائها وإنزال الأمطار مِنْهَا بالحكمة الْبَالِغَة لَا تختلط قَطْرَة بِأُخْرَى وَلَو اشتدت الرِّيَاح العواصف وصغرت الْقطر وَكَثُرت وتقاربت حَتَّى تقع مُتَفَرِّقَة غير ضارة وَلَو اجْتمعت لعظم ضررها، ثمَّ نزُول الْبرد الْقوي الشَّديد المتحجر فِي أَوْقَات الخريف الَّذِي لَا يجمد فِيهِ المَاء مَعَ أَنه لَا يجمد فِي أَيَّام الْغَيْم سَوَاء كَانَت فِي الشتَاء أَو فِي غَيره لرطوبة الْغَيْم، فَمن أَيْن جَاءَ الْبرد المتحجر وَالْمَاء إِذا جمد لَا يكون على صفة الْبرد أبدًا، فتأتي هَذِه الأمطار فتعم الأَرْض سهولها ووعورها وشعابها وشعافها لينبت العشب الْكثير للنعام وَسَائِر الْهَوَام وتسقي المزروع وتنبت الاشجار والفواكه والأزهار وَالثِّمَار وتمد الْبحار والأنهار والآبار، ثمَّ مَا فِي اخْتِلَاف اللَّيْل وَالنَّهَار والفصول والأحوال.

وَقد جمع الله تَعَالَى ذَلِك فِي قَوْله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ إِلَى قَوْله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فالفكر فِي هَذِه الْأُمُور هُوَ النّظر الْمَأْمُور بِهِ، وعَلى ذَلِك درج السّلف من

غير تَرْتِيب الْمُقدمَات على قانون أهل المنطق، بل قد شهد كتاب الله على أَن ذَلِك يُفِيد الْبَيَان حَيْثُ قَالَ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] ثمَّ توعد من زعم أَن ذَلِك لم يفده بَيَانًا بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وعَلى هَذَا قَالَ الشَّيْخ مُخْتَار بن مَحْمُود فِي كِتَابه «الْمُجْتَبى» فِي آخر مَا قيل فِي حقائق النّظر أَنه تَجْرِيد الْفِكر عَن الغفلات. وَحكى عَن شَيْخه مَحْمُود بن الملاحي أَنه لَا يشْتَرط فِي الْعلم بِاللَّه أَن يبتني على الْمُقدمَات المنطقيات والأساليب النظريات، وَكَيف يُنكر هَذَا أَو يستبعد، وَقد حكى الله عَن الهدهد وَهُوَ من الْعَالم البهيمي أَنه وحد الله وَاحْتج على صِحَة توحيده بِهَذَا الدَّلِيل الْمَذْكُور فِي الْآفَاق؟ قَالَ الله سُبْحَانَهُ حاكيًا عَنهُ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥] يَعْنِي الْمَطَر والنبات، فاحتج بحدوث هذَيْن الْأَمريْنِ العجيبين الْمَعْلُوم حدوثهما مَعَ تكررهما بِحَسب حَاجَة الْجَمِيع إِلَيْهِمَا. وَكَذَلِك قيل لبَعض الأعراب: بِمَ عرفت رَبك؟ فَقَالَ: البعرة تدل على الْبَعِير وآثار الخطى تدل على الْمسير فسماء ذَات أبراج وَأَرْض ذَات فجاج كَيفَ لَا تدل على الْعلي الْكَبِير؟!

وَقد أشارت الرُّسُل عَلَيْهِم السَّلَام إِلَى هَذَا الْمَعْنى فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وَمِمَّا أستجيد فِي هَذَا الْمَعْنى وتناقله السّلف الصَّالح - قَول زيد بن عَمْرو ابْن نفَيْل رَحمَه الله تَعَالَى:

رضيت بك اللَّهُمَّ رَبًّا فَلَنْ أرى … أدين إِلَهًا غَيْرك الله ثَانِيا

وَأَنت الَّذِي من فضل من وَرَحْمَة … بعثت إِلَى مُوسَى رَسُولا مناديا

فَقلت لمُوسَى اذْهَبْ وَهَارُون فَادعوا … إِلَى الله فِرْعَوْن الَّذِي كَانَ طاغيا

وقولا لَهُ آأنت سويت هَذِه بِلَا وتد حَتَّى اطمأنت كَمَا هيا
وقولا لَهُ آأنت رفعت هَذِه بِلَا عمد أرْفق إِذا بك بانيا
وقولا لَهُ آأنت سويت وَسطهَا منيرًا إِذا مَا جنه اللَّيْل هاديا
وقولا لَهُ من يُرسل الشَّمْس غدْوَة فَيُصْبِح مَا مست من الأَرْض ضاحيا
وقولا لَهُ من ينْبت الْحبّ فِي الثرى فَيُصْبِح مِنْهُ البقل يَهْتَز رابيا
وَيخرج مِنْهُ حبه فِي رءوسه وَفِي ذَاك آيَات لمن كَانَ واعيا

وَله أَيْضًا:

وَأسْلمت وَجْهي لمن أسلمت لَهُ المزن تحمل عذبًا زلالا

وَفِيه يَقُول ورقة بن نَوْفَل:

رشدت وأنعمت ابْن عَمْرو وَإِنَّمَا تجنبت تنورًا من النَّار حاميا

وتَفَكَّرْ فِي تبَاين القمرين فِي الْحَرَارَة والبرودة، وَبرد الْقَمَر مَعَ استمداده نوره من الشَّمْس، وحرارة الشَّمْس الشَّدِيدَة ومم استمدت تِلْكَ الْحَرَارَة الدائمة المتوقدة وَهِي فِي أرفع الأجواء الرّطبَة الْبَارِدَة وَكَيف لم تحترق وتتلاش مَعَ شدَّة حَرَارَتهَا ودوامها وَعدم مَا تحرقه مثل سَائِر الناريات.

وَقد ذكر صَاحب الْوَظَائِف أَن فِي كتاب الله تَعَالَى من الْآيَات فِي هَذَا الْمَعْنى خَمْسمِائَة آيَة، وَقد ذكرت فِي تكْمِلَة تَرْجِيح أساليب الْقُرْآن من ذَلِك مَا يشفي وَيَكْفِي

ولنختم هَذَا الْمَعْنى بِذكر آيَة وَاحِدَة مِنْهَا، وَهِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ﴾ [الروم: ٢٥] وَفِي آيَة أُخْرَى بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٤١].

وَهَذِه حجَّة أجمع عَلَيْهَا الْكفَرَة مَعَ الْمُسلمين، فَإِن الْجَمِيع اتَّفقُوا على أَن الْعَالم فِي الْهَوَاء أرضه وسماؤه وَمَا فِيهِ من الْبحار وَالْجِبَال وَجَمِيع الأثقال

وَقد ثَبت بضرورة الْعقل أَن الثقيل لَا يسْتَمْسك فِي الْهَوَاء إِلَّا بممسك وَأَن هَذَا الإمساك الدَّائِم المتقن لَا يكون بِمَا لَا يعقل من الرِّيَاح كَمَا زعمت الفلاسفة على أَن الرِّيَاح تحْتَاج إِلَى خَالق يخلقها ثمَّ إِلَى مُدبر يقدرها مستوية الأنفاس موزونة الْقُوَّة لَا يزِيد مِنْهَا شَيْء على شَيْء حَتَّى تعتدل اعتدالًا أتم من اعْتِدَال الْفَاعِل الْمُخْتَار، فَإِن الْفَاعِل الْمُخْتَار لَو قصد الِاعْتِدَال التَّام حَتَّى يَسْتَوِي على رَأسه حفْنَة مَمْلُوءَة مَاء لم يسْتَطع تَمام الِاعْتِدَال إِلَّا برياضة شَدِيدَة، فَكيف تعتدل عواصف الرِّيَاح وَتَقَع موزونة وزن القراريط فِي الصنجات المعدلة حَتَّى يَسْتَوِي عَلَيْهَا ثقل الأَرْض وَالْجِبَال من غير رب عَظِيم قدير عليم مُدبر حَكِيم[1].

الفصل التاسع: دلالة الأنفس

أما دلَالَة الانفس فَإِنَّهَا بليغة، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧- ١٩] الْآيَات وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦- ٨] وَقَالَ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] الْآيَة وأبسط آيَة فِي ذَلِك آيَة الْحَج ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ الْآيَات إِلَى قَوْله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إِلَى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥- ٧] وأبطل شُبْهَة الطبائعية بقوله: (من تُرَاب) لِأَن آدم أَبُو الْبشر وأصله بالتواتر

(١) «إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات» (ص: ٥٤).

الضَّرُورِيّ لَا أَب لَهُ وَلَا أم فلزمت الْحجَّة وَبَانَتْ ووضحت وَللَّه الْحَمد وَالثنَاء والْمنَّة.

وَكَذَلِك الْآيَة الَّتِي فِي سُورَة الْمُؤمنِينَ من قَوْله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ إِلَى قَوْله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤] وَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ [يس: ٧٧، ٧٨].

وَمن ثمَّ قيل: (فكرك فِيك يَكْفِيك).

وَقد جمع الله تَعَالَى ذكر دلالتي النُّفُوس والآفاق فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] وَذَلِك أَنا نعلم بِالضَّرُورَةِ وجودنا أَحيَاء قَادِرين عَالمين ناطقين سَامِعين مبصرين مدركين بعد أَن لم نَكُنْ شَيْئًا، وَأَن أول وجودنا كَانَ نُطْفَة قذرة مستوية الْأَجْزَاء والطبيعة غَايَة الاسْتوَاء بِحَيْثُ يمْتَنع فِي عقل كل عَاقل أَن يكون مِنْهَا بِغَيْر صانع حَكِيم مَا يخْتَلف أجناسًا وأنواعًا وأشخاصًا.

أما الْأَجْنَاس فَكَمَا نبه عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥] وَأما الْأَنْوَاع فنبه عَلَيْهَا بقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٧- ٣٩] وَمِنْه ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧] وَأما الْأَشْخَاص فبقوله تَعَالَى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧- ٢٠] الْآيَات.

وَبَيَانه أَنه خلق من نُطْفَة فقذره مستوية الطبيعة فَكيف يكون مِنْهَا مَا يبصر وَمِنْهَا مَا يسمع وَمِنْهَا مَا يطعم وَمِنْهَا مَا يشم وَمِنْهَا الصلب وَمِنْهَا الرخو وَمِنْهُم من يمشي على بَطْنه وَمِنْهُم من يمشي على رجلَيْنِ وَمِنْهُم من يمشي على أَربع، كَمَا نبه الله عَلَيْهِ فِي كِتَابه الْكَرِيم.

ونعلم أَنَّهَا قد تَغَيَّرت بِنَا الْأَحْوَال وتنقلت بِنَا الأطوار تنقلًا عجيبًا، فَكُنَّا نطفًا ثمَّ علقًا ثمَّ مضغًا ثمَّ لَحْمًا ودمًا ثمَّ عظامًا صُلبة مُتَفَرِّقَة فِي ذَلِك اللَّحْم وَالدَّم تقويهما وعصبًا رابطة بَين تِلْكَ الْعِظَام صَالِحَة لذَلِك الرَّبْط مِمَّا فِيهَا من الْقُوَّة والمتانة، ثمَّ تركب من ذَلِك آلَات وحواس حَيَّة مُوَافقَة للْمصَالح مَعَ ضيق ذَلِك الْمَكَان وَشدَّة ظلمته.

وَإِلَى ذَلِك الإشارة بقوله تَعَالَى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦] والظلمات الثَّلَاث: ظلمَة الْبَطن وظلمة المشيمة وظلمة الرَّحِم.

ثمَّ انْظُر إِلَى مَوضِع الْعَينَيْنِ مَا أشبهه بهما بَعيدًا مِمَّا يؤذيها مرتفعًا للتمكن من إِدْرَاك المبصرات فِي الْوَجْه الَّذِي لَا يحْتَاج إِلَى تَغْطِيَة باللباس من الْجمال البديع فيهمَا، وَفِي جفونهما وَلَو كَانَا فِي الرَّأْس أَو فِي الظّهْر أَو فِي الْبَطن أَو غير ذَلِك مَا تمت الْحِكْمَة وَلَا النِّعْمَة بهما. وَكَذَلِكَ كل عُضْو فِي مَكَانَهُ. وَانْظُرْ إِلَى ستر القذر الَّذِي فِي الْبَطن بالسواتر الْعَظِيمَة بِحَيْثُ لَا يحس لَهُ حس وَلَا يظْهر لَهُ ريح وَلَا يخرج إِلَّا باختيارنا فِي مَوضِع خَالٍ. وَإِن من عَجِيب صنع الله تَعَالَى استمساك الْبَوْل فِي حَال الْغَفْلَة بل فِي حَال النّوم حَتَّى نَخْتَار خُرُوجه وَنرْضى بِهِ من غير رِبَاط وَلَا سداد فِي مجْرَاه وَلَا مَانع محسوس، فَتَبَارَكَ الله أحسن الْخَالِقِينَ.

ثمَّ حياتنا فِي بطُون الْأُمَّهَات من غير نَفَس وَلَو كَانَ ثمَّ نَفَس لَكَانَ ثمَّ صَوت. وَلَو غم أَحَدنَا بعد الْخُرُوج سَاعَة لمات، بل كَثِيرُونَ يموتون فِي المدافن المتخذة للحبوب مَعَ سعتها.

ثمَّ خروجنا من ذَلِك الْموضع الضّيق من غير اخْتِيَار من الْمَوْلُود والوالدة، وَهُوَ فعل مُحكم صَعب لابد لَهُ من فَاعل مُخْتَار، وَعدم الْمَوْت لشدَّة الضغطة عِنْد الْخُرُوج وسلامة الْوَلَد وَأمه من الْمَوْت فِي ذَلِك من آيَات

الله كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ فِي آيَة الْحَج فِي ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١].

ثمَّ احداث اللَّبن فِي ثدي الْأُم من يَوْمئِذٍ من بَين فرث وَدم، وتربية الْمَوْلُود وفهمه للغة أَهله مَا كَانَت فصيحة عَرَبِيَّة أَو عبرية عجمية مَعَ كَثْرَة قَوَاعِد الْعَرَبيَّة وَكَثْرَة اخْتِلَاف عوامل الإعراب والعاقل الْمُمَيز يقف على أَضْعَاف تِلْكَ الْمدَّة بَين الْعَرَب والعجم فَلَا يعرف من ذَلِك مَا عرف الصَّغِير وَلَا يدْرِي مَا يَقُولُونَ بِمُجَرَّد المخالطة كالطفل الَّذِي لَا عقل لَهُ وَلَا تَمْيِيز، وَكَذَلِكَ العجمي بَين الْعَرَب.

ثمَّ يترقى إِلَى حَال التَّمْيِيز وتتعاقب عَلَيْهِ الْأَحْوَال من الصغر وَالْكبر والضعف وَالْقُوَّة والشباب والشيب وَالْعقل والذكاء والبلادة وَالْمَرَض وَالصِّحَّة والشهوة والنفرة والدواعي والصوارف والعسر واليسر والغنى والفقر وضده، من غير اخْتِيَار مِنْهُ فِي شَيْء من ذَلِك، فلابد لهَذِهِ التغيرات من مغير قَادر عليم مُدبر حَكِيم.

وَقد صَنَّفَتْ فِي هَذَا الْمَعْنى كتب علم التشريح وَبَيَان كَيْفيَّة الْخلقَة، وَهُوَ مِمَّا يَنْبَغِي الْوُقُوف عَلَيْهِ أَو على شَيْء مِنْهُ، وَقد نقل ابْن الْجَوْزِيّ مِنْهُ جملَة شافية فِي أول كِتَابه لقط الْمَنَافِع فِي الطِّبّ فليطالع فِيهِ.

فَلَو جَازَ أَن يكون مثل هَذَا بِغَيْر صانع لجَاز أَن تصح لنا دور معمورة أَو مصاحف مَكْتُوبَة أَو ثِيَاب محوكة أَو حلى مصوغة بِغَيْر بَانٍ وَلَا كَاتب وَلَا حائك وَلَا صائغ، فَمَا خص خير الْخَالِقِينَ بَان يكفر وَلَا يدل عَلَيْهِ أثر صَنعته العجيبة وخلقته البديعة. وَلَو كَانَ هَذَا الْأَثر للطبع كَمَا قَالَ كثير من الفلاسفة لَكَانَ أثرًا وَاحِدًا كَمَا لَو جمدت النُّطْفَة بطبع الْبرد أَو ذَابَتْ أَو أنتنت.

قال الإمام الْمُؤَيد بِاللَّه فِي «الزِّيَادَات»: إن الطَّبْع إن سَلَّمنَا وجوده لَا يحصل بِهِ الشَّيْء على قدر الْحَاجة وَإِنَّمَا يكون بِمِقْدَار قوته وَضَعفه، أَلا ترى أَن النَّار

تحرق لَا على قدر الْحَاجة بل على قدر قوتها وتنقص عَن الْحَاجة إِذا ضعفت؟ وَكَذَلِك المَاء الْجَارِي. والحكيم يجريه ويقطعه على قدر الْحَاجة. انتهى كَلَامه وَفِيه تَنْبِيه حسن على الْفرق الْجَلِيّ.

فَإِذا عرفت هَذَا فَانْظُر كَيفَ يُمكن أَن يتَغَيَّر الْمَنِيّ المستوي إِلَى تِلْكَ الْأُمُور الْمُخْتَلفَة المحكمة البديعة الأحكام العجيبة الصَّنْعَة، وَهل ذَلِك إِلَّا بِمَنْزِلَة تَجْوِيز أَن يصير المداد مُصحفًا معربًا لَا غلط فِيهِ وَلَا لحن بطبع المداد من غير كَاتب عَالم، بل إحكام الإنسان أبلغ وأعجب وَقد رَأَيْت كم جمع فِي الْأُنْمُلَة الْوَاحِدَة من الأصابع من الأشياء الْمُخْتَلفَة فَوضع فِيهَا جلدًا وَلَحْمًا وعصبًا وشحمًا وعروقًا ودمًا ومخًّا وعظمًا وبلة وظفرًا وشعرًا وَبضْعَة عشر شَيْئًا غير ذَلِك، كل وَاحِد مِنْهَا يُخَالف الآخر قدرَة وحياة واستواء وارتفاعًا وانحدارًا وخشونة ولينًا وحرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة وصلابة ورخاوة، ثمَّ خلق فِي بَعْضهَا الْحَيَاة دون بعض؛ كالشعر وَالظفر والعظم وَجعلهَا مدركة لأمور شَتَّى كالحرارة والبرودة واللين والخشونة والقلة وَالْكَثْرَة والرطوبة واليبوسة. وَمن لطيف الْحِكْمَة فِيهَا اختلافها فِي الطول وَالْقصر حَتَّى تستوي عِنْد الْقَبْض على الْأَشْيَاء فتقوى بالاستواء، وَهَذَا مِمَّا تخفى فِيهِ الْحِكْمَة جدًّا، أَعنِي كَون الِاخْتِلَاف فِي ذَلِك سَبَب الاسْتوَاء عِنْد الْقَبْض؛ وَلذَلِك خُصت بِالذكر فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وَقد أَشَارَ الله تَعَالَى إِلَى بطلَان مَذْهَب الطبائعيين بِهَذَا الْمَعْنى وَنبهَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَيْثُ قَالَ فِي كَلَامه الْكَرِيم: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد: ٤] وَآخر الْآيَة دَلِيل على أَن الْعقل يدْرك بذلك بطلَان قَول أهل الطبائع.

وَمِمَّا يدل عَلَيْهِ عَافِيَة كثير من المرضى بعد غَلَبَة الْعلَّة وقوتها وَضعف أَسبَاب الْعَافِيَة ويأس الطَّبِيب من العلاج.

فقد ذكر الْأَطِبَّاء أَن الطِّبّ لَا ينفع فِي بعض تِلْكَ الْأَحْوَال.

فيتأمل ذَلِك كثيرًا فَفِيهِ شِفَاء لما فِي الصُّدُور.

وَقد وَقعتُ فِي ذَلِك فَقلتُ فِيهِ:

فيا عطسات فرجت كل كربَة وَلم يبْق فِي أَيدي الأساة سوى الصفق

لَهُ الْحَمد منشكين من غير حِيلَة وَلَا سَبَب يجْرِي لي الرِّيق فِي حلقي

بكم علمت الله علم ضَرُورَة وَكم مثلهَا يجلو الوساوس فِي الْحق

فَإِنِّي شارفت الْمَوْت من الإسهال، فعطست ثَلَاث عطسات فَكَأَنَّمَا نشطت من عقال، وَلم يكن للعطاس سَبَب طبيعي قطّ فَكَانَت من الْآيَات العجيبة!!

وَمِمَّا يَنْبَغِي التيقظ لَهُ فِي الرَّد عَلَيْهِم أَن آدم ﷺ هُوَ أَبُو الْبشر وَذَلِكَ مَعْلُوم ضَرُورَة تَوَاتر وَدلَالَة جلية: أما التَّوَاتُر فَوَاضِح وَأما الدّلَالَة فمحال أَن يكون الْبشر من أم وَأب وَإِلَى مَا لَا نِهَايَة لِأَن عدم التناهي فِي الْحَوَادِث الْمَاضِيَة محَال، فَوَجَبَ أَن يكون أَوَّلهمْ حَادِثًا من غير أم وَلَا أَب وَلَا نُطْفَة وَلَا طبيعة وأنه صنع حَكِيم.

وَإِنَّمَا علمنَا من السّمع أَن اسْمه آدم وَأَنه من طين. فَلَو كَانَت الطبيعة تَقْتَضِي ذَلِك بِنَفسِهَا من غير صانع لَكَانَ فِي كل زمَان تظهر صور كَثِيرَة من الطين كصورة آدم.

ثمَّ النّظر فِي خلق سَائِر الْحَيَوَان كَذَلِك، فَإِن انفلاق بعض الطُّيُور عَن فراخها من عَجِيب صنع الله، وَكَانَ بعض السّلف يحْتَج بذلك على أَن الله تَعَالَى عليم قدير لَا كعلم الْخلق وقدرتهم لِأَن قدرته أثرت فِيمَا دَاخل الْبَيْضَة

من غير كسر لَهَا وَلَا مُبَاشرَة، وَعلمه أحكم صنع مَا فِي الْبَيْضَة كَذَلِك.

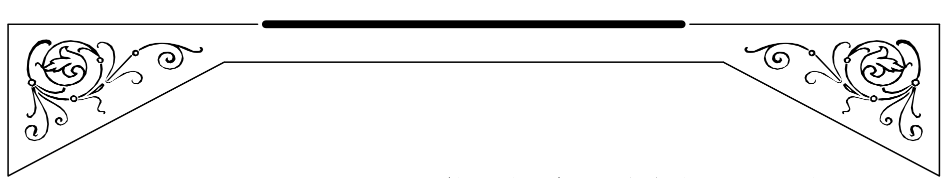
وَإِلَى ذَلِك أَشَارَ الْقُرْآن الْكَرِيم حَيْثُ قَالَ الله تَعَالَى فِي سُورَة الْحَج: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] يَعْنِي أولكم وأصلكم وَلَيْسَ فِي خلق الْإِنْسَان من التُّرَاب شُبْهَة أَلْبَتَّة لاعتراف الطبائعية بِأَنَّهُ خلاف العوائد الطبيعية. وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١] وَقد أعظم الله تَعَالَى هَذِه الدّلَالَة فَقَالَ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] الْآيَة وَجعل عدم الْإِيمَان بهَا أكفر الْكفْر فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧- ٢١] وَنبهَ بقوله سُبْحَانَهُ على أَن الْمَوْت - دع عَنْك الْحَيَاة - مِمَّا يسْتَدلّ بِهِ على الله تَعَالَى كَمَا أوضح ذَلِك فِي قَوْله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣- ٨٧] وَذَلِك أَن الْحَيّ يَمُوت بِإِذن الله تَعَالَى مَعَ اجْتِمَاع أَسبَاب الْحَيَاة فِي هَذَا الْعَالم الْوَاسِع، كَمَا يعِيش بإذن الله فِي بطن أمه بِغَيْر نفس يجْرِي وَلَا هَوَاء يمد روحه!!

فسبحان من هُوَ على كل شَيْء قدير وَمِنْه المبدأ وَإِلَيْهِ الْمصير!!

وَقد اخْتَار الْمُؤمن هَذِه الْحجَّة فِي قَوْله لصَاحبه الْكَافِر المخاصم لَهُ: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧] وَأثنى الله تَعَالَى عَلَيْهِ بذلك وخلد ذكره فِي أفضل كتبه، فَكيف لَا يختاره الْمُؤمن لتقوية يقينه وَدفع وساوس خصومه وشياطينه[١].

---

(١) «إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات» (ص: ٥١).



المبحث الثاني: ثمرات الإيمان بالله جل جلاله

من ثمراتُ الإيمان بالله تعالى:

١ - استشعارُ الإنسان عظمة الله ﷻ وجلاله وكماله، مما يدفع الإنسان إلى الخوف واللجوء إليه والتقرب إليه حبًّا وتعظيمًا ومهابة وإجلالًا، وكل ذلك يؤثر في حياة المؤمن تأثيرًا كبيرًا يدفعه إلى السلوك القويم رجاء ثواب الله تعالى وخوف عقابه، كما أنه يملأ قلبه حبًّا للخير فيسعى إلى دعوة غيره بالتي هي أحسن حتى يشترك معه في تحصيل هذا الخير؛ لذا قال الله تعالى في وصف الرسول ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

٢- استعلاءُ نفس المؤمن وتحرره من العبودية لغير الله تعالى، فلا يخاف إلا إياه، ولا يطمع إلا في رضاه، وهذا ما يربي فيه الخصال الحميدة من العزة والكرامة والصدق والشجاعة والسخاء؛ لأنه صار عبدًا لله حقًّا يستمد عزه من عزته كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨١].

٣- إضفاءُ الحياة معنى أكبر وأبعد من المعاني القاصرة المتصفة بالذاتية والأنانية، حيث إن المؤمن يعتقد جازمًا بأن هذه الدنيا مزرعةٌ للآخرة، وأن له بكل ما يبذل في هذه الدنيا حسنةً، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا

سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٣٩- ٤٣].

٤- تنزيهُ الله تعالى عن مشابهة خلقه، وبيان أنه المتفرد بصفات الكمال والجلال، فلا يتطرق إلى قلب المؤمن شيءٌ من أوهام تشبيه أحد من الخلق بالله ﷻ، أو وصف ذلك المخلوق بصفات الكمال الواجبة لله تعالى

٥ - يثمر للعبد محبةَ الله وتعظيمه الموجبين للقيام بأمره، واجتناب نهيه، وإذا قام العبد بذلك نال بهما كمال السعادة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

٦ - إنَّ الإيمان بالله ينشئ في النفس الأنفة والعزة؛ لأنه يعلم أن الله هو المالك الحقيقي لكل ما في هذا الكون، وأنه لا نافع ولا ضار إلا هو، وهذا العلم يغنيه عن غير الله، وينزع من قلبه خوف سواه، فلا يرجو إلا الله، ولا يخاف سواه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣- ١٧٥].

٧ - إنَّ الإيمان بالله ينشئ في نفسه التواضع؛ لأنه يعلم أن ما به من نعمة فمن الله، فلا يغره الشيطان، ولا يبطر ولا يتكبر، ولا يزهو بقوته وماله.

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

٨ - إنَّ المؤمن بالله يعلم علم اليقين أنه لا سبيلَ إلى الفلاح والنجاةِ إلا بالعمل الصالح الذي يرضاه الله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧]، في حين يعتقد غيره اعتقادات باطلة؛ كاعتقاد أن الله أمر بصلب ابنه تكفيرًا عن خطايا البشر. أو يؤمن بآلهة ويعتقد أنها تحقق له ما يريد، وهي في حقيقتها لا تنفع ولا تضر. أو يكون ملحدًا فلا يؤمن بوجود خالق.. وكل هذه أماني، حتى إذا وردوا على الله يوم القيامة وعاينوا الحقائق أدركوا أنهم كانوا في ضلال مبين. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧]، ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤].

٩ - إنَّ الإيمان بالله يربي في الإنسان قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل، حينما يضطلع بمعالي الأمور في الدنيا ابتغاء مرضاة الله، ويكون على يقين تام أنه متوكل على ملك السماوات والأرض، وأنه يؤيده ويأخذ بيده، فيكون راسخًا رسوخ الجبال في صبره وثباته وتوكله.

١٠ - الأمن التام والاهتداء التام: فبحسب الإيمان يحصل الأمن والاهتداء في الدنيا والبرزخ والآخرة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

١١ - الاستخلافُ في الأرض والتمكين والعزة: قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ

ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

١٢ - دخول الجنان والنجاة من النيران: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد: ١٢].

١٣ - الحياةُ الطيبة: فالحياة الطيبة الحافلة بكل ما هو طيب-إنما هي ثمرة من ثمرات الإيمان بالله ﷻ، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

١٤ - حلولُ الخيرات ونزولُ البركات: قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

١٥ - الهدايةُ لكل خير: قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩]. وقال تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج: ٢٤].

١٦ - السلامةُ من الخسارة: قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١- ٣].

١٧ - الإيمانُ بالله سببٌ لدفاع الله عن أهله: قال ﷻ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج: ٣٨].

١٨ - تكفيرُ السيئات: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴿٢﴾﴾ [محمد: ٢].

١٩ - الرفعةُ والعلو: قال تعالى: . . . ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١].

٢٠ - قوةُ التوكل: فالإيمان بالله يوجب للعبد قوة التوكل على الله، . . ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

٢١- الشجاعةُ: فالإيمان بالله يبعث على الشجاعة والإقدام؛ لأنه يملأ قلب المؤمن بالخوف من الله، والخشية له، وتعظيمه، وإجلاله. قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٢٢ - حسنُ الخلق: فالإيمان يدعو إلى حسن الخلق مع جميع طبقات الناس، وإذا ضعف الإيمان أو نقص أو انحرف أثَّر ذلك في أخلاق العبد انحرافًا بحسب بُعْده عن الإيمان. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

٢٣ - الإعانةُ على تحمل المشاقِّ: فالإيمان أكبر عون على تحمل

المشاق، والقيام بالطاعات، وترك الفواحش والمنكرات.

٢٤ - الذِكرُ الحسن: فالإيمان يوجب لصاحبه أن يكون معتبرًا عند الخلق أمينًا.

٢٥ - عزةُ النفس: فالإيمان يوجب للعبد العفة، وعزة النفس، والترفع عن إراقة ماء الوجه؛ تذللًا للمخلوقين.

٢٦- إن الإيمان هو السبب الوحيد للقيام بذروة سنام الإسلام وهو الجهاد البدني والمالي والقولي في سبيل الله.

٢٧ - ولايةُ الله لعبده المؤمن..

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحْبِبْهُ. فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ**»(١).

٢٨ - استغفارُ الملائكة لهم، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: ٧- ٩].

(١) صحيح البخاري برقم (٣٢٠٩)، ومسلم برقم (٦٨٧٣).

٢٩ - السعادةُ التي يجدها المسلم في لذة العبادة، وهي الحياة الطيبة التي وعد الله بها عباده المؤمنين. يقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِي ﷺ: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[1].

وقال العلامة ابن القيم رحمه في مدارج السالكين[2]: «فإنه لا نعيمَ له ولا لذة ولا ابتهاج ولا كمال إلا بمعرفة الله ومحبته والطمأنينة بذكره والفرح والابتهاج بقربه والشوق إلى لقائهِ، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة، فله جنتان لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخلِ الأولى، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنةً من لم يدخلها لم يدخلْ جنة الآخرة. وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقاتٌ أقول: إن كان أهلُ الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيشٍ طيبٍ. وقال بعض المحبين: مساكين أهلُ الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيبَ ما فيها! قالوا: وما أطيبَ ما فيها؟ قال: محبةُ الله والأنسُ به والشوقُ إلى لقائه والإقبالُ عليه والإعراض عُما سواه! أو نحو هذا من الكلام، وكلُّ من له قلبٌ حيٌّ يشهدُ هذا ويعرفُه ذوقًا...».

---

(١) صحيح البخاري برقم (٧٤٠٥)، ومسلم برقم (٦٩٨١).

(٢) (٣/ ٧).

٣٠ - الوقاية من الشيطان. ذلك أن الشيطانَ يوسوسُ لكل أحد ويدلُّه على ما يهلكه، وقد جعل الله لعباده المؤمنين حصونًا يمتنعون فيها من وسوسته، يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ الله أكبر ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ الله أكبر ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٨- ١٠٠].

٣١ - يمدُّ الإنسان بقدرةٍ كبيرةٍ على تحمُّل المصائب. قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وعَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[١][٢].

❊ ❊ ❊

(١) صحيح مسلم (٧٦٩٢).

(٢) «أركان الإيمان» (ص: ٥٠).



الباب الثاني

اعتقاد أهل السنة في الإيمان بالله جل جلاله

وبه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التوحيد وأقسامه، وبه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف التوحيد.

المبحث الثاني: تقسيم التوحيد ومشروعية هذا التقسيم والرد على المنكرين.

المطلب الثاني: توحيد الربوبية، وبه عشرة مباحث:

المبحث الأول: تعريف توحيد الربوبية.

المبحث الثاني: معنى كلمة الرب.

المبحث الثالث: أسماء هذا النوع من التوحيد.

المبحث الرابع: الربوبية ثابتة بالقرآن والسنة.

المبحث الخامس: أنواع الأدلة على إثبات الربوبية.

المبحث السادس: توحيد الربوبية ليس هو الغايةَ في التوحيد.

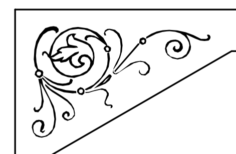
المبحث السابع: آثار توحيد الربوبية وفوائده.

المبحث الثامن: ما ضد توحيد الربوبية؟

المبحث التاسع: الفِرَق التي ضلت في توحيد الربوبية.







الباب الثاني
اعتقاد أهل السنة في الإيمان بالله جل جلاله

- وبه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التوحيد وأقسامه

- وبه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف توحيد

- وتحته فصلان:

الفصل الأول: تعريف التوحيد لغة

قال ابن الأثير في «النهاية» - في اسم الله الواحد -: «هو الفرد الذي لم يزل ولم يكن معه آخر»[(١)].

وقال الأزهري: الفرق بين الواحد والأحد أن الأحد بُني لنفي ما يُذكر معه من العدد، تقول: ما جاءني أحد، والواحد اسْم بني لمفتتح العدد، تقول: جاءني واحد من الناس، ولا تقول: جاءني أحد، فالواحد منفرد بالذات في

---

(١) «النهاية» (٥/ ١٥٩).

عدم المثل والنظير، والأحد منفرد بالمعنى. وقيل: الواحد هو الذي لا يتجزأ، ولا يثنى، ولا يقبل الانقسام، ولا نظير له ولا مثيل، ولا يَجمع هذين الوصفين إلا الله تعالى»[١].

وقال ابن المنظور: «الواحد من صفات الله تعالى، معناه لا ثاني له، ولا يجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد، فأما أحد فلا ينعت به غير الله لخلوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه، وتقول: أَحَّدْتُ الله تعالى، ووحدته، وهو الواحد الأحد»[٢].

وقال الفيروز آبادي: «التوحيد الإيمان بالله، والله الأوحد والمتوحد ذو الوحدانية»[٣].

وقال الراغب: «الوحدة: الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة، ثم يطلق على كل موجود، حتى إنه ما من عدد إلا ويصح أن يوصف به، فيقال: عشرة واحدة، ومائة واحدة، وألف واحد...»[٤].

من هذا يتبين لنا أن مادة «وحد» وكلمة «وحدة» تدور حول انفراد الشيء بذاته أو بصفاته أو بأفعاله، وعدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه، أما إذا عُدِّى بالتضعيف، فقيل: وحّد الشيء توحيدًا، فإن معناه: إما جعله واحدًا، أو اعتقده واحدًا، قال تعالى حكاية عن المشركين: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾[ص: ٥][٥].

---

(١) «تهذيب اللغة» (٥/ ١٩٥).

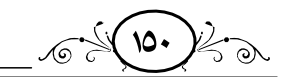
(٢) «لسان العرب» (٣/ ٤٥١).

(٣) «القاموس المحيط» (١/ ٣٤٤).

(٤) «المفردات في غريب القرآن» (ص: ٥١٤).

(٥) «منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام» (١/ ٤٨).

وعلي هذا فللتوحيد لغة معنيان: الأول: جعل المتعدد واحدًا بنفي الحكم عما سوى الموحَّد وإثباته له. والثاني: اعتقاد الشيء واحدًا، وهذا بمعنى النسبة إلى الوحدانية، وليس في هذا تصيير أو جعل(١).



الفصل الثاني: تعريف التوحيد شرعًا

توحيد الله معناه اعتقاد أنه إله واحد لا شريك له، ونفي المثل والنظير عنه، والتوجه إليه وحده بالعبادة، وإذا قيل: الله واحد أو أحد، كان معنى ذلك انفراده بما له من ذات وصفات، وعدم مشاركة غيره فيها، فهو واحد في إلهيته فلا إله غيره، وواحد في ربوبيته فلا رب سواه، وواحد في كل ما ثبت له من صفات الكمال التي لا تنبغي إلا له(٢).

ونستطيع القول بأن التوحيد هو: الإيمان الجازم بتفرد الله تعالى ووحدانيته في ذاته وصفاته وأفعاله، ونفي الشركاء والأنداد عنه سبحانه اعتقادًا وعملًا على الوجه الذي جاء به الوحي الإلهي على ألسنة الرسل عليهم السلام(٣)(٤).

فاصطلاحًا على الإطلاق العام هو: إفراد الله بالعبادة حسب ما شرع وأحب، مع الجزم بانفراده في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا نظير له ولا مثيل له في ذلك كله.

---

(١) «مدخل إلى علم العقيدة» (ص:٢٨).

(٢) «مصرع الشرك والخرافة» (ص:١٨).

(٣) انظر: «دراسات في التفسير الموضوعي» للألمعي (ص:١٥٧) الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

(٤) «منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام» (١/ ٤٩).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «هو عبادة الله وحده لا شريك له، مع ما يتضمنه من أنه لا رب لشيء من الممكنات سواه»[١].

وقال الشيخ عبد الله الغنيمان حفظه الله: «هو إفراده تعالى بالعبادة التي تتضمن غاية الحب ومنتهاه، مع غاية الذل وأقصاه، والانقياد لأمره والتسليم له»[٢].

وقال الشيخ علي بن محمد بن ناصر الدين الشافعي الشهير بالسويدي رَحِمَهُ اللهُ: «التوحيد فعل للموحد، وهو وصف الله تعالى بالوحدانية، وذلك نوعان: توحيد في ربوبيته، وهو الحاصل بعد توحيد الذات والصفات. وتوحيد في ألوهيته»[٣][٤].



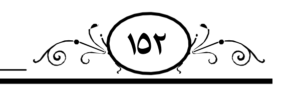
---

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٤١).

(٢) «شرح الطحاوية» (١/ ٢٣٣، ٢٤٢).

(٣) «تاريخ بغداد» (١٢/ ١٨٢)، وانظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٠٤).

(٤) «مدخل إلى علم العقيدة» (ص: ٢٨).



المبحث الثاني: تقسيم التوحيد ومشروعية هذا التقسيم والرد على المنكرين

وبه أربعة فصول:

الفصل الأول: مشروعية هذا التقسيم من القرآن والسنة وأقوال السلف

تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، أو إلى قسمين: توحيد معرفة وإثبات وهو توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد إرادة وطلب وهو توحيد الألوهية.

فهذه عقيدة المسلمين قاطبة، المؤمنين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ سوى المبتدعة الضُّلاَّل.

والمراد بتوحيد الربوبية: الاعتقاد الجازم بأنَّ الله وحده الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لشئون خلقه كلها لا شريك له في ذلك.

والمراد بتوحيد الألوهية: إفراد الله وحده بالخضوع والذل والمحبة والخشوع وسائر أنواع العبادة لا شريك له.

والمراد بتوحيد الأسماء والصفات: الإيمان الجازم بأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، وإثباتها دون تحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل.

ولكلٍّ قسم من هذه الأقسام الثلاثة ضدٌّ:

«فإذا عرفت أن توحيد الربوبية هو الإقرار بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور المتصرف في كل مخلوقاته لا شريك له في ملكه، فضد ذلك هو اعتقاد العبد وجود متصرف مع الله غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ.

وإذا عرفت أنَّ توحيد الأسماء والصفات هو أن يدعى الله تعالى بما سمى به نفسه ويوصف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله محمد ﷺ وينفي عنه التشبيه والتمثيل، فضد ذلك شيئان ويعمهما اسم الإلحاد: أحدهما: نفي ذلك عن الله ﷻ وتعطيله عن صفات كماله ونعوت جلاله الثابتة بالكتاب والسنة. ثانيهما: تشبيه صفات الله تعالى بصفات خلقه، وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠].

وإذا عرفت أن توحيد الإلهية هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة ونفي العبادة عن كل ما سوى الله تبارك وتعالى، فضد ذلك هو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ﷻ، وهذا هو الغالب على عامة المشركين وفيه الخصومة بين جميع الرسل وأممها»(١).

وهذه الأقسام الثلاثة للتوحيد لها دلائل كثيرة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ:

١- فمن أدلة توحيد الربوبية:

قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٢].

---

(١) «معارج القبول» للشيخ حافظ حكمي (١/ ٤١٨).

وقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ﴾ [الرعد: ١٦].

وقوله: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾[المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[غافر: ٦٤].

وقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: ٦٢].

وغيرها من الآيات.

٢- ومن أدلة توحيد الألوهية:

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢]؛ لأنَّ الله معناه المألوه المعبود.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١] وقوله: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٢، ٣] وقوله: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ۗ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥]

وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥]. وغيرها من الآيات.

٣- ومن أدلة توحيد الأسماء والصفات:

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٣، ٤].

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ٨].

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤]. وغيرها من الآيات.

ومن الآيات التي جمعت أقسام التوحيد الثلاثة:

قول الله تبارك وتعالى في سورة مريم: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا دلالة الآية على ذلك:

«اشتملت - أي: الآية - على أصول عظيمة على توحيد الربوبية وأنَّه تعالى ربُّ كلِّ شيء وخالقُهُ ورازقُهُ ومدبِّره، وعلى توحيد الألوهية والعبادة وأنَّه تعالى الإله المعبود وعلى أنَّ ربوبيته موجبة لعبادته وتوحيده؛ ولهذا أتى فيه بالفاء في قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ﴾ الدالة على السبب، أي فكما أنَّه ربُّ كلِّ شيء فليكن هو المعبود حقًّا فاعبده، ومنه: الاصطبار لعبادته تعالى وهو جهاد النفس وتمرينها وحملها على عبادة الله تعالى فيدخل في هذا أعلى أنواع الصبر وهو الصبر على الواجبات والمستحبات والصبر عن المحرمات والمكروهات، بل يدخل في ذلك الصبر على البليات، فإنَّ الصبر عليها وعدم تسخطها والرضا عن الله بها - من أعظم العبادات

الداخلة في قوله: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾، واشتملت على أنَّ الله تعالى كامل الأسماء والصفات عظيم النعوت جليل القدر، وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سَمِي، بل قد تفرَّد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات»[(١)].

وفي بيان دلالة القرآن على أنواع التوحيد يقول العلاَّمة ابن القيم بعد أن ذكر أنَّ كلَّ طائفة تسمي باطلهم توحيدًا:

«وأمَّا التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه، فوراء ذلك كله، وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات وتوحيد في المطلب والقصد.

فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وعلوّه فوق سمواته على عرشه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جدّ الإفصاح كما في أول سورة الحديد وسورة طه وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكاملها... وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة «قل يا أيها الكافرون»، وقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ الآية [آل عمران: ٦٤]، وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها، وأول سورة يونس ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وجملة سورة الأنعام، وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولًا كليًّا: إنَّ كلَّ آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه؛ فإنَّ القرآن إمَّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإمَّا دعوة

(١) «المواهب الربانية من الآيات القرآنية» (ص ٤٤، ٤٥).

إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كلِّ ما يُعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإمَّا أمرٌ ونهيٌ وإلزامٌ بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإمَّا خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإمَّا خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد[1].

فالقرآن كلُّه في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم، فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ توحيد، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ توحيد، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيد، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ توحيد، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، الذين أنعم الله عليهم، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين فارقوا التوحيد...»[2].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: «وقد دلَّ استقراء القرآن العظيم على أنَّ توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جُبلت عليه فِطَرُ العقلاء، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال:

---

(١) **قال الشوكاني** رَحِمَهُ اللهُ **في مقدمة كتابه القيّم «إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات» (ص:٤)**: «واعلم أنَّ إيراد الآيات القرآنية على إثبات كلِّ مقصد من هذه المقاصد، وإثبات اتفاق الشرائع عليها - لا يحتاج إليه من يقرأ القرآن العظيم؛ فإنَّه إذا أخذ المصحف الكريم وقف على ذلك في أيّ موضع شاء، ومن أيِّ مكان أحبَّ، وفي أيِّ محل منه أراد؛ وجده مشحونًا به من فاتحته إلى خاتمته».

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٤٩، ٤٥٠).

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١].

وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣] تجاهلٌ من عارفٍ أنَّه عبدٌ مربوبٌ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ الآية [الإسراء: ١٠١]، وقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ١٤].

وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًّا.

الثاني: توحيده جلَّ وعلا في عبادته. وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى «لا إله إلا الله» وهي متركبة من نفي وإثبات؛ فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت. ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جلَّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥].

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩] الآية، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦] الآية، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]،

وقوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، فقد أمر في هذه الآية الكريمة أن يقول: إن ما أوحي إليه محصور في هذا النوع من التوحيد؛ لشمول كلمة «لا إله إلا الله» لجميع ما جاء في الكتب؛ لأنَّها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده. فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب.

والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.

النوع الثالث: توحيده جلَّ وعلا في أسمائه وصفاته.

وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين:

الأول: تنزيه الله جلَّ وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١].

والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله؛ كما قال بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١]: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، مع قطع الطمع عن إدراك كيفيَّة الاتصاف، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠]، وقد قدمنا هذا المبحث مستوفى موضحًا بالآيات القرآنية في سورة الأعراف.

ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جلَّ وعلا على وجوب توحيده في عبادته؛ ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبيَّة باستفهام التقرير، فإذا أقرُّوا بربوبيته احتج بها عليهم على أنَّه هو المستحق لأنْ يُعبد وحده. ووبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنَّه هو الربّ

وحده؛ لأنَّ من اعترف بأنَّه الرب وحده لزمه الاعتراف بأنَّه هو المستحق لأن يُعبد وحده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس: ٣١] إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾: فلما أقروا بربوبيته وبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، فلما اعترفوا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾، ثم قال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، فلما أقرُّوا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾، ثم قال: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، فلما أقرُّوا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦]، فلما صح الاعتراف وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فلما صحَّ إقرارهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، فلما صحَّ اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، فلما صحَّ إقرارهم وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعۡقِلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥]، فلما صح اعترافهم وبخهم الله منكرًا عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٠]، ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره: هو أنَّ القادر على خلق السموات والأرض وما ذكر معها خير من جماد لا يقدر على شيء. فلما تعيَّن اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾ [النمل: ٦١]، ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله.

فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦١﴾، ثم قال جلَّ وعلا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [النمل: ٦٢]، ولا شك أنَّ الجواب كما قبله. فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ﴾ [النمل: ٦٣]، ولا شك أنَّ الجواب كما قبله.

فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٣﴾، ثم قال جلَّ وعلا: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [النمل: ٦٤]، ولا شك أنَّ الجواب كما قبله. فلما تعين الاعتراف وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٦٤﴾ ، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ

يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الروم: ٤٠]، ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو: لا، أي ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل شيئًا من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء. فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠﴾.

والآيات بنحو هذا كثيرة جدًّا.

ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع أنَّ كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهاماتُ تقريرٍ، يراد منها أنَّهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأنَّ المُقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة؛ نحو قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾ [الأنعام: ١٦٤] وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار؛ لأنَّ استقراء القرآن دلَّ على أنَّ الاستفهام المتعلق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار؛ لأنَّهم لا ينكرون الربوبية، كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه.

والكلام على أقسام التوحيد ستجده إن شاء الله في مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك، بحسَب المناسبات في الآيات التي نتكلم على بيانها بآيات أخر»[1] انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد نقلت كلامه بطوله لأهميته، وقد نبَّه فيه رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنَّ أقسام التوحيد الثلاثة مأخوذة بالاستقراء لنصوص القرآن الكريم، وبهذا يُعلم أن هذا التقسيم من الحقائق الشرعية المستمدة من كتاب الله تعالى، وليس أمرًا

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٤١٠ - ٤١٤).

اصطلاحيًّا أنشأه بعض العلماء[١].

---

(١) **وبهذا يُعلم فساد ما قرره مؤلف كتاب «الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر» وهو:** د. صلاح الصاوي حيث يقول (ص: ١٥٤):

«فإنَّ هذا التقسيم اصطلاحي، الهدف منه تقريب القضية وتنظيم دراستها، كما اصطلح أهل العلم على أسماء اصطلاحية للعلوم... وعلى هذا فلا مشاحة في الاصطلاح، وليست هناك حدود فاصلة بين ما يدخل في توحيد الربوبية، وبين ما يدخل في توحيد الألوهية، وبين ما يدخل في توحيد الأسماء والصفات. بل إنَّ هذا التقسيم ابتداءً على هذا النحو لم يرد به فيما نعلم آية محكمة أو سنَّة متبعة، والعبرة كما يقولون بالمقاصد والمعاني، وليس بالألفاظ والمباني. هذا وإن كان تتابع أهل العلم على استخدام هذا التقسيم واستقراره عبر قرون طويلة يجعله جزءًا من التراث السلفي، فينبغي قَبوله على أن لا يكون في ذاته معقد ولاء وبراء».

فجعل أصلحه الله هذا التقسيم تقسيمًا اصطلاحيًّا، وليس حقيقة شرعية مأخوذة بالتتبع والاستقراء لنصوص الكتاب والسنة.

بل تمادى في الباطل عندما قال: «وليست هناك حدود فاصلة بين ما يدخل في توحيد الربوبية، وبين ما يدخل في توحيد الألوهية، وبين ما يدخل في توحيد الأسماء والصفات».

وإني لأعجب غاية العجب كيف يقول هذا من يتصدى لتوجيه مسيرة العمل الإسلامي المعاصر، مع أنَّه في نفسه كما يصرح هنا لا يعرف حدودًا فاصلة بين أنواع التوحيد الثلاثة؟! وأيّ جناية على مسيرة العمل الإسلامي أشدّ من أن ينشر بين أهل الإسلام أنَّ أقسام التوحيد ليست من الثوابت، وليست من الأمور التي يُعقد عليها الولاء والبراء، وأنَّها لم يرد بها آية محكمة أو سنَّة متبعة، وأنَّه ليس هناك حدود فاصلة بين هذه الأقسام، وأنَّها أمور اصطلح عليها بعض أهل العلم ولا مشاحة في الاصطلاح.

أليس في هذا خلخلة للصف وتوهين للاعتقاد وتقليل من شأن التوحيد؟! فالله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل، وفي الكتاب المذكور أخطاء عديدة من هذا الجنس ليس هذا موطن بيانها.

قال الشيخ العلامة بكر أبو زيد حفظه الله: «هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن مندة وابن جرير الطبري وغيرهما، وقرره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرره الزبيدي في «تاج العروس» وشيخنا الشنقيطي في أضواء البيان في آخرين، رحم الله الجميع، وهو استقراء تامٌّ لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كلِّ فنٍّ، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تَفُهْ بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء»[١].

وما يؤمن بالتوحيد من لم يؤمن بهذه الأقسام الثلاثة المستمدة من نصوص الشرع، إذ التوحيد المطلوب شرعًا هو الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ومن لم يأتِ بهذا جميعه فليس موحدًا.

بل إنَّ كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» التي هي أصل الدين وأساسه – قد دلت على أقسام التوحيد الثلاثة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وشهادة أن لا إله إلا الله فيها الإلهيات، وهي الأصول الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأصول الثلاثة تدور عليها أديان الرسل وما أُنزل إليهم، وهي الأصول الكبار التي دلت عليها وشهدت بها العقول والفطر».

وأما وجه دلالة هذه الكلمة العظيمة على أقسام التوحيد الثلاثة فظاهر تمامًا لمن تأملها: فقد دلت على إثبات العبادة لله ونفيها عمن سواه، كما دلت أيضًا على توحيد الربوبية فإنَّ العاجز لا يصلح أن يكون إلهًا، ودلت على توحيد الأسماء والصفات فإنَّ مسلوب الأسماء والصفات ليس بشيء بل هو عدم محض، كما قال بعض العلماء: المُشَبِّه يعبد صنمًا، والمُعَطِّل يعبد عدمًا،

---

(١) «التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير» (ص: ٣٠).

والموحد يعبد إله الأرض والسماء[١].

إذا تبين هذا وتقرر فليُعلم أنَّ من جعل تقسيم التوحيد من قبيل التثليث في التوحيد والعقيدة الإسلامية قولٌ في غاية الخبث والضلال والانحراف، حيث جعل العقيدة المستمدة من الكتاب والسنة مثل عقيدة النصارى المنحرفة الضالة. وقائل هذه المقالة الجائرة حقيق بأن يُقطع لسانه ويُكسر بنانه ويستتاب من مقالته هذه الشوهاء وضلالته العمياء. ثم ماذا سيقول هذا القائل عن الآيات التي دلت على تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أنواع وتحدثت عن كل نوع على حدة؟ هل سيقول: إنَّها دلت على التثليث. أو سيضيف إليها قيودات واستدراكات من عنده؟ ثم ماذا على من استدل بالقرآن في تقسيم التوحيد؟

لا ينكر هذا الأصل العظيم الثابت في القرآن والسنة إلا ضال منحرف.

فالأدلة من الكتاب والسنة على هذا التقسيم كثيرة لا تحصر، يعرفها من لديه أدنى إلمام بنصوص الكتاب والسنة، بل إن من يحفظ فاتحة الكتاب[٢] وسورة الناس - يجد فيهما ما يشفي ويكفي من وضوح دلالة ونصوع برهان على هذا التقسيم، بل هو أكبر الحقائق الشرعية المقررة في الكتاب والسنة، وقد تقدم قريبًا شيء من أدلة القرآن الكريم على هذا التقسيم، وهذا لا يكابر فيه إلا ضالٌّ منحرفٌ لوضوحه وجلائه.

وأما قول القائل: إنَّ هذا التقسيم اخترعه ابن تيمية، ولم يقل به أحد من السلف

---

(١) انظر: «التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية» للشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد (ص٩)، ونص شيخ الإسلام نقلته عنه.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٢٤)، وما بعدها قوله: فصل في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة.

الصالح، ولم يوجد إلا في القرن الثامن الهجري.

فهذا دليل على قصور علمه وقلة خبرته ومعرفته بكتب السلف الصالح إذ هي مليئة بالتصريح تارة والإشارة تارة إلى هذه الأقسام، ولو ذهبتُ أنقل كل ما أعلمه من أقوالهم في ذلك لطال المقام، لكن حسبي أن أورد هنا بعض النقول ونزرًا يسيرًا من النصوص المشتملة على ذكر أقسام التوحيد الثلاثة لبعض الأئمة الذين كانوا قبل شيخ الإسلام ابن تيمية ليظهر كذب الكاتب وليبين جهله.

النص الأول: للإمام أبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري، المتوفى سنة (٣٨٧هـ).

فقد قال رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة» ما نصه:

«. . . وذلك أنَّ أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته؛ ليكون بذلك مباينًا لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعًا.

والثاني: أن يعتقد وحدانيته؛ ليكون مباينًا بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

والثالث: أن يعتقده موصوفًا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفًا بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه.

إذ قد علمنا أنَّ كثيرًا ممن يُقر به ويوحده بالقول المطلق قد يلحد في صفاته، فيكون إلحاده في صفاته قادحًا في توحيده.

ولأنَّا نجد الله تعالى قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة من

هذه الثلاث والإيمان بها»[1].

ثم أخذ يورد ما يدل على بطلان قول الجهمية في نفي الصفات.

النص الثاني: للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده المتوفى سنة (٣٩٥هـ).

ففي كتابه «كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته على الاتفاق والتفرد» ذكر أقسام التوحيد واستعرض كثيرًا من أدلتها في الكتاب والسنة بشرح وبسط لا مزيد عليه.

فمن الأبواب التي عقدها وهي متعلقة بتوحيد الربوبية ما يلي:

١- ذِكْرُ ما وصف الله ﷻ به نفسه ودلَّ على وحدانيته ﷻ وأنَّه أحدٌ صمدٌ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

٢- ذِكر معرفة بدء الخلق.

٣- ذِكر ما يدل على أنَّ خلق العرش تقدم على خلق الأشياء.

٤- ذِكر ما يدل على أنَّ الله قدر مقادير كل شيء قبل خلق الخلق.

٥- ذِكر ما يستدل به أولو الألباب من الآيات الواضحة التي جعلها الله ﷻ دليلًا لعباده من خلقه على معرفته ووحدانيته من انتظام صنعته وبدائع حكمته في خلق السموات والأرض...

٦- ذِكر ما بدأ الله ﷻ من الآيات الواضحة الدالة على وحدانيته.

٧- ذِكر الآيات المتفقة المنتظمة الدالة على توحيد الله ﷻ في صفة خلق السموات التي ذكرها في كتابه وبينها على لسان رسوله ﷺ تنبيهًا لخلقه[2].

---

(١) «الإبانة» لابن بطة (٦٩٣ - ٦٩٤) من النسخة الخطية، وفي مختصره (ق ١٥٠).

(٢) انظر: هذه الأبواب في كتابه «التوحيد» (١/ ٦١١١٦).

ثم ذكر أبوابًا أخرى.

ومن الأبواب التي عقدها وهي متعلقة بتوحيد الألوهية ما يلي:

١- ذِكر معرفة أسماء الله ﷻ الحسنة التي تسمى بها وأظهرها لعباده للمعرفة والدعاء والذكر.

٢- ذِكر معرفة اسم الله الأكبر الذي تَسَمَّى به وشَرَّفه على الأذكار كلها.

وذكر تحت هذا الباب ما يلي:

أ- قول النبي ﷺ: «**أُمرت أن أدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله**».

ب- قول النبي ﷺ: «**بُني الإسلام على شهادة أن لا إله إلا الله...**».

ج- قول النبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت**».

د- قول النبي ﷺ لرجل: «**قل: ربي الله ثم استقم**».

هـ- قول النبي ﷺ لرجل: «**الله يمنعني منك**».

و- قول النبي ﷺ: «**من كان حالفًا فليحلف بالله ﷻ ومن حلف بغير الله فقد أشرك**».

ز- قول النبي ﷺ: «**اذكروا الله على جميع الأمور**»، قال تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١][1].

وذكر أمورًا أخرى كثيرة متعلقة بتوحيد الألوهية.

ومن الأبواب التي عقدها وهي متعلقة بتوحيد الأسماء والصفات ما يلي:

ذِكر معرفة صفات الله ﷻ التي وصف بها نفسه وأنزل بها كتابه وأخبر بها الرسول ﷺ على سبيل الوصف لربه ﷻ مبينًا ذلك لأمته.

---

(١) انظر: هذه الأبواب في كتابه «التوحيد» (٢/ ١٤٤٦).

وذكر أبوابًا أخرى كثيرة في توحيد الأسماء والصفات(١).

وكان قبل هذا ذكر جملة كبيرة من أسماء الله الحسنى(٢).

النص الثالث: لإمام قبل هذين الإمامين، وهو الإمام القاضي أبو يوسف يعقوب ابن إبراهيم بن حبيب الكوفي صاحب أبي حنيفة، المتوفى سنة (١٨٢هـ).

فقد قال ابن منده في كتابه «التوحيد»: أخبرنا محمد بن أبي جعفر السرخسي، ثنا محمد بن سلمة البلخي، ثنا بشر بن الوليد القاضي عن أبي يوسف القاضي أنَّه قال: «ليس التوحيد بالقياس، ألم تسمع إلى قول الله ﷻ في الآيات التي يصف بها نفسه أنَّه عالم قادر قوي مالك، ولم يقل: إني عالم قادر لعلةِ كذا أقدر، بسبب كذا أعلم، وبهذا المعنى أملك. فلذلك لا يجوز القياس في التوحيد، ولا يُعرف إلا بأسمائه، ولا يوصف إلا بصفاته، وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: ٢١] الآية، وقال: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [البقرة: ١٦٤] الآية.

قال أبو يوسف: لم يقل الله: انظر كيف أنا العالم وكيف أنا القادر وكيف أنا الخالق. ولكن قال: انظر كيف خلقت. ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾ [النحل: ٧٠]، وقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١] أي: تعلم أن هذه الأشياء لها ربٌّ يقلبها ويبديها ويعيدها وأنك مكون ولك من كونك. وإنما دل الله ﷻ خلقه بخلقه ليعرفوا أنَّ لهم ربًّا يعبدوه ويطيعوه

(١) انظر: هذه الأبواب في كتابه «التوحيد» (٣/ ٧) إلى نهاية الكتاب.

(٢) انظر: في كتابه «التوحيد» (٢/ ٤٧٢٠٨).

ويوحدوه؛ ليعلموا أنه مكونهم، لا هم كانوا، ثم تسمى فقال: أنا الرحمن وأنا الرحيم وأنا الخالق وأنا القادر وأنا المالك، أي: هذا الذي كونكم يسمى المالك القادر الله الرحمن الرحيم بها يوصف.

ثم قال أبو يوسف: يُعرف الله بآياته وبخلقه ويوصف بصفاته ويسمَّى بأسمائه كما وصف في كتابه وبما أدَّى إلى الخلق رسوله.

ثم قال أبو يوسف: إن الله ﷻ خلقك وجعل فيك آلات وجوارح عجز بعض جوارحك عن بعض. وهو ينقلك من حال إلى حال لتعرف أنَّ لك ربًّا وجعل فيك نفسك عليك حجة بمعرفتها تتعرف بخلقه، ثم وصف نفسه فقال: أنا الرب وأنا الرحمن وأنا الله وأنا القادر وأنا المالك. فهو يوصف بصفاته ويسمى بأسمائه، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]، فقد أمرنا الله أن نوحده، وليس التوحيد بالقياس؛ لأنَّ القياس يكون في شيء له شبه ومثل، فالله تعالى وتقدس لا شبه له ولا مثل له، تبارك الله أحسن الخالقين.

ثم قال: وكيف يدرَك التوحيد بالقياس وهو خالق الخلق بخلاف الخلق ليس كمثله شيء تبارك وتعالى. وقد أمرك الله ﷻ أن تؤمن بكلِّ ما أتى به نبيه ﷺ فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فقد أمرك الله ﷻ بأن تكون تابعًا سامعًا مطيعًا ولو يوسّع على الأمة التماس التوحيد وابتغاء الإيمان برأيه وقياسه وهواه إذًا لضلوا، ألم تسمع إلى قول

الله ﷻ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون: ٧١]، فافهم ما فسر به ذلك»[١].

ورواه أيضًا الإمام الحافظ قوام السنة أبو القاسم إسماعيل التيمي الأصبهاني المتوفى سنة (٥٣٥هـ) في كتابه «الحجة في بيان المحجة وشرح التوحيد ومذهب أهل السنة» ولأهميته عنده خصه بفصل مستقل فقال: «فصل في النهي عن طلب كيفية صفات الله ﷻ» وذكره بإسناده من طريق السرخسي به[٢].

وأثر أبي يوسف هذا الذي رواه هذان الإمامان - عظيم القدر مشتمل على أقسام التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

النص الرابع: للإمام أبي جعفر الطحاوي (ت٣٢١هـ).

في مقدمة متنه في العقيدة المشهور بالطحاوية: «نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له، ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره».

فقوله: «إن الله واحد لا شريك له» شامل لأقسام التوحيد الثلاثة، فهو سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيته، وواحد لا شريك له في ألوهيته، وواحد لا شريك له في أسمائه وصفاته.

وقوله: «ولا شي مثله» هذا من توحيد الأسماء والصفات.

وقوله: «ولا شيء يعجزه» هذا من توحيد الربوبية.

---

(١) «التوحيد» لابن منده (٣/ ٣٠٤ - ٣٠٦).

(٢) انظر: «الحجة» للتيمي (١/ ١١١١١٣).

النص الخامس: للإمام ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) في «تفسيره» في مواطن عديدة[١].

النص السادس: للإمام القرطبي في «تفسيره» في مواطن عديدة[٢].

النص السابع: للإمام ابن حبان البُستي (ت٣٥٤هـ).

في مقدمة كتابه «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» حيث يقول: «الحمد لله المتفرد بوحدانية الألوهية، المتعزز بعظمة الربوبية، القائم على نفوس العالم بآجالها، والعالِم بتقلبها وأحوالها، المانِّ عليهم بتواتر آلائه، المتفضل عليهم بسوابغ نعمائه، الذي أنشأ الخلق حين أراد بلا مُعِين ولا مشير، وخلق البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير، فمضت فيهم بقدرته مشيئته، ونفذت فيهم بعزته إرادته...».

فذكر الأقسام الثلاثة: الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

النص الثامن: للإمام ابن أبي زيد القيرواني المالكي (ت٣٨٦هـ).

في مقدمة عقيدته حيث قال: «من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان بأن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له ولا نظير ولا ولد له ولا والد له، ولا صاحبة له ولا شريك له، ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انقضاء لا يبلغ كنه صفته الواصفون ولا يحيط بأمره المتفكرون... إلى أن قال: تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غِنًى، خالق لكل شيء، ألا هو رب العباد ورب أعمالهم والمقدر لحركاتهم وآجالهم».

فذكر الأقسام الثلاثة.

---

(١) وانظر: على سبيل المثال كلامه في معنى قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] من تفسيره «جامع البيان» (١٣/ ٥٣).

(٢) وانظر: بعض الأمثلة على ذلك سبقت معنا في الكتاب.

النص التاسع: للإمام أبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي في مقدمة كتابه «سراج الملوك» (٧/١) حيث قال: «وأشهد له بالربوبيَّة والوحدانية، وبما شهد به لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والنعوت الأوفى».

فذكر الأقسام الثلاثة. والنقول في هذا كثيرة.

الفصل الثاني: شبهة المنكرين لهذا التقسيم والرد عليها

أنكر بعض العلماء هذه التقسيم بحجة أن النبي ﷺ لم يقل ذلك ولم يرد عنه مثل هذا التقسيم. ويُرد عليهم بنقطتين:

أولًا: أن هذا التقسيم وإن كان لم ينطق به الرسول ﷺ لفظًا إلا أن معناه قد ورد على لسانه عليه الصلاة والسلام، فهو يقول: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله**»(١)، ومعروف أن العرب ما نازعوه في توحيد الرب؛ لإقرارهم بذلك كما سيأتي معنا، إنما نازعوه في توحيد الإله المعبود فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] وعلى هذا لا يضرنا كون الرسول ﷺ لم يَرِد على لسانه لفظ توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، فإن المعنى كان واردًا فهو وإن لم يقسم هذا التقسيم لكنه لم يحصره في نوع واحد، واستقراء الأدلة من القرآن والسنة يدل على أن التوحيد ينقسم للأقسام التي ذكرناها.

ثانيًا: هذا التقسيم راجع للفرق بين معنى كلمتي الرب والإله. والخلق

---

(١) الحديث رواه البخاري عن ابن عمر. في كتاب الإيمان باب (١٧) حديث رقم (٢٥)، وفي مسلم (١/ ٢١٢).

والقدرة على الإنشاء من معنى كلمة الرب، أما معنى كلمة الإله فهو المعبود، وغاية قول المنكرين أنهم فسروا الإله بالقادر على الاختراع فحصل عندهم الخلط وعدم التمييز، والقرآن لم ينزل ليقول للناس: وحِّدوا الرب فحسب، بل أمرهم بتوحيد الإله المعبود[(١)(٢)].

الفصل الثالث: تنوعت عبارات علماء أهل السنة في التعبير عن أنواع التوحيد مع اتفاقها في المضمون

تنوعت عبارات علماء أهل السنة في التعبير عن أنواع التوحيد، ولكنها مع ذلك التنوع متفقة في المضمون، ولعل السبب في ذلك هو أن تلك التقسيمات مأخوذة من استقراء النصوص ولم يُنص عليها باللفظ مباشرة،

أ- **فمن العلماء[(٣)] من قسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، هي:**

١- توحيد الربوبية: وهو إفراد الله بأفعاله كالخلق والرزق.

٢- توحيد الأسماء والصفات: وهو إفراد الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى الواردة في القرآن والسنة، والإيمان بمعانيها وأحكامها.

٣- توحيد الألوهية: وهو إفراد الله بأفعال العباد التعبدية؛ كالصلاة والصوم والدعاء.

ومن المتأخرين من زاد قسمًا رابعًا على الأقسام الثلاثة السابقة، وسماه:

---

(١) انظر: «العقائد السلفية شرح الدرر السنية» (١/ ٤٦).

(٢) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» (ص: ١١٠).

(٣) انظر: «طريق الهجرتين» (ص٣)، وشرح الطحاوية (ص٧٦)، و«لوامع الأنوار» للسفاريني (١/ ١٢٨)، و«تيسير العزيز الحميد» (ص١٧- ١٩).

توحيد الاتباع أو توحيد الحاكمية (أي: التحاكم إلى الكتاب والسنة).

ولكن يلاحظ على من ذكر هذا القسم أن هذا القسم في الحقيقة داخل ضمن توحيد الألوهية؛ لأن العبادة لا تُقبل شرعًا إلا بشرطين هما:

١- الإخلاص. ٢- الاتباع. كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

ب- ومن العلماء من قسم التوحيد إلى قسمين، وهذا هو الأغلب في كلام أهل العلم المتقدمين لأنهم يجمعون بين توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وذلك بالنظر إلى أنهما يشكلان بمجموعهما جانب العلم بالله ومعرفته ﷻ، فجمعوا بينهما لذلك، بينما توحيد الألوهية يشكل جانب العمل لله.

وتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام راجع إلى اعتبار متعلق التوحيد، وتقسيمه إلى قسمين راجع إلى اعتبار ما يجب على الموحد.

فمن العلماء من يقول: التوحيد قسمان[(١)]:

القسم الأول: توحيد المعرفة والإثبات:

ويريد به توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

وسُمي بتوحيد المعرفة؛ لأن معرفة الله ﷻ إنما تكون بمعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

والإثبات: أي إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات والأفعال.

القسم الثاني: توحيد القصد والطلب: ويراد به الألوهية.

وسُمي بتوحيد القصد والطلب لأن العبد يتوجه بقلبه ولسانه وجوارحه

---

(١) ممن ذكر ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين» (٣/ ٤٤٩).

بالعبادة لله وحده رغبة ورهبة، ويقصد بذلك وجه الله وابتغاء مرضاته.

ج – ومن العلماء من يقسم التوحيد إلى قسمين هما[١]:

القسم الأول: التوحيد العلمي الخبري:

والمقصود به توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

وسُمي بالتوحيد العلمي لأنه يعتني بجانب معرفة الله، فالعلمي، أي: «العلم بالله».

والخبري: لأنه يتوقف على الخبر أي: «الكتاب والسنة».

القسم الثاني: التوحيد الإرادي الطلبي:

والمقصود به توحيد الألوهية.

وسُمي بالتوحيد الإرادي لأن العبد له في العبادات إرادة، فهو إما أن يقوم بتلك العبادة أو لا يقوم بها.

وسُمي بالطلبي لأن العبد يطلب بتلك العبادات وجه الله ويقصده ﷻ بذلك.

د– ومن العلماء من يقسم التوحيد إلى قسمين فيقول[٢]:

القسم الأول: التوحيد القولي:

والمراد به توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وسمي بالقولي لأنه في مقابل توحيد الألوهية الذي يشكل الجانب العلمي من التوحيد، وأما هذا الجانب فهو مختص بالجانب القولي العلمي.

---

(١) ممن ذكر ذلك ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين» (٣/ ٤٥٠)، وابن تيمية في «الصفدية» (٢/ ٢٢٨).

(٢) ممن ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية. انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٦٧).

القسم الثاني: التوحيد العملي:

والمراد به توحيد الألوهية.

وسُمي بالعملي لأنه يشمل كلًّا من عمل القلب وعمل اللسان وعمل الجوارح التي تشكل بمجموعها جانب العمل من التوحيد، فالتوحيد له جانبان: جانب تصديقي علمي، وجانب انقيادي عملي.

هـ- ومن العلماء من يقسم التوحيد إلى قسمين فيقول:

القسم الأول: توحيد السيادة:

ويعني بذلك توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

وسُمي بذلك لأن تفرد الله بأفعاله وأسمائه وصفاته يوجب له القيادة المطلقة والتصرف التام في هذا الكون خلقًا ورزقًا وإحياء وإماتة وتصرفًا وتدبيرًا، ﷻ. فمن واجب الموحد أن يفرد الله بذلك.

والقسم الثاني: توحيد العبادة:

المراد به توحيد الألوهية، وتسميته بذلك واضحة لا تحتاج إلى مزيد تفصيل.

هذا ما وقفت عليه من تقسيمات العلماء للتوحيد، وهي واحدة من حيث مضمونها كما سبق إيضاح ذلك من خلال ربطها بالتقسيم الأول؛ ولذا فإن الاختلاف بينها منحصر في الألفاظ فقط. والله أعلم[(١)].

بعض العلماء يجعل التوحيد قسمين:

١- توحيد المرسِل.

٢-وتوحيد متابعة الرَّسُول ﷺ[(٢)].

---

(١) «معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات» (ص: ٤٠).

(٢) «شرح الطحاوية» لابن أبي العز، تحقيق الأرناؤوط (١/ ٢٢٨). =

الفصل الرابع: العلاقة بين أقسام التوحيد

وأما عن «العلاقة بين هذه الأقسام للتوحيد» فأقول:

هذه الأقسام تشكل بمجموعها جانب الإيمان بالله الذي نسميه التوحيد، فلا يكمل لأحد توحيده إلا باجتماع أنواع التوحيد الثلاثة، فهي متكافلة متلازمة يكمل بعضها بعضًا، ولا يمكن الاستغناء ببعضها عن الآخر، فلا ينفع توحيد الربوبية بدون توحيد الألوهية، وكذلك لا يصح ولا يقوم توحيد الألوهية بدون توحيد الربوبية، وكذلك توحيد الله في ربوبيته وألوهيته لا يستقيم بدون توحيد الله في أسمائه وصفاته، فالخلل والانحراف في أي نوع منها هو خلل في التوحيد كله. (فمعرفة الله لا تكون بدون عبادته، والعبادة لا تكون بدون معرفة الله، فهما متلازمان)[1].

وقد أوضح بعض أهل العلم هذه العلاقة بقوله: (هي علاقة تلازم وتضمن وشمول).

فتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية.

وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية.

وتوحيد الأسماء والصفات شامل للنوعين معًا.

بيان ذلك: أن من أقر بتوحيد الربوبية وعلم أن الله سبحانه هو الرب وحده لا شريك له في ربوبيته، لزمه[2] من ذلك الإقرار أن يفرد الله بالعبادة وحده

= فَهُمَا تَوْحِيدَانِ، لَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَّا بِهِمَا: تَوْحِيدُ الْمُرْسِلِ، وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ.

(١) «تحذير أهل الإيمان» (١/ ١٤٠) (ضمن مجموعة الرسائل المنيرية).

(٢) اللازم هنا قد يتخلف كما هو الحال في كفار قريش، فهم يُقرون بتوحيد الربوبية =

ﷻ؛ لأنه لا يصلح أن يعبد إلا من كان ربًّا خالقًا مالكًا مدبرًا، وما دام كله لله وحده وجب أن يكون هو المعبود وحده.

ولهذا جرت سنة القرآن الكريم على سَوق آيات الربوبية مقرونة بآيات الدعوة إلى توحيد الألوهية.

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

وأما توحيد الألوهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية؛ لأن من عبد الله ولم يشرك به شيئًا، فهذا يدل ضمنًا على أنه قد اعتقد بأن الله هو ربه ومالكه الذي لا رب غيره.

وهذا أمر يشاهده الموحد من نفسه، فكونه قد أفرد الله بالعبادة ولم يصرف شيئًا منها لغير الله - ما هو إلا لإقراره بتوحيد الربوبية وأنه لا رب ولا مالك ولا متصرف إلا الله وحده.

وأما توحيد الأسماء والصفات فهو شامل للنوعين معًا؛ وذلك لأنه يقوم على إفراد الله تعالى بكل ما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى التي لا تنبغي إلا له ﷻ، والتي من جملتها: الرب- الخالق- الرازق- الملك؛ وهذا هو توحيد الربوبية. ومن جملتها: الله- الغفور- الرحيم- التواب؛ وهذا هو توحيد الألوهية.

فائدة: القرآن كله دعوة للتوحيد.

= كما دلت على ذلك النصوص، ولكنهم لم يحققوا اللازم من إقرارهم بتوحيد الربوبية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل سورة في القرآن هي متضمنة للتوحيد، بل نقول قولًا كليًّا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه.

فإن القرآن:

١- إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري

٢- وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يُعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي.

٣- وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته.

٤- وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده.

٥- وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم توحيده.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»[1][2].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٤٩-٤٥٠).

(٢) «معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات» (ص: ٤٣).



المطلب الثاني: توحيد الربوبية

وبه عشرة مباحث:

المبحث الأول: تعريف توحيد الربوبية

الرب لغة[١] يأتي لعدة معانٍ، منها: المربي، والمالك. يقال: رب كل شيء: مالكه، ومستحقه، أو صاحبه[٢].

فالربوبية مشتقة من (الرب)، والرب معناه في لغة العرب: السيد المطاع الذي بلغ كمال السؤدد، ومِن لوازم ذلك أن يكون مالكًا، فهو ﷻ السيد المطاع المالك الآمر ﷻ، فهذا معنى الربوبية[٣] عند أرباب اللغة.

أما في الشرع فيعرّف شيخ الإسلام رحمه الله **توحيد الربوبية بأنه يعني:** «أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه»[٤].

وفي موضع آخر يقول: «توحيد الربوبية وهو الإقرار بأن الله خالق كل شيء وربه»[٥].

(١) سيأتي لتعريف الرب مزيد تفصيل في فصل منفصل بإذن الله تعالى.

(٢) انظر: «الصحاح» (١/ ١٣٠)، و«القاموس المحيط» (ص١١١).

(٣) «أصول العقيدة» للسلمي (٣/ ٤، بترقيم الشاملة آليًّا).

(٤) «الاستقامة» لابن تيمية (١/ ١٧٩).

(٥) «منهاج السنة» (٣/ ٢٨٩)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٣١)، (١١/ ٥٠)، =

ويقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب، الخالق، الفاطر»[١].

ويقول الإمام ابن أبي العز رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الثاني وهو توحيد الربوبية، كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال»[٢].

وفي تعريفات المتأخرين من أهل العلم مزيد تفصيل، ومن ذلك تعريفهم توحيد الربوبية بأنه: الإقرار بأن الله - تعالى - رب كل شيء، ومالكه، وخالقه، ورازقه، وأنه المحيي المميت، النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر[٣].

ويقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ **في تعريف توحيد الربوبية:** «وهو إفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أمور ثلاثة: في الخلق، والملك، والتدبير»[٤].

فالخلق يدخل فيه الإبداع والإيجاد والإنشاء وَفق تقدير سابق. والملك والتدبير يدخل فيما تصرفه - سبحانه - في خلقه، من إحياء، وإماتة، ورزق. . . إلى غير ذلك من تدبيره لمخلوقاته، كما يتضمن غناه - سبحانه -

---

= و«درء التعارض» (١/ ٢٢٥).

(١) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٢).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ٢٥).

(٣) انظر: «لوامع الأنوار البهية» (١/ ١٢٨)، و«لوائح الأنوار» (١/ ٢٥٧)، و«تيسير العزيز الحميد» (ص٣٣)، و«فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ٨٠).

(٤) «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٢١).

عنهم وفقرهم إليه، وهذه صفات الرب.

إذن هو إفرادُ الله تعالى بأفعاله؛ بأن يُعتقَدَ أنه وحده الخالق لجميع المخلوقات: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢].

وأنه الرزاق لجميع الدواب والآدميين وغيرهم: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦].

وأنه مالكُ الملك، والمدبّرُ لشؤون العالم كله؛ يُولِّي ويعزل، ويُعزُّ ويُذل، قادرٌ على كل شيء، يُصَرِّفُ الليل والنهار، ويُحيي ويُميت: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

وقد نفى الله سبحانه أن يكون له شريكٌ في المُلْك أو مُعِين، كما نفى سبحانه أن يكونَ له شريكٌ في الخلق والرِّزق، قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [لقمان: ١١]. وقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾ [الملك: ٢١].

كما أعلن انفراده بالربوبية على جميع خلقه فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقد فَطَرَ الله جميعَ الخلق على الإقرار بربوبيته؛ حتى إن المشركين الذين جعلوا له شريكًا في العبادة يُقرون بتفرده بالربوبية، كما قال تعالى:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦- ٨٩].

فهذا التوحيدُ لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به؛ أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات؛ كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وأشهر مَن عُرِف تجاهله وتظاهره بإنكار الرب فرعون، وقد كان مستيقنًا به في الباطن كما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وكذلك من يُنكرُ الربَّ اليومَ من الشيوعيين إنما ينكرونه في الظاهر مكابرة، وإلا فهم في الباطن لا بد أن يعترفوا أنه ما من موجود إلا وله موجد، وما من مخلوق إلا وله خالق، وما من أثر إلا وله مؤثر، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥- ٣٦].

تأمل العالم كله، علويه وسفليه، بجميع أجزائه؛ تجده شاهدًا بإثبات صانعه وفاطره ومليكه. فإنكار صانعه وجحده في العقول والفِطر بمنزلة إنكار العلم وجحده، لا فرق بينهما.

وما تتبجح به الشيوعية اليوم من إنكار وجود الرب - إنما هو من باب المكابرة، ومصادرة نتائج العقول والأفكار الصحيحة، ومن كان بهذه المنزلة فقد ألغى عقله ودعا الناس للسخرية منه.

قال الشاعر:

فيا عجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد[(١)]

ومن ثم فإن العبد ينبغي عليه أن يعتقد:

١ - بأن الله تعالى هو وحده السيد، فلا سيادة في هذا الكون على الخلق إلا له وحده. وإذا أطلق على الإنسان لفظ (السيد) فذلك من باب التجوز في التعبير، وحتى مع إقراره له، فإن سيادته مقيدة بحدود تناسب ذاته، أما سيادة الله جل وعلا فهي سيادة مطلقة لا حدود لها.

٢ - وبأن الله تعالى هو وحده الخالق، أي: المقدر للأشياء على مقتضى مشيئته، فلا يملك مخلوق ما أن يخلق ذرة ولا حبة ولا شعيرة؛ لذا يقول تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١] فهذا استفهام إنكاري يؤكد عجز المخلوق عجزًا كاملًا عن خلق أي شيء.

وقد ثبت عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة**»[(٢)].

فهذا الحديث يقرر أن من يحاول مضاهاة خلق الله بالتصوير شديد الظلم له، شديد العقوبة، إذ إنه يعجز أن يخلق ذرة أو حبة أو شعيرة.

---

(١) «عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك» (ص: ١٦).

(٢) البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] رقم (٧٥٥٩)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم ما فيه صورة غير ممتهنة، رقم (٢١١١).

٣ - وبأن الله تعالى هو وحده البارئ، أي المنشئ للمخلوقات، والموجد لها من العدم. فمن من الخلق هذا الذي يزعم أنه يستطيع أن يبرئ من العدم شيئًا؟ إنه يستحيل عليه ذلك، بل إنه كثيرًا ما يعجز عن أن يصنع أشياء من مواد متجمعة لديه، لكن رب العالمين سبحانه يخلق دون حاجة إلى سبق مواد يخلق منها.

ونجد إشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٧]؟

٤ - وبأن الله تعالى هو وحده المصور لصور خلقه على كثرتهم الكاثرة واختلاف أنواعهم وأشكالهم وهو وحده بعد خلقه وتصويره يجعل في مخلوقاته الأرواح التي تحصل بها الحياة.

٥ - وبأن الله تعالى هو وحده الرازق، وضمن رزق كل مخلوق لديه، فقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦]، وقال جل وعلا: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨] فلا يملك مخلوق أن يُجري لغيره رزقًا لم يقدره الله تعالى له، ولا أن يمنع عنه رزقًا قدر الله تعالى أن يجريه له.

٦ - وبأن الله تعالى هو وحده الذي يعطي خلقه من نعمه ما يشاء، وهو وحده الذي يمنعهم إياها كما يشاء، ولا يملك أي مخلوق أن يمنع عطاء الله الذي أراد ولا أن يجري ما أراد سبحانه أن يمسك، يقول تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢].

٧ - وبأن الله تعالى هو وحده النافع لعباده بما يشاء، والضار لمن يستحق منهم الضر بما يشاء سبحانه.

وقد ذكر رسول الله ﷺ ذلك في الحديث القدسي الذي رواه عن ربه. عن ابن عباس رضي الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام وطُويت الصحف**»[(١)].

٨ - وبأن الله تعالى هو وحده المحيي الذي يقدر أن يمنح الحياة لمن يشاء من خلقه، ويحدد مدة هذه الحياة ونهايتها في أجل معلوم لديه، ولا يملك أي مخلوق أن يمنح حياة لغيره - لم يشأها له الله تعالى - ولو للحظات يسيرة.

٩ - وبأن الله تعالى هو وحده المميت، الذي يقدر أن يُنهي حياة من يشاء من خلقه فيقضي عليه بالموت، ولا يملك مخلوق ما أن يُنهي حياة غيره الذي يُقدر الله له بقية من حياة.

١٠ - وبأن الله تعالى هو وحده المدبر لأمر هذا الكون كله، فيُصرف شؤونه على وجه حكيم فيه صلاح خلقه، بحيث لا يوجد في هذا التدبير

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٩٣)، حديث (٢٦٦٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع / باب ما جاء في صفة الحوض، (٢٥١٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢١٦)، والآجري في «الشريعة» (ص١٩٧)، والطبراني في «الكبير» (١٢٩٨٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣١٤)، قال ابن رجب: أصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي أخرجها الترمذي «جامع العلوم والحكم» (٣٦٠)، وقال أحمد شاكر: (إسناده صحيح) «المسند» (٢٦٦٩)، وصححه الألباني في تعليقه على «السنة لابن أبي عاصم» (٣١٦).

تناقض ولا تنافر، ولا يملك أي مخلوق مهما كان مركزه دنيا ودينًا أن يدبر من أمر هذا الكون شيئًا. ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

أهمية هذا الإقرار:

تظهر أهمية الإقرار بتوحيد الربوبية في أنه مقدمة لنتيجة، فإذا أقر العبد أن الله سبحانه تعالى هو الرب المتفرد بالربوبية وخصائصها، استلزم ذلك حتمًا أن ينتج عن إقراره هذا إقرار آخر بتفرد الرب جل وعلا في ألوهيته، فيجرد له العبادات جميعًا، ولا يصرف شيئًا منها لسواه، إذ إنه لا يصلح أن يعبد إلا من كان ربًّا، سيدًا، خالقًا، بارئًا، مصورًا، مالكًا، رازقًا، معطيًا، مانعًا، محييًا، مميتًا، مدبرًا لأمر الكون كله، وما دام أن ذلك جميعه لا يُثبت إلا له وحده سبحانه، فوجب أن يكون هو وحده المعبود، الذي لا يصح أن يكون لأحد من خلقه شركة معه في أي شيء من العبادات على اختلاف صورها.

ولهذا جرت سنة القرآن الكريم على سَوق آيات الربوبية، ثم الخلوص منها إلى الدعوة إلى توحيد الألوهية، فيجعل توحيد الربوبية مدخلًا لتوحيد العبادة للإله الذي لا يستحقها بأنواعها جميعًا سواه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١]، وكما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

وأما توحيد الإلهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية، بمعنى أن توحيد الربوبية داخل في ضمن توحيد الإلهية، فإن مَن عَبَد الله وحده ولم يشرك به شيئًا، لا بد أن يكون قد اعتقد أن الله هو ربه ومالكه الذي لا رب له غيره ولا مالك له سواه، فهو يعبده لاعتقاده أن أمره كله بيده، وأنه هو الذي يملك ضره ونفعه، وأن كل ما يدعى من دونه فهو لا يملك لعابديه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

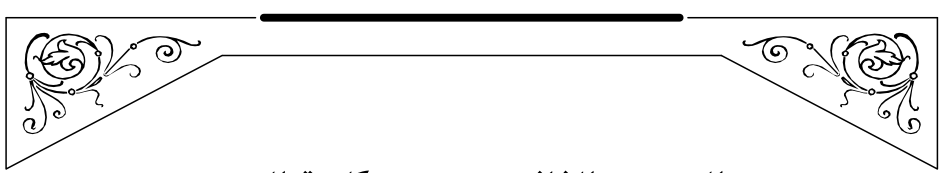
ولا ينفع توحيد الربوبية بدون توحيد الألوهية، كما لا ينفع توحيد الألوهية بدون توحيد الربوبية.

فإن من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئًا في عبادته، ولكنه اعتقد مع ذلك أن لغير الله تعالى تأثيرًا في شيء، أو قدرة على ما لا يقدر عليه إلا الله، أو أنه يملك ضر العباد أو نفعهم ونحو ذلك - فهذا لا تصح عبادته؛ لأن أساسها يجب أن يكون الإيمان بالله ربًّا متفردًا بخصائص الربوبية جميعًا[١].

١٠- أن من تمام التوحيد -توحيد الربوبية- أن يؤمن الإنسان بالقدر، فمن ضل في مسألة القدر فإنه لم يحقق الإيمان بتوحيد الربوبية؛ لأن من توحيد الربوبية الإيمان بأن الله خالق، وأنه مالك، ولابد للخلق والملك من قدرة ومشيئة وعلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]) خلق كل شيء فقدره تَبَارَكَ وَتَعَالَى تقديرًا محكمًا، وتأكيد التقدير هنا بالمصدر توكيد للمعنى، وأنه بقدر، وأنه ما من شيء مخلوق إلا بقدر الله جل وعلا، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]. (أمر الله) أي: مأموره تَبَارَكَ وَتَعَالَى[٢].

(١) «مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة» (١٥/ ٤٦٩، بترقيم الشاملة آليًّا).
(٢) «شرح الطحاوية» لخالد المصلح (١١/ ٦، بترقيم الشاملة آليًّا).



المبحث الثاني: معنى كلمة الرب

وبه ثلاثة فصول:

وردت كلمة «رب» لعدة معانٍ في معاجم اللغة، ولكنها عند التحقيق ترجع إلى ثلاثة أصول وهي:

الأصل الأول: وردت كلمة «رب» لغة بمعنى مالك الشيء وصاحبه، ومنه: فلان رب الدار، أي صاحبها ومالكها. ورب الدابة كذلك. وكل من ملك شيئًا فهو ربه[(١)].

قال ابن منظور: «وفي حديث إجابة المؤذن: «**اللهم رب هذه الدعوة...**»[(٢)] أي صاحبها، وقيل: المتمم لها والزائدة في أهلها والعمل بها والإجابة لها. فأما الحديث في ضالة الإبل: «**حتى يلقاها ربها**»[(٣)]. فإن البهائم غير متعبدة ولا مخاطبة، فهي بمنزلة الأموال التي تجوز إضافة مالكيها إليها وجعلهم أربابًا لها.. والعباد مربوبون لله ﷻ: أي مملوكون»[(٤)]. انتهى باختصار.

وقال الزبيدي: «الرب هو الله ﷻ وهو رب كل شيء، أي مالكه، وله

---

(١) انظر: «لسان العرب» (١/ ٣٩٩)، و«المصباح المنير» (١/ ٢٢٩)، و«معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٣٨١)، و«تفسير الطبري» (١/ ٦٢).

(٢) رواه البخاري في الأذان (٨) عن جابر بن عبد الله ﵄.

(٣) البخاري رقم (٩١)، ومسلم رقم (١٧٢).

(٤) انظر: «تاج العروس» (١/ ٢٦٠)، و«لسان العرب» (٢/ ٣٩٩).

الربوبية على جميع الخلق لا شريك له، وهو رب الأرباب ومالك الملوك والأملاك»[(١)]. انتهى بلفظه.

وقال القرطبي: «رب العالمين: أي مالكهم، وكل من ملك شيئًا فهو ربه، فالرب المالك... فالله سبحانه رب الأرباب، يملك الملك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه، وكل رب سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمملَّك بعد أن لم يكن ومنتزع ذلك من يده، وإنما يملك شيئًا دون شيء، وصفة الله تعالى مخالفة لهذه المعاني، فهذا الفرق بين الخالق والمخلوق»[(٢)]. انتهى باختصار.

الأصل الثاني: ووردت كلمة «رب» في اللغة كذلك بمعنى السيد المطاع[(٣)].

قال الطبري: «وأما تأويل قول: «رب» فإن الرب في كلام العرب متصرف على معانٍ: فالسيد المطاع فيها يدعى ربًّا ومن ذلك قول لَبيد بن ربيعة:

وأهلِكنْ يومًا رب كِندة وابنه ... ورب معدٌّ بين خبت وعَرْعَرِ

يعني برب كندة: سيد كندة. ومنه قول نابغة بني ذبيان:

تخب إلى النعمان حتى تناله ... فدًى لك من ربٍّ طريفي وتالدي[(٤)]

وقال ابن منظور: «ربيت القوم: سستهم، أي: كنت فوقهم. وقال أبو نصر: هو من الربوبية، والعرب تقول: لأن يربني فلان أحب إليّ من أن

---

(١) «تاج العروس» (١/ ٢٦٠).

(٢) «تفسير القرطبي» (١/ ١٣٦- ١٣٧).

(٣) انظر: «تاج العروس» (١/ ٢٦٠)، و«لسان العرب» (١/ ٣٩٩)، و«تفسير الطبري» (١/ ٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٢٣).

(٤) «تفسير الطبري» (١/ ٦٢).

يربني فلان: يعني أن يكون ربًّا فوقي وسيدًا يملكني»[١]. انتهى بلفظه.

ورَبَّ فلان قومه: أي ساسهم وجعلهم ينقادون له. وربتُ القوم: أي: حكمتهم وسدتهم، ومنه قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣]. وقوله تعالى عنه: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ٤١] وقوله تعالى عنه: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] وقوله تعالى عنه: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠] ومعنى كلمة رب في هذه الآيات: السيد الذي له عليه الطاعة، وفي حديث أشراط الساعة... «**أن تلد الأمة ربتها**»[٢]. أي: سيدتها.

الأصل الثالث: وتطلق كلمة «رب» في اللغة كذلك على المصلح للشيء المدبر له القائم على تربيته، حتى إن بعض العلماء قال: إن كلمة رب مشتقة من التربية؛ لأنه سبحانه مدبر الخلق ومربيهم[٣].

قال أحمد بن فارس: «والرب: المصلح للشيء، يقال: ربَّ فلانٌ ضيعته: إذا قام على إصلاحها»[٤]. انتهى بلفظه.

وقال القرطبي: «والرب: المصلح والمدبر والجابر والقائم. قال الهروي وغيره: يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد ربه يرُّبه فهو ربٌّ له ورابٌّ، ومنه سُمي الربانيون لقيامهم بالكتب»[٥]. انتهى بلفظه.

---

(١) «لسان العرب» (١/ ٣٩٩).

(٢) رواه البخاري في تفسير سورة لقمان ورقمه (٤٧٧٧)، وفي كتاب الإيمان رقم (٥٠)، ومسلم في الإيمان١).

(٣) انظر: «لسان العرب» (١/ ٤٠٠)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٣٧).

(٤) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٣٨١- ٣٨٢)، وانظر: «الصحاح» (١/ ١٣٠- ١٣٢)، و«لسان العرب» (١/ ٤٠١- ٤٠٣).

(٥) «تفسير القرطبي» (١/ ١٣٧).

وقوله ﷺ: «**هل لك نعمة تَرُبّها...**»(١) أي: تحفظها وتراعيها وتقوم بها وتصلحها وتربيها كما يربي الرجل ولده؟

قال الزبيدي: «ربَّ ولده والصبي يربُّه ربًّا: أحسن القيام عليه ووليه حتى أدرك وفارق الطفولية، كان ابنًا أو لم يكن»(٢). انتهى بلفظه.

وقال الفيومي: «ومنه قيل للحاضنة: رابة ورابية أيضًا - فعيلة بمعنى فاعلة. وقيل لبنت امرأة الرجل: ربيبة: فعيلة بمعنى مفعولة؛ لأنه يقوم بها غالبًا تبعًا لأمها، والجمع ربائب، وجاء: ربيبات على لفظ الواحدة. والابن ربيب»(٣). انتهى بلفظه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء: ٢٣] فسمى بنت الزوجة: ربيبة لتربية الزوج لها، فالزوج رابٌّ؛ لأنه قام على أمر الربيبة.

ويقال للصبي والفرس: مربوب. والمربوب: المُربَّى.

وتطلق كلمة الربيبة أيضًا على الغنم التي يربيها الناس في البيوت لألبانها. وغنمٌ ربائب، وهي التي تُربط قريبًا من البيوت وتعلف لا تُسام، وواحدتها ربيبة، بمعنى مربوبة؛ لأن صاحبها يربيها(٤).

قال الطبري: ومنه قول علقمة بن عبدة:

فكنت امرأً أفضت إليك ربابتي   وقبَلك ربَّتْني فضِعتُ رَبُوبُ

يعني يقول: أفضت إليك: أي أوصلت إليك ربابتي فصرت أنت الذي ترب أمري فتصلحه لما خرجت من ربابة غيرك من الملوك الذين كانوا

---

(١) صحيح مسلم، ط الجيل (٨/ ١٢).

(٢) «تاج العروس» (١/ ٢٦١).

(٣) «المصباح المنير» (١/ ٢٢٩).

(٤) انظر: «لسان العرب» (١/ ٤٠٠)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٣٧).

قبلك عليّ فضيعوا أمري وتركوا تفقده، وهم الربوب، واحدهم رب»[١].

انتهى بلفظه.

هذه المعاني الثلاثة لكلمة رب «وأعني بها: المالك الصاحب، والسيد المطاع، والمربي المصلح للشيء» هي التي أقرها العلماء والمفسرون لأنها هي الأصول اللغوية لمعنى الكلمة، وأي معنى آخر فهو مندرج تحت أصل من هذه الأصول الثلاثة.

قال ابن منظور: قال ابن الأنباري: الرب: ينقسم على ثلاثة أقسام: يكون الرب: المالك، ويكون الرب: السيد المطاع، ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ٤١]، والرب: المصلح، ربَّ الشيء: إذا أصلحه»[٢]. اهـ.

وقال الطبري بعد أن ذكر هذه الوجوه الثلاثة: «وقد يتصرف أيضًا معنى الرب في وجوه غير ذلك، غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة، فربنا جل ثناؤه السيد الذي لا شبه له ولا مثل في سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر»[٣]. اهـ.



(١) «تفسير الطبري» (١/ ٦٢).

(٢) «لسان العرب» (١/ ٤٠٠).

(٣) «تفسير الطبري» (١/ ٦٢).

الفصل الأول: مفهوم كلمة الرب في القرآن والسنة

الرّبُّ في الأصل: مصدرُ ربَّ يَرُبُّ، بمعنى: نشَّأ الشيءَ من حال إلى حال التمام، يُقالُ: ربَّه وربَّاه وربَّبَهُ. فلفظ (رب) مصدر مستعار للفاعل.

ولا يُقالُ: (الرَّبُّ) بالإطلاق إلا لله تعالى المتكفل بما يصلح الموجودات، نحو قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]. ولا يقال لغيره إلا مضافًا محدودًا، كما يقال: رب الدار، وربُّ الفرس. يعني صاحبُها، ومنه قولُه تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]. ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١]. وقال ﷺ في ضالة الإبل: «حتى يجدها ربها»[١].

فتبين بهذا: أن الرب يطلق على الله مُعَرَّفًا ومضافًا، فيقال: الرب، أو رب العالمين، أو رب الناس. ولا تُطلق كلمة الرّبِّ على غير الله إلا مضافة، مثل: رب الدار، ورب المنزل، ورب الإبل.

ومعنى (رب العالمين) أي: خالقهم ومالكهم، ومصلحهم ومربهيم بنعمه، وبإرسال رسله، وإنزال كتبه، ومجازيهم على أعمالهم.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: (فإنَّ الربوبية تقتضي أمر العباد ونهيهم، وجزاء مُحسنهم بإحسانه، ومُسيئهم بإساءته).

هذه حقيقة الربوبية[٢].

---

(١) **متفق عليه:** رواه البخاري (٩١، و٢٣٧٣، و٢٧٢٤، و٢٤٢٧، و٢٤٢٩، و٢٤٣٦، و٢٤٣٨، و٥٢٩٢، و٦١١٢)، ومسلم (١٧٢٢).

(٢) «عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع =

الفصل الثاني: تصورات الأمم الضالة لكلمة الرب من خلال القرآن والسنة

خلق الله الخلق مفطورين على التوحيد ومعرفة الرب الخالق سبحانه، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فالإقرارُ بربوبية الله والتوجه إليه أمر فطري، والشرك حادث طارئ، وقد قال النبي ﷺ: «**كلُّ مولود يُولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه**»[١].

فلو خُلِّيَ العبد وفطرته لاتجه إلى التوحيد وقَبِل دعوة الرسل؛ الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، ودلّت عليه الآيات الكونية؛ ولكن التربية المنحرفة والبيئة الملحدة هما اللتان تغيران اتجاه المولود، ومن ثَمَّ يقلد الأولاد آباءهم في الضلالة والانحراف.

يقولُ الله تعالى في الحديث القدسي: «**خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين**»[٢]. أي: صَرَفَتْهُم إلى عبادة الأصنام، واتخاذها أربابًا من دون الله؛ فوقعوا في الضلال والضياع، والتفرق والاختلاف؛ كلٌّ يتخذ له ربًّا

= وغير ذلك» (ص: ١٩).

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٩) في الجنائز، و(١٣٨٥) باب ما قيل في أولاد المشركين، و(٤٧٧٥) في التفسير: باب لا تبديل لخلق الله. ومسلم (٢٦٥٨) في القدر: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

(٢) أخرجه مسلم ((٢٨٦٥).

يعبده غير رب الآخر؛ لأنهم لما تركوا الرب الحق، ابتُلُوا باتخاذ الأرباب الباطلة، كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ﴾ [يونس: ٣٢] والضلال ليس له حدّ ونهاية، وهو لازم لكل من أعرضَ عن ربه الحق، قال الله تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠].

والشّركُ في الربوبية باعتبار إثبات خالقين متماثلين في الصفات والأفعال ممتنع، وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن معبوداتهم تملك بعض التصرفات في الكون.

وقد تلاعب بهم الشيطان في عبادة هذه المعبودات، فتلاعَبَ بكل قوم على قدر عقولهم:

فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم، كقوم نوح. وطائفةٌ اتخذت الأصنام على صورة الكواكب التي زعموا أنها تؤثر في العالم، فجعلوا لها بيوتًا وسدنة. واختلفوا في عبادتهم لهذه الكواكب: فمنهم من عبد الشمس، ومنهم من عبد القمر، ومنهم من يعبدُ غيرهما من الكواكب الأخرى؛ حتى بنوا لها هياكل، لكل كوكب منها هيكل يخصه. ومنهم من يعبدُ النار، وهم المجوس. ومنهم من يعبد البقر، كما في الهند. ومنهم من يعبد الملائكة. ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار. ومنهم من يعبدُ القبور والأضرحة.

وكل هذا بسبب أن هؤلاء تصوروا في هذه الأشياء شيئًا من خصائص الربوبية.

فمنهم من يزعم أن هذه الأصنام تمثل أشياء غائبة، قال ابن القيم: (وَضْع

الصنم إنما كان في الأصل على شكل معبود غائب، فجعلوا الصنم على شكله وهيئته وصورته؛ ليكون نائبًا منابه، وقائمًا مقامه. وإلا فمن المعلوم أن عاقلًا لا ينحت خشبة أو حجرًا بيده ثم يعتقد أنه إلهه ومعبوده. . .). انتهى.

كما أن عُبَّاد القبورِ قديمًا وحديثًا يزعمون أن هؤلاء الأموات يشفعون لهم، ويتوسطون لهم عند الله في قضاء حوائجهم ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

كما أن بعض مشركي العرب والنصارى تصوروا في معبوداتهم أنها ولد الله، فمشركو العرب عبدوا الملائكة على أنها بنات الله، والنصارى عبدوا المسيح عليه السلام على أنه ابن الله[1].

الفصل الثالث: الرد على هذه التصورات الباطلة لكلمة الرب في تصورات الأمم الضالة

قد رد الله على هذه التصورات الباطلة جميعًا بما يأتي:

أ - ردّ على عبدة الأصنام بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩، ٢٠].

ومعنى الآية كما قال القرطبي: أفرأيتم هذه الآلهة! أنفعت أو ضرت حتى تكون شركاء لله تعالى؟ وهل دفعت عن نفسها حينما حطمها رسول الله ﷺ

---

(١) «عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك» (ص: ٢٠).

وأصحابه رضي الله عنهم وهدموها؟!

وقال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٩- ٧٤].

فقد وافقوا على أنَّ هذه الأصنامَ لا تسمعُ الدعاءَ ولا تنفعُ ولا تضر، وإنَّما عبدوها تقليدًا لآبائهم، والتقليد حجة باطلة.

ب - وردّ على من عبد الكواكب والشمس والقمر بقوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وبقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

ج - وردّ على من عبد الملائكة والمسيح عليه السلام على أنهم ولد الله بقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وبقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وبقوله: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٣، ٤][1].

* * *

(١) «عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك» (ص: ٢٣).



المبحث الثالث: أسماء هذا النوع من التوحيد

قد جاءت إطلاقات العلماء على هذا النوع من التوحيد متباينة متغايرة في اللفظ، لكن مدلولاتها ومضمونها واحد، فقد أطلق على هذا النوع من التوحيد أكثر من اسم.

فتقسيم التوحيد وأقسام التوحيد هذه حقيقة شرعية، دل عليها استقراء نصوص الوحيين، فإذا كان كذلك حينئذٍ يكون النظر في المضمون، توحيد الله تعالى بأفعال، أو النظر إلى توحيد الرب جل وعلا بأفعال العباد، أو النظر إلى توحيد الرب جل وعلا في أسمائه وصفاته.

عَبَّر ابن تيمية رحمه الله تعالى وابن القيم عن هذه الأقسام الثلاثة بما ذكرناه: التوحيد في المعرفة والإثبات؛ لأن مدار توحيد الربوبية ومدار توحيد الأسماء والصفات هو على الإثبات، ليس لك أيها المكلَّف إلا أن تسمع ما قاله الله جل وعلا إثباتًا ونفيًا، فتثبت ما أثبته الله وتنفي ما نفاه الله تعالى، دون تكييف أو تمثيل أو تشبيه أو تحريف أو تعطيل، فمبناه على القاعدة الكبرى في باب الأسماء والصفات والربوبية وهي الإثبات، لكن إثبات دون تشبيه أو تمثيل على قاعدة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] أثبت ونفى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ نفى المثلية أن يشابهه أو يماثله أحد من المخلوقات فهو الخالق جل وعلا وما سواه مخلوق، فهو الكامل من كل وجه وما سواه مخلوق ناقص من كل وجه، فحينئذٍ أثبت لنفسه، أو نفى عن نفسه المماثلة وأثبت لنفسه صفتين ﴿وَهُوَ

ﱣﭐﱠﭐ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، إذًا سميع ليس كسمع الإنسان لأن الإنسان يوصف بالسمع، سمع لا كسمع الإنسان، وهو بصير والإنسان بصير، لكن سمع ليس كسمع الإنسان، وبصر ليس كبصر الإنسان...

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ هذا يتعلق بماذا؟ بالإثبات؛ لذلك جمع بينهما ابن تيمية رحمه الله تعالى وابن القيم في عنوان واحد وهو: توحيد المعرفة والإثبات، ويسمى التوحيد العلمي، والتوحيد الخبري، والتوحيد الاعتقادي. كلها أسماء وألفاظ والمعنى واحد، لكن نُظِرَ من جهة تسميته خبرًا بناء على الخبر الذي يقابل الطلب.

والخبر الذي يقابل الطلب ما هو؟ هو الذي يكون من جهة المتكلِّم إما بإثبات أو نفي، يثبت أو ينفي... ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ هذا إثبات ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] هذا نفي، إذًا جمع بين الإثبات والنفي، هذا من جهة المتكلِّم يقابَل من جهة المخاطَب إما بالتصديق وإما بالتكذيب لأن هذا شأن الخبر.

النوع الثاني: توحيد في القصد والطلب. لأن مداره على القلب، هذا في الأصل وإن كان العمل داخلًا فيه، لكن بالتبع، مداره على الطلب، وهذا الطلب يكون من جهة المتكلِّم بالأمر أو النهي، يأمر وينهى، يقابَل من جهة المكلَّف المخاطَب بماذا؟ بالامتثال أو الترك.

ولذلك سمى ابن تيمية رحمه الله تعالى النوع الأول توحيد المعرفة والإثبات سماه توحيدًا قوليًّا، والنوع الثاني هذا توحيد القصد والطلب سماه توحيدًا عمليًّا. وهذا أيضًا ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى في النونية، توحيد قولي وتوحيد عملي[1].

---

(١) «شرح كشف الشبهات» بتصرف (٣/١، بترقيم الشاملة آليًّا).

فتكون له عدة إطلاقات على النحو التالي:

١- توحيد الربوبية.

٢- التوحيد العلمي.

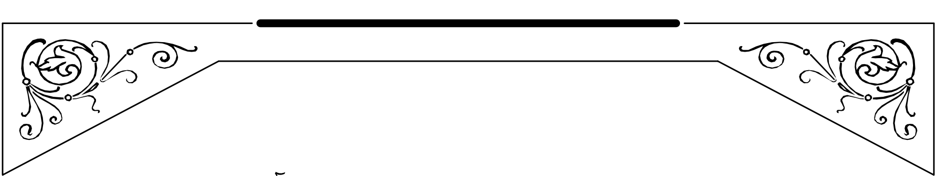
٣- التوحيد الخبري.

٤- توحيد المعرفة والإثبات.

٥- التوحيد الاعتقادي[١].

❊ ❊ ❊

(١) «أنواع التوحيد الثلاثة» (ص: ٢).



المبحث الرابع: الربوبية ثابتة بالقرآن والسنة

وبه ستة فصول:

الفصل الأول: في بيان منهج القرآن في إثبات وجود الخالق ووحدانيته

منهجُ القرآن في إثبات وجود الخالق ووحدانيته هو المنهج الذي يتمشّى مع الفِطر المستقيمة، والعقول السليمة، وذلك بإقامة البراهين الصحيحة التي تقتنع بها العقول، وتُسَلِّم بها الخصوم.

ومن ذلك:

١ - من المعلوم بالضرورة أن الحادث لا بد له من مُحْدِث:

هذه قضية ضرورية معلومة بالفطرة حتى للصبيان؛ فإنَّ الصَّبيَّ لو ضربَهُ ضاربٌ وهو غافلٌ لا يُبصره، لقال: مَن ضربني؟ فلو قيل له: لم يضربكَ أحدٌ. لم يقبل عقلُهُ أن تكونَ الضَّربةُ حدثت من غير محدث. فإذا قيل: فلان ضربَكَ. بكى حتى يُضرَبَ ضاربُهُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥].

وهذا تقسيم حاصر، ذكره الله بصيغة استفهام إنكاري؛ ليبيّن أنَّ هذه المقدمات معلومة بالضرورة، لا يمكن جحدها، يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي: من غير خالق خلقهم، أم هم خَلَقوا أنفسهم؟ وكلا الأمرين

باطلٌ؛ فتعين أن لهم خالقًا خلقهم، وهو الله سبحانه، ليسَ هُناك خالق غيره.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [لقمان: ١١].

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٤].

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥۖ﴾ [الحج: ٧٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠﴾ [النحل: ٢٠].

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٧].

ومع هذا التحدي المتكرِّر لم يَدَّعِ أحدٌ أنه خلقَ شيئًا، ولا مجرد دعوى - فضلًا عن إثبات ذلك - فتعيَّنَ أن الله سُبحانه هو الخالقُ وحدَهُ لا شريك له.

٢ - انتظام أمر العالم كله وإحكامه:

أدلُّ دليل على أنَّ مدبره إلهٌ واحد، وربٌّ واحدٌ لا شريك له ولا مُنازع.

قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فالإله الحق لا بد أن يكون خالقًا فاعلًا، فلو كان معه سبحانه إله آخر يُشاركه في مُلكه - تعالى الله عن ذلك - لكان له خلق وفعل، وحينئذٍ فلا يرضى شِركَةَ الإله الآخر معه؛ بل إن قدر على قهر شريكه وتفرَّد بالمُلك والإلهية دونَهُ فعل. وإن لم يقدر على ذلك انفرد بنصيبه في المُلك والخلق؛ كما ينفرد ملوكُ الدنيا بعضهم عن بعض بمُلكه، فيحصل الانقسام.

فلا بُدَّ من أحد ثلاثة أمور:

أ - إما أن يقهر أحدهما الآخر وينفردَ بالمُلك دونه.

ب - وإما أن ينفردَ كُلُّ واحد منهما عن الآخر بمُلكه وخلقه؛ فيحصل الانقسام.

ج - وإما أن يكونا تحت مَلِكٍ واحدٍ يتصرّفُ فيهما كيف يشاء؛ فيكون هو الإله الحق وهم عَبيدُه.

وهذا هو الواقعُ، فإنه لم يحصل في العالم انقسام ولا خلل؛ مما يَدُلُّ على أنَّ مدبره واحدٌ لا منازع له، وأن مالكه واحد لا شريك له.

٣ - تسخيرُ المخلوقاتِ لأداء وظائفها، والقيام بخصائصها:

فليسَ هُناك مخلوق يستعصي ويمتنع عن أداء مهمته في هذا الكون، وهذا ما استدل به موسى عليه السلام حين سأله فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه: ٤٩] أجاب موسى بجواب شافٍ كافٍ فقال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به؛ مِن كبر الجسم وصغره وتوسطه وجميع صفاته، ثم هدى كل مخلوق إلى ما خلقه له.

وهذه الهدايةُ هي هداية الدلالة والإلهام، وهي الهدايةُ الكاملةُ المشاهدَةُ في جميع المخلوقات، فكلُّ مخلوق تجده يسعى لما خُلق له من المنافع، وفي دفع المضَارِّ عنه، حتى إنَّ الله أعطى الحيوان البهيم من الإدراك ما يتمكن به من فعل ما ينفعه، ودفع ما يضره، وما به يؤدي مهمته في الحياة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

فالذي خلق جميعَ المخلوقات، وأعطاها خلقَها الحسنَ - الذي لا تقترح العقول فوق حسنه - وهداها لمصالحها - هو الرب على الحقيقة، فإنكارُهُ إنكارٌ لأعظم الأشياء وجودًا، وهو مكابرة ومُجاهرة بالكذب.

فالله أعطَى الخلق كل شيء يحتاجون إليه في الدنيا، ثم هداهم إلى طريق الانتفاع به، ولا شك أنه أعطى كل صنف شكلَه وصورتَهُ المناسبة له، وأعطى كل ذكر وأنثى الشّكلَ المناسبَ له من جنسه، في المناكحة والألفة والاجتماع، وأعطى كل عضو شكله الملائم للمنفعة المنوطة به، وفي هذا براهين قاطعة على أنه جل وعلا رَبُّ كُلِّ شيء، وهو المستحقُّ للعبادةِ دون سواه...

وفي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ تَدلُّ على أنّه الواحدُ

ومما لا شك فيه أنَّ المقصودَ من إثبات ربوبيته - سبحانه - لخلقه وانفراده لذلك: هو الاستدلال به على وجوب عبادته وحده لا شريك له؛ الذي هو توحيد الألوهية، فلو أن الإنسان أقر بتوحيد الربوبية ولم يُقر بتوحيد الألوهية أو لم يَقُمْ به على الوجه الصحيح لم يكن مسلمًا ولا موحدًا؛ بل يكون كافرًا جاحدًا[(١)].

الفصل الثاني: ذِكر الآيات الدالة على الربوبية

وبه سبع مسائل:

المسألة الأولى: نعمة الشمس والقمر والليل والنهار:

نعمة الشمس والقمر والليل والنهار، تحدثتُ عن هذه النعم معًا لارتباطها ببعضها ولورودها غالبًا في آيات القرآن مع بعضها البعض، ولأن الليل والنهار تابعان للشمس والقمر؛ ولذلك جاء الحديث في هذه النقطة

(١) «عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك» (ص: ٢٨).

بفقرتين:

أ- نعمة الشمس والقمر. ب- نعمة الليل والنهار.

أ- **نعمة الشمس والقمر:**

قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥، ٤٦].

في هذه الآيات الكريمة يتحدث ﷻ عن نعمة الشمس والقمر وما فيها من مصالح لعباده، مبينًا أنه تعالى وحده هو الذي جعل شعاع الشمس الصادر عنها ضياء، وجعل شعاع القمر نورًا، ففاوت بينهما حيث جعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل، فبالشمس تُعرف الأيام والشهور والأعوام، ولولا ذلك لفسدت الحياة على الأرض ولما عاشت الكائنات جميعها، فإن أحدًا لا ينكر ما للشمس من أهمية كبيرة في حياة النبات والحيوان فضلًا عن الإنسان.

ويتعلق بنعمة الشمس نعمة الظل، وقد نبه ﷻ عباده لهذه النعمة لما فيها من الفوائد للكائنات جميعها مما يستوجب على الناس الشكر للمنعم؛ لأنه لو شاء سكون الظل وعدم تحوله لفعل ولما استطاع أحد تحويله.

كما نبه على ما تتم به فائدة الظل وهو قبضه تدريجيًّا، ولولا ذلك لم ينتفع به أهله؛ لأن في مده وتحوله من مكان إلى مكان ثم قبضه شيئًا فشيئًا من المصالح والمنافع مما لا يحصى، وبسكونه دائمًا أو قبضه دفعة واحدة

تتعطل المرافق والمصالح فدل هذا على ربوبيته سبحانه وتعالى[(١)].

ب- **نعمة الليل والنهار:**

قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس: ٦٧، ٦٨] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر: ٦١، ٦٢].

هذه الآيات تتحدث عن نعمة الليل والنهار لما في ذلك من مصالح للعباد، ولأن النهار للعمل وفيه التعب، والليل للنوم وفيه الراحة؛ وذلك لأن الليل إذا تغشى الكائنات وسكنت فيه الأشياء يستريح البدن.

فخلقُ الله لهذه الأشياء المتضادة المختلفة مع ما فيها من نعمة جسيمة على الكائنات - دليلٌ على ربوبيتة تعالى؛ لأنه وحده الذي جعل الليل

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١١/ ١٤٠)، و(١٣/ ٢٢٦)، و(١٩/ ١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٢٤)، (ص٥٣٩)، (٤/ ٨٦)، و«التفسير القيم» (ص٣٩١).

سكنًا، أي ساجيًا مظلمًا لتسكن فيه الأشياء، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبأ: ٩ - ١١] أي: قاطعًا للحركة لنسكن مما كنا فيه من تعب التصرف والحركة للمعاش نهارًا.

ولو شاء الله بقاء الليل دائمًا أو بقاء النهار دائمًا لفعل، وليس هناك من يستطيع الإتيان بأحدهما؛ ولذلك قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى(١).

المسألة الثانية: نعمة الأرض والجبال:

نعمة الأرض والجبال، تحدثتُ عن نعمة الأرض والجبال معًا للعلاقة بينهما، فجاء الكلام في فقرتين:

أ- نعمة الأرض.

ب- نعمة الجبال.

أ- نعمة الأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ [الأعراف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾ [الزخرف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦].

إن الله ﷻ يذكّر عباده بنعمة الأرض التي خلقها لهم كالفِراش ممهدة وموطأة ومستقرة، وهو الذي ذللها لنا للاستفادة من خيراتها، ولولا تذليل

---

(١) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» بتصرف (ص: ٢٣٤).

الله لها ما استطعنا أن نشق فيها الطرق ولا البناء عليها ولا الحرث ولا سائر أنواع المنافع والتي منها أن الأموات تُكفتون في بطنها، فهي تُكِنُّ الأحياء على ظهرها في المساكن والأموات في القبور، فكأنها كفتت أذى الناس أحياء وجيفهم أمواتًا.

ونعمة أخرى في الأرض، وهي أنها مستودع الرزق، حيث إن فيها معايش بني آدم وأسباب رزقهم، فالله وحده هو الذي جعل في الأرض المعايش والأسباب المختلفة ليكسب العباد بها أقواتهم ويتجرون، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر. وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى.

ب- نعمة الجبال:

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧].

هذه نعمة عظيمة من الله تعالى على عباده، حيث ثبتّ الأرض بالجبال حتى لا تميد بأهلها وتضطرب فلا يستطيعون التصرف لمعاشهم لعدم استقرارها.

والجبال كذلك علامات يستدل بها المسافرون برًّا وبحرًا إذا ضلوا الطريق.

ومن منافع الجبال كذلك أن الثلج إذا سقط عليها وتراكم يذوب تدريجيًّا، فيشرب منه الناس ويسقون المزروعات، ولو ذاب دفعة واحدة لما استفيد منه، ولأهلك السيل كل ما مر عليه.

ومن منافع الجبال كذلك ما فيها من مغامرات وكهوف ليتحصن فيها

الناس، وهي أكنان للناس والحيوان، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل: ٨١].

هذه النعم العظيمة في الأرض والجبال توجب على العباد شكر المنعم وتوحيده وعبادته دون الآلهة والأوثان؛ لأنه هو الذي خلقهم وخلق هذه النعم، فيكون هو وحده المستحق عليهم الطاعة والشكر والعبادة.

وقد استعمل موسى عليه السلام هذا الدليل في الدعوة لتوحيد الله فقال لفرعون وقومه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: ٥٣، ٥٤].

يقول ابن كثير في تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤]: «أي: لدلالات وحججًا وبراهين لأُولي النهى، أي: لذوي العقول السليمة على أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه» وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى(١).

المسألة الثالثة: نعمة البحر:

نعمة البحر، إن نعمة البحر تحوي نعمًا كثيرة، منها:

أ- نعمة تسيير الفلك فيه.

ب- نعمة اللحم الطري.

ج- نعمة الحلي.

د- نعمة عدم اختلاط الماءين المالح والحلو.

أ- نعمة تسيير الفلك فيه:

(١) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» بتصرف يسير (ص: ٢٣٧).

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ١٤]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ [الإسراء: ٦٦].

إن تسيير الفلك في البحر نعمة كبرى فيها منافع عظيمة للعباد، وفقدانها يقلل سبل الحياة ويحصل لهم ضيق في أمورهم التجارية؛ ولذلك يمتن الله على عباده بتسخيره البحر المتلاطم الأمواج وتذليله لعباده؛ لركوبه وقضاء مصالحهم بحمله السفن التي تمخره؛ لأنها تشق الرياح والماء بصدرها المسنم الذي أرشد الله عباده إلى صنعه وهداهم لذلك. وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى.

ب- نعمة استخراج اللحم الطري:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [فاطر: ١٢].

هذه نعمة عظيمة من الله؛ حيث جعل البحر مستودعًا لا ينضب لمادة غذائية تعتبر شيئًا أساسيًّا في حياة معظم الشعوب، يتناولونها من البحر دون أن يخسروا مالًا وجهدًا في تربيتها، ولولا ذلك لضاقت معيشة أكثر الناس حيث إن عليها اعتمادهم في الغذاء وبها يتجرون ويتكسبون وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى.

جـ- نعمة استخراج الحلي:

قال تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]، وقال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾ [الرحمن: ٢٢ - ٢٣].

هذه نعمة أخرى مما في البحر، وهي نعمة استخراج الحلي التي يخلقها الله في البحر من اللآلئ والجواهر النفيسة، وكيف سَهَّل الله لعباده استخراجها من أعماق البحار ليتحلَّوْا بها، ويتجروا بها كذلك تكسبًا للمعاش وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى.

د- نعمة عدم اختلاط الماءين المالح والحلو:

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢١].

هذه نعمة عظيمة من الله على خلقه إذ بدونها لا تصلح الحياة للكائنات، فهذا الحاجز حتى لا يختلط الماءان فيُفسد كل منهما الآخر.

والماء الحلو، هو ماء الأنهار والعيون، وهو العذب الفرات، وقد فرقه الله بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارًا وعيونًا بحسَب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم ودوابهم.

وأما الماء المالح الأجاج فهو البحار المعروفة ولا تستساغ للشرب، وملوحتها نعمة من الله، فلو كانت حلوة لفسد الهواء وأنتن وماتت جميع الحيوانات في البر والبحر، فلما كان ماؤها مالحًا كان الهواء دائمًا نقيًّا وكانت ميتتها طيبة.

وهذا الحاجز بين الماءين قد يكون جزءًا من الأرض، وقد لا يكون كذلك، فقد يمر النهر من البحر المالح ويخرج من جانب آخر كما هو محافظ على عذوبته وصلاحيته للاستعمال بأمر الله، فيستفيد منه الناس على

جانبي البحر، فأي نعمة فوق هذه النعمة.

ولولا هذا الحاجز بقدرة الله لفسدت الأنهار الحلوة بدخولها البحر ولتعطلت مصالح الخلق من الطبخ والشرب وغيرها؛ ولذلك امتن الله في كتابه بهذه النعمة على خلقه. وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى[1].

المسألة الرابعة: نعمة الرياح والمطر والنبات:

نعمة الرياح والمطر والنبات، جمعتُ هذه النعم لترتبها على بعضها ولورودها غالبًا مع بعضها في آيات القرآن، وهي:

أ- نعمة الرياح.

ب- نعمة المطر.

ج- نعمة النبات.

أ- نعمة الرياح:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ﴾ [الروم: ٤٨].

الرياح نعمة عظيمة وفيها فوائد جمة، منها أن الله ﷻ إذا أراد إنزال المطر أثار الرياح فجمعت السحاب بعضه إلى بعض حتى يتكاثف ويصبح موقرًا بالمطر، ثم تسوق الرياح هذا السحاب إلى حيث يريد الله إنزال المطر، وعلى هذا تكون الرياح رحمة من الله بعباده، ولها فوائد عظيمة من توفير طاقة وغير ذلك الكثير. وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى.

---

(١) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» بتصرف يسير (ص: ٢٤٠).

ب- نعمة المطر:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ [المؤمنون: ١٨، ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: ٤٨ - ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

إن المطر نعمة عظيمة من الله على عباده؛ لأن حياة الحيوان والنبات متوقفة على الماء، والله وحده هو الذي يُنزل علينا الماء من السحاب عذبًا فراتًا ولم يجعله مِلحًا أجاجًا، ثم يسكنه في الأرض فيخرج ينابيع ويجري أنهارًا لسقي الإنسان والحيوان والنبات والثمار في الجنات. وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى.

جـ- نعمة النبات:

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا

حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦].

ينبه ﷻ عباده إلى نعمة جليلة من نعمه، وهي نعمة النبات والثمار؛ لأن الله وحده خالق الحَب والنوى الذي يخرج منه الزروع والثمار على اختلاف أصنافها، وهو وحده كذلك يُخرج الحب المتراكب والقنوان الدانية وجنات الأعناب والزيتون والرمان، وليس ذلك من فعل أحد غير الله، فالعبد يشق الأرض ويضع فيها الحَب، والزارع المنبت هو الله دون الأنداد والأوثان.

ولو شاء الله أن يجعل هذا الزرع حطامًا يابسًا قبل موعد حصاده ما استطاع أحد إنباته، وأقصى ما يعمله الإنسان هو التعجب والتفجع والحزن على ما فاته من الزرع والثمر. وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى(١).

المسألة الخامسة: نعمة الأنعام:

نعمة الأنعام، قسمتُ الحديث عن هذه النعمة إلى خمس نقاط:

أ- نعمة التذليل.

ب- نعمة الركوب والحمل.

ج- نعمة الجلد وما فيه من صوف وشعر ووبر.

د- نعمة اللبن.

هـ- نعمة اللحم.

أ- نعمة التذليل:

(١) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» بتصرف يسير (ص: ٢٤٤).

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ [يس: ٧١، ٧٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل: ٦].

النعمة الأولى في الأنعام هي نعمة تذليلها؛ لأن الله وحده هو الذي جعلها مقهورة ذليلة لا تمتنع على صاحبها عند الحاجة إليها في تسييرها وتوجيهها للرعي أو للطَّرْق أو للحمل أو للوقوف، ولو جاء طفل إلى بعير لأناخه وإذا شاء أقامه ومشى بمشيه القافلة كلها.

فهذا التذليل ضروري لتمام الانتفاع بالأنعام.

ويرتبط بتذليلها كونها جمالًا وزينة لنا في رجوعها من المرعى عشيًّا فتكون شبعانة وخواصرها مليئة، وفي بعثها صباحًا إلى المرعى، ولولا تذليلها ما كانت زينة وجمالًا لأنها تكون نافرة مستعصية. وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى.

ب- نعمة الركوب والحمل:

قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٣، ١٤].

إن نعمة ركوب الأنعام والحمل عليها تُلفت النظر وتوجب الشكر؛ لأنها توفر كثيرًا من الجهد والتعب، فيستطيع الإنسان السير في المصالح البعيدة كالحج والغزو والتجارة بلا مشقة؛ لأن هذه الأنعام تحمله وتحمل متاعه وطعامه وشرابه، وبدون هذه الأنعام فإن الإنسان عاجز عن حمل الأثقال

لمسافة قصيرة.

وتظهر نعمة الحمل والركوب بشكل خاص في الخيل والبغال والحمير؛ ولذلك أفردت معًا في آية خاصة بها فقال تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨]، فامتن الله على عباده بهذا النوع بالذات لتخصصه بهذه النعمة وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى.

ج- نعمة الجلد وما فيه من صوف وشعر ووبر:

قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾ [النحل: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ [النحل: ٨٠].

فهذه نعمة جليلة أن نتخذ من جلود الأنعام بيوتًا خفيفة الحمل في الأسفار وتُضرب بسهولة لتقينا الحر والقُّر، وكذلك أن نتخذ من صوف الغنم وشعر المعز ووبر الإبل الأثاث والمتاع والثياب والبُسُط والحبال وغيرها من الأمتعة، كآنية الماء واللبن المتخذة من الجلود وكثير من الصناعات لا تقوم إلا على جلود الأنعام وما فيها. وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى.

د- نعمة اللبن:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النحل: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ [يس: ٧٣].

اللبن نعمة لا توصف على هذه البشرية؛ لأن مصالح العباد كلهم قائمة عليه في معظم وجباتهم الغذائية وخاصة الصغار، وهذا اللبن يخرج من بطون الأنعام من بين الفرث والدم خالصًا بياضه وطعمه وحلاوته، فانظر كيف يكون الطعام في المعدة، فإذا نضج ذهب أقسامًا: قسم: للدم والعظم

واللحم، وقسم يصير لبنًا والباقي فضلات من روث وبول، ولا يمتزج قسم بآخر ولا يتغير به، فيخرج اللبن خالصًا سائغًا للشاربين، لا يغص به أحد. وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى.

هـ- نعمة اللحم:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٩]، هذه النعمة خاتمة النعم في الأنعام، فرغم تعدد منافع الأنعام في حياتهم فهي كذلك يؤكل لحمها وهو أعلى أنواع الأطعمة، وعليه اعتماد كبير في حياة الناس، بل إن شعوبًا كثيرة تعيش على الرعي والتجارة بالأنعام اللاحمة. وكل ذلك دليلٌ على ربوبيته تعالى[(١)].

المسألة السادسة: نعمة السمع والبصر:

نعمة السمع والبصر، يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]، ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون: ٧٨]، ويقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام: ٤٦].

إن السمع والبصر نعمتان عظيمتان من الله على عباده، إذ إن جميع المصالح في الدين والدنيا مبنية عليهما، ولذلك يمتن الله على عباده بهاتين النعمتين في كثير من الآيات مبينًا أنه تعالى أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا، ثم رزقنا وسائل العلم المعتمد عليها، وهي السمع الذي نسمع به

---

(١) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» بتصرف يسير (ص:٢٤٨).

الأصوات، والبصر الذي نرى به المرئيات.

وهذا السمع والبصر إن تعطل عن العمل بأمر الله فلن يستطيع أحد رده لصاحبه.

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للمعاندين المكذبين: أرأيتم إن سلبكم الله سمعكم وأبصاركم فهل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم؟ وكل ذلك دليل على ربوبيته تعالى[(١)].

المسألة السابعة: نعمة الأمن:

نعمة الأمن، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [النمل: ٩١]، ويقول تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ويقول تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ١ - ٤].

إن من نعم الله الجليلة على أهل مكة نعمة الأمن التي خصهم الله بها ونبههم ﷻ بها إلى وجوب عبادته وتوحيده وشكره على هذه النعمة؛ لأنه وحده هو الذي حرّم مكة فصارت بلدًا حرامًا بتحريمه إياها، كما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم**

(١) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» بتصرف يسير (ص: ٢٥٣).

القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرّفها، ولا يختلى خلاها»[١]. وكل ذلك دليل على ربوبيته تعالى[٢].

الفصل الثالث: الآيات التي بها الإلزام والرد على من انحرفت فِطرهم

من الآيات التي بها الإلزام قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥].

والذين انحرفت فِطرهم هم الذين أنكروا الخالق تبارك وتعالى فقال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] فأنكروا البعث وأنكروا أن يكون لهم رب يفنيهم، فَرَدَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] أي: ليس لهم علم يقين يدل على صحة قولهم، سواء كان هذا العلم خبرًا، أو كان حجة وبرهانًا عقليًّا، ثم بَيَّن الله أنهم في اعتقادهم الذي نطقوا به بألسنتهم شاكُّون ومرتابون، وهذا أمر واضح لاتباعهم الظن[٣].

ومن أوجه الرد على من انحرفت فطرهم: ما جاء عن فرعون الذي كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] فتابعه قومه على ذلك كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] فسأل فرعون موسى فقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] أي: مَن هذا الذي تزعم أنه رب

---

(١) رواه البخاري في الحج (٤٢)، وفي الصيد (٨)، وفي اللقطة (٧)، ورواه مسلم في الحج، باب (٨٢) حديث رقم (٤٤٥).

(٢) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» بتصرف يسير (ص: ٢٥٥).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٠).

العالمين غيري؟ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف)[(١)]. وذلك رد على من قال: إن فرعون سأل عن ماهية الرب. وهذا غلط لأنه كان منكرًا جاحدًا ولم يكن مُقرًّا حتى يسأل عن الماهية، ويبينه قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾ [طه: ٤٩].

وهنا أجاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سأله عن رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه، وهو الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب، والعالم السفلي وما فيه من عجائب المخلوقات كالجبال والبحار والأشجار.

وهذا الرد على فرعون واضح؛ لأنه لا يمكن أن يدعي ملكه لكل هذه الأشياء، وإنما كان له نوع ملك وهو محدود على مصر.

فعندما سمع هذه الحجة التفت إلى من حوله من الملأ قائلًا: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥﴾ [الشعراء: ٢٥] على سبيل التهكم.

ثم زاد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الحجج فقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]. أي: خالقكم وخالق آبائكم الأولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه، فكيف تصح منه دعوى الربوبية إذن؟!

فما كان من فرعون إلا أن وصف موسى بالجنون فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] إمعانًا في تضليل قومه، فأجاب موسى بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] أي: هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الشمس والكواكب، والمغرب تغرب فيه الشمس والكواكب بنظام دقيق لا يتغير على حسَب تقديره، وتقرير الحجة: إن كان

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٣٣٢).

فرعون صادقًا في دعواه الربوبية فليعكس الأمر، فغُلب وانقطع فعدل إلى استعمال قوته وسلطانه... إلى آخر القصة[(١)][(٢)].

الفصل الرابع: الأدلة من السنة النبوية

قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمُ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَغَيْرُ ذَلِكَ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الفصل الخامس: كلام السلف في هذا المعنى

١- كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا اجْتَهَدَ فِي الْيَمِينِ قَالَ: والذي قامت السموات وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ. أَيْ: هِيَ قَائِمَةٌ ثَابِتَةٌ بِأَمْرِهِ لَهَا وَتَسْخِيرِهِ إِيَّاهَا، ثُمَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُدِّلَتِ الْأَرْضُ غير الأرض والسموات وَخَرَجَتِ الْأَمْوَاتُ مِنْ قُبُورِهَا أَحْيَاءً بِأَمْرِهِ تَعَالَى ودعائه إياهم؛ ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥][(٣)].

---

(١) «منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى» لخالد بن عبد اللطيف (١/ ٢٧٦).

(٢) «الموسوعة العقدية - الدرر السنية» (١/ ١٧٩، بترقيم الشاملة آليًّا).

(٣) «معارج القبول بشرح سلم الوصول» (١/ ١٠٥).

٢- قالَ قَتَادَةُ: مَنْ تَفَكَّرَ فِي خَلْقِ نَفْسِهِ عَلِمَ أَنَّهُ إِنَّمَا لُيِّنَتْ مَفَاصِلُهُ لِلْعِبَادَةِ. وَكَذَا مَا فِي ابْتِدَاءِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ إِذْ كَانَتْ نُطْفَةً ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً ثُمَّ عِظَامًا إِلَى أَنْ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ[1].

٣- عَنِ الْإِمَام مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الرَّشِيدَ سَأَلَهُ عَنْ ذَلِك، فَاسْتَدَلَّ لَهُ بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ وَالْأَصْوَاتِ وَالنَّغَمَاتِ.

٤- وَعَنِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ وُجُودِ الْخَالِقِ ﷻ فَقَالَ: هَذَا وَرَقُ التُّوتِ، طَعْمُهُ وَاحِدٌ، تَأْكُلُهُ الدُّودُ فيخرج منه الإبرسيم، وَتَأْكُلُهُ النَّحْلُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْعَسَلُ، وَتَأْكُلُهُ الشَّاءُ وَالْبَقَرُ وَالْأَنْعَامُ فَتُلْقِيهِ بَعْرًا وَرَوْثًا، وَتَأْكُلُهُ الظِّبَاءُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمِسْكُ، وَهُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ.

٥- وَعَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذلك فقال: هاهنا حِصْنٌ حَصِينٌ أَمْلَسُ، لَيْسَ لَهُ بَابٌ وَلَا مَنْفَذٌ، ظَاهِرُهُ كَالْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ وَبَاطِنُهُ كَالذَّهَبِ الْإِبْرِيزِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذِ انْصَدَعَ جِدَارُهُ فَخَرَجَ مِنْهُ حَيَوَانٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ذُو شَكْلٍ حَسَنٍ وَصَوْتٍ مَلِيحٍ. اهـ. يَعْنِي بِذَلِكَ الْبَيْضَةَ إِذَا خَرَجَ مِنْهَا الدِّيكُ.

٦- وَسُئِلَ أَبُو نُوَاسٍ عَنْ ذَلِكَ فَأَنْشَدَ:

تَأَمَّلْ فِي رِيَاضِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لجين شاخصات ... بأحداق هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

وقال ابْنُ الْمُعْتَزِّ، وَيُرْوَى لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ

---

(١) «معارج القبول بشرح سلم الوصول» (١/ ١٠٠).

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ وَفِي كُلِّ تَسْكِينَةٍ شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

٧- وَسُئِلَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ عَنْ هَذَا وَمَا الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ تَعَالَى فَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ! إِنَّ الْبَعْرَ لَيَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَإِنَّ أَثَرَ الْأَقْدَامِ لَيَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ، أَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى وُجُودِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؟!

٨- وَمِنْ خُطَبِ قُسِّ بْنِ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيِّ - وَكَانَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: أَيُّهَا النَّاسُ اجْتَمِعُوا فَاسْمَعُوا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ فَعُوا، وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَانْتَفِعُوا وَقُولُوا، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاصْدُقُوا، مَنْ عَاشَ مَاتَ وَمَنْ مَاتَ فَاتَ وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ، مَطَرٌ وَنَبَاتٌ وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ، لَيْلٌ دَاجٍ وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَنُجُومٌ تُزْهِرُ وَبِحَارٌ تَزْخَرُ، وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ وَلَيْلٌ وَأَيَّامٌ وَبِرٌّ وَآثَامٌ، إِنْ فِي السَّمَاءِ خَبَرًا وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ عِبَرًا يَحَارُ فِيهِنَّ الْبَصَرُ، مِهَادٌ مَوْضُوعٌ وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ، وَنُجُومٌ تَغُورُ وَبِحَارٌ لَا تَفُورُ، وَمَنَايَا دَوَانٍ وَدَهْرٌ خَوَّانٌ كَحَدِّ النِّسْطَاسِ وَوَزْنِ الْقِسْطَاسِ. أَقْسَمَ قُسٌّ قَسَمًا لَا كَاذِبًا فِيهِ وَلَا آثِمًا، لَئِنْ كَانَ فِي هَذَا الْأَمْرِ رِضًا لَيَكُونَنَّ سُخْطٌ.

ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لِلَّهِ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمْ هَذَا الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَهَذَا زَمَانُهُ وَأَوَانُهُ.

ثم قال: ما لي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرْجِعُونَ؟! أَرَضُوا بِالْمُقَامِ فَأَقَامُوا أَمْ تُرِكُوا فَنَامُوا؟!

وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِهَا قَالَ: شَرْقٌ وَغَرْبٌ وَيُتْمٌ وَحِزْبٌ وَسِلْمٌ وَحَرْبٌ وَيَابِسٌ وَرَطْبٌ وَأُجَاجٌ وَعَذْبٌ وَشُمُوسٌ وَأَقْمَارٌ وَرِيَاحٌ وَأَمْطَارٌ وَلَيْلٌ وَنَهَارٌ وَإِنَاثٌ وَذُكُورٌ وَبِرَارٌ وَبُحُورٌ وَحَبٌّ وَنَبَاتٌ وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ وَجَمْعٌ وَأَشْتَاتٌ وَآيَاتٌ فِي

إِثْرِهَا آيَاتٌ وَنُورٌ وَظَلَامٌ وَيُسْرٌ وَإِعْدَامٌ، وَرَبٌّ وَأَصْنَامٌ، لَقَدْ ضَلَّ الْأَنَامُ، نَشْوُ مَوْلُودٍ وَوَأْدُ مَفْقُودٍ وَتَرْبِيَةُ مَحْصُودٍ، وَفَقِيرٌ وَغَنِيٌّ وَمُحْسِنٌ وَمُسِي، تَبًّا لِأَرْبَابِ الْغَفْلَةِ، لِيُصْلِحَنَّ الْعَامِلُ عَمَلَهُ وَلْيَفْقِدَنَّ الْآمِلُ أَمَلَهُ، كَلَّا بَلْ هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَيْسَ بِمَوْلُودٍ وَلَا وَالِدٍ، أَعَادَ وَأَبْدَى، وَأَمَاتَ وَأَحْيَا وَخَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى رَبُّ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَيَا مَعْشَرَ إِيَادٍ، أَيْنَ ثَمُودُ وَعَادٌ؟ وَأَيْنَ الْآبَاءُ وَالْأَجْدَادُ؟ وَأَيْنَ الْعَلِيلُ وَالْعُوَّادُ؟ كُلٌّ لَهُ مَعَادٌ. يُقْسِمُ قُسٌّ بِرَبِّ العِبَادِ وَسَاطِعِ الْمِهَادِ، لَتُحْشَرُنَّ عَلَى الِانْفِرَادِ فِي يَوْمِ التَّنَادِ، وَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ وَنُقِرَ فِي النَّاقُورِ وَوَعَظَ الْوَاعِظُ فَانْتَبَذَ الْقَانِطُ وَأَبْصَرَ اللَّاحِظُ، فَوَيْلٌ لِمَنْ صَدَفَ عَنِ الْحَقِّ الْأَشْهَرِ وَالنُّورِ الْأَزْهَرِ وَالْعَرْضِ الْأَكْبَرِ فِي يَوْمِ الْفَصْلِ وَمِيزَانِ الْعَدْلِ إِذَا حَكَمَ الْقَدِيرُ، وَشَهِدَ النَّذِيرُ وَبَعُدَ النَّصِيرُ وَظَهَرَ التَّقْصِيرُ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ[١].



(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٢٠-٣٢١).

الفصل السادس: مناظرات في الربوبية

١- ذِكْرُ مُنَاظَرَةٍ بَيْنَ رُسُلِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ، فقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٥٨].

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ وَغَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ النَّسَبِ وَالْأَخْبَارِ: هَذَا الْمُحَاجُّ هُوَ مَلِكُ بَابِلَ وَاسْمُهُ نُمْرُودُ بْنُ كَنْعَانَ، ذَكَرُوا أَنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي مُلْكِهِ أَرْبَعمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ قَدْ طَغَى وَبَغَى وَتَجَبَّرَ وَعَتَا وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَلَمَّا دَعَاهُ الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ حَمَلَهُ الْجَهْلُ وَالضَّلَالُ وَطُولُ الْآمَالِ عَلَى إِنْكَارِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا عِنَادًا وَمُكَابَرَةً، فَحَاجَّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ فِي ذَلِكَ وَادَّعَى لِنَفْسِهِ الرُّبُوبِيَّةَ، فَلَمَّا قَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: يَعْنِي أَنَّهُ إِذَا أَتَى بِالرَّجُلَيْنِ قَدْ تَحَتَّمَ قَتْلُهُمَا، فَإِذَا أَمَرَ بِقَتْلِ أَحَدِهِمَا وَعَفَا عَنِ الْآخَرِ؛ فَكَأَنَّهُ قَدْ أَحْيَا هَذَا وَأَمَاتَ هَذَا الْآخَرَ[1].

وَهَذَا لَيْسَ بِمُعَارَضَةٍ لِلْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بَلْ هُوَ كَلَامٌ خَارِجِيٌّ عَنْ مَقَامِ الْمُنَاظَرَةِ لَيْسَ بِمَنْعٍ وَلَا بِمُعَارَضَةٍ، بَلْ هُوَ تَشْغِيبٌ مَحْضٌ وَهُوَ انْقِطَاعٌ فِي الْحَقِيقَةِ، فَإِنَّ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اسْتَدَلَّ عَلَى وُجُودِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا بِحُدُوثِ هَذِهِ الْمُشَاهَدَاتِ مِنْ إِحْيَاءِ الْحَيَوَانَاتِ وَإِمَاتَتِهَا

---

(١) «معارج القبول بشرح سلم الوصول» (١/ ١١٠).

عَلَى وُجُودِ فَاعِلٍ ذَلِكَ الَّذِي لَا بُدَّ مِنَ اسْتِنَادِهَا إِلَيْهِ فِي وُجُودِهَا ضَرُورَةً لِعَدَمِ قِيَامِهَا بِأَنْفُسِهَا وَلَا بُدَّ مِنْ فَاعِلٍ لِهَذِهِ الْحَوَادِثِ الْمُشَاهَدَةِ، مِنْ خَلْقِهَا وَتَسْخِيرِهَا وَتَسْيِيرِ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ وَالرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ وَالْمَطَرِ وَخَلْقِ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تُوجَدُ مُشَاهَدَةً ثُمَّ إِمَاتَتِهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

فَقَوْلُ هَذَا الْجَاهِلِ: «أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ» إِنْ عَنَى أَنَّهُ الْفَاعِلُ لِهَذِهِ الْمُشَاهَدَاتِ فَقَدْ كَابَرَ وَعَانَدَ، وَإِنْ عَنَى مَا ذَكَرَهُ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا يَتَعَلَّقُ بِكَلَامِ الْخَلِيلِ إِذْ لَمْ يَمْنَعْ مُسْتَلْزَمًا وَلَا عَارَضَ الدَّلِيلَ.

وَلَمَّا كَانَ انْقِطَاعُ مُنَاظَرَةِ هَذَا الْمُحَاجِّ قَدْ تَخْفَى عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مِمَّنْ حَضَرَهُ وَغَيْرِهِمْ، ذَكَرَ دَلِيلًا آخَرَ بَيَّنَ وُجُودَ الْخَالِقِ وَبُطْلَانَ مَا ادَّعَاهُ النُّمْرُودُ وَانْقِطَاعَهُ جَهْرَةً ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أَيْ: هَذِهِ الشَّمْسُ مُسَخَّرَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ مِنَ الْمَشْرِقِ، كَمَا سَخَّرَهَا خَالِقُهَا وَمُسَيِّرُهَا وَقَاهِرُهَا، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِنْ كُنْتَ كَمَا زَعَمْتَ أَنَّكَ تُحْيِي وَتُمِيتُ فَأْتِ بِهَذِهِ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ، فَإِنَّ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَلَا يُمَانَعُ وَلَا يُغَالَبُ، بَلْ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَدَانَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، فَإِنْ كُنْتَ كَمَا تَزْعُمُ فَافْعَلْ هَذَا، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْهُ فَلَسْتَ كَمَا زَعَمْتَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ وَكُلُّ أَحَدٍ أَنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا، بَلْ أَنْتَ أَعْجَزُ وَأَقَلُّ وَأَذَلُّ مِنْ أَنْ تَخْلُقَ بَعُوضَةً أَوْ تَتَصَرَّفَ فِيهَا.

فَبَيَّنَ ضَلَالَهُ وَجَهْلَهُ وَكَذِبَهُ فِيمَا ادَّعَاهُ وَبُطْلَانَ مَا سَلَكَهُ وَتَبَجَّحَ بِهِ عِنْدَ جَهَلَةِ قَوْمِهِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ كَلَامٌ يُجِيبُ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهِ بَلِ انْقَطَعَ وَسَكَتَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٢- ذِكْرُ تعالي مُنَاظَرَةٍ أُخْرَى مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٢٣-٢٨].

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانَ بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ مِنَ الْمُقَاوَلَةِ وَالْمُحَاجَّةِ وَالْمُنَاظَرَةِ، وَمَا أَقَامَهُ الْكَلِيمُ عَلَى فِرْعَوْنَ اللَّئِيمِ مِنَ الْحُجَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ ثُمَّ الْحِسِّيَّةِ.

وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ قَبَّحَهُ اللَّهُ أَظْهَرَ جحْدَ الْخَالِقِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَزَعَمَ أَنَّهُ الْإِلَهُ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤]. وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [الْقَصَصِ: ٣٨] وَهُوَ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ مُعَانِدٌ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَبْدٌ مَرْبُوبٌ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْإِلَهُ الْحَقُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النَّمْلِ: ١٤].

وَلِهَذَا قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ لِرِسَالَتِهِ وَإِظْهَارِ أَنَّهُ مَا ثَمَّ رَبٌّ أَرْسَلَهُ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] لِأَنَّهُمَا قَالَا لَهُ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمَا: وَمَنْ رَبُّ الْعَالَمِينَ الَّذِي تَزْعُمَانِ أَنَّهُ أَرْسَلَكُمَا وَابْتَعَثَكُمَا؟ فَأَجَابَهُ موسى قائلًا: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أَيْ: خَالِقُ جَمِيعِ ذَلِكَ وَمَالِكُهُ وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِ وَإِلَهُهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا الْعَالَمَ الْعُلْوِيَّ وَمَا فِيهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّيِّرَاتِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ، وَالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ وَمَا فِيهِ مِنْ بِحَارٍ وَأَنْهَارٍ وَقِفَارٍ وَجِبَالٍ وَأَشْجَارٍ وَحَيَوَانَاتٍ وَنَبَاتٍ وَثِمَارٍ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْهَوَاءِ وَالطَّيْرِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ

وَالرِّيَاحِ وَالْمَطَرِ، وَمَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ الْجَوُّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي يَعْلَمُ كُلُّ مُوقِنٍ أَنَّهَا لَمْ تَحْدَثْ بِأَنْفُسِهَا وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُوجِدٍ وَمُحْدِثٍ وَخَالِقٍ، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، الْجَمِيعُ مُذَلَّلُونَ مُسَخَّرُونَ وَعَبِيدٌ لَهُ خَاضِعُونَ ذَلِيلُونَ ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أَيْ: إِنْ كَانَتْ لَكُمْ قُلُوبٌ مُوقِنَةٌ وَأَبْصَارٌ نَافِذَةٌ.

﴿قَالَ﴾ أَيْ: فِرْعَوْنُ ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ مِنْ أُمَرَائِهِ وَمَرَازِبَتِهِ[(١)] وَكُبَرَائِهِ وَرُؤَسَاءِ دَوْلَتِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالتَّنَقُّصِ وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيمَا قَالَهُ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أَيْ: أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا فِي زَعْمِهِ أَنَّ لَكُمْ إِلَهًا غَيْرِي؟!

فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ وَالْقُرُونِ السَّالِفَةِ فِي الْآبَادِ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ نَفْسَهُ وَلَا أَبُوهُ وَلَا أُمُّهُ وَلَمْ يُحْدَثْ مِنْ غَيْرِ مُحْدِثٍ، وَإِنَّمَا أَوْجَدَهُ وَخَلَقَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وَهَذَانِ الْمَقَامَانِ هُمَا الْمَذْكُورَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣].

وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَسْتَفِقْ فِرْعَوْنُ مِنْ رَقْدَتِهِ وَلَا نَزَعَ عَنْ ضَلَالَتِهِ، بَلِ اسْتَمَرَّ عَلَى طُغْيَانِهِ وَعِنَادِهِ وَكُفْرَانِهِ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ فِي دَعْوَاهُ أَنَّ ثَمَّ رَبًّا غَيْرِي.

﴿قَالَ﴾ أَيْ: مُوسَى لِأُولَئِكَ الَّذِينَ أَوْعَزَ إِلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ مَا أَوْعَزَ مِنَ الشُّبَهِ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَشْرِقَ

---

(١) أي: جماعته وجنوده.

مَشْرِقًا تَطْلُعُ مِنْهُ الْكَوَاكِبُ وَالْمَغْرِبَ مَغْرِبًا تَغْرُبُ فِيهِ الْكَوَاكِبُ ثَوَابِتُهَا وَسَيَّارَاتُهَا مَعَ هَذَا النِّظَامِ الَّذِي سَخَّرَهَا فِيهِ وَقَدَّرَهَا، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ الظَّلَامِ وَالضِّيَاءِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ رَبُّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، خَالِقُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ السَّائِرَةِ وَالثَّوَابِتِ الْحَائِرَةِ، خَالِقُ اللَّيْلِ بِظَلَامِهِ وَالنَّهَارِ بِضِيَائِهِ، وَالْكُلُّ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَسْيِيرِهِ سَائِرُونَ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ يَتَعَاقَبُونَ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ وَيَدُورُونَ، فَهُوَ تَعَالَى الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، فَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ رَبُّكُمْ وَإِلَهُكُمْ صَادِقًا، فَلْيَعْكِسِ الْأَمْرَ وَلْيَجْعَلِ الْمَشْرِقَ مَغْرِبًا وَالْمَغْرِبَ مَشْرِقًا وَالثَّابِتَ سَائِرًا وَالسَّائِرَ ثَابِتًا!! كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ.

وَلَمَّا قَامَتِ الْحُجَجُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَذَهَبَتْ شُبَهُهُ وَغُلِبَ وَانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ قَوْلٌ سِوَى الْعِنَادِ، عَدَلَ إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِهِ وَقُوَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَسَطْوَتِهِ، وَاعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُ وَنَافِذٌ فِي مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ وَظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ هَذَا الْمَقَامِ مَقَالٌ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٢٩] إِلَى آخِرِ مَا قَصَّ اللَّهُ ﷻ عَنْهُ، حَتَّى قَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَاصِمُ الْجَبَابِرَةِ وَأَخَذَهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ[1].

٣- مناظرة الإمام أبي حنيفة للملاحدة في إنكارهم الخالق.

لم يُعرف الإلحاد قديمًا مذهبًا ظاهرًا موجودًا بين أجناس البشر، اللهم إلا من شرذمة قليلة من الدهرية[2]. الذين يجحدون الخالق المدبر العالم القادر، ويزعمون أن العالم يسير بنفسه بلا خالق، ويقولون ببقاء الدهر. قال

---

(١) «معارج القبول بشرح سلم الوصول» (١/ ١١٠).

(٢) انظر: كتاب «نهاية الإقدام» (ص١٢٣)، و«مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٣٨).

الله تعالى إخبارًا عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

فمع إنكارهم للخالق، أنكروا البعث والنشور، وكذبوا الرسل من غير دليل لهم ولا برهان.

هذا وقد كانت تُعقد مناظرات بين الإمام أبي حنيفة وبعض هؤلاء الملاحدة، منها: أن قومًا منهم أرادوا البحث معه في تقرير توحيد الربوبية فقال لهم: «أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة تذهب فتمتلئ من الطعام وغيره بنفسها، وتعود بنفسها فترسو بنفسها وترجع، كل ذلك من غير أن يديرها أحد. فقالوا: هذا محال لا يمكن أبدًا! فقال لهم: إذا كان هذا محالًا في سفينة، فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله؟...»[1].

وقد ذكر المكي هذه المناظرة بصيغة أخرى مشابهة لها، وفيها أن الإمام أبا حنيفة قال لهم: «ما تقولون في رجل يقول لكم: إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال، مملوءة من الأمتعة، وقد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية ليس فيها ملاح يجريها ويقودها ويسوقها، ولا متعهد يدفعها، هل يجوز ذلك في العقل؟ فقالوا: لا، هذا لا يقبله العقل، ولا يجيزه الوهم. فقال لهم أبو حنيفة: فيا سبحان الله، إذا لم يجز في العقل وجود سفينة تجري مستوية من غير متعهد، فكيف يجوز قيام الدنيا على اختلاف أحوالها وتغيّر أمورها، وسعة أطرافها، وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ومحدث

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢٥، ٢٦)، و«شرح الفقه الأكبر» للقاري (ص١٤).

لها؟...»[١].

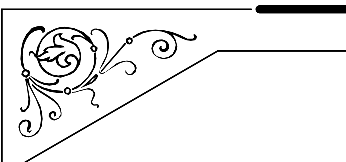
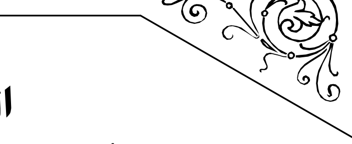
٤- وكذلك وقعت مناظرة أخرى بين الإمام وملحد دهري ذكرها أبو الليث السمرقندي في شرحه للفقه الأكبر، وفيها أن الإمام ناظر دهريًّا وألقى عليه الحجة، فقال الدهري: «إنما تغيرت الأشياء من حال إلى حال لأن بناءها على الطبائع الأربعة - رطوبة ويبوسة وبرودة وحرارة - فما دامت هذه الطبائع مستوية وصاحبها مستويا، ومتى غلبت طبيعة منها على سائرها زالت عن الاستواء فزال استواء صاحبها أيضًا. قال أبو حنيفة رضي الله عنه: أقررت بالصانع والمصنوع، والغالب والمغلوب، من حيث أنكرت؛ لأنك قلت إحدى الطبائع تغلب على سائرها، وسائرها تصير مغلوبة. فثبت أن للعالم غالبًا في الحكمة، فقد تعدينا عن مسألتكم فقلنا: الغالب ليس هو إلا الصانع جلّت قدرته...»[٢][٣].



(١) «مناقب أبي حنيفة» للمكي (ص١٥١).

(٢) انظر: «شرح الفقه الأبسط» (ص٢٣)، والمطبوع خطأً باسم «شرح الفقه الأكبر» لأبي منصور الماتريدي. والصواب أنه «شرح الفقه الأبسط» لأبي الليث السمرقندي. انظر: تحقيق ذلك في مقدمة الكوثري لكتاب «العالم والمتعلم».

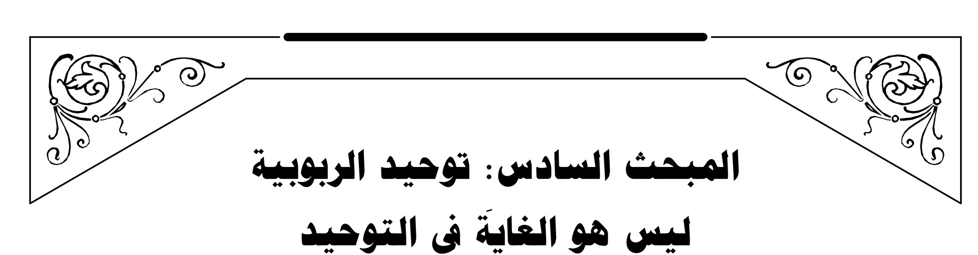
(٣) «أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة» (ص: ٢٢٣).

المبحث الخامس
أنواع الأدلة على إثبات الربوبية

الإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بوحدانيته، واستحقاقه للعبادة؛ لأن وجوده - جل وعلا - لا شك فيه ولا ريب، وقد دل على وجوده ﷻ دلالات، منها: دلالة الفطرة، ودلالة العقل، و دلالة الشرع، و دلالة الحس، ودلالة الآيات الكونية. وهذه الأدلة قد سلف تناولها بالتفصيل في مبحث سابق تحت عنوان «أدلة وجود الخالق سبحانه».





المبحث السادس: توحيد الربوبية ليس هو الغايةَ في التوحيد

إن الإقرار بهذا التوحيد وحده لا ينجي من العذاب، إن توحيد الربوبية هو أحد أنواع التوحيد الثلاثة كما تقدم؛ ولذا فإنه لا يصح إيمان أحد ولا يتحقق توحيده إلا إذا وحد الله في ربوبيته، لكن هذا النوع من التوحيد ليس هو الغاية من بعثة الرسل عليهم السلام، ولا ينجي وحده من عذاب الله ما لم يأتِ العبد بلازمه وهو توحيد الألوهية؛ ولذا يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

والمعنى: ما يقر أكثرهم بالله ربًّا وخالقًا ورازقًا ومدبرًا - وكل ذلك من توحيد الربوبية - إلا وهم مشركون معه في عبادته غيره من الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع.

وبهذا المعنى للآية قال المفسرون من الصحابة والتابعين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من إيمانهم إذا قيل لهم: مَن خلق السماء، ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله» وهم مشركون».

وقال عِكْرِمَة: «تسألهم من خلقهم ومن خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: «الله» فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره».

وقال مجاهد: «إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا. فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بن زيد: «ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا

وهو مؤمن بالله ويعرف أن الله ربُّه، وأنَّ الله خالقُه ورازقُه، وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٧]»[١].

والنصوص عن السلف في هذا المعنى كثيرة، بل لقد كان المشركون زمن النبي ﷺ مقرين بالله ربًّا خالقًا رازقًا مدبرًا، وكان شركهم به من جهة العبادة حيث اتخذوا الأنداد والشركاء يدعونهم ويستغيثون بهم ويُنزلون بهم حاجاتهم وطلباتهم.

وقد دل القرآن الكريم في مواطن عديدة منه على إقرار المشركين بربوبية الله مع إشراكهم به في العبادة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩].

فلم يكن المشركون يعتقدون أن الأصنام هي التي تُنزل الغيث وترزق العالم وتدبر شؤونه، بل كانوا يعتقدون أن ذلك من خصائص الرب

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٧ / ٣١٢- ٣١٣).

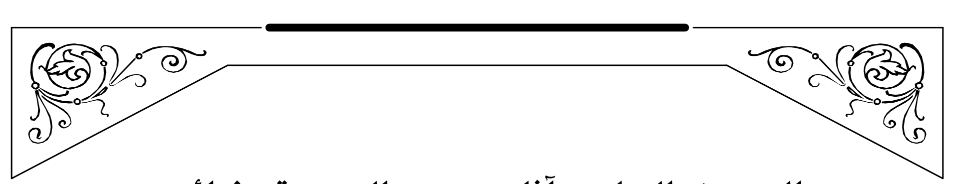
سبحانه، ويقرون أن أوثانهم التي يدعون من دون الله مخلوقة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضرًّا ولا نفعًا استقلالًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا تسمع ولا تبصر؛ ويُقرون أن الله هو المتفرد بذلك لا شريك له، ليس إليهم ولا إلى أوثانهم شيء من ذلك، وأنه سبحانه الخالق وما عداه مخلوق والرب وما عداه مربوب، غير أنهم جعلوا له من خلقه شركاء ووسائط، يشفعون لهم بزعمهم عند الله ويقربونهم إليه زلفى؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، أي: ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمر الدنيا.

ومع هذا الإقرار العام من المشركين لله بالربوبية إلا أنه لم يدخلهم في الإسلام، بل حَكَم الله فيهم بأنهم مشركون كافرون، وتوعدهم بالنار والخلود فيها، واستباح رسوله ﷺ دماءهم وأموالهم لكونهم لم يحققوا لازم توحيد الربوبية وهو توحيد الله في العبادة.

وبهذا يتبين أن الإقرار بتوحيد الربوبية وحده دون الإتيان بلازمه توحيد الألوهية - لا يكفي ولا ينجي من عذاب الله، بل هو حجة بالغة على الإنسان تقتضي إخلاص الدين لله وحده لا شريك له، وتستلزم إفراد الله وحده بالعبادة. فإذا لم يأتِ بذلك فهو كافر حلال الدم والمال[(١)].



(١) «أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة» (ص: ١٥).



المبحث السابع: آثار توحيد الربوبية وفوائده

لإيمان العبد بربوبية خالقه آثار عظيمة على الفرد، منها:

١- النجاة من الحيرة والشك: فكيف يصاب بالحيرة والشك من يعلم أن له ربًّا هو رب كل شيء، وهو الذي خلقه فسَوَّاه، وكَرَّمه وفضله، وجعله في الأرض خليفة، وسَخَّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة؛ فاطمأن إلى ربه ولاذ بجواره، وعرف أن الحياة قصيرة ممزوج فيها الخير بالشر والعدل بالظلم واللذة بالألم.

أما الجاحدون بربوبية الله، المرتابون في لقائه، فحياتهم لا طعم لها ولا معنى، كلها قلق وحيرة وعلامات استفهام متتالية بلا جواب، فليس لهم ركن يلجئون إليه، فتعيش عقولهم ـ مهما كان ذكاؤهم ـ في حيرة وشك واضطراب وقلق، وهذا هو عذاب الدنيا وجحيمها تلفَح قلوبهم صباح مساء.

٢- السكينة النفسية: إن للسكينة مصدرًا واحدًا هو الإيمان بالله واليوم الآخر... الإيمان الصادق العميق الذي لا يكدره شك ولا يفسده نفاق، هذا ما يشهد به الواقع الماثل، وما يؤيده التاريخ الحافل، وما يلمسه كل إنسان بصير منصف في نفسه وفيمن حوله.

لقد تعلمنا أن أكثر الناس قلقًا وضيقًا واضطرابًا وشعورًا بالتفاهة والضياع هم المحرومون من نعمة الإيمان وبرد اليقين، إن حياتهم لا طعم لها ولا مذاق وإن حفلت باللذائذ والمرفهات؛ لأنهم لا يدركون لها معنى، ولا

يعرفون لها هدفًا، ولا يفقهون لها سرًّا، فكيف يظفرون مع هذا بسكينة نفس أو انشراح صدر؟!

إن هذه السكينة ثمرة من ثمار الإيمان، والتوحيد شجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؛ فهي نفحة من السماء ينزلها الله على قلوب المؤمنين؛ ليَثبتوا إذا اضطرب الناس، ويرضوا إذا سخط الناس، ويوقنوا إذا شك الناس، ويصبروا إذا جزع الناس، ويحلموا إذا طاش الناس.

هذه السكينة هي التي عمرت قلب رسول الله ﷺ يوم الهجرة، فلم يَعْتَره هم ولا حزن، ولم يستبد به خوف ولا وجل، ولم يخالج صدره شك ولا قلق، قال جل وعز: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

الإيمان قارب النجاة.

لقد غلبت على صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه مشاعر الحزن والإشفاق، لا على نفسه وحياته، بل على الرسول ﷺ، وعلى دعوة التوحيد، حتى قال والأعداء محدقون بالغار: «يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه! فقال ﷺ مثبتًا فؤاده: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!**» (رواه مسلم).

وهذه السكينة روح من الله ونور يسكن إليه الخائف، ويطمئن عنده القلِق، ويتسلى به الحزين، ويستروح به المتعب، ويقوى به الضعيف، ويهتدي به الحيران.

من استغنى بالله افتقر الناس إليه.

هذه السكينة نافذة على الجنة يفتحها الله للمؤمنين من عباده؛ منها تهب

عليهم نسماتها، وتشرق عليهم أنوارها، ويفوح شذاها وعطرها؛ ليذيقهم بعض ما قدموا من خير، ويريهم نموذجًا صغيرًا لما ينتظرهم من نعيم، فينعموا من هذه النسمات بالرَّوح والريحان والسلام والأمان.

كلما كنت ضعيفًا في الصلة مع الله جل وعز، كنت عرضة للنزعات والنزغات.

٣- الثقة بالله: كل شيء بيده جل وعز، ومن ذلك النفع والضر؛ فالله هو الخالق جل وعز، وهو الرزاق المالك المدبر، له مقاليد السماوات والأرض؛ ولذلك إذا علم المؤمن أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر، وأن اجتماع الخلق كلهم على خلاف ما قدره له جل وعز - غير مفيد أبدًا، علم حينئذٍ أن الله وحده هو النافع الضار المعطي المانع؛ مما يوجب زيادة الثقة بالله جل وعز وتعظيم توحيده؛ ولذا ذم الله من يعبد ما لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئًا، فتبارك القائل ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الزمر: ٦٣].

في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وعليه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يُذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته.

٤- تعظيم الله: وهذا الأثر ظاهر في حياة المؤمن بالله جل وعز، المفرِد له بالعبادة والقصد والطلب والإرادة، وعندما يتأمل المؤمن ما لله من ملكوت السماوات والأرض لا يسعه إلا أن يقول: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ﴾ [الأنعام: ٨٠]، ويقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وكل هذا يدل على تعلق القلب بالرب الخالق جل وعز، وبذل الجهد في

مرضاته، والسعي في تعظيم شرعه وأمره، وعدم الشرك به ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكل هذا تعظيم لله جل وعز، وهو من آثار توحيد الربوبية على المؤمن[١].

٥- التوكل على الله - جل وعلا - يرجع إلى فهم توحيد الربوبية، وإلى عظم الإيمان بتوحيد الربوبية، فإن بعض المشركين قد يكون عنده من التوكل على الله الشيء العظيم.

والتوكل على الله من العبادات العظيمة التي تُطلب من المؤمن.

لهذا نقول: إن إحداث التوكل في القلب يرجع إلى التأمل في آثار الربوبية، فكلما كان العبد أكثر تأملًا في ملكوت الله: في السماوات والأرض، والأنفس، والآفاق؛ كان علمه بأن الله هو ذو الملكوت وأنه هو المتصرف، وأن نصره لعبده شيء يسير جدًّا بالنسبة إلى ما يُجريه الله - جل وعلا - في ملكوته، فيُعظم المؤمن بهذا التدبر الله - جل وعلا -، ويعظم التوكل عليه، ويعظم أمره ونهيه، ويعتقد أن الله - جل جلاله - لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ﷻ.

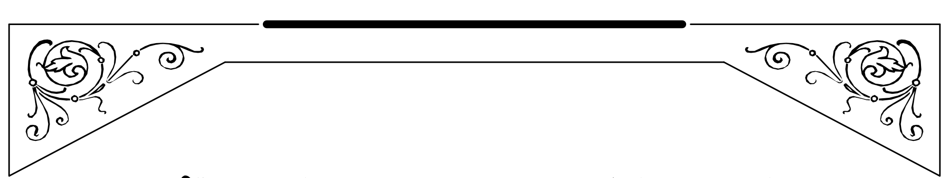
﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] رتّب الحسب - وهو الكفاية - على التوكل عليه، وهذا فضيلة التوكل، وفضيلة المتوكلين عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»[٢].

---

(١) من الشبكة العنكبوتية موقع ملتقى أهل الحديث.

(٢) «التمهيد لشرح كتاب التوحيد» (ص: ٣٧٩).



المبحث الثامن: ما ضد توحيد الربوبية؟

وبه فصلان:

الفصل الأول: نواقض توحيد الربوبية الاعتقادية القلبية

وذلك مثل أن يوصف أحد من الخلق بأي صفة من صفات الله ﷻ الذاتية أو الفعلية المختصة به؛ كالخلق أو الرزق أو علم الغيب أو التصرف في الكون، حتى مع إثبات هذه الصفات لله ﷻ.

وهذا الشرك يكثر لدى بعض الفرق المنحرفة كغلاة الصوفية والرافضة والباطنية عمومًا. حيث يعتقد الرافضة- مثلًا- في أئمتهم أنهم يعلمون الغيب، وتخضع لهم ذرات الكون ونحو ذلك. وكذلك يعتقد الباطنية والصوفية في أوليائهم نحو ذلك.

فعامة شرك الربوبية عند هؤلاء يقع في العلم والتصرف، أما في الخلق، والرزق فيقر به عامة الصوفية، وكذا المشركون الأوائل يعتقدون بأن الله ﷻ هو الخالق الرازق، لكنهم يدعون ويستغيثون بالأولياء من دون الله لزعمهم أنها تقربهم إلى الله زلفى؛ لذلك اقتصر مفهومهم للشرك باعتقاد أن الأولياء يخلقون أو يرزقون من دون الله، أو باعتقاد تصرفهم في الخلق استقلالًا[١].

---

(١) سيأتي إيضاح لذلك عند الكلام عن الشرك في الإلهية.

وبعد تقرير هذا الأصل ولكثرة أنواع الشرك في الربوبية، فقد رأيت أن أختار مثالين منهما، وهما في العلم والشرك في التصرف، ومن خلال نقل بعض أقوال الفرق يتضح انحرافها في هذا الأصل، ثم نرد عليهم ونبين المنهج الحق في ذلك:

أولًا: الشرك في العلم:

أ- نقول عن بعض الفِرق فيها نقض لتوحيد الربوبية.

ب- اعتقاد أهل السنة في ذلك، وحكم من ادعى علم الغيب.

١- اعتقاد أهل السنة في ذلك.

٢- تفسير قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] الآية.

أ- **نقول عن بعض الفِرق فيها نقض لتوحيد الربوبية.**

الأقوال كثيرة ومشتهرة، وسأقتصر على الأقوال الصريحة منها:

فالباطنية زعموا أن أئمتهم وأولياءهم يعلمون ما كان وما يكون.

ومن النقولات في ذلك ما ذكره صاحب تأويل الدعائم من أنه (جاء عن أولياء الله من الأخبار عما كان ويكون من أمر العباد)[١]. وجاء في كتاب (المجالس المؤيدية) أن الأئمة يعلمون من أمر المبدأ والمعاد ما حجبه الله عن كافة العباد)[٢]، وروى النعمان القاضي عن المعز لدين الله أنه قال: (. . . أفمن أودعه الله علم ما يكون يجهل فضله. . . فكيف بمن علمه الله

(١) «تأويل الدعائم» للقاضي النعمان (١/ ١٤٥).

(٢) «المجالس المؤيدية» لهبة الله الشيرازي (ص٤٤١) نقلًا عن الإسماعيلية، وإحسان إلهي ظهير (ص٣٧٦).

علم ما يكون مما لم يكن بعد)[1]، وقال المعز: إن عندنا علم ما يطلب، كقول جده علي: (سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي خلق الحبة وبرأ النسمة، لا تسألوني عن علم ما كان وما يكون، ومن علم ما لا تعلمون إلا أخبرتكم به...)[2].

فهذه النصوص- كما نلاحظ- فيها دعوى أن الأئمة يعلمون ما كان وما يكون من أمر العباد وأمر الجن أو المعاد.

ومثل ذلك ما نقل عن الرافضة حيث ينسب الكليني إلى جعفر الصادق قوله: (ورب الكعبة ورب البنية، لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما إني أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما؛ لأن موسى والخضر عليهما السلام أعطيا علم ما كان ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة، وقد ورثنا من رسول الله وراثة)[3].

وينسبون إلى الحسن بن علي رضي الله عنه قوله: (إنا نعلم المكنون والمخزون والمكتوم الذي لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل غير محمد وذريته)[4].

ولا حاجة للإشارة إلى كذبهم على الحسن رضي الله عنه أو جعفر الصادق رحمه الله، وإنما المقصود أن الرافضة يعتقدون فيهم هذا؛ ولهذا نقلوا هذه الأقوال عنهم ونسبوها إليهم.

---

(١) «المجالس والمسايرات» للقاضي النعمان (٤٠٤).

(٢) «المجالس والمسايرات» للقاضي النعمان (٤٠٤)، وقد كذبوا على علي رضي الله عنه فيما نقلوا عنه.

(٣) «الكافي» للكليني (ج١ص٢٦٠ -٢٦١).

(٤) «دلائل الإمامة» أبو جعفر الطبري الشيعي (ص٦٧).

وهذه الفكرة موجودة لدى المتصوفة؛ فبينهم وبين الرافضة أوجه شبه كثيرة، من أهمها تقديس الأئمة والأولياء.

فهذا عبد الكريم الجيلي(١) صاحب كتاب «الإنسان الكامل» يزعم أنه كشف عن حقائق الأمور على ما هي عليه من الأزل إلى الأبد وأنه رأى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة... إلخ)(٢).

وهذا الشعراني في كتابه «الطبقات الكبرى» ينقل عن شيخه الخواص أنه كان يعلم ما في اللوح المحفوظ ساعة بساعة(٣).

ومما قاله المتصوفة: (...وينبغي على المريد أن يعتقد في شيخه أنه يرى أحواله كلها كما يرى الأشياء في الزجاجة)(٤).

ويدخل في ذلك الكهانة والعرافة(٥) ونحوها، وكذلك إتيان الكهنة

---

(١) عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي، ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني، من علماء المتصوفة، له كتب كثيرة، من أشهرها: «الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل» في اصطلاح الصوفية، تُوفي سنة (٨٣٢ هـ)، انظر: «كشف الظنون» (١٨١)، و«الأعلام» (٤/ ٥١).

(٢) «الإنسان الكامل» (٢/ ٩٧).

(٣) راجع ذلك وأمثاله في «الفكر الصوفي» لعبد الرحمن عبد الخالق (١٧٩- ١٨١).

(٤) «رماح حزب الرحيم في نحور حزب الرجيم» (٢٨: ١) نقلًا عن «التيجانية»، د. علي الدخيل الله (ص١٨٤)، انظر: نصوصًا أخرى في نفس الموضع.

(٥) سيأتي مبحث الكهنة والعرافين في النواقض العملية؛ ولذلك اختصرنا الحديث فيه.
قال الإمام الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: (الكاهن: هو الذي يدعي مطالعة علم الغيب، ويخبر الناس عن الكوائن...وكان منهم من يسمى عرافًا: وهو الذي يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها، كالشيء يُسرق، فيعرف المظنون به السرقة، وتتهم المرأة بالزنى فيعرف من صاحبها) انظر: «سنن أبي داود» =

والعرافين وتصديقهم بما يقولون.

ب- اعتقاد أهل السنة في ذلك وحكم من ادعى علم الغيب.

١- اعتقاد أهل السنة في ذلك:

يؤمن أهل السنة بأن الله وحده هو الذي يعلم الغيب، دون من سواه من ملك مقرب أو نبي مرسل، وأنه يُطلع من يرتضيه من رسله على بعض الغيب متى شاء وإذا شاء.

وبذلك جاءت الآيات والأحاديث، قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] وقال تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وقال ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [الكهف: ٢٦] وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

٢- تفسير قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] الآية.

مرّ معنا نصوص صريحة بأن الرسل وعلى رأسهم محمد ﷺ لا يعلمون الغيب، مثل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾.

= للحافظ المنذري و«معالم السنن» للخطابي (٥/ ٣٧٠).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، كالحارز الذي يدعي علم الغيب أو يدعي الكشف) «فتح المجيد» (٣٨٤)، وانظر: بحثًا مفصلًا لذلك في كتاب «عالم الغيب والشهادة» لعثمان جمعة ضميرية (١٢٢-١٣١).

وسنزيد هذه المسألة إيضاحًا قبل أن نتكلم عن الاستثناء المذكور في الآية، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨] (أي: لو كنت أعلم جنس الغيب، لتعرضت لما فيه الخير، فجلبته إلى نفسي، وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسني، ولكني عبد لا أدري ما عند ربي، ولا ما قضاه فيّ، وقدّره لي، فكيف أدري غير ذلك وأتكلف علمه؟)[(١)].

وقال ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ الآية [الأنعام: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿۞ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة: ١٠٩].

ففي هذه الآية دليل على نفي علم الأنبياء بالغيب، وإذا لم يعلم الرسل والأنبياء ذلك فمَن ادعاه لنفسه أو لغيره فهو مضاد ومكذب بما جاء في القرآن.

وقال سبحانه في حكاية المحاورة بين موسى عليه السلام وفرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢﴾ [طه: ٥١، ٥٢] فأضاف موسى عليه السلام هذا العلم إلى الله سبحانه ونفاه عن نفسه، فدل على أن الأنبياء لا يعلمون منه شيئًا إلا ما يخبرهم به سبحانه[(٢)].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف: ٩].

---

(١) «الدين الخالص» لصِديق خان (١/ ٤٣٤).

(٢) «الدين الخالص» لصديق خان (١/ ٤٤٣).

لقد قص علينا ﷻ من أحوال الأنبياء والرسل وأخبارهم ما يؤكد هذا المعنى ويرسخه:

فها هو إبراهيم عليه السلام لم يعلم بأنه يولد له ولد من زوجته سارة إلا بعد أن جاءته الملائكة، وجاءته الملائكة في صورة بشر فلم يعرفهم فذبح لهم عجلًا وقربه إليهم، ولم يكن يعرف مقصدهم حتى أعلموه أنهم ذاهبون لتدمير قرى قوم لوط.

وأما لوط فإنه ساءته رؤية الملائكة ولم يعلم حقيقة أمرهم إلا بعد أن أعلموه أنهم جاءوا لإنجائه وإنجاء أهله[١].

وها هو المصطفى ﷺ أصابه هم عظيم وقلق وانشغل باله فيما قذف المنافقون عائشة رضي الله عنها، ومكث أيامًا يستشير أصحابه في الأمر، ولم يعلم حقيقة الأمر حتى أنزل الله ﷻ براءتها وكذب المنافقين[٢].

فكل هذه الآيات والأخبار تدل دلالة قطعية على أن الأنبياء لا يعلمون الغيب، فإذا كان الأنبياء الأصفياء المقربون لا يعلمون ذلك، فغيرهم من باب أَوْلى.

أما الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فمعناه: «أي من اصطفاه من الرسل، أو من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه، ليكون ذلك دالًا على نبوته»[٣].

وقال الحافظ ابن حجر: (وفي الآية رد على المنجمين، وعلى من يدعي أنه مطلع على ما سيكون من حياة أو موت أو غير ذلك لأنه مكذب للقرآن وهم

(١) انظر: «الفكر الصوفي» لعبد الرحمن عبد الخالق (١٤٤).
(٢) انظر: «الدين الخالص» (١/ ٤٢٥)، و«الفكر الصوفي» (١٤٥).
(٣) «فتح القدير» (٥/ ٣١١)، وانظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨).

(أي المنجمون ومن في حكمهم) أبعد شيء من الارتضاء مع سلب صفة الرسلية عنهم)[١].

إذًا الآية صريحة الدلالة في أن الغيب مختص به ولا سبيل إلى علمه إلا من إخبار الله تعالى لمن يشاء من رسله وأنبيائه.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره الله ﷻ عن يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٣٧] وقوله عن عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ٤٩] ومن ذلك أيضًا ما أخبر به ﷺ من فتوحات إسلامية، وفتن وملاحم وقعت كما أخبر بها ﷺ، وإخباره عن علامات الساعة، والشهادة لبعض الصحابة بالجنة وأحوال أهل الجنة والنار... إلخ[٢].

السؤال الآن: حكم من ادعى علم الغيب؟

يقول الإمام ابن العربي المالكي في ذلك: (مقامات الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله لا أمارة عليها، ولا علامة عليها، إلا ما أخبر به الصادق المجتبى..، فكل من قال: إنه ينزل الغيث غدًا فهو كافر، أخبر عنه بأمارات ادعاها، أو بقول مطلق)[٣].

ومن قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فأما الأمارة على هذا فتختلف، فمنها كفر، ومنها تجربة)[٤].

---

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٤٦٤).

(٢) انظر: «عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي» لعثمان جمعه ضميرية (ص٨١).

(٣) لعل المقصود والله أعلم من يقول ذلك على سبيل الجزم واليقين.

(٤) مثل ذلك يقال في مسألة نزول الغيث إن كان عن تجربة وتأمل لسنن الله في =

والتجربة منه أن يقول الطبيب: إذا كان الثدي الأيمن مسودًّا الحلمة فهو ذكر، وإن كان ذلك في الثدي الأيسر فهو أنثى. وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فهو ذكر، وإن وجدت الجنب الأشأم أثقل فالولد أنثى. وادعى ذلك عادة لا واجبًا في الخلقة لم نكفره ولم نفسقه. وأما من ادعى علم الكسب في مستقبل العمر فهو كافر أو أخبر عن الكوائن الجميلة أو المفضلة فيما يكون قبل أن يكون فلا ريب في كفره أيضًا...)[١].

وقال صِديق خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمن اعتقد في نبي، أو ولي، أو جن، أو ملك، أو إمام، أو ولد إمام، أو شيخ، أو شهيد، أو منجم، أو رمال، أو جفار، أو فاتح فال، أو برهمن، أو راهب، أو جنية، أو خبيث - أن له مثل هذا العلم، وهو يعلم الغيب بعلمه ذلك؛ فهو مشرك بالله، وعقيدته هذه من أبطل الباطلات وأكذب المكذوبات، وهو منكر لهذه الآية القرآنية وجاحد لها)[٢]. أي: قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ الآية.

ثانيًا: الشرك في التصرف:

أ- نماذج من انحراف الفِرق في ذلك.

ب- اعتقاد أهل السنة في ذلك، وحكم من أثبت لمخلوق تصرفًا في الكون من دون الله عز وجل.

أ- نماذج من انحراف الفرق في ذلك.

من المعروف عن الباطنية تأليههم لبعض الأشخاص، فالنصيرية مثلًا يؤلهون عليّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والدروز يؤلهون الحاكم بأمره...

= الكون، ولم يجزم بوقوع ذلك بغلبة الظن فجائز، والله أعلم.

(١) «أحكام القرآن» (٢/ ٧٣٨).

(٢) «الدين الخالص» (١/ ٤٢٥، ٤٢٦).

وهكذا، فالباطنية لديهم غلو ظاهر في هذا الجانب.

ولعلنا نقتصر هنا على إبراز معتقد النصيرية في ذلك، وملخصه ما يلي: يعتقدون أن الله يحل في الأشخاص، وأن آخر حلول له كان في علي بن أبي طالب. بل ذهبوا إلى ما يشبه عقيدة التثليث عند النصارى، إذ إنهم ألّفوا ثالوثًا يتكون من علي، ومحمد، وسلمان الفارسي، ويزعمون أن العلاقة بين أطراف هذا الثالوث علاقة إيجاد، فعلي خلق محمدًا، ومحمد خلق سلمان، وسلمان خلق الأيتام الخمسة. ويقصدون بهم: المقداد بن الأسود، وأبا ذر الغِفاري، وعثمان بن مظعون، وعبد الله بن رواحة، وقنبر ابن كادان مولى علي. وأكدوا لهؤلاء مسئوليات معينة في تصريف الكون، فالمقداد موكل إليه الرعد والصواعق والزلازل، وأبو ذر موكل بالرياح وقبض أرواح البشر، وقنبر موكل بنفخ الأرواح في الأجسام(١).

إذًا علي بن أبي طالب وسلمان والأيتام الخمسة يتفردون بتصريف أمور الكون من الخلق والموت والحياة وغيرها، وهذه من أخص صفات الربوبية.

ولا غرابة في هذا الاعتقاد عند النصيرية ما داموا يؤلهون البشر ويعتقدون بالحلول على طريقة النصارى.

أيضًا يعتقد الرافضة الإمامية في أئمتهم شيئًا من ذلك، فينسون إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من رواية جعفر بن محمد قوله: (انتقل النور إلى غرائزنا ولمع في أئمتنا، فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض، فبنا النجاة ومنا مكنون

---

(١) انظر: «الباكورة السليمانية» (ص٢٩، ٣٠)، و«مجموع الفتاوى» (٣٥ / ١٤٧)، و«دراسة عن الفِرق في تاريخ المسلمين»، د. أحمد جلي (٣١٦-٣١٨).

العلم، وإلينا مصير الأمور، وبمهدينا تنقطع الحجج..)[١].

وينسون إليه أيضًا قوله: (ونحن الذين بنا تُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وبنا تُمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث، وتُنشر الرحمة...)[٢].

ويقول أحد أئمتهم المعاصرين وهو الخميني: (فإن للإمام مقامًا محمودًا ودرجة سامية، وخلافه تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون...)[٣].

فالكون بذلك خاضع لولايتهم وسيطرتهم وتصرفهم.

أما المتصوفة فاعتقادهم بأوليائهم وتصرفهم في الكون وشئون الخلق - مشهور معلوم.

(فعامتهم يجعلون الولي مساويًا لله ﷻ في جميع صفاته فهو يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويتصرف في الكون، ولهم تقسيمات للولاية، فهناك الغوث المتحكم في كل شيء في العالم، والأقطاب الأربعة الذين يمسكون الأركان الأربعة في العالم بأمر الغوث، والأبدال السبعة الذين تتحكم كل واحد منهم في قارة من القارات السبع بأمر الغوث والنجباء وكل واحد منهم يتصرف في ناحية نتحكم في مصائر الخلق)[٤].

بل يزعم بعض المتصوفة أن من كرامات أوليائهم أنهم يحيون الموتى.

---

(١) «مروج الذهب» للمسعودي (١/ ٣٣).

(٢) انظر: «نشأة الفكر الفلسفي» النشار (٢/ ٢٩٧).

(٣) «الحكومة الإسلامية» للخميني (٥٢).

(٤) «الفكر الصوفي» لعبد الرحمن عبد الخالق (٣٨)، وانظر: نصوص عن المتصوفة في ذلك في نفس الكتاب (ص٢٤٢، ٢٤٤، ٢٦٩، ٢٧١).

فهذا البدوي تستغيث به امرأة ليحيي ولدها الذي مات (فمد سيدي أحمد البدوي يده إليه ودعا له فأحياه الله تعالى)[١].

والبدوي يميت من يتعرض له من الأحياء كما فعل مع معارضيه في العراق، فقد قال لهم: (موتوا) فوقعوا على الأرض قتلى، ثم قال: (قوموا بإذن من يحيي ويميت الأحياء) فقاموا[٢].

ومما يدخل تحت دعوى تصرف المخلوقات بشئون الكون من دون الله - ما يدعيه أهل الجاهلية ومن تبعهم من الاعتقاد بأن الأنواء والنجوم والكواكب هي التي تنشئ السحاب وتنزل المطر من دون الله ﷻ.

ب- اعتقاد أهل السنة في ذلك، وحكم من أثبت لمخلوق تصرفًا في الكون من دون الله ﷻ.

من أصول اعتقاد أهل السنة ومما تواترت به النصوص من الكتاب والسنة الاعتقاد الجازم بأن النفع والضر، والخير والشر، والخلق والرزق والموت والحياة والتصرف في الكون وفي شئون العالم لا يكون إلا لله ﷻ، وبقضائه وقدره وأمره لملائكته أو أحد من خلقه بفعل شيء من ذلك.

قال تعالى موجهًا نبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وقال ﷻ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ۝٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١، ٢٢] وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ

(١) «الجواهر السنية» (ص٤٦)، نقلًا عن «السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة» د. أحمد صبحي منصور (٢٣٣).

(٢) نفسه، نقلًا عن «السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة» (ص٢٣٤).

ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ [يونس: ٣] الآية.

بل إن الأمر معلوم حتى لمشركي العرب، قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ [يونس: ٣١] وقال ﷻ: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩].

وقال ﷻ عن الكفار: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ [يونس: ١٠٦] وقوله سبحانه: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ وقال تعالى أيضًا: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٢] وقال ﷻ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ أي: ليس لهم قدرة على خير ولا شر، ولا على جلب نفع، ولا دفع ضر في أمر من الأمور ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ أي: ليس للآلهة الباطلة في السموات والأرض مشاركة لا بالخلق ولا بالملك ولا بالتصرف(١).

والأحاديث الشريفة في هذا المعنى كثيرة، ومنها حديث وصية الرسول ﷺ لابن عباس حيث جاء فيها: «... **واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك**

---

(١) «الدين الخالص» (٢/ ١٠، ١١) وانظر: آيات أخرى في هذا المعنى في نفس المرجع (٢/ ٥-١٦)، وفي «توحيد الخلاق» (١٤٥، ١٤٦)، و«فتح المجيد» (١٧٣- ١٧٩)، وغيرها.

بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك...» الحديث[(١)].

وجاء في دعائه ﷺ قوله: «**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»[(٢)].

فهذه كلها نصوص صريحة الدلالة في أن النفع والضر والرزق والخلق والتصرف والنصر كلها من الله ﷻ؛ فلذلك لا يجوز أن يدعى ويطلب من غيره النفع والضر أو الرزق، كما لا يجوز أن يعتقد في غيره أن له تصرفًا في الكون من خلق وغيره، فكل ذلك شرك صريح مناقض لقول القلب[(٣)].

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه الإمام أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي برقم (٢٥١٦)، وقال: حديث حسن صحيح. وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٢٧٥) في صفة الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة. ومسلم برقم (٥٩٣) في المساجد: باب استحباب الذكر بعد الصلاة. وأبو داود برقم (١٥٠٥)، والنسائي (٣/ ٧٠)، وأحمد (٤/ ٢٤٥، ٢٤٧).

(٣) «نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف» بتصرف (١/ ٣١٠).

الفصل الثاني: نواقض توحيد الربوبية القولية العملية

وهذا التوحيد يخالفه وينافيه نواقض قولية كثيرة، من أهمها:

١- الشرك في هذا التوحيد: لا ريب أن الشرك أصل كل شر وجماعه، وهو أعظم الذنوب على الإطلاق، حيث إنه الذنب الوحيد الذي نفى الله مغفرته، كما أنه يحبط الأعمال الصالحة جميعًا، ويوجب لصاحبه الخلود في النار.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار**»[١].

والشرك في الربوبية هو: أن يجعل لغير الله تعالى معه تدبيرًا ما[٢].

وله ضروب متعددة: فمنه شرك التعطيل كشرك فرعون، ومن شرك التعطيل: إنكار ربوبية الله تعالى كما وقع فيه شرذمة من الملاحدة قديمًا وحديثًا، ومن الشرك في الربوبية: القول بوحدة الوجود، وهم الذين يزعمون أن الله تعالى هو عين الخلق، تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ومن هذا الشرك شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة.

---

(١) أخرجه البخاري، ك العلم، (١/ ٢٢٧) ح (١٢٩)، وأخرجه مسلم، ك الإيمان، (١/ ٩٤) ح (١٥٢).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٧٠٣)، وانظر: «الإرشاد» للسعدي (ص٢٠٥).

ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه، وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته.

ومنه شرك من ادعى أن الكواكب العلوية تدبر أمر العالم السفلي، كما هو مذهب مشركي الصابئة[١].

٢- القول بقدم العالم:

حقيقة القول بقدم العالم ومعناها: «أن العالم لم يزل موجودًا مع الله تعالى، ومعلولًا له، ومساوقًا له، غير متأخر عنه بالزمان مساوقة المعلوم للعلة ومساوقة النور للشمس، وأن تقدم الباري كتقدم العلة على المعلول، وهو تقدم بالذات والرتبة لا بالزمان»[٢].

وإليك بعضًا من كلام أهل العلم في هذه المسألة:

يقول القاضي عياض: «وكذلك نقطع على كفر من قال بقدم العالم، أو بقائه، أو شك في ذلك على مذهب بعض الفلاسفة والدهرية»[٣].

وقال النووي[٤]: قال المتولي: من اعتقد قدم العالم، أو حدوث

---

(١) الصابئة: الصابئ - لغة - الذي يترك دينه إلى دين آخر. ويطلق على عُبَّاد الكواكب والهياكل. انظر: «الملل والنحل» (٢/ ٥- ٥٧)، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» للرازي (ص٩٠).

(٢) «تهافت الفلاسفة» للغزالي (ص٧٤)، وانظر: «الفتاوى لابن تيمية» (٨/ ٨٤).

(٣) «الشفا» (٢/ ٦٠٤- ٦٠٦)، وانظر: «الشرح الصغير» للدردير (٦/ ١٤٧)، و«حاشية الدسوقي» (٤/ ٢٦٨)، و«بلغة السالك» لأحمد الصاوي (٣/ ٤٤٧)، و«شرح منح الجليل على مختصر خليل» لعليش (٤/ ٤٦٣).

(٤) هو أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي الدمشقي الشافعي، الفقيه، والمحدث، الحافظ، اللغوي، وُلد بنوى في الشام سنة (٦٣١ هـ)، ودرس =

الصانع.. كان كافرًا[(١)].

ويقول ابن حجر الهيتمي[(٢)]: ومنها القول الذي هو كفر سواء صدر عن اعتقاد، أو عناد، أو استهزاء، فمن ذلك اعتقاد قدم العالم، أو حدوث الصانع[(٣)].

ويقول ملا علي قاري[(٤)]: فمن واظب طول عمره على الطاعات والعبادات مع اعتقاد قدم العالم - لا يكون من أهل القبلة. أو عبادة أحد غير الله، أو مع الله فهو كفر... أو ادعى له ولدًا، أو صاحبة، أو والدة، أو أنه متولد عن شيء، أو كائن منه، أو أن معه في الأزل شيئًا قديمًا غيره، أو أن ثم صانعًا للعالم سواه... أو مدبرًا غيره... فذلك كله كفر بإجماع المسلمين[(٥)].

ويقول منصور البهوتي: أو اعتقد قدم العالم أو حدوث الصانع جل وعلا

= العلوم، واشتغل بالتدريس، وله مؤلفات كثرة، تُوفي بنوى سنة (٦٧٧ هـ). انظر: «البداية والنهاية» (١٣/ ٢٧٨)، و«طبقات الشافعية» (٨/ ٣٩٥).

(١) «روضة الطالبين» (١٠/ ٦٤)، وانظر: «مغني المحتاج» للشربيني (٤/ ١٣٤).

(٢) أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي الشافعي، فقيه، وله عناية بالحديث، وُلد بمصر سنة (٩٠٩ هـ)، ودرس في الأزهر، له تصانيف كثيرة، تضمن بعضها بدعًا وشططًا، وتُوفي سنة (٩٧٤ هـ). انظر: «البدر الطالع» (١/ ١٠٩)، و«الأعلام» (١/ ٢٣٤).

(٣) «الإعلام بقواطع الإسلام» (ص٣٥٠)، وانظر: (ص٣٥١).

(٤) هو علي بن سلطان الهروي القاري الحنفي، عالم مشارك في أنواع من العلوم، وله مؤلفات كثيرة، وُلد بالعراق، ورحل إلى مكة واستقر بها حتى تُوفي سنة (١٠١٤هـ). انظر: «البدر الطالع» (١/ ٤٤٥)، و«معجم المؤلفين» (٧/ ١٠٠).

(٥) «شرح الفقه الأكبر» (ص٢٣٠) باختصار.

فهو كافر؛ لتكذيبه للكتاب والسنة والإجماع»[١].

٣- سب الله ﷻ والاستهزاء به.

إن الإيمان بالله تعالى مبني على التعظيم والإجلال للرب ﷻ، ولا شك أن سب الله تعالى والاستهزاء به يناقض هذا التعظيم ولا يجامعه.

قال الضحاك[٢] عند قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم، آية ٩٠] يتشققن من عظمة الله ﷻ[٣].

ومما قاله ابن القيم عن منزلة التعظيم: «هذه المنزلة تابعة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيمًا وإجلالًا، وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته، ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]. قال ابن عباس ومجاهد: لا ترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته.

وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت، فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم، فذلك حقيقة الحمد، والله أعلم»[٤].

---

(١) «كشاف القناع عن متن الإقناع» (٦/ ١٧١)، وانظر: «مطالب أُولي النُّهي في شرح غاية المنتهى» (٦/ ٢٨١).

(٢) أبو محمد الضحاك بن مزاحم الهلالي، صاحب التفسير، ومن أوعية العلم، وثقه أحمد ويحيى بن معين، تُوفي سنة (١٠٢هـ). انظر: «البداية والنهاية» (٩/ ٢٢٣)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٩٨).

(٣) «العظمة» لأبي الشيخ (١/ ٣٤١).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٩٥).

ولا ريب أن سب الله ﷻ يُعَد أقبح وأشنع أنواع المكفرات القولية التي تناقض الإيمان، وذلك من عدة أوجه واعتبارات، منها ما يلي:

(أ) أن سب الله ﷻ يناقض الإيمان، فالسب أذى قولي يناقض قول القلب (التصديق)، وعمله من محبة الله وإجلاله وتعظيمه، كما أنه يناقض الإيمان الظاهر باللسان؛ لأن الإيمان يتضمن تصديقًا لله ﷻ وانقيادًا وخضوعًا له تعالى، وأما السب فكما يقول ابن تيمية: " فهو إهانة واستخفاف، والانقياد للأمر إكرام وإعزاز، ومحال أن يهين القلب من قد انقاد له وخضع، واستسلم، أو يستخف به، فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة، امتنع أن يكون فيه انقياد أو استسلام، فلا يكون فيه إيمان، وهذا بعينه كفر إبليس، فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولًا، ولكن لم ينقد للأمر[(١)] .

ويقول ابن تيمية: إن التصديق بالقلب يمنع إرادة التكلم وإرادة فعل فيه استهانة واستخفاف، كما أنه يوجب المحبة والتعظيم، واقتضاؤه وجود هذا وعدم هذا أمر جرت به سنن الله في مخلوقاته، كاقتضاء إدراك الموافق للذة وإدراك المخالف للألم، فإذا عُدم المعلول كان مستلزمًا لعدم العلة، وإذا وُجد الضد كان مستلزمًا لعدم الضد الآخر، فالكلام والفعل المتضمن للاستخفاف والاستهانة مستلزم لعدم التصديق النافع، ولعدم الانقياد والاستسلام؛ فلذلك كان كفرًا[(٢)] .

(ب) أن الله تعالى قال: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ

(١) «الصارم المسلول» (ص٥١٩).

(٢) «الصارم المسلول» (ص٥٢٤).

كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [التوبة: ٦٤- ٦٦].

قد أجمع العلماء على كفر من سب الله تعالى، وإليك أقوالهم في هذه المسألة:

قال إسحاق بن راهويه: «قد أجمع العلماء على أن من سب الله ﷻ، أو سب رسوله ﷺ، أو دفع شيئًا أنزله الله، أو قتل نبيًّا من أنبياء الله، وهو مع ذلك مُقر بما أنزل الله - أنه كافر»(١).

وقال القاضي عياض: «لا خلاف أن ساب الله تعالى من المسلمين كافر حلال الدم»(٢).

وقال ابن تيمية: «فصل فيمن سب الله تعالى، فإن كان مسلمًا وجب قتله بالإجماع؛ لأنه بذلك كافر مرتد، وأسوأ من الكافر، فإن الكافر يعظم الرب، ويعتقد أن ما هو عليه من الدين الباطل ليس باستهزاء بالله ولا مسبة له»(٣).

وقال ابن حزم: «وأما سب الله تعالى، فما على ظهر الأرض مسلم يخالف أنه كفر مجرد... وهو محكوم عليه بنفس قوله، لا بمغيب ضميره الذي لا يعلمه إلا الله تعالى»(٤).

ويقول في الرد على المخالفين: «وأما قولهم: «إن شتم الله تعالى ليس كفرًا وكذلك شتم رسول الله ﷺ»، فهو دعوى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]»(٥).

---

(١) «التمهيد» لابن عبد البر (٤/ ٢٢٦).

(٢) «الشفا» (٢/ ٥٨٢).

(٣) «الصارم المسلول» (ص٥٤٦).

(٤) «المحلى» (١٣/ ٤٩٨)، وانظر: (١٣/ ٥٠١، ٥٠٢).

(٥) «الفصل» (٣/ ٢٤٤).

وقال أحمد في رواية عبد الله في رجل قال لرجل: يا ابن كذا وكذا – أعني: أنت ومَن خلقك –: هذا مرتد عن الإسلام تُضرب عنقه[(١)].

وفي رواية أخرى قال الإمام أحمد: «كل من ذكر شيئًا يُعَرِّض به بذكر الرب تبارك وتعالى، فعليه القتل مسلمًا كان أو كافرًا، وهذا مذهب أهل المدينة»[(٢)].

وسئل أبو محمد بن أبي زيد[(٣)] عن رجل لعن رجلًا ولعن الله، فقال: إنما أردت أن ألعن الشيطان فزل لساني. فأجاب: يُقتل بظاهر كفره ولا يُقبل عذره، وأما فيما بينه وبين الله فمعذور[(٤)].

وقال ابن قدامة: «من سب الله تعالى كفر، سواء كان مازحًا أو جادًّا»[(٥)].

وقال البهوتي: «من سب الله.. كفر، لأنه لا يسبه إلا وهو جاحد»[(٦)(٧)].

---

(١) «المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة» (٢/ ٩٣)، وانظر: «الصارم المسلول» (ص٥١٣).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٩٣)، وانظر: «أحكام أهل الذمة» لابن القيم (٢/ ٧٩٧)، وانظر: «الصارم المسلول» (ص٥١٣).

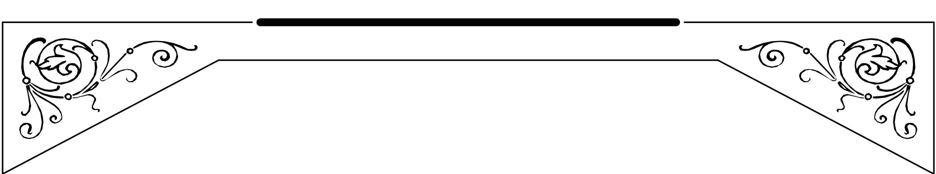
(٣) عبد الله بن أبي زيد القيرواني المالكي، إمام قدوة حافظ واشتغل بالتأليف، وكان على طريقة السلف، تُوفي سنة (٣٨٦ هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ١٠)، و«الديباج المذهب» (١/ ٤٢٧).

(٤) «المعيار المعرب» للونشريسي (٢/ ٣٤٥)، وانظر: «الشفا» (٢/ ١٠٩٢).

(٥) «المغني» (١٠/ ١١٣).

(٦) «كشاف القناع» (٦/ ١٦٨)، وانظر: «المبدع شرح المقنع» (٩/ ١٧١)، و«مطالب أُولي النُّهي» (٦/ ٢٧٦).

(٧) «نواقض الإيمان القولية» بتصرف (ص: ١٠٥).



المبحث التاسع: الفِرَق التي ضلت في توحيد الربوبية

لم ينكر توحيد الربوبية أحد من البشر سواء على المستوي الفردي أو على مستوي الفِرق والجماعات إلا طائفة من الشذاذ، المكابرين، المعاندين، المنكرين لما هو متقرر في فِطرهم؛ فإنكارهم إنما كان بألسنتهم مع اعترافهم بذلك في قرارة أنفسهم.

ومن هؤلاء:

١- المجوس: «الأصلية» قالوا بالأصلين: النور والظلمة، وقالوا: إن النور أزليٌّ، والظلمة محدثة.

٢- الثنوية: «أصحاب الاثنين الأزليين»: يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس الذين قالوا بحدوث الظلام، لكن قالوا باختلافهما في الجوهر، والطبع، والفعل، والخبر، والمكان، والأجناس، والأبدان، والأرواح، ولم يقولوا بتماثلهما في الصفات والأفعال كما ترى وإن قالوا بتساويهما في القدم.

٣- المانوية: «أصحاب ماني بن فاتك»: قالوا: إن العَالَمَ مصنوع من أصلين قديمين. ولكن قالوا باختلافهما في النفس، والصورة، والفعل، والتدبير.

٤- النصارى: «القائلون بالتثليث»: فالنصارى لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضها عن بعض، بل هم متفقون على أنه صانع واحد يقولون: باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد، ويقولون: واحد بالذات ثلاثة بالأُقنوم.

أما الأقانيم فإنهم عجزوا عن تفسيرها.

وقولهم هذا متناقض أيما تناقض وتصوره كافٍ في رده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا قال طائفة من العقلاء: إن عامة مقالات الناس يمكن تصورُها إلا مقالة النصارى؛ وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا، بل تكلموا بجهل، وجمعوا في كلامهم بين النقيضين؛ ولهذا قال بعضهم: لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا عن أحدَ عشرَ قولًا. وقال آخر: لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولًا، وامرأته قولًا آخر، وابنه قولًا ثالثًا»[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في معرض رده عليهم:** «أما خبر ما عندكم أنتم فلا نعلم أمةً أشدَّ اختلافًا في معبودها منكم؛ فلو سألت الرجل، وامرأته، وابنته، وأمه، وأباه، عن دينهم لأجابك كلٌّ منهم بغير جواب الآخر»[(٢)].

بل قيل فيهم: «لو توجهت إلى أي نصراني على وجه الأرض، وطلبت منه أن يصور لك حقيقة دينه، وما يعتقده في طبيعة المسيح تصويرًا دقيقًا. لما استطاع ذلك».

هذا وقد بيَّن الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) ما عندهم من التناقض، وكذلك الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (محاضرات في النصرانية).

٥- القدرية: هم في الحقيقة مشركون في الربوبية، وهذا لازم لمذهبهم؛ لأنهم يرون أن الإنسان خالقٌ لفعله، فهم أثبتوا لكل أحد من الناس خَلْقَ

---

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» ط. الفضيل (٤/ ٢١٢).

(٢) «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» (ص٣٢١).

فعله. والخلق إنما هو مما اختص الله به، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]. وأفعال العباد لا يخرجها شيء من عموم خلقه ﷻ.

٦- **الفلاسفة الدهرية:** في قولهم في حركة الأفلاك بأنها تسعة، وأن التاسع منها وهو الأطلس يحرك الأفلاك كلها، فجعلوه مبدأ الحوادث، وزعموا أن الله يُحْدث ما يقدره في الأرض.

٧- **عبدة الأصنام من مشركي العرب وغيرهم:** ممن كانوا يعتقدون أن الأصنام تضر وتنفع، فيتقربون إليها، وينذرون لها، ويتبركون بها.

٨- **غلاة الصوفية:** لغلوهم في الأولياء، وزعمِهم أنهم يضرون، وينفعون، ويتصرفون في الأكوان، ويعلمون الغيب، ولقولهم بوحدة الوجود، وربوبيةِ كلِّ شيءٍ.

٩- **الروافض:** لقولهم بأن الدنيا والآخرة للإمام، يتصرف بها كيف يشاء، وأن تراب الحسين شفاءٌ من كل داء، وأمانٌ من كل خوف، ولقولهم: إن أئمتهم يعلمون الغيب، ويعلمون متى يموتون، ولا يموتون إلا بإذنهم.

وهذا باطل، وبطلانه لا يحتاج إلى دليل، بل إن فساده يغني عن إفساده.

١٠- **النصيرية:** لقولهم بألوهية علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبأنه المتصرف بالكون؛ لوصفهم إياه بأوصاف لا يجوز أن يوصف بها أحد إلا الله ﷻ مع اختلاف أقوالهم في هذا؛ فبعضهم يقول: إنه يسكن في الشمس ويُسَمَّون بـ: الشمسية. وبعضهم يقولون: إنه يسكن في القمر، ويُسَمَّون بـ: القمرية. وبعضهم يقولون: إنه يسكن في السحاب؛ ولذا إذا رأوا السحاب قالوا: السلام عليك يا أمير النحل.

١١- **الدروز:** لقولهم بألوهية الحاكم بأمر الله العبيدي، وغلوهم فيه، ووصفِه بأوصاف لا تليق إلا بالله وحده، كقولهم عنه: «إنه يعلم خائنة

الأعين وما تخفي الصدور».

١٢- من يعتقدون تأثير النجوم والكواكب والأسماء: وذلك كحال الذين يتتبعون الأبراج ويقولون - رجمًا بالغيب - إذا وُلد فلان في البرج الفلاني أو الشهر الفلاني أو اليوم الفلاني، أو كان اسمه يبدأ بحرف كذا أو كذا - فسيصيبه كذا وكذا. ويضعون عليها دعاياتٍ تقول: (مِنْ شهر ميلادك تعرف حظك) أو (من اسمك تعرف حظك).

كل ذلك شرك في الربوبية؛ لأنه ادعاءٌ لعلم الغيبِ، والغيبُ لا يعلمه إلا الله وحده لا شريك له.

١٣- القانونيون: الذين يَصدون ويصدفون عن شرع الله، والذين يحكمون الناس بالقوانين الوضعية، التي هي من نحاتة أفكارهم، وزبالة أذهانهم.

فهؤلاء محاربون لله، منازعون له في ربوبيته وحكمه وشرعه(١).

١٤- الشيوعيون الذين يزعمون أن لا إله والحياة مادة وأن الطبيعة هي التي أوجدت نفسها بنفسها(٢).

١٥- ومنهم كذلك النمرود بن كنعان الذي قال لإبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فقال إبراهيم بعد هذا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وهذا ممن أنكر توحيد الربوبية(٣).

١٦- وكذا فرعون لما قال لموسى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

---

(١) «أنواع التوحيد الثلاثة» (ص: ٧).

(٢) «اللآلئ البهية في شرح العقيدة الواسطية» للسعيدان (ص: ١١٢).

(٣) «شرح لامية ابن تيمية» (٩/ ١٢، بترقيم الشاملة آليًّا).

ففرعون أثبت لنفسه الربوبية والألوهية، فقد قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. وقال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣][(١)].

وفي هذا يقول ابن أبي العز شارح الطحاوية وَلَمْ يُعْرَفْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الطَّوَائِفِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَمَاثِلَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، فَإِنَّ الثَّنَوِيَّةَ مِنَ الْمَجُوسِ، وَالْمَانَوِيَّةَ الْقَائِلِينَ بِالْأَصْلَيْنِ: النُّورِ وَالظُّلْمَةِ، وَأَنَّ الْعَالَمَ صَدَرَ عَنْهُمَا - مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ النُّورَ خَيْرٌ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَهُوَ الْإِلَهُ الْمَحْمُودُ، وَأَنَّ الظُّلْمَةَ شِرِّيرَةٌ مَذْمُومَةٌ، وَهُمْ مُتَنَازِعُونَ فِي الظُّلْمَةِ، هَلْ هِيَ قَدِيمَةٌ أَوْ مُحْدَثَةٌ؟ فَلَمْ يُثْبِتُوا رَبَّيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ.

وَأَمَّا النَّصَارَى الْقَائِلُونَ بِالتَّثْلِيثِ، فَإِنَّهَمْ لَمْ يُثْبِتُوا لِلْعَالَمِ ثَلَاثَةَ أَرْبَابٍ يَنْفَصِلُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، بَلْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ صَانِعَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ، وَيَقُولُونَ: بِاسْمِ الْأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ إِلَهٌ وَاحِدٌ.

وَقَوْلُهُمْ فِي التَّثْلِيثِ مُتَنَاقِضٌ فِي نَفْسِهِ، وَقَوْلُهُمْ فِي الْحُلُولِ أَفْسَدُ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا كَانُوا مُضْطَرِبِينَ فِي فَهْمِهِ، وَفِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ، لَا يَكَادُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يُعَبِّرُ عَنْهُ بِمَعْنًى مَعْقُولٍ، وَلَا يَكَادُ اثْنَانِ يَتَّفِقَانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: هُوَ وَاحِدٌ بِالذَّاتِ، ثَلَاثَةٌ بِالْأُقْنُومِ! وَالْأَقَانِيمُ يُفَسِّرُونَهَا تَارَةً بِالْخَوَاصِّ، وَتَارَةً بِالصِّفَاتِ، وَتَارَةً بِالْأَشْخَاصِ. وَقَدْ فَطَرَ اللَّهُ الْعِبَادَ عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ بَعْدَ التَّصَوُّرِ التَّامِّ. وَفِي الْجُمْلَةِ فَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِإِثْبَاتِ خَالِقَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهُ لَيْسَ فِي الطَّوَائِفِ مَنْ يُثْبِتُ لِلْعَالَمِ صَانِعَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ وَالْفَلْسَفَةِ تَعِبُوا فِي إِثْبَاتِ هَذَا الْمَطْلُوبِ وَتَقْرِيرِهِ. وَمِنْهُمْ مَنِ اعْتَرَفَ بِالْعَجْزِ عَنْ تَقْرِيرِ هَذَا بِالْعَقْلِ، وَزَعَمَ أَنَّهُ يُتَلَقَّى

---

(١) «شرح صحيح مسلم» لأبي الأشبال (١٦/٧٨، بترقيم الشاملة آليًّا).

مِنَ السَّمْعِ.

وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ أَهْلِ النَّظَرِ إِثْبَاتُهُ بِدَلِيلِ التَّمَانُعِ، وَهُوَ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ فَعِنْدَ اخْتِلَافِهِمَا - مِثْلَ أَنْ يُرِيدَ أَحَدُهُمَا تَحْرِيكَ جِسْمٍ وَآخَرُ تَسْكِينَهُ، أَوْ يُرِيدُ أَحَدُهُمَا إِحْيَاءَهُ وَالْآخَرُ إِمَاتَتَهُ - فَإِمَّا أَنْ يَحْصُلَ مُرَادُهُمَا، أَوْ مُرَادُ أَحَدِهِمَا، أَوْ لَا يَحْصُلُ مُرَادُ وَاحِدٍ مِنْهُمَا. وَالْأَوَّلُ مُمْتَنِعٌ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ الْجَمْعَ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ، وَالثَّالِثُ مُمْتَنِعٌ؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ خُلُوُّ الْجِسْمِ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ، وَهُوَ مُمْتَنِعٌ، وَيَسْتَلْزِمُ أَيْضًا عَجْزَ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَالْعَاجِزُ لَا يَكُونُ إِلَهًا. وَاذَا حَصَلَ مُرَادُ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ، كَانَ هَذَا هُوَ الْإِلَهَ الْقَادِرَ، وَالْآخَرُ عَاجِزًا لَا يَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ، وَتَمَامُ الْكَلَامِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ مَعْرُوفٌ فِي مَوْضِعِهِ[1].



(١) «شرح الطحاوية» ت الأرناؤوط (١/ ٢٨).



المبحث العاشر: نقد منهج المتكلمين في إثبات توحيد الربوبية

وبه أربعة فصول:

الفصل الأول: بدعية طريقة المتكلمين في الاستدلال على وجود الخالق ﷻ وذم العلماء لها

ينقسم المتكلمون إلى طوائف عديدة ومذاهب متباينة، ولكل طائفة آراؤها الخاصة بها.

وليس غرضي في هذا الفصل هو عرض آراء المتكلمين في مختلف المسائل والرد عليها، وإنما غرضي هو تناول موضوع مشترك بين المتكلمين جميعًا، ألا وهو استدلالهم على وجود الله بحدوث الأعراض.

ورأيت أن أعرض أهم طريقة للمتكلمين في الاستدلال على وجود الله والتي تتلخص فيما يلي بدون تفصيل:

١- جعل المتكلمون هدفهم الأول هو إثبات توحيد الربوبية معتمدين في ذلك على دليل التمانع.

٢- تقديمهم العقل على الشرع وجنوحهم إلى التأويل وإيجابهم النظر.

٣- طريقتهم متعبة طويلة لاعتمادها على الجدل والاستدلالات المنطقية الجافة.

٤- بُعْد طريقتهم عن التوحيد الحقيقي المبعوث به الرسل.

٥- طريقتهم غير عملية ولا تُدخل الناس في دين الله؛ لعدم مناسبتها لجميع الناس، ولاعتمادها على ألفاظ مستوردة من الأمم الأخرى.

٦- طريقتهم نهايتها الشك والحيرة وندم أصحابها لسلوكها، وقد ذمها السلف الصالح.

فطريقة المتكلمين تؤدي للشك والحيرة لأنها مخالفة للفطرة الإنسانية ولطريقة القرآن الكريم والرسل أجمعين، وقد ذم السلف الصالح هذه الطريقة لكنهم لم يذموا جنس الكلام والاستدلال والنظر الذي أمر الله به رسوله ﷺ والمؤمنين، بل ذموا الكلام الباطل المخالف للكتاب والسنة.

وقد خفي بطلان هذه الطريقة على كثير من سالكيها حتى اعتقدوا أنها طريقة موافقة للشرع والعقل، وأن عيبها أنها طويلة متعبة خطرة فقط لكنها صحيحة في نفسها، فلما انتهت بهم إلى الشك والحيرة علموا بطلانها شرعًا وعقلًا، فعضوا أصابع الندم مصرحين بأنها لم تشفِ داءهم ولم تُذهب حيرتهم، ولم يشك أحد منهم أن مثل ذلك حصل لغيره من سالكيها[١].

وقد صرح ابن واصل الحموي بشكّه عندما قال: «أستلقي على قفاي وأضع المِلْحَفَةَ على نصف وجهي، ثم أذكر المقالات وحجج هؤلاء وهؤلاء واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي شيء»[٢].

وكان أبو المعالي الجويني يقول: لقد جُلْتُ أهلَ الإسلام جولة وعلومهم وركبت البحر الأعظم وغصت في الذي نهوا عنه، كل ذلك في طلب الحق وهربًا من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، عليكم بدين

---

(١) انظر: «الفتاوى» (٣/ ٤٧)، و«تلبيس الجهمية» (١/ ١٣٢)، و«النبوات» (ص٤١)، و(ص٣٠٤-٣٠٧).

(٢) انظر: «الفتاوى» (٤/ ٢٠٩).

العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بره فأموت على دين العجائز ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص؛ فالويل لابن الجويني»(١).

وهذا الشَّهْرستاني ينشد:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيّرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعًا كف حائر على ذقن أو قارعًا سن نادم

ويقول ابن أبي الحديد المعتزلي:

فيك يا أغلوطة الفكر حار أمري وانقضى عمري
سافَرْت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر
فلحى الله الأولى زعموا أنك المعروف بالنظر

وهذا أبو عبد الله الرازي يصرح بأن علم الذات عليه عقدة وهي: هل الوجود هو الماهية أو زائد عليها؟ وعلم الصفات عليه عقدة وهي: هل الصفات زائدة على الذات أم لا؟ وعلم الأفعال عليه عقدة وهي: هل الفعل مقارن للذات أو متأخر عنها؟ واعترف أن أحدًا لم يصل إلى هذا الباب ولم يذق من هذا الشراب وأنشد:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذًى ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم قال: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تَروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ

---

(١) «تلبيس إبليس» (ص٨٢).

﴿ٱلصَّـٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥] ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[(١)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا تجد أبا حامد مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف -ينتهي في هذه المسائل إلى الوقف ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث ومات وهو يشتغل في صحيح البخاري»[(٢)].

وأما السلف الصالح فأنكروا صحة هذه الطريقة في نفسها وعابوها لاشتمالها على كلام باطل، فذموا علم الكلام والمتكلمين، كقولهم: «مَن طلب الدين بالكلام تزندق»، وقول الشافعي: «لأن يُبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك - خير له من أن ينظر في الكلام»، وقول الإمام أحمد: «لا يفلح صاحب كلام أبدًا، علماء الكلام زنادقة»، وقول أبي الوفاء بن عقيل لبعض أصحابه: «أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعَرَض، فإن رضيتَ أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيتَ أن طريقة المتكلمين أَوْلى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت»[(٣)(٤)].

---

(١) انظر: «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول» (١/ ٩٣).

(٢) «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول» (١/ ٩٣)، وانظر: (ص٢٣-٢٤)، و(ص٩٧، ١٤٠)، و«النبوات» (ص٥٢).

(٣) انظر: هذه الأقوال في «الفتاوى» (٦/ ٢٤٣)، و«إعلام الموقعين» (٤/ ٢٤٨)، و«تلبيس إبليس» (ص٨٢).

(٤) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» بتصرف (ص:٣٠٨).

الفصل الثاني: بدعية طريقة الفلاسفة في الاستدلال على وجود الخالق ﷻ

الفلسفة اليونانية وما تفرع عنها عمل بشري ناقص، لا يؤمَن على متبعه الضلال.

وليس هدفي في هذا الفصل تتبع مسائل الفلسفة والرد عليها؛ لأن ذلك يستغرق بحثًا كاملًا، في مختلف المسائل والرد عليها، وإنما هدفي هو عرض استدلالهم على وجود الله بحدوث الأعراض.

ورأيت أن أعرض أهم طرقهم في الاستدلال على وجود الله والتي تتلخص فيما يلي بدون تفصيل:

أولًا: يتبع الفلاسفة في الاستدلال على واجب الوجود طريقة الإمكان والوجوب، فيقولون: إن كل ما كان ممكن الوجود والعدم لم يوجد منذ الأزل؛ لأنه يُعلم بالضرورة أن حالة الإمكان المحض -أي العدم- سابقة على مرحلة الوجود الفعلي لهذا الممكن، فلما كان كل موجود نراه ممكنًا، فقد وجب أن تكون حالة العدم والإمكان المحض سابقة لجميع الموجودات؛ وعليه فإن الممكن لا يوجد كائنًا غيره علويًّا أو سفليًّا، ولما كانت حالة العدم وإمكان الوجود السابق لجميع الموجودات فقد وجب أن يكون موجودًا سابقًا لحالة العدم هذه، ووجوده واجب وهو الإله.

وبعضهم يقول: إننا إذا نظرنا إلى الموجودات من حولنا فإننا نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن، وأشياء تنعدم بعد وجودها، وهذه الأشياء لا تخرج عن كونها مستحيلة الوجود أو ممكنة أو واجبة، والقول باستحالتها باطل لأنها موجودة، ووجوب وجودها باطل كذلك لأن الواجب لا يعدم، فبقي

أنها ممكنة الوجود، والممكن محتاج إلى سبب لوجوده، وهذا السبب لن يكون عين الشيء الممكن ولا جزأه؛ لاستلزام تقدم الشيء على نفسه، فوجب أن يكون هناك سبب وراء الممكنات كلها وهو واجب بنفسه يمنح الممكنات وجودها، وهذا الواجب الوجود هو: الله.

وبعض الفلاسفة يسلك للتدليل على واجب الوجود طريقًا آخر فيقول: كل ممكن فهو معلول قطعًا، والمعلول لا بد له من علة أُولى لا يتطرق إليها الإمكان ويجب وجودها بنفسها، وهذه العلة الأولى هي: الإله(١).

ونلاحظ أن كل هذ الاستدلالات على وجود الله عند الفلاسفة مرجعها إلى الإمكان والوجوب وملخصها: أن الموجود إما أن يكون واجبًا أو ممكنًا، والممكن محتاج إلى مؤثر واجب وإلا لزم الدور والتسلسل، فثبت أن الممكن وجوده بغيره، والواجب وجوده بذاته وهو السبب الأول لجميع الممكنات الموجودة والعلة الأولى لكل المعلولات.

ويجب أن نلاحظ هنا أن الفلاسفة إذا قالوا بإمكان الموجودات - والعالم كله ممكن الوجود - فإنما يعنون أن لهذا العالم مادة قديمة أزلية وجودها متقدم على وجود العالم وهي ما يسمونها الهيولي، هذه الهيولي معلولة عن العلة الأولى بشكل حدوث ذاتي، وهي تتحرك للتشبه بهذه العلة، فالعلة أولى لغيرها وهي آمرة للفلك بالتحرك للتشبه بها كما يتحرك العاشق نحو المعشوق، وحدوثه عنها حدوث ذاتي لا حدوث زماني.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمعنى الثالث الذي أحدثه الملاحدة كابن سينا وأمثاله قالوا: نقول: العالَم محدَث أي معلوم لعلة قديمة أزلية

(١) انظر: «رسالة التوحيد» لمحمد عبده (ص١٨-٢١)، و«نظرية التكليف» د. عبد الكريم عثمان (ص١٥٦).

أوجبته فلم يزل معها. وسموا هذا الحدوث الذاتي وغيره الحدوث الزماني، والتعبير بلفظ الحدوث عن هذا المعنى لا يُعرف عن أحد من أهل اللغات لا العرب ولا غيرهم إلا من هؤلاء الذين ابتدعوا لهذا اللفظ هذا المعنى، والقول بأن العالم محدث بهذا المعنى فقط ليس في قول أحد من الأنبياء ولا أتباعهم ولا أمة من الأمم العظيمة..»(١).

ثانيًا: ذكر مثالبهم في هذه الطريقة وهي:

أ- جواز أن يكون الممكن قديمًا على طريقتهم. لقولهم بقدم مادة العالم عليه، وبزعمهم أن الفلك واجب بنفسه وأن حركته إنما هي للتشبه بعلته الغائية، معتبرين أن الله سبب وعلة أولى لغيره والعلة مماثلة للمعلول، وبالتالي أدى بهم قولهم هذا للقول بقدم العالم وأزليته.

ومن هذه النقطة انبثقت معظم آرائهم التي كفّرهم بها أهل السنة.

ب- طريقتهم لا تفيد علمًا ولا عملًا.

جـ- طريقتهم تناقض التوحيد.

د- طريقتهم غير عملية وليس لها رسالة في الأرض.

هـ- طريقتهم التبس فيها الحق بالباطل(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول» (١/ ٧٢)، وانظر: (ص٦٩-٧٠)، وانظر: «تاريخ الفلسفة العربية» د. جميل صليبا (ص٢٢٣).

(٢) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» بتصرف (ص: ٣٢٠).

الفصل الثالث: مميزات طريقة القرآن الكريم في الاستدلال على وجود الخالق ﷻ

أعترف بالعجز والتقصير في بحثي لمميزات طريقة القرآن الكريم؛ لأن القرآن الكريم كلام الله، وفيه من نواحي الإعجاز وأساليب المخاطبة والدعوة لتوحيد الله والرد على المشركين - ما يكون مثلي عاجزًا عن الخوض في هذا البحث وإيفائه حقه، وخاصة أن الكتابة فيه قليلة جدًّا.

وعملي في هذا الفصل هو الإشارة إلى سمات بارزة في طريقة القرآن الكريم وهو يخاطب المشركين وسائر أصناف الكفرة لردهم عن كفرهم ودعوتهم إلى التوحيد.

وقد ظهر لنا فيما سبق أن القرآن الكريم في عرض أدلته على الوحدانية نهج منهجًا واضحًا مميزًا قريبًا لأفهام السامعين، مبتعدًا عن المسالك الخفية معتمدًا على توجيه نظر الإنسان إلى الكون بما فيه مشيرًا لدليلي الخلق والعناية، وعلى ضرب الأمثال المختلفة لبيان نور التوحيد وظلمة الشرك، وعلى القصص القرآنية لبيان نصر الله للموحدين وتدميره للكافرين، وعلى التذكير بنعم الله التي تستوجب إفراد المنعم بالوحدانية والعبادة، وعلى الأدلة العقلية التي تأخذ بالألباب.

هذه الطريقة القرآنية في تقرير عقيدة التوحيد لها مميزات يتلخص بعضها فيما يلي:

١- ضم الأدلة لبعضها البعض والاستدلال بها جماعيًّا.

٢- الرد على جميع المخالفين.

٣- مناسبتها لجميع فئات الناس.

٤- ملاءمتها للفطرة وخلوها من التعقيد.

٥- أنها طريقة عملية لا تكتفي بمجرد النظريات والتقريرات.

٦- تنفي الشكوك والشبهات لإتيانها بمعانٍ صحيحة ثابتة.

٧- أنها أصل كل الطرق الصحيحة.

وقد سبق توضيح لكل ذلك، والحمد لله رب العالمين[١].

الفصل الرابع: المتكلمون يعتنون بتقرير الربوبية، ويسكتون عن تقرير الألوهية

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك: وطائفة ظنوا أن التوحيد ليس إلا الإقرار بتوحيد الربوبية، وأن الله خلق كل شيء، وهو الذي يسمونه توحيد الأفعال[٢].

ومن أهل الكلام: من أطال نظره في تقرير هذا التوحيد، إما بدليل أن الاشتراك يوجب نقص القدرة وفوات الكمال، وبأن استقلال كل من الفاعلين بالمفعول محال، وإما بغير ذلك من الدلائل، ويظن أنه بذلك قرر الوحدانية وأثبت أنه لا إله إلا هو، وأن الإلهية هي: القدرة على الاختراع أو نحو ذلك، فإذا ثبت أنه لا يقدر على الاختراع إلا الله، وأنه لا شريك له في الخلق، كان هذا معنى قولنا: لا إله إلا الله. ولم يعلم أن مشركي العرب كانوا مقرين بهذا التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» بتصرف (ص: ٣٢٠).

(٢) وهم طوائف من الفلاسفة وأهل التصوف وعامة المتكلمين. انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ٩٧، ٩٨).

وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥] الآيات، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

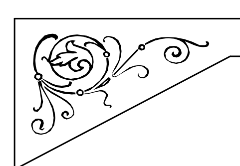
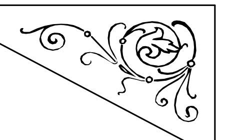
قال ابن عباس وغيره: «تسألهم: من خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: (الله)، وهم مع ذلك يعبدون غيره»[(١)].

وهذا التوحيد هو من التوحيد الواجب، لكن لا يحصل به الواجب، ولا يخلص بمجرده عن الإشراك الذي هو أكبر الكبائر، الذي لا يغفره الله، بل لا بد أن يخلص لله الدين فلا يُعبد إلا إياه فيكون دينه كله لله.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٣/ ٥٠، ٥١).

المطلب الثالث: توحيد الألوهية

وبه أربعة عشر مبحثًا:

المبحث الأول: تعريف توحيد الألوهية

وبه فصلان:

الفصل الأول: تعريف توحيد الألوهية لغة

التوحيد في اللغة: مصدر وَحَّد يوحد توحيدًا[١].

قال الجوهري: الوحدة: الانفراد[٢].

والواحد هو: الشيء الذي لا جزء له ألبتة[٣].

والإله في اللغة: على وزن فِعال بمعنى (مفعول) لأنه مالوه، أي: معبود[٤]. والإلاهة والألوهة والألوهية العبادة[٥].

(١) «الدر النضيد على أبواب التوحيد» (ص٨).

(٢) «الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية» (٢/ ٥٤٨) مادة: وحد.

(٣) «المفردات في غريب القرآن» (ص٥١٤) مادة: «وحدة».

(٤) «الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية» (٦/ ٢٢٢٣) مادة «أله»، بتصرف يسير.

(٥) «لسان العرب» (١/ ١١٥ مادة «أله».

والله: معناه الذي يستحق أن يُعبد وحده دون سواه[(١)].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين[(٢)].

وعنه رضي الله عنهما أنه قرأ: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] قال: عبادتك[(٣)].

وقال رضي الله عنهما: «والله» معناه الخلق يألهون إليه، أي يألهون ويتألهون إليه، أي يتضرعون إليه عند الحوائج ونزول الشدائد[(٤)].

الفصل الثاني: تعريف توحيد الألوهية شرعًا

هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق بها ذاتًا وصفات وأفعالًا[(٥)]. والتأله له والخضوع والذل والحب والافتقار والتوجه إليه تعالى[(٦)].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٨٩).

(٢) «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، الموسومة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» (١/ ١٢) تأليف أحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشاويش- نشر المكتب الإسلامي بيروت- دمشق- (ط/ ٣) (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٣٥).

(٤) «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» (ص٢) لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي الشافعي صاحب «القاموس» - نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي (ط/ ٢) (١٣٧٠هـ-١٩٥١م) باختصار يسير.

(٥) انظر: «الأصول الثلاثة وأدلتها» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (ص٥).

(٦) «لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في شرح عقيدة الفرقة المرضية» (١١٢٩)، وانظر: «لوائح الأنوار السنية ولواقح الأفكار =

ونفي العبادة عن كل ما سواه تعالى كائنًا من كان[(١)][(٢)].

فإن توحيد الألوهية هو إفراد الله بجميع أنواع العبادة.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا هو، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله»[(٣)].

ويقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب، الذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحب إلا له»[(٤)].

وقيل في تعريفه أيضًا: «هو إفراده تعالى بالعبادة، والتأله له، والخضوع، والذل، والحب، والافتقار، والتوجه إليه - تعالى -»[(٥)].

= السنية شرح قصيدة ابن أبي داود الحائية في عقيدة أهل الآثار السلفية» (١/ ٢٥٧) للإمام العلامة السفاريني الحنبلي، دراسة وتحقيق عبد الله بن محمد البصيري- نشر مكتبة الرشد، الرياض- (ط/ ١) (١٤١٥هـ-١٩٩٤م).

(١) «أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة المنصورة» (ص١٩) للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ- نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية- (ط/ ٣) (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م) بتصرف يسير.

(٢) «احتساب الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ» (ص: ٢٣١).

(٣) «درء التعارض» (١/ ٢٢٤).

(٤) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٢).

(٥) «لوامع الأنوار البهية» (١/ ١٢٩)، وانظر: «لوائح الأنوار السنية» (١/ ٢٥٧)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ٢٩)، و«بصائر ذوي التمييز» (٥/ ١٧٢)، «تيسير العزيز الحميد» (ص٣٦)، و«فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ٨٠).

وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وسُمي توحيدًا فعليًّا لأنه متضمن لأفعال القلوب والجوارح، فهو توحيد الله بأفعال العبيد»[1][2].

فيكون تحقيق هذا التوحيد بإفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، والبراءة من كل معبود سواه، ومن كل وسيلة قد تؤدي إلى عبادة ذلك الغير[3].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[4].

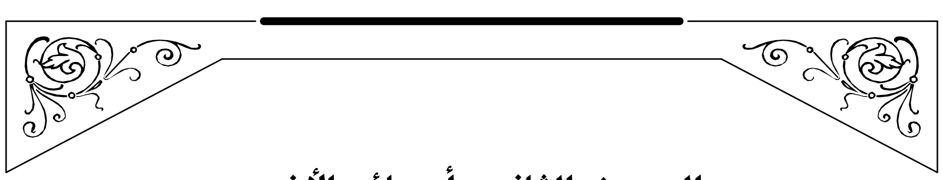


(١) «الحق الواضح المبين» ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ ابن سعدي (٣/ ٢١٢).

(٢) «الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية» (ص: ٢٥).

(٣) انظر: «دلائل التوحيد» (ص٨٥).

(٤) «مجلة البحوث الإسلامية» (٧٦/ ١٠٤).



المبحث الثاني: أسماؤه الأخرى

لتوحيد الألوهية أسماء عديدة ذَكَرْتُ تفصيلها حينما تعرضت لمثل هذا المبحث في توحيد الربوبية فليرجع إليه ولكني هنا أذكر خلاصة المبحث الذي ذكرته في توحيد الربوبية، فلتوحيد الألوهية أسماء عدة منها:

١- توحيد الألوهية. كما مر. وسُمي بذلك باعتبار إضافته إلى الله، أو باعتبار الموحِّد، ولأنه مبني على إخلاص التأله، وهو أشد المحبة لله وحده، وذلك يستلزم إخلاص العبادة.

٢- توحيد العبادة؛ باعتبار إضافته إلى الموحِّد وهو العبد، ولتضمنه إخلاص العبادة لله وحده.

٣- توحيد الإرادة؛ لتضمنه الإخلاص، وتوحيد الإرادة والمراد، فهو مبني على إرادة وجه الله بالأعمال.

٤- توحيد القصد؛ لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده.

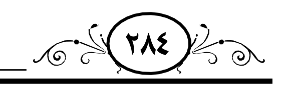
٥- التوحيد الطلبي؛ لتضمنه الطلب، والدعاء من العبد لله.

٦- التوحيد الفعلي؛ لتضمنه لأفعال القلوب والجوارح.

٧- توحيد العمل؛ لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده[1].

---

(١) «توحيد الألوهية» (ص: ٣).



المبحث الثالث: فضيلة تحقيق توحيد الألوهية ومنزلته من الدين الإسلامي

يُعَد توحيد الألوهية أهم أنواع التوحيد لأن الله تعالى ما أرسل الرسل وأنزل الكتب إلا من أجله، بل ما سُلت السيوف ونادى منادي الجهاد وانقسم الناس إلى مؤمنين وكافرين إلا من أجل هذا النوع من أنواع التوحيد[١].

فلهذا التوحيد منزلة كبيرة تتضح فيما يلي:

١- أنه هو الغاية المحبوبة لله المرضية له التي خلق الخلق لها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

٢- أنه أول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن أجله بعثهم الله إلى أممهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥].

(١) «مباحث في العقيدة» (١١/ ١٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٣- وهو أول أمر في القرآن، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١].

٤- أنه أول واجب على المكلف لما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال لمعاذ بن جبل عندما أرسله إلى اليمن: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله** ﷻ»(١).

٥- أنه آخر واجب على المكلف ينبغي أن يموت عليه الإنسان لما رُوي عنه ﷺ أنه قال: «**من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، دخل الجنة**»(٢)، ولما رُوي عنه ﷺ أنه قال: «**لَقِّنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله**»(٣).

٦- أنه هو التوحيد الذي ضلت فيه الأمم وأخل به المشركون في كل زمان.

٧- أن الرسول ﷺ دعا إليه طيلة العهد المكي وأكثر العهد المدني.

٨- أن أغلب آيات القرآن جاءت في تأكيده والنهي عن الشرك فيه، مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا

---

(١) صحيح البخاري، التوحيد (٧٣٧٢)، صحيح مسلم، الإيمان (١٩).

(٢) أخرجه أبو داود في الجنائز، باب التلقين. والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٥١)، وصححه، انظر: «جامع الأصول»، حديث (٧٠٠٦) المتن والحاشية.

(٣) رواه مسلم في الجنائز، باب تلقين لا إله إلا الله. وأبو داود برقم (٣١١٧)، والترمذي برقم (٩٧٦)، وانظر: «جامع الأصول»، حديث (٨٥٥٠).

بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤]. وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

٩- أن الرسول ﷺ أُمر أن يقاتل الناس عليه وعلى مستلزماته كالشهادتين وبقية أركان الإسلام، قال ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»[1].

١٠- أنه هو المقصود بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله[2].

١١- أنه أعظم نعمة أنعمها الله على عباده، حيث هداهم إليه، كما جاء في سورة النحل التي تسمى سورة النعم، فالله ﷻ قَدَّم نعمة التوحيد على كل نعمة، فقال في أول سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].

١٢- أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة، ودفع عقوبتهما، كما في قصة يونس عليه السلام.

١٣- أنه يمنع من الخلود في النار، إذا كان في القلب منه أدنى مثقال حبة خردل.

١٤- أنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية كما في حديث عتبان في الصحيحين؛ قال: «**فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي**

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة. ومسلم في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله. انظر: «جامع الأصول»، حديث (٣٥).

(٢) «مجلة البحوث الإسلامية» (٧٦/ ٩٤).

بذلك وجه الله»(١).

١٥- حصول الاهتداء الكامل، والأمن التام لأهله في الدنيا والآخرة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

١٦- أنه السبب الأعظم لنيل رضا الله وثوابه.

١٧- أن أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ «من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه».

١٨- أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قَبولها وفي كمالها وفي ترتيب الثواب عليها - على التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

١٩- أنه يسهل على العبد فعل الخيرات، وترك المنكرات، ويسليه عن المصيبات؛ فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات؛ لما يرجوه من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي لما يخشى من سخطه وأليم عقابه.

٢٠- أن التوحيد إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان، وزيّنه في قلبه، وكَرَّه إليه الكفر، والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين.

٢١- أنه يخفف على العبد المكاره، ويُهَون عليه الآلام؛ فبحسَب تكميل العبد للتوحيد والإيمان يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح، ونفس مطمئنة، وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة.

٢٢- أنه يحرر العبد من رق المخلوقين، ومن التعلق بهم، وخوفهم،

---

(١) البخاري (١/ ١١٠)، ومسلم (١/ ٦١).

ورجائهم، والعمل لأجلهم.

وهذا هو العز الحقيقي، والشرف العالي، فيكون بذلك متألهًا متعبدًا لله، فلا يرجو سواه، ولا يخشى غيره، ولا ينيب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

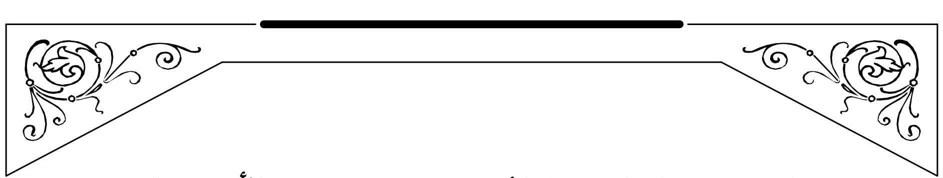
٢٣- ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب، وتحقق تحققًا كاملًا بالإخلاص التام؛ فإنه يُصَيِّر القليل من العمل كثيرًا، وتضاعف أجور صاحبه بغير حصر ولا حساب.

٢٤- أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر، والعز والشرف، وحصول الهداية، والتيسير لليسرى، وإصلاح الأحوال، والتسديد في الأقوال والأفعال.

٢٥- أن الله يدفع عن الموحدين شرور الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة والطمأنينة إليه وبذكره[1].



(١) «رسائل الشيخ الحمد في العقيدة» (٢/ ١٧، بترقيم الشاملة آليًّا).



المبحث الرابع: فوائد تحقيق توحيد الألوهية

من فوائد توحيد الألوهية ما يلي:

١ - الخلوص من الشرك بنوعيه في العبادة:

ذلك أن إخلاص العبادة لله يعني الخلوص من الشرك الأكبر الذي توعد الله صاحبه بعدم المغفرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

ومن الشرك الأصغر الذي توعد الله صاحبه بعدم قبول أي عمل فيه شيء منه، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥﴾ [هود: ١٥] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [هود: ١٦].

٢ - الخلوص من النفاق بنوعيه:

ذلك أنه متى آمن العبد بالله وأخلص العمل له، أصبح ما يظهره يوافق ما يبطنه؛ لأنه لا يخشى إلا الله ولا يرجو سواه، ولم يُقْدِم على فعل محظور أو ترك مأمور خوفًا من عقاب الله ورجاء لثوابه، وعلى إثر ذلك فلن يعمل شيئًا من أعمال المنافقين كالكذب والخيانة والغدر والفجور والتخلف عن بعض الصلوات.

٣ - وحدة الصف وجمع الكلمة وقوة الأمة بسبب اجتماعها على توحيد الله، ويكفي في ذلك واقع العرب، قبل الإسلام كانوا متفرقين، فلما

وحدوا الله أصبحوا أمة واحدة وصفًّا واحدًا.

٤ - الحصول على نصر الله وتأييده:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

٥ - أنه يورث القوة والشجاعة، فلا يخاف الموحد إلا الله، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يسأل غيره، ولا يلوذ إلا به؛ لإيمانه أن الأمر كله بيده، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢٣].

ومما يؤكد ذلك واقع العرب قبل الإسلام وبعده، قبل الإسلام كانوا محصورين في هذه الجزيرة يخاف أحدهم من ذكر اسم كسرى وقيصر، وبعد الإسلام خرجوا من هذه الجزيرة مجاهدين في سبيل الله حتى بلغت دولتهم مشارف الهند شرقًا وأسبانيا غرباً.

٦ - توحيد الألوهية يزيل من النفس الكِبْر والإعجاب، ويحمل المرء على التواضع؛ لأمور، منها:

أ - إيمانه أن الذي أعطاه الصحة والمال والجاه ومَنَع غيره - قادر أن يمنعه ويعطي غيره، وأنها نعمة من أسباب بقائها الشكر، ومن الشكر التواضع.

ب - إيمانه أنه خُلق من ضعف وينتهي إلى ضعف، فأوله نطفة وآخره جيفة، فمَن كان هذا حاله كيف ينازع الخالق في شيء من خصائصه؟! وفي الحديث القدسي: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما**

قذفته في النار»[١].

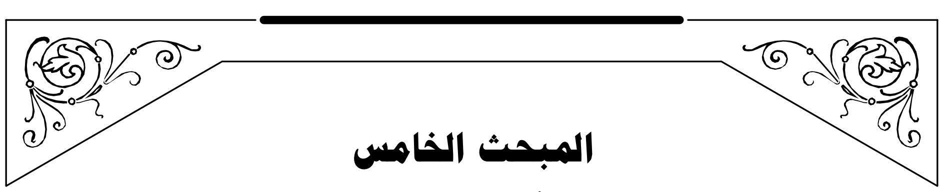
٧ - يحمل المرء على الوفاء والرحمة والشفقة ومراعاة حقوق الجوار وتوقير الكبير والرحمة بالصغير وعرفان الجميل... وغيرها من الأخلاق الإسلامية الفاضلة؛ لإدراكه أنها عبادة يثاب على فعلها، وقد يعاقب على تركها، وأنها مما يزيد الإيمان[٢][٣].

❊ ❊ ❊

(١) رواه أبو داود في كتاب اللباس، باب (٢٩) برقم (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد، باب (١٦) برقم (٤١٧٥).

(٢) انظر: «فقه التوحيد» (ص٨٢- ٨٥)، و«القول السديد شرح كتاب التوحيد» (ص١٧- ١٩).

(٣) انظر: «التدمرية» (ص١٧٩- ١٨٢، ١٨٥، ١٨٦).



المبحث الخامس
علاقة توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية

توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، بمعنى أن توحيد الربوبية داخل ضمن توحيد الألوهية، فمَن عبد الله وحده ولم يشرك به شيئًا فلا بد أن يكون قد اعتقد أنه ربه ومليكه لا رب له غيره ولا مالك له سواه، فهو يعبده لاعتقاده أن أمره كله بيده، وأنه هو الذي يملك ضره ونفعه، وأن كل ما يدعى من دونه لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياتًا ولا نشورًا كما حكى الله عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٢].

قال ابن أبي العز: (وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس، فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزًا، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهًا، قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٩١])[١][٢].

❊ ❊ ❊

(١) «شرح الطحاوية» - ط الأوقاف السعودية (ص:٣٩).

(٢) «مجلة البحوث الإسلامية» (٧٦/ ١٠٥).

المبحث السادس: خطأ منهج المتكلمين في خلطهم بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية

يقرر عامة المتكلمين أن التوحيد ثلاثة أنواع، فيقولون:

هو: واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له.

وأشهر الأنواع عندهم هو الثالث، وهو توحيد الأفعال، وهو أن خالق العالم واحد، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب، وأنه هو معنى قولنا: (لا إله إلا الله) حتى يجعلوا معنى الإلهية هي القدرة على الاختراع.

وهو قول خاطئ كما قال شيخ الإسلام، ودليل ذلك أنه لم يكن هناك خلاف بين الرسول ﷺ وبين مشركي العرب في الربوبية، بل كانوا يُقرون بأن الله خالق كل شيء، حتى إنهم كانوا مقرين بالقدر أيضًا، وهم مع هذا مشركون، وإذا كان المشركون معترفين به ومع ذلك هم مشركون كما ثبت في الكتاب والسنة والإجماع، وكما عُلم في الاضطرار من دين الإسلام.

فقولهم: الإلهية هي القدرة على الاختراع، والإله القادر على الاختراع، وأن من أقر بأن الله قادر على الاختراع دون غيره، فقد شهد أن لا إله إلا الله - قول خاطئ مجانب للصواب، بل الإله الحق هو الذي يستحق أن يُعبد، وتوحيد الإلهية هو أن يُعبد الله وحده لا شريك له، والإشراك أن يجعل مع الله إله آخر[1][2].

---

(١) «مجلة البحوث الإسلامية» (٧٦/ ١٠٩).

(٢) «مجلة البحوث الإسلامية» (٧٦/ ١٠٦).



المبحث السابع: أهمية توحيد الألوهية

في هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِنَّمَا التَّوْحِيدُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ الْعِبَادَ هُوَ تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ، الْمُتَضَمِّنُ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، بِأَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، فَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَلَا يُخَافُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يُدْعَى إِلَّا اللَّهُ، وَيَكُونُ اللَّهُ أَحَبَّ إِلَى الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَيُحِبُّونَ لِلَّهِ، وَيُبْغِضُونَ لِلَّهِ، وَيَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ.

وَالْعِبَادَةُ تَجْمَعُ غَايَةَ الْحُبِّ وَغَايَةَ الذُّلِّ، فَيُحِبُّونَ اللَّهَ بِأَكْمَلِ مَحَبَّةٍ، وَيَذِلُّونَ لَهُ أَكْمَلَ ذُلٍّ، وَلَا يَعْدِلُونَ بِهِ، وَلَا يَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا، وَلَا يَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ وَلَا شُفَعَاءَ.

كَمَا قَدْ بَيَّنَ الْقُرْآنُ هَذَا التَّوْحِيدَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَهُوَ قُطْبُ رَحَى الْقُرْآنِ الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ، وَالتَّوْحِيدَ فِي الْإِرَادَةِ وَالْعَمَلِ»(١).

وفي هذا يقول الإمام القيم ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أحب إليهم من الإيمان به ومحبتهم له ومعرفتهم به، وحاجتهم إليه في عبادتهم له وتألههم له

(١) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٢٩٠).

كحاجتهم إليه بل أعظم في خلقه وربوبيته لهم ورزقه لهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة التي بها سعادتهم وفوزهم، وبها ولأجلها يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة ولا سرور بدون ذلك بحال، فمَن أَعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكًا، ويحشره يوم القيامة أَعمى.

ولهذا لا يغفر الله لمن يشرك به شيئًا ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ ولهذا كانت: «لا إله إلا الله» أفضل الحسنات. وكان توحيد الإلهية الذى كلمته لا إله إلا الله رأس الأمر.

فأما توحيد الربوبية الذى أَقر به كل المخلوقات فلا يكفي وحده، وإن كان لا بد منه، وهو حجة على من أَنكر توحيد الأُلوهية»[1].

إلى أن قال: «إذا عُرِف هذا فاعلم أَن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه ولا في التوكل عليه ولا في العمل له ولا في الحلف به ولا في النذر له ولا في الخضوع له ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب - أَعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها. بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإن حقيقة العبد روحه وقلبه لا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها. ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك»[2].

---

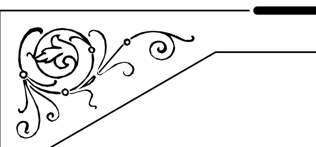
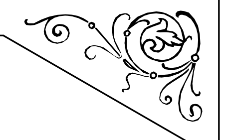
(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٥٦).

(٢) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٥٨).

إذًا: يمكن أن نبرز أهمية توحيد الألوهية باعتبار أنه لا يمكن أن يَثبت للإنسان اسم الإسلام ووصفه وحقوق الإسلام إلا إذا جاء بتوحيد الألوهية، وأما إذا لم يأتِ بتوحيد الألوهية فإنه لا يثبت له شيء من أوصاف الإسلام؛ لِما جاء في الحديث: «**من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله**» يعني أن من لم يحقق ذلك فدمه حلال ومالهِ حلال؛ لأنه ليس من المسلمين، وهذا يدل على أهمية توحيد الألوهية[1].



(١) «شرح كتاب التوحيد» للسلمي (١/ ١١، بترقيم الشاملة آليًّا).

المبحث الثامن
أدلة توحيد الألوهية ثابتة بالقرآن والسنة

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: الأدلة من كتاب الله ﷻ

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: أساليب قرآنية في الدعوة إلى التوحيد:

من أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الألوهية ما يلي:

١ - أَمْره ﷻ بعبادته والنهي عن عبادة ما سواه؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

٢ - شهادته ﷻ على هذا التوحيد كما شهدت ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

٣ - إخباره ﷻ أنه خلق الخلق لعبادته كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

٤ - إخباره سبحانه أنه أرسل الرسل بالدعوة إلى عبادته والنهي عن عبادة ما سواه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

٥ - الاحتجاج بتفرد الله بالربوبية وكمال التصرف والنفع والضر وغيرها من خصائص الربوبية لاستحقاقه وحده للعبادة ووجوب إفراده بالألوهية، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

٦ - التنديد بما يتخذه الناس آلهة من دون الله، وإظهار حالها من العجز الشنيع والفقر البالغ والغفلة عمن يدعوها ويفزع إليها، مثل قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: ١٩٧، ١٩٨]. وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النحل: ٧٣]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

٧ - التشنيع بحال العابدين لهذه الآلهة الباطلة ورميهم بالضلال والسفه حيث رضُوا لأنفسهم أن يعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر، ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا تغني شفاعتهم عنهم شيئًا، وذلك مثل قوله تعالى على لسان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطابه لقومه: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: ٥].

٨ - ومنها: بيان عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله، وبيان مآلهم مع من عبدوهم حيث تتبرأ تلك المعبودات من عابديها في أحرج المواقف، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ۝١٦٥ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

٩ - الاحتجاج بتفرد الله ﷻ بكمال الأسماء والصفات وانتفاء ذلك عن آلهة المشركين، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقوله تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ أنه قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

١٠ - الوعد لمن وحده والوعيد لمن أشرك به، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

[المائدة: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

١١ - ضَرْب الأمثلة التي تبين أن المشرك مهما عمل فلن ينال رضا معبوده؛ ذلك أن إرضاء أحد الشريكين مسخط للآخر، على عكس الموحد، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر: ٢٩].

١٢ - رَدُّه على المشركين في اتخاذهم الوسائط بينهم وبينه بأن الشفاعة ملك له سبحانه لا تُطلب إلا منه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه بعد رضاه عن المشفوع له، كما في قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)﴾ [الزمر:٤٣، ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿۞ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)﴾ [النجم: ٢٦].

١٣ - بيان أن هؤلاء المعبودين لا يحصل منهم نفع لمن عبدوهم من جميع الوجوه، قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢)﴾ [سبأ: ٢٢].

١٤ - ضَرْب الأمثلة التي تصور علو التوحيد والموحد وانخفاض الشرك والمشرك، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١][(١)].

(١) «مجلة البحوث الإسلامية» (٧٦/ ٩٧).

المسألة الثانية: تقرير القرآن للتوحيد بضرب الأمثال:

تقرير القرآن للتوحيد بضرب الأمثال كثير، وباستقصاء الأمثال في القرآن وجمعها من آيات القرآن ثم ترتيبها حسب موضوعها فهي كما يلي:

١- إما مضروبة لله من جهة، وللأصنام من جهة أخرى.

٢- وإما مضروبة لكلمة التوحيد وكلمة الشرك.

٣- وإما مضروبة للحق والباطل.

٤- وإما مضروبة لبيان عجز آلهة المشركين.

٥- وإما مضروبة لحالة المشرك وحالة الموحد.

٦- وإما مضروبة لقلب الموحد وقلب المشرك.

٧- وإما مضروبة لحواس الموحد والمشرك، وحياة الأول واستقامته وموت الثاني وانكبابه على وجهه.

٨- وإما مضروبة لأعمال المشركين.

وفيما يلي البيان:

١- الأمثال المضروبة لله ولما يُعبد من دونه:

ضَرَب الله تعالى مثلًا لنفسه ولما يُعبد من دونه بعدم قبول المشركين إشراك عبيدهم فيما يخصهم، فكيف يقبلون ذلك لله تعالى؟!

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾ [النحل: ٧١] وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨﴾ [الروم: ٢٨].

وضرب الله كذلك مثلين لنفسه ولما يُعبد من دونه في قوله تعالى: ﴿

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦].

٢- المثل المضروب لكلمة التوحيد وكلمة الشرك:

ضَرَب الله ﷻ مثلًا لكلمة التوحيد بالشجرة الطيبة، ومثلًا لكلمة الشرك بالشجرة الخبيثة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٦].

٣- المثل للحق والباطل

ضَرَب الله ﷻ مثلًا للحق والباطل، وهو مشتمل على المثلين المائي والناري، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

٤- أمثلة عجز آلهة المشركين، وهي ثلاثة أمثلة:

أ- عجزها عن سماع الدعاء وعن إجابته كذلك: قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى

ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤].

ب- عجزها عن الخلق وعن استعادة ما يُسلب منها:

وضَرَب الله ﷻ مثلًا لبيان عجز آلهة المشركين عن خلق أضعف وأصغر المخلوقات، بل لو سلب هذا المخلوق الضعيف من الأصنام شيئًا ما استطاعت استرداده، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

ج- عجزها عن حماية غيرها:

وضَرَب الله ﷻ مثلًا لبيان عجز آلهة المشركين عن حماية عابديها وقلة غنائها مشبهًا إياها ببيت العنكبوت، فيقول تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١].

٥- الأمثال المضروبة لوصف حالة المشرك وحالة الموحد، وهي ثلاثة أمثال هي:

أ- مثل المشرك بالساقط من السماء.

ب- مثل المشرك بالحيران في الأرض.

ج- مثل المشرك بالعبد المملوك لجماعة كثيرين.

أ- ضَرَب الله ﷻ مثل المشرك بالذي يهوي من السماء فتخطفته الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، قال تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١].

ب- وضَرَب الله تعالى مثل المشرك في عبادته الأصنام كمثل رجل في الفلاة حائر وله أصحاب مسلمون موحدون يدعونه للهدى فلا يتبعهم، قال

تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١].

ج- وضَرَب الله تعالى مثل المشرك بالعبد المملوك لجماعة كثيرين، والموحد بالعبد المملوك لرجل واحد، ثم بَيَّن سبحانه أنهما لا يستويان، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

٦- مثل قلب الموحد وقلب المشرك، وهما مثلان:

أ- ضَرَب الله ﷻ مثلًا لقلب المؤمن الموحد بالبلد الطيب، ومثلًا لقلب المشرك الكافر بالبلد الخبيث، فقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٨].

ب- وضَرَب الله ﷻ مثلًا آخر للقلب الذي يريد أن يهديه وللقلب الذي يريد أن يضله، فقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

٧- أمثلة وصف حواس الموحد وحواس المشرك:

ضَرَب الله ﷻ مثل المؤمن الموحد بالحي والسميع والبصير وهو في النور والظل وبمن يمشي سويًّا، وضرب مثل الكافر بالميت والأصم والأبكم والأعمى وهو في الظلمات والحرور وبمن يمشي مكبًّا على وجهه وهو كالأنعام.

وهذه في الحقيقة عدة أمثال، لكن لارتباطها ببعضها وصعوبة تمييزها عن بعضها ولورودها في القرآن متداخلة، أحببت أن أتكلم عنها مجتمعة، وسأذكر أولاً كل الآيات التي وردت في هذا حسب ترتيب السور:

يقول تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٦]، ويقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩]، ويقول تعالى: ﴿قُل هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ويقول تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ويقول تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ويقول تعالى: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٢٤]، ويقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ﴾ [الرعد: ١٦]، ويقول تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النمل: ٨٠]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ [فاطر: ١٩]، ويقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢]، ويقول تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾ [المزمل: ٤٩ - ٥١].

٨- مثلان لبيان فساد أعمال المشركين

ضرب الله ﷻ مثلين لأعمال المشركين ومثلًا لما ينفقونه من الأموال في وجوه البر.

أ- أما مثلا الأعمال فقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٣٩، ٤٠].

ب- وضرب الله ﷻ مثلًا لبطلان أعمال الكفار وحبوطها بالرماد الذين عصفت به الريح الشديدة فلم تُبْقِ منه شيئًا، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨][(١)].

المسألة الثالثة: تقرير القرآن للتوحيد بالقصص:

لقد أكثر الله ﷻ في كتابه الكريم من القصص التي تتحدث عن الأنبياء وما جرى بينهم وبين أقوامهم، وقصص أخرى تتحدث عن غير الأنبياء، وكلها فيها عِبر ودلائل على وحدانية الله وأن الله يؤيد عباده الموحدين ويدمر المشركين به.

والقصص القرآني له أهداف كثيرة من الصعب حصرها، إلا أني أذكر منها على سبيل المثال:

١- إثبات الوحي والرسالة.

---

(١) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» بتصرف (ص: ٢٣٤).

٢- إثبات وحدة الدين من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

٣- تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم.

٤- إثبات البعث.

٥- إثبات وحدانية الله تعالى.

٦- العظة والاعتبار بمصير المكذبين.

٧- عاقبة الصبر والجزع والشكر والبطر وغيرها.

وفي هذا المسألة لن نتكلم عن قصص القرآن من جهة السرد التاريخي لما جرى لكل رسول مع قومه، كما أننا لن نتكلم عن كل أهداف القصص القرآني، لأن ذلك يطول بنا البحث حيث أن قصة واحدة من قصص الرسل، وهدفًا واحدًا من أهداف القصص القرآني كفيل بأن يستغرق مئات الصفحات وليس هذا هو موضوع هنا.

ولكنا سنقتصر على الإشارة بما يحصل به المقصود من العنوان الفصل، وكيف ورد تقرير التوحيد على لسان الرسل وإبطال الشرك، وما آل إليه أمر من كذبهم؛ لأن التوحيد هو رأس الأمر بل هو الغاية العظمى من هذه القصص.

١- قصة نوح عليه السلام مع قومه[1]:

أرسل الله نوحًا عليه السلام إلى أهل الأرض بعدما عم الشرك وعبادة الأصنام

(١) انظر: السور التالية: آل عمران (٣٣)، النساء (١٦٣)، الأنعام (٨٤)، الأعراف (٥٩-٦٢)، يونس (٧١-٨٣)، هود (٢٥-٤٩)، الأنبياء (٧٦- ٧٧)، المؤمنون (٢٣-٣١)، الفرقان (٣٧)، الشعراء (١٠٥- ١٢٢)، العنكبوت (١٤-١٥)، الصافات (٧٥- ٨٢)، غافر (٥-٦)، الذاريات (٤٦)، النجم (٥٢)، القمر (٩-١٦)، الحاقة (١١-١٢)، نوح (١-٢٨).

والقصة مفصلة في «تفسير الطبري» (١٢/ ٥٢).

التي كانت في الأصل صورًا للموتى والصالحين، فأخذ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقد نبه نوح عليه السلام قومه إلى الآيات الكونية والنعم الإلهية داعيًا إياهم عن طريق التفكير في السماوات والأرض والأنهار والشمس والقمر وما في ذلك من النعم، وعن طريق التفكير في خلقهم أنفسهم، ودلالة ذلك على وحدانية الله تعالى فقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١٠ - ٢٠].

وقد كرر نوح عليه السلام دعوته لقومه إلى التوحيد ونبذ الشرك في أحوال مختلفة، فدعاهم بالليل والنهار، ودعاهم بالسر والعلن، ودعاهم أفرادًا وجماعات، ولم يزدهم كل ذلك إلا عنادًا لدعوة التوحيد وثباتًا على الشرك وتواصيًا به: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

ثم يتحداهم نوح عليه السلام هم وأصنامهم لأنه يعلم عجزها وأنها لا تملك أن تدفع عن نفسها شيئًا، بينما هو متوكل على الله القوي العزيز فيقول لهم بثبات الموحد لله: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ

أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس: ٧١].

ويبقى نوح عليه السلام ثابتًا على دعوة التوحيد صابرًا على أذى قومه له – إلى أن أمره الله تعالى بصنع السفينة، ويمر عليه قومه المشركون وهو يصنعها فيسخرون منه فيها، غير القلة المؤمنة الموحدين لله، ولم يدخل معه في السفينة ابنه وزوجته لأنهما بقيا على شركهما، وفي هذا بيان واضح أن صلات القرابة من بنوة وأبوة وزوجية وغيرها لا تنفع المشرك عند الله إن لم ينقذ نفسه بكلمة التوحيد.

ويأمر الله نوحًا عليه السلام أن يعلن التوحيد داخل السفينة لأنها سفينة الموحدين الناجين بتوحيدهم لله، وهم يومئذٍ قليل، والمشركون وهم كثير لم تنفعهم كثرتهم عند حلول الغرق والعذاب: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٨ – ٣٠].

وهكذا يتم إغراق المشركين وأصنامهم وتطهير الأرض من رجسهم.

فلتكن قصة نوح مع قومه وإنجاء الله الموحدين القلة وإغراق الكثرة المشركة – عبرة لكم يا كفار قريش ومن دان بدينكم.

يقول الطبري: «إن فيما فعلنا بقوم نوح من إهلاكنا لهم إذ كذبوا رسلنا وجحدوا وحدانيتنا وعبدوا الآلهة والأصنام لعبرًا لقومك من مشركي قريش وعظات وحججًا لنا يستدلون بها على سنتنا في أمثالهم فينزجروا عن كفرهم ويرتدوا عن تكذيبك حذرًا أن يصيبهم مثل الذي أصابهم من العذاب وكنا مختبريهم بتذكيرنا إياهم بآياتنا لننظر ما هم عاملون قبل نزول عقوبتنا بهم»[١].

(١) «تفسير الطبري» (١٨/ ١٨).

٢- قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه(١).

أرسل الله إبراهيم عليه السلام إلى أهل بابل بالعراق وكانوا صابئة يعبدون الكواكب، فبيّن لهم إبراهيم عليه السلام أن هذه الكواكب لا تصلح للإلهية وأن لها خالقًا ومدبرًا دبر طلوعها وأفولها ومسيرها وسائر أحوالها فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩].

وبيّن لهم إبراهيم عليه السلام كذلك أن هذه الأصنام التي يقيمونها في معابدهم ليست آلهة، مستدلًّا بعجزها عن نفع عابديها لأن الإله لا يكون عاجزًا عن جلب الخير ودفع الشر: ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣].

وقد عَرَّفهم إبراهيم عليه السلام بالإله الحق الذي يستحق العبادة ويملك الضر والنفع معلنًا عداوته لأصنامهم وبراءته التامة منهم ومن أصنامهم: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٢].

ولكن قومه لم يزيدوا مع هذا البيان إلا عنادًا وتكبرًا وتمسكًا بأصنامهم، وأحضره الملك النمرود حاكم بابل وجادله زاعمًا أنه إلهه(٢)، ولكن إبراهيم

---

(١) انظر: السور التالية: البقرة (٢٥٨-٢٦٠)، الأنعام (٧٤- ٨٣)، التوبة (١٤٤)، مريم (٤١- ٤٨)، الأنبياء (٥٢-٧٣)، الشعراء (٦٩-١٠٢)، العنكبوت (١٦-٢٤)، الزخرف (٢٦-٢٨)، الصافات (٩٧-٩٩).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣١٣).

عليه السلام غلبه بالحجة الواضحة: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، هكذا بُهت الذي كفر لأن الإله الحق لا بد أن يكون متصرفًا في ملكه كما يشاء والكون بما فيه سائر وَفق إرادته.

وأراد إبراهيم عليه السلام إقامة الحجة على قومه كلهم، فبينما هم مجتمعون في عيدهم بعيدًا عن بيت الأصنام، ذهب إبراهيم عليه السلام يحمل الفأس فكسر الأصنام وأبقى الصنم الكبير.

وهذا فيه وجهان للدلالة على ضعف هذه الآلهة:

أولهما: أن هذه الأصنام إن كانت آلهة فلمَ لم تدافع عن نفسها عند تكسيرها؟! والإله الحق حي لا يموت وهذه قد اندثرت وصارت حطامًا.

ثانيها: أنها إذ لم تدافع عن نفسها فلماذا لا تجيبكم عمن كسرها؟

فإن أجابتكم عمن كسرها فهي بحاجة إلى الحماية؛ ولذا فهي ليست آلهة لأن الإله الحق غني عن حماية غيره له.

وإن لم تجبكم - وهذا هو الواقع - فهي صماء بكماء جماد لا حياة فيها فليست بآلهة.

يوضح هذا قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا

تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٨ - ٦٧].

وهكذا بُهت قوم إبراهيم لإقامة الحجة عليهم كما بُهت مَلِكهم من قبل، لقد بُهتوا لنصاعة الحجة بحيث نكسوا على رءوسهم خجلًا لعلمهم أن أصنامهم لا تنطق وأولى بهم أن يؤمنوا بالله الواحد، والاستكبار عن الحق جعلهم لا يستجيبون لدعوة التوحيد، بل زادوا في طغيانهم فأوقدوا نارًا عظيمة ليحرقوا بها داعية التوحيد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنه لم يَخَفْ من النار كما لم يخف أصنامهم من قبل؛ لعلمه أن التصرف المطلق في هذا الكون وعبودية كل شيء فيه هي لله الواحد القهار، والنار مخلوقة من مخلوقات الله وهي في ملكه وتحت تصرفه ومشيئته ولا تحرق أحدًا إلا بأمر الله: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

وهكذا نجى الله رسوله من كيد المشركين، فلتعلموا يا أيها المشركون أن الله مع أوليائه الموحدين، وأن محمدًا ﷺ على دين أبيه وأبيكم إبراهيم حنيفًا مسلمًا ولم يك من المشركين.

وكما نجى الله إبراهيم فهو ينجي محمدًا منكم ومن كيدكم، وأولى بكم إن كنتم تزعمون أنكم من نسل إبراهيم أن تكونوا على دينه وملته الحنيفية السمحة وتنبذوا ما أنتم عليه من الشرك بالله واتخاذ الأنداد والأوثان.

٣- قصة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه[١].

---

(١) انظر: السور التالية: الأعراف (٦٥-٧٢)، هود (٥٠-٦٠)، الشعراء (١٢٣-١٤٠)، العنكبوت (٣٨)، فصلت (١٤-١٨)، الأحقاف (٢١-٢٨)، الذاريات (٤١-٤٢)، النجم (٥٠)، القمر (١٨-٢١)، الحاقة (٤-٨).
وانظر: القصة مفصلة بـ«تفسير الطبري» (٨/ ١١٨).

أرسل الله هودًا عليه السلام إلى قومه عاد وكانوا يسكنون بالأحقاف بين عُمان وحضرموت، وكانوا يعبدون الأصنام، ومنها: صداء وصمود والهباء، فأخذ هود عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود: ٥٠].

لقد سمى هود عليه السلام مشركي قومه كذابين مفترين؛ لأنه ليس أكذب ممن يعبد الأصنام ويعطيها صفة الألوهية ويخصها بما هو حق خالص لله تعالى.

وقد ذَكَّر هود عليه السلام قومه بنعم الله عليهم ليوصلهم إلى وجوب شكر المنعم بتوحيده، ومن هذه النعم استخلافهم بعد قوم نوح وزيادة أجسامهم في الطول والقوة وإرسال المطر في السماء ونعمة الأنعام وغيرها من النعم، قال تعالى عنه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢]. وقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء: ١٣١ - ١٣٤].

وكل هذا التذكير بنعم الله عليهم وبقوم نوح من قبلهم الذين دمرهم الله بشركهم وكل التخويف من بأس الله - لا يزيدهم إلا استكبارًا وعنادًا للحق حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ثم وصفوا هودًا عليه السلام بالسفاهة وأن بعض آلهتهم أصابته بسوء وأنهم لن يتحولوا عن دين آبائهم: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: ١٣٦ - ١٣٨].

ويبين لهم هود عليه السلام أن هذه الأصنام ليست إلا مجرد أسماء ولا حقيقة لمسمياتها وليس لها صفة الألوهية؛ لأنها من اختراع آبائهم فيقول لهم: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ [الأعراف: ٧١].

ويزداد قومه عنادًا واستكبارًا عن الحق، فيتحداهم هود عليه السلام ويتحدى أصنامهم معلنًا براءته منها؛ لأنه متوكل على الله المتفرد بالألوهية: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦].

وهكذا يستمر قوم هود على عنادهم وفرارهم من التوحيد متمسكين بأصنامهم إلى أن يُنزل الله بهم العذاب بالريح العاتية الشديد بردها وصوتها وهبوبها، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠﴾ [القمر: ١٩، ٢٠].

وهكذا تكون النهاية الأليمة للمشركين أعداء الله ورسله ودعوته وينجي الله المؤمنين المستضعفين على قلتهم؛ بتوحيدهم وتوكلهم على الله.

فليكن ذلك عبرة لكم يا كفار قريش، وأنتم لستم بأعز على الله من عاد قوم هود إن تمسكتم بشرككم وتكذيب رسولكم.

٤- قصة أصحاب الأخدود مع الموحدين[(١)].

هذه القصة أقرب من غيرها لأهل مكة من ناحية الزمان والمكان، فمكان

(١) انظر: سورة البروج كاملة وتفسيرها في «تفسير الطبري» (٢٠/ ١٢٧)، وفي «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٩١).

الأخدود الذي أحرق فيه المؤمنون هو نجران الواقعة جنوب الجزيرة، وزمانها كان بعد عيسى وقبل محمد ﷺ وليس بينهما رسول.

ولا شك أن العرب قد يكون عندهم علم بالقصة قبل نزول القرآن، إما لتناقل الأجيال لها أو لسماعهم إياها من أهل الكتاب، إلا أن هذا النقل قد يكون مشوهًا؛ فجاءت هذه السورة تبين أمر هؤلاء.

وتتلخص القصة بأن جماعة من أتباع دين عيسى عليه السلام كانوا على التوحيد الخالص لله ويعتقدون أن عيسى بشر رسول، وكانوا قريبًا من عشرين ألفًا.

وكان حاكم اليمن آنذاك ذو نواس الحميري وكان يهوديًّا، فملأ الغيظ قلبه لانتشار النصرانية بنجران، فعزم على أن يفتن هؤلاء الموحدين عن دينهم وأن يجبرهم على اليهودية وأن يقولوا في عيسى بقول اليهود، فجهز جيشًا كثيفًا وسار نحو هذا الجزء الشمالي من مملكته، وطلب منهم ما يريد، لكنهم امتنعوا وأبوا عليه ذلك الانحراف عن عقيدة التوحيد إلى الشرك والوثنية بعدما ذاقوا حلاوة التوحيد.

فأمر جنده فخدوا أخدودًا عظيمًا وأضرموا فيه النار وجعلوا يُلقون المؤمنين في النار فرحين بمنظر النار تأكل لحومهم وتذيب شحومهم حتى قضوا عليهم جميعًا، ولم يفرقوا بين كبير وصغير ورجل وامرأة.

وقد خلد الله ذكر هؤلاء المؤمنين الموحدين الذين لقوا الموت في سبيل عقيدة التوحيد، ولعن الكافرين أصحاب هذه الفعلة الشنيعة، مبينًا في القصة مصير الفريقين: فريق الموحدين في الجنة، وفريق الكافرين في النار مقسمًا على ذلك بثلاثة أقسام.

يقول تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ

بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ۝١١﴾ [البروج: ١-١١].

وقد بَيَّن الله سبب قتلهم لهؤلاء المؤمنين وهو إيمانهم بالله العزيز الحميد وعدم إيمانهم بالكفر والوثنية اليهودية وعقائدها المزيفة.

وأنتم يا أهل مكة، ليكن لكم عبرة في هذه القصة القريبة العهد منكم، إما أن تكفوا عن إيذاء محمد وأصحابه المؤمنين الموحدين وتدخلوا في دينه فيكون لكم جنات تجري من تحتها الأنهار. وإما أن تستمروا على إيذائكم الموحدين من المؤمنين والسخرية بهم كما صنع ذو نواس بالموحدين؛ فعندئذٍ تدخلون مع اليهود في اللعنة والغضب والوعيد الشديد بعذاب جهنم وعذاب الحريق.

ثم لتكن طبيعة اليهود معروفة لديكم، إنهم يزينون لكم الكفر بالله ومحاربة دينه وإيذاء الموحدين؛ لأنهم أعداء الله وأعداء دينه وأعداء رسله ورسالاته والمؤمنين الموحدين من القِدم، وهم لا يريدون دخولكم في دين التوحيد حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، فكيف تطيعون مَن هؤلاء تاريخهم ومواقفهم من دعوة التوحيد؟![1].

ذكرنا من القصص لأولي العزم نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام وأعرضت عن ذكر قصتي موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام حتى لا يطول بنا المقام في هذا العنصر. وذكرت من غير أولي العزم هودًا عليه السلام وأعرضت عن ذكر قصص يونس عليه السلام وصالح عليه السلام وشعيب عليه السلام ويوسف عليه السلام وسليمان عليه السلام لعين

(١) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» بتصرف (ص: ١٩٢).

السبب السابق فما قصدت الحصر كقصدي التمثيل والله الموفق. وذكرت قصة واحدة لغير الرسل وهم أصحاب الأخدود وأعرضت عن مثيلاتها الكثير كأصحاب الكهف وغيره أيضًا لعين السبب السالف ذكره.

الفصل الثاني: الأدلة من السنة النبوية

والسنة النبوية كذلك مليئة بالأدلة على هذا التوحيد وأهميته، من ذلك:

١- عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ؟**»، قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟**»، قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ**»(١).

٢- عَنْ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَيْفِيٍّ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا مَعْبَدٍ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ**»(٢).

٣- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ كَلِمَةً وَقُلْتُ أُخْرَى، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**» وَقُلْتُ أَنَا: مَنْ مَاتَ وَهْوَ

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»: كتاب الجهاد، باب اسم الفرس والحمار (٣/ ١٠٤٩) حديث رقم (٢٧٠١). ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (١ /٥٨) حديث رقم (٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٢) (١/ ٣ص٣٥٩)، ومسلم في الإيمان (١٩).

لَا يَدْعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ الجَنَّةَ[(١)].

٤- عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، حَدَّثَنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ**»[(٢)].

٥- عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**»[(٣)].

٦- قال ﷺ: «**من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله. دخل الجنة**»[(٤)].

وسيأتي في بيان ذلك زيادة تفصيل في المبحث التالي وهو مبحث حماية الرسول ﷺ لتوحيد الألوهية:

---

(١) البخاري رقم (١٢٣٨) في الجنائز: باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله، ورقم (٤٤٩٧) في تفسير سورة البقرة: باب قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، ورقم (٦٦٨٣) في الأيمان والنذور: باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم. فصلى أو قرأ أو سبح أو كبر أو حمد أو هلل فهو على نيته. وأحمد في «المسند» (١/ ٤٦٢ و٤٦٤).

(٢) مسلم: الإيمان (٩٣)، وأحمد (٣/ ٣٢٥، ٣٤٤، ٣٧٤، ٣٩١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان: باب ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾، انظر: «فتح الباري» (١/ ٧٥) ح (٢٥). وأخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب الإيمان: باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله. انظر: (١/ ٣٩).

(٤) رواه أبو داود (٣١١٦)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٥١)، وصححه ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٧٩).

الفصل الثالث: الإجماع

وهذا الإجماع حكاه ابن المنذر بقوله: (أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم أن الكافر إذا قال: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد حق، وأبرأ إلى الله من كل دين يخالف دين الإسلام) وهو بالغ صحيح يعقل - أنه مسلم)(١). اهـ.

وقد ذكر أبو المظفر بن السمعاني أن القول بأن أول الواجبات هو النظر قول مبتدع لم يكن معروفًا عند الصحابة ولا التابعين؛ إذ لو كان معروفًا لنقلوه لنا لشدة اهتمامهم بهذا الدين، كيف والمدعى أنه أول الواجبات! وإنما المعروف أنهم كانوا يدعون إلى الإسلام، وهم الذين نقلوا طريقة الرسول ﷺ في دعوته؛ مما يدل على أن المستقر عندهم هو أن أول شيء يدعى إليه الكافر هو الشهادتان، وهما أول واجب(٢).

وقد حكى هذا الاتفاق شيخ الإسلام ابن تيمية كما تقدم النقل عنه وحكاه كذلك تلميذه ابن القيم فقال: (وأجمع المسلمون على أن الكافر: إذا قال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فقد دخل في الإسلام)(٣).

وهذا يدل على أنه أول الواجبات، ولو أتى بغير الشهادتين ما اعتبر ذلك.

ومن المعلوم أن الشهادة تتضمن الإقرار بالله تعالى وبرسوله ﷺ، فكل من شهد لله تعالى بالألوهية فشهادته فرع إقراره بوجوده وربوبيته، ولكن إذا

---

(١) نقله عنه شيخ الإسلام في «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٧).

(٢) انظر: «مختصر كتابه الانتصار لأهل الحديث ضمن صون المنطق والكلام» (ص: ١٧١- ١٧٢).

(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٢١).

وُجد من لم يقر بالله لتغير فطرته فهذا يجب عليه النظر أولًا؛ لأنه وسيلة لإقراره لله تعالى بالعبودية، فوجوب مثل هذه الحالة يعتبر من وجوب الوسائل التي تؤدي إلى الغاية(١).

فإن المعرفة بوجود الله جل وعلا لا تكفي العبد، بل ولا حتى إيمانه بأن الله هو الرب الخالق، حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ(٢)(٣).



(١) انظر: هذا في «معرض الرد على الأشعرية في مسألة أول واجب على المكلف» (ص: ٣٢٣- ٣٢٤).

(٢) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ١١- ١٢).

(٣) «منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى» لخالد عبد اللطيف (١/ ٨٦)، و«الموسوعة العقدية - الدرر السنية» (١/ ٢١٩، بترقيم الشاملة آليًّا).

الفصل الرابع: من أدلة توحيد الألوهية إجماع الكتب السماوية على استحقاق الله ﷻ العبادة وحده

فإن الرسل جميعهم قد جاءوا بإخلاص الدين كله لله واتفقوا على ذلك، وهذه حجة برهانية في أن الله هو المستحق لأن يُعبد وحده لا شريك له وأنه لا منازع له في ذلك؛ ولذلك يطالبون المشركين بأن يذكروا ما عندهم من براهين توجب العبادة لغير الله سواء كانت سمعية أو عقلية، فلم يستطيعوا إثبات ذلك. . .

أما الآيات في هذه المسألة فمنها قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٥].

وهذا يوضح بطلان ما عليه المشركون من الشرك بالله تعالى، فإنه لا مستند لهم في إشراكهم بالله غيره من دليل سمعي ولا عقلي، بل الأدلة كلها السمعية والعقلية على خلاف افترائهم وزعمهم، فالذي خلق هو الذي يُعبد وهو الذي يُشكر على ما أنعم، وهو الآمر الناهي فيلتزم أمره ونهيه. وذلك الذي اتفقت عليه الرسل، فالرسل كلهم على تباعدهم في الأزمنة والأمكنة مع كمال صدقهم وظهور الآيات والبراهين الدالة على صدقهم - اتفقوا على

وجوب عبادة الله وحده وتحريم الشرك به، فآيات الرسل دالة على صحة دعواهم النبوة والرسالة وعلى وحدانية الله.

قال الله تعالى مبينًا معجزة القرآن ودلالتها: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣-١٤].

فبَيَّن الله أنه بالمعجزة تثبت الرسالة والوحدانية.

واتفاق الرسل على هذا المبدأ دليل آخر على وجوب عبادة الله وحده وترك عبادة غيره[(١)].

الفصل الخامس: من أدلة توحيد الألوهية الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد العبادة

إنّ تفرّد الربّ بمعاني الرّبوبيّة يستلزم إفراده بالعبادة؛ وذلك لاعتبارات متعدّدة، منها:

١- أنّ التّفرّد بالربوبيّة يعني التّفرّد بتربية العباد بنعمه وإحسانه، وأصل ذلك الخلق، إذ كلّ ما بعده من النّعم تابع له وفرع عنه، ولا شكّ أنّ شكر من تفرّد بالخلق والإنعام أوجب شيء في العقول.

٢- أنّ التّفرّد بالربوبيّة يعني التّفرّد التامّ بجلب المنافع ودفع المضارّ؛ وهذا يقتضي عقلًا أن يكون الربّ وحده محلّ محبّة العبد ورغبته ورهبته.

---

(١) «منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى» لخالد عبد اللطيف بتصرف (١/ ١٣٤).

٣- أنّ التّفرّد بالربوبيّة يعني التّفرّد بالخلق والملك والغنى الذاتي، وأنّ ما عدا الربّ مخلوق مملوك فقير لا يصحّ عقلًا أن يكون محلًّا لمحبّة العبد ورغبته ورجائه، ولا لشيء ممّا ينشأ عن ذلك من عباداته !!

وعلى هذه الاعتبارات وما يجري مجراها جاء هذا النّوع من براهين القرآن على صحّة التّوحيد وبطلان الشّرك؛ فمَن تفرّد بمعاني الربوبيّة من خلق وتدبير وملك وعناية وهداية ونفع وضرّ فهو المستحقّ عقلًا وشرعًا للعبادة وحده، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس: ٣]، وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]، وقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الآيات [النمل: ٦٠][١].

الفصل السادس: من أدلة توحيد الألوهية الاستدلال بتوحيد الصّفات على توحيد العبادة

إنّ التفرّد بصفات الكمال المطلق يستلزم تعلّق القلب بالموصوف بها محبّة وخوفًا ورجاءً وتألّهًا في الظّاهر والباطن.

وهذا البرهان ينتظم جميع ما ورد من صفات الكمال؛ فكلّها أدلّة على توحيد العبادة، سواء أصُرّح بذكر لازمها، أو ذُكرت مجرّدة.

فمما ذُكر مجرّدًا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦١]،

(١) للشيخ عيسى عبد الله السعدي من الموقع الألوكة بالشبكة العنكبوتية.

وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذّاريات: ٥٨]؛ فهذه النّصوص ونظائرها لم تُذكر لمجرّد تقرير الكمال وإنّما ذُكرت لبيان أنّ الموصوف بها هو المستحقّ للعبادة وحده.

يقول ابن تَيْمِيَّة: «الله سبحانه لم يذكر هذه النّصوص لمجرّد تقرير الكمال له، بل ذكرها لبيان أنّه المستحقّ للعبادة دون ما سواه، فأفاد الأصلين اللذين بهما يتمّ التّوحيد؛ وهما: إثبات الكمال ردًّا على أهل التّعطيل، وبيان أنّه المستحقّ للعبادة لا إله إلاّ هو ردًّا على المشركين»[1].

أمّا ما صرّح بذكر لازمه من نصوص الصّفات فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٢٣﴾ [الحشر: ٢٢، ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزّمر: ٦٧]، فصرّح بذكر لازم صفات كماله، وهو البراءة من الشّرك وأهله، وإفراد الله بجميع العبادات الظّاهرة والباطنة.

ومحلّ الدلالة في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ فإنّ الشّهادة تدلّ على توحيد العبادة مطابقة، والتّنزيه عن الشّرك يستلزم إفراد الله بالعبادة.

---

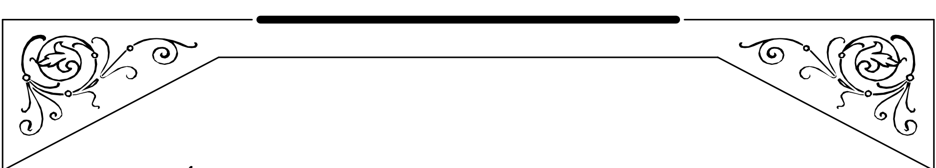
(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٨٣).

وصفات الكمال لا تدلّ على التّوحيد فحسب، بل إنّها تدلّ مع ذلك على ما يليق بالربّ من الأفعال؛ ولهذا نزّه الربّ نفسه عن كلّ ما ينافي كماله من الأفعال؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، وقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧].

فنزّه نفسه عن اللعب والعبث والظّلم وتصديق المتنبئ بما لا معارض له من البراهين؛ لأنّ هذه الأفعال تنافي كماله وحكمته وعدله ورحمته(١).



(١) للشيخ عيسى عبد الله السعدي من الموقع الألوكة بالشبكة العنكبوتية.



المبحث التاسع: حماية الرسول ﷺ توحيد الألوهية

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: النهي عن الغلو والإطراء

الغلو أصل كل شر وبلاء في الدين، فهو أصل الشرك والانحراف الذي صار طريق كل هالك وسبيل كل ضال، والإطراء باب من أبوابه ووسيلة من أعظم وسائله، فالغلو هو الذي كان سببًا في وقوع الشرك في الأرض بعد أن لم يكن، ثم صار بعدُ أساس كل شرك يقع في كل زمان ومكان، فهو سبب كفر النصارى، وشركهم الذين قال الله عنهم: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١].

ولهذا حذر الرسول ﷺ أمته من ذلك، ومن كل وسيلة قد توصل إليه خوفًا على أمته وحماية لجناب التوحيد، فنهاهم عن الغلو في الدين وحذرهم منه، وعن إطرائه أو تجاوز الحد في مدحه والثناء عليه؛ لئلا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم، فكان سبب هلاكهم، فذم التنطع وحذر منه وهو أول سهم من سهام الغلو، فقال ﷺ: «**هلك المتنطعون**»(١). قالها ثلاثًا.

وكان ﷺ لا يحب المتعمقين، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: «نهى

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ٢٢٠).

رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم، فقال رجل من المسلمين: إنك تواصل يا رسول الله. قال: «**وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقين**». فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال أقبل بهم يومًا ثم يومًا، ثم أراد الهلاك، فقال: «**لو تأخر لزدتكم**»، كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا»[١].

وحذر عليه الصلاة والسلام من الغلو فقال: «**إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**»[٢]. وسد الذرائع الموصلة إليه، فنهى عن الإطراء وقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**»[٣].

فقد كان الإطراء والغلو سببين لكفر النصارى وقولهم في عيسى عليه السلام غير الحق.

وأخبر عن هلاك المتنطعين فقال: «**هلك المتنطعون**»[٤].

وأنكر على أصحابه المبالغة في المدح والثناء عليه خوفًا عليهم من مجاوزة الحد إلى المنهي عنه، وحماية لعقيدة التوحيد من أن يمسها دنس واحتياطًا في الحفاظ عليها حتى من الأمور التي قد لا تكون في الواقع شركًا أو بدعة.

روى عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: «انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي ﷺ فقلنا: أنت سيدنا. فقال: «**السيد الله تبارك وتعالى**»، قلنا: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طَوْلًا، فقال: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم**

---

(١) «صحيح البخاري مع الفتح» (٤/ ٢٠٦).

(٢) «مسند الإمام أحمد» (١/ ٢١٥)، وغيره. وهو حديث صحيح.

(٣) البخاري: أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥)، وأحمد (١/ ٢٣، ١/ ٢٤، ١/ ٤٧).

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣٣٤/ ٢٠٥٥).

الشيطان»(١).

وروى أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن أناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا! فقال: «**يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله ما أُحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله** عَزَّوَجَلَّ»(٢).

فالنبي ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يُمدح صيانة لهذا المقام، وأرشد أمته إلى ترك ذلك نصحًا لهم وحماية لمقام التوحيد أن يدخله ما يفسده أو يضعفه من الشرك ووسائله(٣).

والنهي عن الغلو عام في كل أمر من أمور الدين وأول ذلك أمر العقيدة التي هي أساس الدين وأصله(٤).

الفصل الثاني: زيارة القبور والنهي عن اتخاذها مساجد

هذا الموضوع له أهمية عظيمة نظرًا لما له من الأثر المباشر في عقيدة التوحيد قديمًا وحديثًا، وما حصل بسببه من الفتن التي أدت بكثير من أهلها إلى الشرك بالله ﷻ؛ ولهذا فقد كان له أهميته العظيمة، ومن أهم ما اهتم به رسول الله ﷺ، فبَيَّن الهدى فيه وأمر به، وحذر من الانحراف عنه وما يترتب على ذلك من عواقب وخيمة وفتن عظيمة.

---

(١) «مسند الإمام أحمد» (٤/ ٢٤، ٢٥). وهو حديث صحيح.

(٢) «مسند الإمام أحمد» (٣/ ١٥٣)، وهو حديث صحيح.

(٣) سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، «تيسير العزيز الحميد» (ص٧٣٢، ٧٣٣).

(٤) «حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد» (ص: ٢٩٢).

والكلام عن هذا الموضوع المهم يتلخص في عدة أمور:

الأمر الأول: الحكمة من زيارة القبور.

لقد بيّن عليه الصلاة والسلام الحكمة التي من أجلها شُرعت زيارة القبور، وهي أمران:

أحدهما: تذكر الآخرة، والاعتبار بحال أهل القبور وما سينتهي إليه كل إنسان كما قال ﷺ: «**فزوروا القبور فإنها تُذكركم الموت**»[1].

فقد بَيَّن عليه الصلاة والسلام الغاية من زيارة القبور وأنها تذكر بالآخرة، وما ينبغي للزائر أن يكون قصده من زيارته للقبور.

وهذه حكمة عظيمة تبعث في نفس المؤمن الاستعداد للموت والدار الآخرة، وتحذر من الغفلة والاغترار بالدنيا، وهذه حكمة عظيمة لو عقلها المسلمون.

ثانيهما: من الحكمة في زيارة القبور: الدعاء للميت والاستغفار له والترحم عليه.

وهذه حكمة أخرى من زيارة القبور، وهي حق للميت على الحي، إذ الميت قد انقطع عمله، وهو في أَمَسّ الحاجة وأشدها إلى من يدعو الله له بالمغفرة والرحمة.

فالزائر للقبور على الوجه المشروع تتحقق له هذه الحكمة، ويجمع بين خيرين له وللميت: فله بتذكر الآخرة والاستعداد لها، ونيل ثواب الزيارة وأجرها، وللميت بما حصل له من الاستغفار والدعاء.

هذا هو الذي شرعه رسول الله ﷺ في زيارة القبور والحكمة منها.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧/ ٤٦).

ولكن المشركين عكسوا ذلك فجعلوا الزيارة لدعاء الميت والتوسل به وليس للدعاء له، فيعود الزائر مأزورًا لا مأجورًا، فيجمع بين شرين، ويحرم الميت من حصول الدعاء له بسبب مخالفة هدي رسول الله ﷺ وسنته[١].

الأمر الثاني: الزيارة الشرعية.

بَيَّن رسول الله ﷺ كيفية الزيارة الشرعية للقبور بقوله وعمله، وعَلَّمها أصحابه وعملوا بها كما عَلَّمهم عليه الصلاة والسلام، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ فقال: «**إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم**»، قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: «**قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**»[٢].

وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كان ليلتها منه خرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون غدًا مؤجلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل البقيع الغرقد**»[٣].

وكان رسول الله ﷺ قد نهى عن زيارة القبور أول الأمر سدًّا للذريعة، ثم أذن فيها حين تمكن التوحيد في القلوب، وبَيَّن الزيارة المشروعة وأمر بها، ونهى عن كل ما يخالفها وحذر منه أشد التحذير.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**زوروا القبور فإنها تُذكر الموت**»[٤].

---

(١) انظر: «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» لابن قيم الجوزية (١/ ١٩٨-١٩٩).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧/ ٤٤).

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧/ ٤٠، ٤١).

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧/ ٤٦).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: «**استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزورها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تُذكر الموت**»[١].

وعن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فمن أراد أن يزور فليزر، ولا تقولوا هجرًا**»[٢].

فقد بَيَّن ﷺ الزيارة الشرعية قولًا وعملًا أتم بيان، واتبعه على ذلك أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم في حياته وبعد مماته.

فالزيارة الشرعية يُقصد بها السلام عليهم والدعاء لهم، كما يقصد الصلاة على أحدهم إذا مات فيصلى صلاة الجنازة، فهذه الزيارة الشرعية[٣].

فالحي محتاج إلى اتباع السنة، والحصول على الأجر والثواب، وتذكر الآخرة، والميت محتاج أمس الحاجة إلى من يدعو له ويستغفر أو يترحم

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٦٧٢/ ح٩٧٦) في الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عَزَّ وَجَلَّ في زيارة قبر أمه.

وأبو داود (٣/ ٢١٩/ ح٣٢٣٤) في الجنائز، باب في زيارة القبور، والنسائي (٤/ ٩٠) في الجنائز، باب زيارة قبر المشرك.

وابن ماجه (١/ ٥٠١/ ح١٥٧٢) في الجنائز، باب ما جاء في زيارة قبور المشركين.

(٢) «مسند الإمام أحمد» (١/ ٤٥٢ و٥/ ٣٦١). وقد أخرج الشافعي في «الأم» عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «**ونهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرًا**» وإسناده صحيح. انظر: «الأم» (١/ ٢٧٨).

والهجر: هو الفحش، يقال: أهجر في منطقه يهجر إهجارًا؛ إذا أفحش. انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (٥/ ٢٤٥).

(٣) ابن تيمية - «الفتاوى» (١/ ٢٣٦). وانظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (٥/ ٢٤٥).

عليه.

وتحقيق هاتين المصلحتين كان هدف الشارع من مشروعية زيارة القبور، وما خرج عن ذلك فهو ابتداع لا اتباع وشرك أو ذريعة له.

فهذه الزيارة الشرعية المستفادة من الأحاديث النبوية، وعليها درج الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان، إنما فيها التذكر بالقبور والاعتبار بأهلها والدعاء لهم والترحم عليهم، وسؤال الله العفو عنهم، فمن ادعى فيها غير هذا طولب بالبرهان، وأنى له ذلك، ومن أين يطلبه، بل كذب وافترى، وقفا ما ليس له به علم، بل إن العلوم الشرعية دالة على ضلاله وجهله.

الأمر الثالث: الزيارة غير الشرعية.

وهي إما شركية كزيارة المشركين للقبور لدعاء الموتى وسؤالهم الحوائج من دون الله ﷻ، واعتقاد أنهم يقدرون على ذلك.

وإما بدعية مفضية إلى الشرك كتحري الدعاء عند القبور واعتقاد أنه أفضل منه في مكان آخر، أو أن التوسل بهم إلى الله تبارك وتعالى يقتضي الإجابة.

وكلتا الزيارتين باطلة ومخالفة لما شرعه رسول الله ﷺ في زيارة القبور، وما سار عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ﵃، كما تقدم من الأحاديث الصريحة الصحيحة.

إذ الناس في هذا الباب - أعني زيارة القبور - ثلاثة أقسام: قوم يزورون[1] الموتى فيدعون لهم، وهذه هي الزيارة الشرعية. وقوم يزورونهم يدعون بهم وهؤلاء المشركون في الألوهية والمحبة. وقوم يزورونهم

---

(١) حافظ بن أحمد حكمي - «معارج القبول» (١/ ٤٧٩).

فيدعونهم أنفسهم، وقد قال النبي ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**»[١]، وهؤلاء المشركون في الربوبية[٢].

وهذه الزيارة هي التي فتحت أبواب الشرك والبدع على المسلمين، إذ جعل أهلها القبور مقصدا لمن أراد الدعاء وطلب الحاجات وتفريج الكربات، وعظموها أشد من تعظيم بيوت الله تعالى، فيعطونها من التعظيم والاحترام والخشوع والخضوع ما لا يفعلون بعضه في المساجد التي هي مكان العبادة والصلاة وذكر الله وسؤاله، فبذلك سعوا إلى عمارة القبور والمَشاهد والبناء عليها وإسراجها والدعوة إليها، وخراب المساجد وهجرها، وتقليل مكانتها وعظمتها في نفوس المسلمين.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضُّلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجًّا، ووضعوا له مناسك، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك وسماه «مناسك حج المشاهد» مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عبادة الأصنام.

فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه، ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز العبد عن حصره[٣].

والذين هذا حالهم في زيارتهم للقبور قد تنكبوا الصواب، وغفلوا عن الرشد، وكان أَوْلى لهم من زيارة قبور من يعتقدون صلاحهم للتوسل - كان أولى لهم أن يقتدوا بهم في أعمالهم ويتبعوا سبيلهم، يخافون من الله كما

---

(١) «مسند الإمام أحمد» (٢/ ٢٤٦). وهو حديث صحيح.

(٢) تقي الدين المقريزي - «تجريد التوحيد المفيد» (ص١٩-٢٠).

(٣) ابن قيم الجوزية - «إغاثة اللهفان» (١/ ١٩٧).

يخافون، ويرجون رحمته كما كانوا يرجون. قال الله جل شأنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقبلها قوله ﷻ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهؤلاء الفضلاء من الأئمة إنما ينبغي محبتهم واتباعهم، وإحياء ما أحيوه من الدين، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة والرضوان، ونحو ذلك.

وأما اتخاذ قبورهم أعيادًا، فهو مما حرمه الله ورسوله، واعتياد قصد هذه القبور في وقت معين، أو الاجتماع العام عندها في وقت معين، وهو اتخاذها عيدًا -كما تقدم - ولا أعلم بين المسلمين، أهل العلم في ذلك خلافا، ولا يُغتر بكثرة العادات الفاسدة، فإن هذا من التشبه بأهل الكتابين، الذي أخبرنا النبي ﷺ أنه كائن في هذه الأمة.

وأصل ذلك إنما هو اعتقاد فضل الدعاء عندها، وإلا فلو لم يقم هذا الاعتقاد بالقلوب انمحى ذلك كله، فإذا كان قصدها للدعاء يجر هذه المفاسد كان حرامًا، كالصلاة عندها وأولى، وكان ذلك فتنة للخلق، وفتحًا لباب الشرك، وإغلاقًا لباب الإيمان»[1].

ولقد كان حرص رسول الله ﷺ في هذا الباب شديدًا، فبَيَّن المشروع من ذلك بيانًا واضحًا جليًّا وأمر به وحث عليه، وحذر مما يخالفه أو يكون وسيلة وذريعة إليه أشد التحذير، إذ هو سبب كل شر، وأصل كل شرك في

---

(١) ابن تيمية - «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٧٣٢) تحقيق د. ناصر العقل.

الأرض منذ ظهر الشرك أول ما ظهر في قوم نوح عليه السلام.

الرابع: بعض ما ورد عن رسول الله ﷺ في التحذير والنهي عن ذلك:

فمن ذلك ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها وأم حبيبة رضي الله عنها ذكرتا لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجد وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**»(١).

ولهما أيضًا عنها رضي الله عنها قالت: «لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم كشفها فقال وهو كذلك: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يُتخذ مسجدًا(٢).

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن مَن كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك**»(٣).

واتخاذ القبور مساجد يشمل ثلاثة معانٍ:

الأول: السجود إليها واستقبالها عند الصلاة والدعاء.

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ٥٣١)، ومسلم بشرح النووي (١/ ٣٧٥).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٥٣٢)، ومسلم بشرح النووي (١/ ٣٧٧).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٣٥)، ومسلم في «صحيحه» (٢/ ٦٦٨)، والحاكم في «مستدركه» (٣/ ٢٤٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦/ ٩١)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢/ ٧).

فقد كانوا يسجدون لها تعظيمًا، ويتوجهون إليها في صلاتهم؛ فلذلك لعنهم رسول الله ﷺ، ونهى أمته عن مشابهتهم بعمل مثل هذه الأعمال كما جاء في الأحاديث السابقة وكما في حديث أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها**»[(١)].

الثاني: بناء المساجد على القبور وقصد الصلاة فيها.

وهذا يشمل بناء المساجد على القبور أو إدخال القبور في المساجد، فالعلة الموجودة للنهي قائمة على كلا المعنيين.

وقد ذكر البخاري رحمه الله **ذلك في بابين:**

أحدهما: باب ما يُكره من اتخاذ القبور، وأورد تحته حديث عائشة رضي الله عنها المتقدم، والذي فيه لعن رسول الله ﷺ لليهود والنصارى، وأثرًا عما حدث لامرأة الحسن بن الحسن بن عليّ رضي الله عنهم ونصه: «لما مات الحسن بن الحسن ابن عليّ رضي الله عنهم ضربت امرأته قبة على قبره سنة، ثم رُفعت، فسمعوا صائحًا يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يئسوا فانقلبوا».

والآخر: باب بناء المسجد على القبر، وأورد فيه حديث عائشة رضي الله عنها فيما رأته أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما في أرض الحبشة، وقد تقدم نصه.

وفي شرح حديث عائشة رضي الله عنها في الباب الأول أورد الحافظ ابن حجر رحمه الله قول الكرماني: «مفاد الحديث منع اتخاذ القبر مسجدًا، ومدلول الترجمة اتخاذ المسجد على القبر، ومفهومهما متغاير، ويجاب بأنهما متلازمان وإن تغاير المفهوم»[(٢)].

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/ ٦٢).

(٢) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٣/ ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٨).

الثالث من معاني اتخاذ القبور مساجد: الصلاة على القبور والسجود عليها: كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن رسول الله ﷺ نهى أن يُبنى على القبور أو يُقعد عليها أو يُصلى عليها»[١].

والأحاديث الواردة في النهي عن ذلك تشمل هذه المعاني الثلاثة لأنها جميعًا مما ورد النهي عنه، وهي إما شرك وإما ذريعة إليه.

وتخصيص قبور الأنبياء في كثير من الأحاديث؛ لأن اتخاذها مساجد وقصد الصلاة والدعاء عندها أكثر من غيره، وتعلق الناس بها أعظم.

ومن الأحاديث في التحذير من ذلك إضافة إلى ما سبق - حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد، اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[٢].

وقد استجاب الله دعاء رسوله محمد ﷺ وحمى قبره من أن يُتخذ عيدًا أو وثنًا، فما هذه الحماية التي يسخر الله لها من شاء إلا استجابة له عليه الصلاة والسلام.

قال ابن القيم الجوزية في النونية:

فأجاب رب العالمين دعاءه   وأحاطه بثلاثة الجدران

---

(١) «مسند أبي يعلى» (٢/ ٦٦)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (ص١١٩) حديث رقم (٤١٤)، كتاب جامع الصلاة، عن عطاء بن يسار مرسلًا. وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١/ ٤٠٦) باب الصلاة على القبور برقم (١٥٨٧) عن معمر عن زيد بن أسلم. وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٤١)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥). قال الشيخ ربيع: «فهو معضل عند هؤلاء، لكنه جاء موصولًا عن أبي هريرة...» انظر: «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (ص٣٤)، وقد تقدم تخريج حديث أبي هريرة.

حتى غدت أرجاؤه بدعائه   في عزة وحماية وصيان

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»[1].

فقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا**» معناه: بعدم الصلاة وقراءة القرآن والدعاء فيها، وهذا حث منه ﷺ على إعطاء البيوت قسطًا من نوافل العبادات لما في ذلك من الحِكم والمنافع العظيمة، ومفهوم هذا القول منه ﷺ أن القبور يجب أن تكون خالية من هذه الأمور.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «أي: لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري العبادة في البيوت، ونهى عن تحريها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومَن تشبه بهم من هذه الأمة»[2].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا**»[3].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تُقرأ فيه**»[4].

وهذان الحديثان يدلان على ما دل عليه الحديث الأول من النهي عن تشبيه البيوت بالمقابر في عدم الصلاة والدعاء وقراءة القرآن فيها، والحث على تخصيص شيء من النوافل في البيوت، وذلك يتضمن - كما سبق ذكره

---

(١) «مسند الإمام أحمد» (٢/ ٣٦٧)، وهو حديث صحيح.

(٢) ابن تيمية - «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٧)ت د. ناصر العقل.

(٣) «صحيح البخاري مع الفتح» (١/ ٥٢٨)، و«صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٦٧).

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٦٨).

- النهي عن فعل شيء من ذلك عند القبور.

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر، وأن يقعد عليه وأن يُبنى عليه بناء»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**»(٢).

وهذه الأحاديث وغيرها كثير كلها تنهى وتحذر أشد التحذير من الغلو في القبور والتوسل بأهلها، واتخاذها مساجد ومجاوزة الحد المشروع في تعظيمها وتخصيصها بالدعاء، واعتقاد أفضلية شيء من العبادة عندها، واتخاذها أعيادًا ورفعها والبناء عليها وتجصيصها واتخاذ السُّرُج عليها، وشد الرحال لزيارتها- عدا ما ورد في الحديث السابق- وكل ما خرج عن الحدّ الشرعي الثابت عن رسول الله ﷺ.

كل ذلك كان حرصًا منه عليه الصلاة والسلام على عقيدة التوحيد لتبقى طاهرة صافية نقية، وسد كل طرق الشرك أو ذرائعه حتى ولو لم تكن شركًا في نفسها؛ لئلا يمس جانب هذه العقيدة دنس من الشرك، أو بدعة، وعلى الأخص ما يتعلق بالقبور وأهلها، فقد اهتم به أعظم اهتمام حتى في اللحظات الأخيرة من حياته عليه الصلاة والسلام، وفي وقت النزع والاحتضار لأن هذا الباب هو الذي دخل منه الشرك على الناس على مدار التاريخ وأخطر مِعول يهدم بناء التوحيد الذي بناه الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام بوحي من ربهم جل شأنه وتعالى ذكره، وتوحيد العبادة

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٢/ ٦٦٧).

(٢) «صحيح البخاري مع الفتح» (٣/ ٦٣)، و«صحيح مسلم بشرح النووي» (٩/ ١٦٧، ١٦٨).

على وجه الخصوص وهو التوحيد الذي كان أول ما دعا إليه الرسل جميعًا عليهم الصلاة والسلام أممهم وقامت بينهم الخصومة فيه، بل وقد يفضي غلو بعض الناس في القبور وأهلها إلى الإخلال بتوحيد الربوبية والعياذ بالله تعالى.

وكما حذر رسول الله ﷺ ونهى عن الشرك وذرائعه في هذا الباب الخطير بَيَّن الطريق المشروع ووضحه ودعا إليه الناس جميعًا، وسار عليه هو وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، ورباهم حماة لهذه العقيدة مجاهدين في سبيلها، ودعاة إليها، على ذلك المنهج القويم والصراط المستقيم الذي أنزله ربهم تبارك وتعالى، وبينه رسوله ﷺ.

«فلو كان الدعاء عند القبور والصلاة عندها والتبرك بها فضيلة أو سنة أو مباحًا لنصب المهاجرون والأنصار عَلَمًا لذلك، ودعوا عنده، وسنوا ذلك لمن بعدهم، ولكن كانوا أعلم بالله ورسوله ودينه من الخلوف التي خلفت بعدهم، وكذلك التابعون لهم بإحسان راحوا على هذا السبيل، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله ﷺ بالأمصار عدد كثير، وهم متوافرون، فما منهم من استغاث عند قبر صاحب، ولا دعاه ولا دعا به، ولا دعا عنده ولا استشفى به، ولا استسقى به ولا استنصر به، ومن المعلوم أن مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله بل على نقل ما هو دونه»[١].

بل الثابت ضد ذلك أنهم كانوا ينهون عن أقل من ذلك، كما ثبت أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قطع الشجرة التي بايع تحتها أصحاب رسول الله. وكما أنكر رضي الله عنه على أنس صلاته عند القبر، وقال له: «القبر، القبر»[٢]. وكما

---

(١) ابن قيم الجوزية - «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٢٠٤).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٥٢٣).

فعل الصحابة رضي الله عنهم بقبر دانيال لما فتحوا (تُسْتَر)[١]، إذ حفروا قبورًا متفرقة ودفنوه ليلًا في إحداها وسووا القبور جميعًا لئلا يعرفه الناس[٢].

وهذه ثمرة تربية رسول الله ﷺ لهؤلاء الأخيار الذين كانوا جنودًا أقوياء لهذه العقيدة، وحراسًا أوفياء لها، يحبون ويعظمون ما أحبه الله ورسوله وعظمه ويكرهون ويحرمون ما كرهه الله ورسوله وحرمه.

وإنما دين الله تعالى تعظيم بيوت الله وحده لا شريك له، وهي المساجد التي تُشرع فيها الصلوات جماعة وغير جماعة، والاعتكاف وسائر العبادات البدنية والقلبية من القراءة والذكر والدعاء لله.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨] وقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨][٣].

---

(١) تستر: بضم التاء الأولى وفتح الثالثة وبينهما سين ساكنة: مدينة بإقليم خوزستان، فتحها أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموي (٢/ ٢٩).

(٢) انظر: كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٦٨٠) ت د. ناصر العقل، و«إغاثة اللهفان» لابن قيم الجوزية (١/ ٢٠٣).

(٣) «حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد» بتصرف (ص: ٢٩٤).

الفصل الثالث: التبرك

وكما حرص رسول الله ﷺ على بيان الطريق المشروع فيما يتعلق بالقبور، وحذر من مخالفته واهتم بذلك أعظم اهتمام؛ كذلك كان عليه الصلاة والسلام في أمر التبرك وارتباطه بالقبور واضحًا جليًّا، إذ هو هدف كثير ممن يقصد القبور والمَشاهد ويتمسح بها ويتحرى الصلاة عندها.

روى أبو واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ قِبَل حُنين، ونحن حديثو عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال النبي ﷺ: «**الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، لتركبُن سنن من كان قبلكم**»[1].

«فأنكر النبي ﷺ مجرد مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها، معلقين عليها سلاحهم، فكيف بما هو أعظم من ذلك من مشابهتهم المشركين، أو هو الشرك بعينه؟ فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها ولم تستحب الشريعة ذلك، فهو من المنكرات، وبعضه أشد من بعض، سواء كانت البقعة شجرة أو عين ماء أو قناة جارية، أو جبلًا، أو مغارة، وسواء قصدها ليصلي عندها أو يدعو عندها، أو ليَذكر الله سبحانه عندها، أو ليتنسك عندها، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيص تلك البقعة به لا عينًا ولا نوعًا.

---

(١) سنن الترمذي (٤/ ٤٧٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١/ ٢٣٥).

وأقبح من ذلك أن ينذر لتلك البقعة دهنًا لتنور به ويقال: إنها تقبل النذر، كما يقول بعض الضالين، فإن هذا النذر نذر معصية باتفاق العلماء، ولا يجوز الوفاء به، بل عليه كفارة يمين عند كثير من أهل العلم»[(١)].

وتخيل إذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسنًا، من النبي ﷺ حتى بين لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والفضل بأضعاف مضاعفة، مع غلبة الجهل وبُعد العهد بآثار النبوة، بل عليهم عظائم الشرك في الإلهية والربوبية، فأكثروا فعله، واتخذوه قربة[(٢)(٣)].

الفصل الرابع: الرقى والتمائم

المقصود بالرقى غير المشروع منها وهي التي تسمى العزائم، التي يعتقدون فيها دفع الآفات والحفظ من المكروهات، وهي المقصود في قول الرسول ﷺ كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»[(٤)].

أما ما كان منها من المشروع والمأثور عن رسول الله ﷺ فلا يدخل في ذلك؛ لما جاء في الحديث عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: «**اعرضوا عليّ**

(١) ابن تيمية - «اقتضاء الصراط المستقيم» تحقيق د. ناصر العقل (٢/ ٦٤٤).

(٢) «فتح المجيد» بتصرف (ص١١٤).

(٣) «حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد» بتصرف (ص: ٣١٠).

(٤) «مسند الإمام أحمد بن حنبل» (١/ ٣٨١). وقد صححه الحاكم على شرط الشيخين وأقره الذهبي.

رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا»[١].

والرقى المشروعة هي التي توفرت فيها شروط ثلاثة:

الأول: أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته.

الثاني: أن تكون باللسان العربي وبمعانٍ معروفة.

الثالث: أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله ﷻ.

أما التمائم: فهي جمع تميمة وهي: ما يعلق عادة على الصبيان من خرز أو عظام أو جلد أو نحو ذلك لاعتقاد دفع العين عنهم، وقد نهى عنها رسول الله ﷺ لما فيها من شرك أو ذريعة إليه.

والتول - بكسر التاء وفتح الواو واللام مخففًا - شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها. وهو ضرب من السحر.

ولما كانت لهذه الأشياء من الكثرة والانتشار بين الناس قديمًا وحديثًا، وما يعتقد أن تفضي إليه من مخالفة لعقيدة التوحيد، ومنافاة لصحة التوكل على الله ﷻ واعتقاد في غيره فيما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه، فقد حرص رسول الله ﷺ على حماية التوحيد من مثل الأمور التي قد يتساهل فيها المرء مع خطورتها.

فمَن تعلق بالله، وأنزل حوائجه به، والتجأ إليه، وفوض أمره إليه؛ كفاه وقرب إليه كل بعيد، ويَسَّر له كل عسير. ومن تعلق بغيره أو سكن إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك؛ وكله الله إلى ذلك وخذله. وهذا معروف بالنصوص والتجارب، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١/ ١٨٧).

الفصل الخامس: الاستسقاء بالأنواء

قد حرص الرسول ﷺ أن يبين لأمته ما كان عليه أهل الجاهلية من شرك وضلال، وأمرهم بالحذر من ذلك والبعد عنه، وأهم ذلك وأعظمه ما كان متعلقًا بأمور الاعتقاد، ومن ذلك ما كان شائعًا في الجاهلية من نسبة نزول المطر إلى النجوم ومطالعها ومغاربها، وبَيَّن عليه الصلاة والسلام ما في ذلك من الشرك المنافي للتوحيد، كما جاء في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة**» وقال: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سِرْبال من قطِران ودرع من جَرَب**»(١).

والحديث عن الاستسقاء بالنجوم والأنواء يدفع إلى الكلام عن التنجيم وما جاء فيه عن رسول الله ﷺ:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**»(٢).

فهذا الحديث يبين أن التنجيم نوع من أنواع السحر الذي عده رسول الله ﷺ من الموبقات في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم،**

(١) أحمد (٥/ ٣٤٤)، ومسلم (٢/ ٦٤٤) (٩٣٤).

(٢) «مختصر أبي داود» للحافظ المنذري (٥/ ٣٧١) وهو حديث صحيح.

والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[(١)].

وهناك أحاديث أخرى في التحذير من ذلك حرصًا منه عليه الصلاة والسلام على حماية التوحيد وسلامته من دنس الشرك ووسائله وطرقه.

وقد نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ يبين الحكمة من خلق النجوم: قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: ٥] وقال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٧].

فهذه ثلاث حِكم جعلها الله ﷻ في خلق النجوم فهي زينة للسماء، ورجوم تُرجم بها الشياطين عند استراقهم السمع، ووسيلة للاهتداء في ظلمات البر والبحر.



(١) «صحيح البخاري مع الفتح» (٥/ ٣٩٣)، و«صحيح مسلم بشرح النووي» (١/ ٩٢).

الفصل السادس: مسائل أخرى كثيرة

قد حرص الرسول ﷺ أن يبين لأمته ما كان عليه أهل الجاهلية من شرك وضلال، وأمرهم بالحذر من ذلك والبعد عنه، وأهم ذلك وأعظمه ما كان متعلقًا بأمور الاعتقاد، ومن ذلك ما كان شائعًا في الجاهلية من التطير والسحر والكهانة والاستشفاع والاستعاذة والاستغاثة بالأموات أو بالبشر فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى أو دعاء الموتي أو غير ذلك من الشركيات التي تصدى لها المصطفى ﷺ وأعلم الأمة بالحق في هذه الأمور وغيرها الذي يقربها لربها ويعبدها له سبحانه على علم وبحق.

والموضع هنا لا يتسع للتعرض لكل هذه الأمور بالعرض المنفرد لكل واحدة علي حدة، فمن شاء فليرجع لكتب أهل العلم في ذلك يجد ما يشفي صدره بعون الله تعالى وبالأخص كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.





المبحث العاشر: أركانه

توحيد الألوهية يقوم على أركان ثلاثة هي:

١- توحيد الإخلاص: ويسمى توحيد المراد، فلا يكون للعبد مرادٌ غير مراد واحد وهو الله ﷻ فلا يزاحمه مرادٌ آخر.

٢- توحيد الصدق: ويسمى توحيد إرادة العبد، وذلك بأن يبذل جهده وطاقته في عبادة ربه.

٣- توحيد الطريق: وهو المتابعة للرسول ﷺ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فلواحدٍ كن واحدًا في واحدٍ، أعني سبيل الحق والإيمان

فقوله: (فلواحدٍ): أي: لله، وهذا هو توحيد المراد.

وقوله: (كن واحدًا): في عزمك، وصدقك، وإرادتك، وهذا هو توحيد الإرادة.

وقوله: (في واحد): هو متابعة الرسول ﷺ الذي هو طريق الحق والإيمان، فهذا هو توحيد الطريق.

والأدلة على هذه الأركان الثلاثة كثيرة، فمن أدلة الإخلاص قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

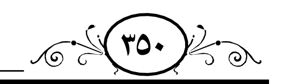
ودليل الصدق قوله - تعالى: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرًا﴾ [محمد: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]،

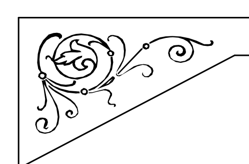
ودليل المتابعة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

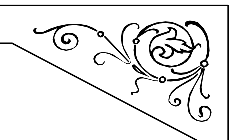
فمن اجتمعت له هذه الثلاثة نال كل كمال وسعادة وفلاح، ولا ينقص كمال العبد إلا بنقص واحد من هذه الأشياء[١].



(١) «توحيد الألوهية» (ص: ٧).







المبحث الحادي عشر: العبادة

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: تعريف العبادة لغةً، واصطلاحًا

معنى العبادة لغة: هو التذلل والخضوع.

قال الراغب الأصفهاني: «العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل»[1].

وقال الجوهري: «العبادة: الطاعة، والتعبد: التنسك... وأصل العبودية الخضوع والذل»[2].

وقال ابن الأنباري: «فلان عابد؛ وهو الخاضع لربه المستسلم لقضائه المنقاد لأمره»[3].

وقال ابن جرير: «العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة، وأنها تسمي الطريق المذلل الذي قد وطئته الأقدام وذللته السابلة معبَّدًا»[4].

هذا ما قاله أهل اللغة في كتبهم حول معنى العبادة؛ فنجد عباراتهم تكاد

---

(١) «المفردات في غريب القرآن» (ص٣١٩).

(٢) «الصحاح» (٢/ ٥٠٣).

(٣) «تهذيب اللغة» (٢/ ٢٣٦).

(٤) «جامع البيان» (١/ ١٦١).

تكون متطابقة.

أما معنى العبادة في الاصطلاح: فهي توحيد الله بالذل والخضوع مع كمال المحبة والطاعة.

قال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي: لك اللهم نخشع ونذل ونستكين؛ إقرارًا لك يا ربنا بالربوبية لا لغيرك».

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك[١]...»[٢].

وقال الأزهري: «وقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] أي: أطيعوا ربكم. وقيل في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إياك نوحد. والعابد: الموحد»[٣].

وقال البغوي[٤] في قوله تعالى: «﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أي: نوحدك ونطيعك خاضعين، والعبادة: الطاعة مع التذلل. وسُمي العبد عبدًا لذلته وانقياده، يقال: طريق مُعَبَّد، أي: مذلل»[٥].

---

(١) الأثر أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩)، وأورده ابن كثير في «تفسيره» والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٤)، وعزاه إلى ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٦٠) ط دار المعارف.

(٣) «تهذيب اللغة» (٢/ ٢٣٦).

(٤) هو الحسين بن مسعود بن محمد الفراء الشافعي البغوي، قال عنه الذهبي: «الإمام الحافظ الفقيه المجتهد محيي السنة... صاحب معالم التنزيل وشرح السنة والتهذيب والمصابيح وغير ذلك... وبورك له في تصانيفه لقصده الصالح فإنه كان من العلماء الربانيين، وكان ذا تعبد ونسك وقناعة باليسير» مات سنة (٥١٦هـ). تذكرة الحفاظ (١/ ١٢٥٧-١٢٥٨)، وانظر ترجمته في «طبقات الشافعية» للسبكي (٧/ ٧٥)، و«شذرات الذهب» (٤/ ٤٨).

(٥) «تفسير البغوي» (١/ ٤١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له، ومَن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، كما يحب الرجل ولده وصديقه. ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عندهم من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله. وكل ما أُحبّ لغير الله فمحبته فاسدة وما عُظِّم بغير أمر الله فتعظيمه باطل»[1].

ويطلق اسم العبادة على الأعمال الشرعية التي تُفعل تقربًا إلى الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[2][3].

الفصل الثاني: شروط العبادة

العبادة الشرعية لا تكون مقبولة عند الله ومرضية إلا أن تتوفر فيها ثلاثة أصول، وإلا فهي مردودة على صاحبها غير مقبولة.

وفي بيان تلك الأصول الثلاثة يقول صاحب كتاب أضواء البيان:

«اعلم أولًا أن القرآن العظيم دل على أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور:

الأول: موافقته لما جاء به النبي ﷺ لأن الله يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ

---

(١) «العبودية» (ص٤٤).

(٢) «العبودية» (ص٣٨).

(٣) «أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة» (ص: ٢٥١).

فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

الثاني: أن يكون خالصًا لله تعالى لأن الله جلّ وعلا يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥]. ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾﴾ [الزمر: ١٤]. ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٥].

الثالث: أن يكون مبنيًّا على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن الله يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]. فقيَّد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح.

وقد أوضح جلّ وعلا هذا المفهوم في آيات كثيرة كقوله في عمل غير المؤمن: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٦]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩]. وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨]...»[1][2].

* * *

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٣٥٢-٣٥٣).

(٢) «أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة» (ص: ٢٥١).

الفصل الثالث: انقسام العبودية إلى عبودية عامة وعبودية خاصة

العبودية العامة: هي عبودية القهر والمِلك، أو هي العبودية القسرية، وتتمثل في عبودية الخلق كلهم لله تعالى، أبرارًا وفجارًا، مؤمنين وكافرين؛ لأن الله ربهم ومليكهم لا يخرجون عن ملكه ومشيئته وقدرته، يقول تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣] فالكائنات كلها مسلمة لله، ومتعبدة له التعبد التام، سواء من أقر ومن أنكر. هذه هي عبودية الربوبية التي لا تُخرج صاحبها من الكفر إلى الإيمان، وقد ذكرت في القرآن بعدة مواضع مثل قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ أي: ذليلًا خاضعًا.

والعبودية الخاصة: هي الفرق ما بين أولياء الله وأولياء الشيطان، فلما كان الخلق جميعًا عبيدًا للربوبية، انفرد المؤمنون بالعبودية الخاصة، فهم عبيد ألوهيته تعالى؛ لأنهم خضعوا طوعًا واختيارًا وحبًّا، وتسمى هذه العبودية عبودية الطاعة والمحبة أو العبودية الإرادية أو عبودية الألوهية؛ لأن المؤمنين أفردوا الله بالألوهية.

وقد وردت هذه العبودية الخاصة بالقرآن حيث نسب أصحابها إليه تعالى فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] وقال: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٦٨] وهم الذين خرجوا من سلطان إبليس وإنما

سلطانه على من تولاه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

والفرق بين العبودية العامة والخاصة:

١- العبودية العامة تشمل الخلق كلهم، والخاصة لا يدخل فيها إلا المؤمنون. فيشترك المؤمنون مع الكافرين في العبودية العامة وينفرد المؤمنون بالعبودية الخاصة.

٢- العبودية العامة قهرية قسرية لا خروج للكائنات عنها، وأما العبودية الخالصة فهي إرادية اختيارية.

٣- أن الحساب والجزاء يوم القيامة على العبودية الخاصة؛ لأنها هي المطلوبة من العباد؛ ولذلك كانت العبودية العامة لا تدخل في الإيمان ولا في الجنة ولا تُخلص صاحبها من النار ما لم يدخل في العبودية الخاصة.

٤- العبودية العامة لا تأتي في القرآن إلا مقيدة، وتأتي العبودية الخاصة مطلقة، فإذا أضيف العباد إلى الله في القرآن مطلقًا عني بهم عبيد إلهيته، وأما إضافة عبيد الربوبية فتأتي مقيدة، كما بَيَّن ذلك ابن القيم بقوله: «فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته»[(١)].

الفصل الرابع: أركان العبادة

إن العبادة ترتكز على ثلاث ركائز هي: الحبُّ والخوفُ والرجاء.

فالحب مع الذّل، والخوف مع الرجاء، لا بد في العبادة من اجتماع هذه الأمور، قال تعالى في وصف عباده المؤمنين: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]،

(١) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» بتصرف (ص: ١٠٠).

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقال في وصف رُسُله وأنبيائه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال بعض السلف: مَن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومَن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومَن عبده بالخوف وحده فهو حروري ومَن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن مُوحِّد.

ذكر هذا شيخُ الإسلام في رسالة (العبودية) وقال أيضًا: (فدين الله: عبادته وطاعته والخضوع له، والعبادة أصل معناها: الذل، يقال: طريقٌ مُعبَّدٌ، إذا كان مُذللًا قد وطئته الأقدام. لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية الحب له، ومَن خضَعَ لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له، ولو أحبّ شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، كما يُحبُّ الرجل ولده وصديقه؛ ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله..) انتهى.

هذه ركائز العبودية التي تدور عليها، قال العلامة ابن القيم في النونية:

وعبادةُ الرحمن غايةُ حُبِّه ... مع ذُلِّ عابده هُما قطبان

وعليهما فَلكُ العبادة دائرٌ ... ما دار حتى قامتِ القُطبان

ومَدارهُ بالأمر أمرِ رَسوله ... لا بالهوى والنفسِ والشيطانِ

شبَّه رَحِمَهُ اللَّهُ دورانَ العبادة على المحبة والذل للمحبوب - وهو الله جل وعلا - بدوران الفلك على قطبيه، وذكر أن دوران فلك العبادة بأمر الرسول ﷺ وما شرعه، لا بالهوى وما تأمر به النفس والشيطان فليس ذلك من

العبادة. فما شرعه الرسول ﷺ هو الذي يدير فلك العبادة، ولا تُديره البدع والخرافات والأهواء وتقليد الآباء[1].

الفصل الخامس: أنواع العبادة

تقدم أن معنى العبادة معنى شامل للأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فمنها العبادة القولية، ومنها العبادة العملية، ومنها العبادة الاعتقادية.

فبحكم هذا التنوع تكون العبادة موزعة على القلب واللسان والجوارح، فلكل من هذه الجهات نصيب من العبادة.

فالعبادة الاعتقادية: مثل اعتقاد أن الله رب كل شيء وخالقه ومالكه، له الخلق والأمر وبيده النفع والضر وأنه لا شريك له ولا كفء له ولا ند له وأنه لا معبود بحق غيره.

وكذا حب الله ورجاؤه والخوف والخشوع والإنابة والتوكل وإخلاص العمل لله وحده، فهذه المطالب هي نصيب القلب من العبادة.

والعبادة القولية: مثل النطق بالشهادتين وتلاوة القرآن في الصلاة وفي غيرها والتلفظ بالأذكار الواردة في الصلاة، والحج، ومثل الدعاء، والثناء والحمد والشكر، والاستغفار، وصدق الحديث، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فهذه المطالب هي نصيب اللسان من العبادة.

والعبادة العملية: مثل الصلوات الخمس، وما يتعلق بها وسائر أركان الإسلام من زكاة وصيام وحج، وكذا الجهاد العملي لأعداء الإسلام، وسائر

---

(١) «عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك» (ص: ٥٦).

الواجبات المندوبات.

فهذه المطالب هي نصيب الجوارح من عبادة الله تعالى(١).

الفصل السادس: في بيان مفاهيم خاطئة في تحديد العبادة

العبادات توقيفية: بمعنى أنه لا يُشرع شيء منها إلا بدليل من الكتاب والسنة، وما لم يُشرع يُعَد بدعة مردودة، كما قال النبي ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢). أي: مردود عليه عمله، لا يُقبل منه، بل يأثم عليه؛ لأنه معصية وليس طاعة.

ثم إن المنهج السليم في أداء العبادات المشروعة هو الاعتدال بين التساهل والتكاسل، وبين التشدد والغلو. قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾ [هود: ١١٢].

فهذه الآية الكريمة فيها رسم لخطة المنهج السليم في فعل العبادات، وذلك بالاستقامة في فعلها على الطريق المعتدل؛ الذي ليس فيه إفراط ولا تفريط؛ حسب الشرع (كما أُمرت) ثم أكد ذلك بقوله: (ولا تطغوا) والطغيان: مجاوزة الحد بالتشدد والتنطع، وهو الغلو.

ولما علم ﷺ بأن ثلاثة من أصحابه تقالوا أعمالهم، حيث قال أحدهم:

---

(١) «أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة» (ص: ٢٥٣).

(٢) البخاري تعليقًا بصيغة الجزم (٤/ ٢٩٨) في البيوع: باب النجش ووصله في الصلح (٥/ ٢٢١) باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. ومسلم رقم (١٧١٨) في الأقضية: باب نقض الأحكام الباطلة. وأبو داود في السنة: باب لزوم السنة (٢/ ٥٠٦)، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة: باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ رقم (١٤).

أنا أصوم ولا أفطر. وقال الآخر: أنا أصلي ولا أرقد. وقال الثالث: أنا لا أتزوج النساء. قال ﷺ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَمَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنَامُ وَأُصَلِّي، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[١].

وهناك الآن فئتان من الناس على طرفي نقيض في أمر العبادة.

الفئة الأولى: قصَّرت في مفهوم العبادة وتساهلت في أدائها حتى عطلت كثيرًا من أنواعها، وقصرتها على أعمال محدودة وشعائر قليلة تؤدى في المسجد فقط، ولا مجال للعبادة في البيت، ولا في المكتب، ولا في المتجر، ولا في الشارع، ولا في المعاملات، ولا في السياسة، ولا في الحكم في المنازعات، ولا غير ذلك من شئون الحياة.

نعم، للمسجد فضلٌ، ويجب أن تؤدى فيه الصلوات الخمس، ولكن العبادة تشمل كل حياة المسلم؛ داخل المسجد وخارجه.

الفئة الثانية: تشددت في تطبيق العبادات إلى حد التطرف، فرفعت المستحبات إلى مرتبة الواجبات، وحرَّمت بعض المباحات، وحكمت بالتضليل أو التخطئة على من خالف منهجها وخطَّأ مفاهيمها.

وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها[٢].

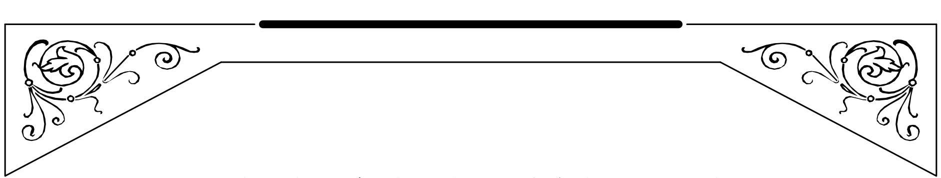
❊ ❊ ❊

---

(١) وأخرجه مسلم (ص١٠٢٠)، والنسائي في باب النهي عن التبتل (٦/ ٦٠)، والبخاري (٩/ ١٠٤) «فتح».

وأخرجه مسلم في المغازي (٤٦) وانظر: حديث (١٢٨٤).

(٢) «عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك» بتصرف (ص: ٥٦).



المبحث الثاني عشر: الولاء والبراء

وفيه تسعة فصول:

الفصل الأول: تعريف الولاء والبراء لغةً واصطلاحًا

أولًا: معنى الولاء لغة:

الولاء مصدر من والى يوالي ولاء وموالاة، بمعنى: أحب، وقَرَّب، وأدنى، وحابى. والمولى: الحليف، وهو من انضم إليك فعز بعزك وامتنع بمنعتك. وتولاك الله: أي نَصَرَك. والولي: ضد العدو، وهو: المحب، والصديق، والنصير، والتابع[١].

فالولاء على هذا يعني في اللغة: الحب، والدنو، والقرب، والنصرة.

ثانيًا: معنى البراء لغة:

البراء مصدر من برئ يبرأ براء وبراءة، بمعنى: أبغض، وتباعد، وتخلص.

يقال: بارأت الرجل؛ إذا فارقته. وبارأت المرأة؛ إذا صالحتها على

---

(١) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (ص٦٨٩)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (ص١٧٣٢)، و«لسان العرب» لابن منظور (١٥/ ٤٠٦-٤١٤)، و«المعجم الوسيط» لجماعة من المؤلفين (ص١٠٥٧).

الفراق. وبرئت من كذا؛ إذا تخلصت منه، وتنزهت، وتباعدت عنه. وبرئ المريض بُرءًا وبُرءًا، إذا شُفي وتخلص مما به. وبرئ فلان من فلان؛ إذا تباعد وتخلى عنه[١].

فالبراء لغة يأتي بمعنى التخلص، والتنزه، والتباعد، والتباغض، والتجافي، والمفارقة.

ثالثًا: معنى الولاء شرعًا:

الولاء في الشرع: هو النصرة، والمحبة، والإكرام، والاحترام، والكون مع المحبوبين ظاهرًا وباطنًا[٢]. فهو يعني التقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنيات لمن يتخذه الإنسان وليًّا.

فإن كان هذا التقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنيات مقصودًا به الله ورسوله والمؤمنون؛ فهي الموالاة الشرعية الواجبة على كل مسلم.

وإن كان المقصود بالتقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنيات هم الكفار على اختلاف أجناسهم؛ فهي موالاة كفر وردة عن الإسلام إذا صدرت ممن يدعي الإسلام.

أما الكفار ومن في حكمهم من المرتدين والمنافقين، فبعضهم أولياء بعض، فلا يُستغرب منهم ذلك[٣].

---

(١) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (ص٣٤)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي ص٤٢)، و«لسان العرب» لابن منظور (١/ ٣١-٣٤)، و«المعجم الوسيط» لجماعة من المؤلفين (ص٤٦).

(٢) انظر: «الولاء والبراء في الإسلام» لمحمد بن سعيد بن سالم القحطاني (ص٩٢).

(٣) كتاب «الإيمان: أركانه، حقيقته، نواقضه» للدكتور محمد نعيم ياسين (ص١٨٨).

رابعًا: معنى البراء شرعًا:

البراء في الشرع: هو البعد، والخلاص، والعداوة بعد الإعذار والإنذار[(١)]. فهو يعني بغض أعداء الله تعالى، ومعاداتهم، ومجافاتهم، والتبري منهم[(٢)]. والتخلص من قبائحهم وباطلهم، والتنحي عن التشبه بهم[(٣)(٤)].

الفصل الثاني: أهمية الولاء والبراء

لعقيدة الولاء والبراء منزلة عظيمة في الشرع، تتلخص فيما يأتي[(٥)]:

١- إن عقيدة الولاء والبراء يرددها المسلم يوميًّا مرات كثيرة، كلما ردد كلمة الإخلاص: «لا إله إلا الله»؛ لأنها تعني البراء من كل ما يُعبد من دون الله.

وهذه الكلمة مزقت كل رابطة، وأهدرت كل وشيجة، إلا وشيجة العقيدة.

٢- إن الحب في الله والبغض في الله شرط من شروط صحة «لا إله إلا

---

(١) انظر: «الولاء والبراء في الإسلام» لمحمد بن سعيد بن سالم القحطاني (ص٩٢).

(٢) انظر: «حقيقة الولاء والبراء في معتقد أهل السنة والجماعة» لسيد سعيد عبد الغني (ص٣٣).

(٣) انظر: «مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» لعثمان جمعة ضميرية (ص٣٦٧).

(٤) «المفيد في مهمات التوحيد» (ص: ٢٠٢).

(٥) انظر: «الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية» لمحماس بن عبد الله الجلعود (ص١٨٧-٣٣٠)، و«المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» للدكتور إبراهيم البريكان (ص٢٢٥-٢٢٧).

الله»؛ لأن من شروطها: حبها، وحب ما دلت عليه، وحب من نطق بها، ودعا إليها، وبغض ما يضادها.

٣- إن عقيدة الولاء والبراء هي أوثق عرى الإيمان، يقول رسول الله ﷺ: **«أوثق عرى الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله»**[(١)].

٤- إن تحقيق عقيدة الولاء والبراء من مكملات الإيمان، يقول رسول الله ﷺ: **«مَن أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان»**[(٢)].

٥- إن تحقيق عقيدة الولاء والبراء تحقيقًا تامًّا سبب لنيل ولاية الله ﷻ.

٦- إنها سبب لذوق القلب حلاوة الإيمان.

٧- إن الاتصاف بصفة الحب في الله سبب لنيل الأجر العظيم؛ فالمتحابون في الله يظلهم الله في ظله، يقول ﷺ: **«إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»**[(٣)]. والتحاب في الله سبب لنيل محبة الله ﷻ[(٤)].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس. وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (١/ ٤٩٧)، رقم (٢٥٣٩)، وفي «السلسلة الصحيحة» رقم (١٧٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه. وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٨٨٦)، و«صحيح الجامع الصغير» (٢/ ١٠٤٢)، رقم (٥٩٦٥)، وفي «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٨٠).

(٣) رواه مسلم رقم (٣٥٦٦) في البر والصلة، باب في فضل الحب في الله، ومالك في الموطأ (٢ / ٩٥٢) في الشعر، باب ما جاء في المتحابين في الله.

(٤) «المفيد في مهمات التوحيد» (ص: ٢٠٤).

الفصل الثالث: عقيدة أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء

لابد أن نذكر معتقد أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء حتى يخرج بذلك أرباب البدع والأهواء التي لا تستند إلى دليل قوي من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: على المؤمن أن يعادي في الله ويوالي في الله، فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه وإن ظلمه؛ فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية. قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]. فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغي، وأَمَر بالإصلاح بينهم.

فليتدبر المؤمن أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك. فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام والثواب لأوليائه والإهانة والعقاب لأعدائه.

وإذا اجتمع في الرجل الواحد: خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة؛ استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة؛ كاللص تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته.

هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة، وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم(١).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢٠٨- ٢٠٩).

ولمّا كان الولاء والبراء مبنيين على قاعدة الحب والبغض كما أسلفنا فيما سبق؛ فإن الناس في نظر أهل السنة والجماعة - بحسب الحب والبغض والولاء والبراء - ثلاثة أصناف:

الأول: مَن يُحَب جملة. وهو من آمن بالله ورسوله، وقام بوظائف الإسلام ومبانيه العظام علمًا وعملًا واعتقادًا. وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله، وانقاد لأوامره وانتهى عما نهى الله عنه، وأحب في الله ووالى في الله، وأبغض في الله وعادى في الله، وقَدَّم قول رسول الله ﷺ على قول كل أحد كائنًا من كان[(١)].

الثاني: مَن يُحَب من وجه ويُبغَض من وجه، فهو المسلم الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، فيُحَب ويوالى على قدر ما معه من الخير، ويبغض ويعادى على قدر ما معه من الشر.

ومن لم يتسع قلبه لهذا كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

وإذا أردت الدليل على ذلك فهذا عبد الله بن حمار[(٢)]. وهو رجل من أصحاب رسول الله ﷺ - كان يشرب الخمر، فأُتي به إلى رسول الله ﷺ فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به!! فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**»[(٣)]. مع أنه ﷺ لعن الخمر وشاربها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه[(٤)].

---

(١) «إرشاد الطالب» لابن سحمان (ص١٣).

(٢) قال ابن حجر: كان يهدي إلى النبي ﷺ ويضحكه في كلامه. انظر: «الاصابة» (٤/ ٢٧٥) تحقيق البخاري.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب ما يُكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة (١٢/ ٧٥ ح ٦٧٨٠).

(٤) سنن أبي داود (٤/ ٨٢، ح٣٧٦٤) كتاب الأشربة، وابن ماجه (٢/ ١٢٢، =

الثالث: مَن يُبْغَض جملة، وهو مَن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولم يؤمن بالقدر خيره وشره وأنه كله بقضاء الله وقدره، وأنكر البعث بعد الموت، وترك أحد أركان الإسلام الخمسة، أو أشرك بالله في عبادته أحدًا من الأنبياء والأولياء والصالحين، أو صرف لهم نوعًا من أنواع العبادة كالحب والدعاء والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة، والذبح والنذر والإنابة والذل والخضوع والخشية والرغبة والرهبة والتعلق، أو ألحد في أسمائه وصفاته واتبع غير سبيل المؤمنين، وانتحل ما كان عليه أهل البدع والأهواء المضلة، وكذلك كل من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها[١].

فأهل السنة والجماعة - إذن - يوالون المؤمن المستقيم على دينه ولاء كاملًا ويحبونه وينصرونه نصرة كاملة، ويتبرءون من الكفرة والملحدين والمشركين والمرتدين ويعادونهم عداوة وبغضًا كاملين. أما من خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا فيوالونه بحسب ما عنده من الإيمان، ويعادونه بحسب ما هو عليه من الشر.

وأهل السنة والجماعة يتبرءون ممن حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].

ويمتثلون لنهيه تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ

= ح٣٣٨٠) في الأشربة وقال الشيخ الألباني: صحيح. انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٥/ ١٩ ح٤٩٦٧).

(١) «إرشاد الطالب» (ص١٩).

﴿وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ويلخص الإمام ابن تيمية مذهب أهل السنة والجماعة فيقول: (الحمد والذم والحب والبغض والموالاة والمعادة - إنما تكون بالأشياء التي أنزل الله بها سلطانه، وسلطانه كتابه، فمَن كان مؤمنًا وجبت موالاته من أي صنف كان، ومن كان كافرًا وجبت معاداته من أي صنف كان.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦].

وقال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة:٧١].

ومَن كان فيه إيمان وفيه فجور أُعطي من الموالاة بحسب إيمانه ومن البغض بحسب فجوره، ولا يخرج من الإيمان بالكلية بمجرد الذنوب والمعاصي كما يقول الخوارج والمعتزلة.

ولا يُجعل الأنبياء والصِّديقون والشهداء والصالحون بمنزلة الفساق في الإيمان والدين والحب والبغض والموالاة والمعاداة، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ٩-١٠]. فجعلهم إخوة مع وجود الاقتتال والبغي.

(. . . ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضًا موالاة الدين لا يعادون كمعاداة الكفار، فيَقبل بعضهم بشهادة بعض، ويأخذ بعضهم العلم من بعض، ويتوارثون ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك)(١).

الولاء والبراء القلبي:

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة في هذا الموضوع أن الولاء القلبي وكذلك العداوة يجب أن تكون كاملة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهته، فينبغي أن تكون كاملة جازمة، لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان، وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته، ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل.

ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله. وهذا نوع من الهوى، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠](٢)(٣).

❊ ❊ ❊

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (ص ١٠٨ -٢٠١) الطبعة الأولى سنة (١٣٤٩هـ) مطبعة المنار بمصر.

(٢) «شذرات البلاتين» (١/ ٣٥٤)، و«الأمر المعروف» لابن تيمية.

(٣) «الولاء والبراء في الإسلام» (ص: ١٣٥).

الفصل الرابع: أدلة الولاء والبراء من القرآن والسنة

أدلة الولاء من القرآن كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥- ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١].

قال ابن جرير: «وأمّا المؤمنون والمؤمنات، وهم المصدّقون بالله ورسوله وآيات كتابه، فإن صفتهم أن بعضهم أنصارُ بعض وأعوانهم»(١).

وأمّا في البراء فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابن جرير في تفسيرها: «ومعنى ذلك: لا تتخذوا أيها المؤمنون الكُفّارَ ظَهْرًا وأنصارًا، توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتَدُلّونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ يعني بذلك: فقد برئ من الله، وبرئ اللهُ منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر. ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ﴾ إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافونهم على أنفسكم، فتُظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتُضمروا لهم العداوة، ولا تُشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم

---

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ٥٥٦)، ونحوه في «الوجيز» للواحدي (١ / ٤٧٢).

بفعل»[1].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤﴾ [الممتحنة: ٤].

وقول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢].

وأدلة الولاء من السنة كثيرة:

من ذلك قوله ﷺ: «**مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفهم مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تَدَاعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى**»[2].

---

(١) «تفسير الطبري» (٥/ ٣١٥)، ونحوه مصرِّحًا بكفر الموالي للكفار كُلٌّ من الواحدي في «الوجيز» (١/ ٢٠٦)، والزمخشري في «الكشاف» (١/ ١٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

وقوله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بَعْضُه بعضًا**»[١].

وقوله ﷺ: «**المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يُسْلِمُه**»[٢].

وقوله ﷺ: «**لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ**»[٣][٤].

وأمّا في البراء، فيقول ﷺ في حديث جرير بن عبد الله البجلي، عندما جاء ليبايعه على الإسلام، فقال جريرٌ لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، اشترطْ عليَّ. فقال ﷺ: «**أُبَايِعُك على أن تعبد الله ولا تُشْرِكَ به شيئًا، وتُقيمَ الصلاة، وتؤتيَ الزكاة، وتنصحَ المسلم، وتفارقَ المشرك**» وفي رواية: «**وتبرأ من الكافر**»[٥].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٢، ٦٩٥١)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (٥٤).

(٤) «الولاء والبراء في الإسلام» بتصرف (ص: ٥).

(٥) أخرجه الإمام أحمد (رقم (١٩١٥٣، ١٩١٦٢، ١٩١٦٣، ١٩١٦٥، ١٩١٨٢، ١٩٢١٩، ١٩٢٣٣، ١٩٢٣٨)، والنسائي (٧/ ١٤٧- ١٤٨) رقم (٤١٧٥، ٤١٧٦، ٤١٧٧).

من حديث أبي وائل شقيق بن سلمة، واختُلف عنه: فمن راوٍ له عنه عن جرير بغير واسطة، ومن راوٍ له عنه عن أبي نُخَيلة عن جرير. وقد رجّح ابن معين الأولى، كما في تاريخه (رقم ٢٨١٤)، وانظر: «علل الدارقطني» (٤/ ٩١/ ب). ولو صحّ الوجه الثاني، فأبو نُخَيلة أثبت له جماعةٌ الصحبة، وإن خالف في ذلك أبو حاتم الرازي، فمثله مقبول الحديث.

وعلى هذا فالحديث صحيح.

الفصل الخامس: الاستدلال للولاء والبراء بالإجماع

الاستدلال للولاء والبراء بالإجماع لا شك أنّ أمرًا هذا هو ظهوره في أدلّة الكتاب والسنّة، اجتمع فيه أن يكون حُكمًا مقطوعًا به؛ لكونه قطعيَّ الثبوت والدِّلالة، مع تضافر الأدلّة وتواردها عليه أنه سيكون من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة؛ ولذلك فإننا لا نحتاج في مثله إلى نصٍّ من عالم على الإجماع فيه، بل يكفي أن نستحضر أدلّته وحقيقته وعلاقتَه بأصل الإيمان، لنوقن أن الولاء والبراءَ محلُّ إجماعٍ حقيقيٍّ بين الأُمّة. ومع ذلك فقد نُقِل الإجماعُ في ذلك:

فقد قال ابن حَزْم (ت٤٥٦هـ): «وصَحَّ أن قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] إنما هو ظاهره، بأنه كافر من جملة الكفار فقط، وهذا حقٌّ، لا يختلف فيه اثنان من المسلمين»[(١)].

وأنَّى نشك في صحّة هذا الإجماع، وفي أمّ القرآن: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] وقد أجمع المفسرون أن المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى[(٢)(٣)].

---

(١) «المحلّى» (١١ / ١٣٨).

(٢) نقل الإجماع: ابن أبي حاتم، والماوردي، وأبو الليث السمرقندي، والشوكاني، وصِدِّيق حسن خان. انظر: «الإجماع في التفسير» لمحمد بن عبد العزيز الخضيري (١٣٧- ١٣٨).

(٣) «الولاء والبراء بين الغلو والجفاء في ضوء الكتاب والسنة» (ص:٦)، بترقيم الشاملة آليًّا.

الفصل السادس: من مظاهر موالاة الكفار

١ ـ التشبه بهم في الملبس والكلام وغيرهما:

لأن التشبه بهم في الملبس والكلام وغيرهما يدل على محبة المتشبه به؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**مَن تَشَبَّه بقوم فهو منهم**».

فيحرم التشبه بالكفار فيما هو من خصائصهم من عاداتهم، وعباداتهم، وسمتهم وأخلاقهم كحلق اللحى، وإطالة الشوارب، والرطانة بلغتهم إلا عند الحاجة، وفي هيئة اللباس، والأكل والشرب... وغير ذلك.

٢ ـ الإقامة في بلادهم وعدم الانتقال منها إلى بلد المسلمين لأجل الفرار بالدين:

لأن الهجرة بهذا المعنى ولهذا الغرض واجبة على المسلم؛ لأن إقامته في بلاد الكفر تدل على موالاة الكافرين. ومن هنا حرَّم الله إقامة المسلم بين الكفار إذا كان يقدر على الهجرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩].

فلم يعذر الله في الإقامة في بلاد الكفار إلا المستضعفين الذين لا يستطيعون الهجرة. وكذلك من كان في إقامته مصلحة دينية كالدعوة إلى الله ونشر الإسلام في بلادهم.

٣ ـ السفر إلى بلادهم لغرض النزهة ومتعة النفس.

السفر إلى بلاد الكفار مُحرَّم إلا عند الضرورة - كالعلاج والتجارة والتعليم للتخصصات النافعة التي لا يمكن الحصول عليها إلا بالسفر إليهم

- فيجوز بقدر الحاجة، وإذا انتهت الحاجة وجب الرجوع إلى بلاد المسلمين.

ويُشترط كذلك لجواز هذا السفر أن يكون مُظهِرًا لدينه معتزًّا بإسلامه مبتعدًا عن مواطن الشر، حذرًا من دسائس الأعداء ومكائدهم.

وكذلك يجوز السفر أو يجب إلى بلادهم إذا كان لأجل الدعوة إلى الله ونشر الإسلام.

٤ ـ إعانتهم ومناصرتهم على المسلمين ومدحهم والذب عنهم.

وهذا من نواقض الإسلام وأسباب الردة، نعوذ بالله من ذلك.

٥ ـ الاستعانة بهم والثقة بهم وتوليتهم المناصب التي فيها أسرار المسلمين واتخاذهم بطانة ومستشارين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١٢٠].

فهذه الآيات الكريمة تشرح دخائل الكفار وما يُكنونه نحو المسلمين من بغض وما يدبرونه ضدهم من مكر وخيانة وما يحبونه من مضرة المسلمين وإيصال الأذى إليهم بكل وسيلة، وأنهم يستغلون ثقة المسلمين بهم فيخططون للإضرار بهم والنيل منهم.

فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لي كاتب نصراني. قال: ما لك قاتلك الله، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [المائدة: ٥١] ألا اتخذت

حنيفًا؟! قلت: يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه. قال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم وقد أقصاهم الله[(١)].

وورد أن النبي ﷺ خرج إلى بدر فتبعه رجل من المشركين فلحقه عند الحرة، فقال: إني أردت أن أتبعك وأصيب معك. قال: «**تؤمن بالله ورسوله؟**» قال: لا. قال: «**ارجع فلن أستعين بمشرك**»[(٢)].

من هذه النصوص يتبين لنا تحريم تولية الكفار أعمال المسلمين التي

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٢٧) (٢٠٩١٠)، بلفظ آخر، قال ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٨٤)، والألباني في «إرواء الغليل» (٨/ ٢٥٥): إسناده صحيح.

رواه البيهقي وعنده: فانتهرني وضرب فخذي، وقال: أما وجدت في أهل الإسلام من يكتب؟ لا تأمنهم إذ أخانهم الله... إلخ.

ولأحمد عن عمر: لا تستعملوا اليهود والنصارى؛ فإنهم يستحلون الرشا.

(٢) الحديث في صحيح مسلم: عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ. قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟**» قَالَ: لَا. قَالَ: «**فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**» قَالَتْ: ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ: «**فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**» قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ: «**تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟**» قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَانْطَلِقْ**».

وأخرجه الترمذي، كتاب السير، باب ما جاء في أهل الذمة يغزون مع المسلمين.

وأحمد في باقي مسند الأنصار.

وهذا محمول على غير حالة الضرورة. وقيل: إنه منسوخ - والله أعلم -؛ لما ثبت من استعانته ﷺ ببعض الكفار بعد ذلك.

يتمكنون بواسطتها من الاطلاع على أحوال المسلمين وأسرارهم ويكيدون لهم بإلحاق الضرر بهم.

ومن هذا ما وقع في هذا الزمان من استقدام الكفار إلى بلاد المسلمين - بلاد الحرمين الشريفين - وجَعْلهم عمالًا وسائقين ومستخدمين ومربين في البيوت وخلطهم مع العوائل أو خلطهم مع المسلمين في بلادهم.

٦ ـ **التأريخ بتاريخهم** خصوصًا التاريخ الذي يعبر عن طقوسهم وأعيادهم كالتاريخ الميلادي. وهو عبارة عن ذكرى مولد المسيح عليه السلام، وقد ابتدعوه من أنفسهم وليس هو من دين المسيح عليه السلام.

فاستعمال هذا التاريخ فيه مشاركة في إحياء شعارهم وعيدهم.

ولما أراد الصحابة رضي الله عنهم وضع تاريخ للمسلمين في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه عدلوا عن تواريخ الكفار وأرّخوا بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم. مما يدل على وجوب مخالفة الكفار في هذا وفي غيره مما هو من خصائصهم، والله المستعان.

٧ ـ مشاركتهم في أعيادهم أو مساعدتهم في إقامتها أو تهنئتهم بمناسبتها أو حضور إقامتها.

وقد فسر قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢] أي: ومن صفات عباد الرحمن أنهم لا يحضرون أعيان الكفار.

٨ ـ مدحهم والإشادة بما هم عليه من المدنية والحضارة والإعجاب بأخلاقهم ومهاراتهم دون نظر إلى عقائدهم الباطلة ودينهم الفاسد.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ [طه: ١٣١].

وليس معنى ذلك أن المسلمين لا يتخذون أسباب القوة من تعلم الصناعات ومقومات الاقتصاد المباح والأساليب العسكرية، بل ذلك

مطلوب، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وهذه المنافع والأسرار الكونية هي في الأصل للمسلمين، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

فالواجب أن يكون المسلمون سباقين إلى استغلال هذه المنافع وهذه الطاقات، ولا يستجدون الكفار في الحصول عليها، بل أن يكون لهم مصانع وتقنيات.

٩ ـ التسمي بأسمائهم:

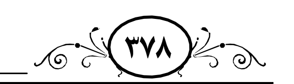
بحيث يسمي بعض المسلمين أبناءهم وبناتهم بأسماء أجنبية ويتركون أسماء آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم وجداتهم والأسماء المعروفة في مجتمعهم. وقد قال النبي ﷺ: «**خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن**».

وسبب تغيير الأسماء وجد جيل يحمل أسماء غريبة، مما يسبب الانفصال بين هذا الجيل والأجيال السابقة ويقطع التعارف بين الأسر التي كانت تُعرف بأسمائها الخاصة.

١٠ ـ الاستغفار لهم والترحم عليهم.

وقد حرَّم الله ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣] لأن هذا يتضمن حبهم وتصحيح ما هم عليه(١).

(١) «الولاء والبراء» الفوزان بتصرف (ص: ٢).



الفصل السابع: من مظاهر موالاة المؤمنين

١ ـ الهجرة إلى بلاد المسلمين وهجر بلاد الكافرين.

والهجرة هي الانتقال من بلاد الكفار إلى بلاد المسلمين لأجل الفرار بالدين.

والهجرة بهذا المعنى ولأجل هذا الغرض واجبة وباقية إلى طلوع الشمس من مغربها عند قيام الساعة، وقد تبرأ النبي ﷺ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، فتحرم على المسلم الإقامة في بلاد الكفار إلا إذا كان لا يستطيع الهجرة منها أو كان في إقامته مصلحة دينية كالدعوة إلى الله ونشر الإسلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩].

٢ ـ مناصرة المسلمين ومعاونتهم بالنفس والمال واللسان فيما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ﴾ [الأنفال: ٧٢].

٣ ـ التألم لألمهم والسرور بسرورهم.

قال النبي ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا**

اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[1].

وقال أيضًا عليه الصلاة والسلام: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»[2].

٤ ـ النصح لهم ومحبة الخير لهم وعدم غشهم وخديعتهم.

قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[3].

وقال ﷺ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا - يُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ - كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دمه وعرضه وماله، وَحَسْبُ امْرِئٍ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المسلم**»[4].

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٠١١)، ومسلم برقم (٢٥٨٦).
الْحُمَّى: حرارة غريزية تشتعل في البدن.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٦) في المظالم، باب نصر المظلوم. ومسلم (٢٥٨٥) في البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم

(٣) صحيح البخاري (١/ ١٠، ١٣)، وصحيح مسلم (١/ ٤٥، ٤٩، ٧١، ٧٢).
وأخرجه: ابن المبارك في «الزهد» (٦٧٧)، والطيالسي (٢٠٠٤)، وأحمد (٣/ ١٧٦، و٢٠٦، و٢٥١، و٢٧٢، و٢٧٨، و٢٨٩)، وعبد بن حميد (١١٧٥)، والدارمي (٢٧٤٣)، وابن ماجه (٦٦)، والترمذي (٢٥١٥)، والنسائي (٨/ ١١٥، و١٢٥)، وفي «الكبرى»، له (١١٧٤٧)، و(١١٧٧٠)، وأبو عوانة (١/ ٤١)، وابن حبان (٢٣٤)، والطبراني في «الأوسط» (٨٢٩٢)، وفي «مسند الشاميين»، له (٢٥٩٢)، وابن منده في «الإيمان» (٢٩٦)، و(٢٩٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٨٨٩)، والبغوي (٣٤٧٤) من حديث أنس بن مالك، به.

(٤) أخرجه مسلم (ص١٩٨٦)، وابن ماجه مفرقًا مختصرًا رقم (٣٩٣٣، و٤٢١٣)، وأحمد (٢/ ٣٦٠).
أخرجه البخاري «فتح» (١٠/ ٤٨١، و٤٨٤، و٤٩٢)، ومسلم (ص١٩٨٥، =

٥ ـ احترامهم وتوقيرهم وعدم تنقصهم وعيبهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ۝١٢﴾ [الحجرات: ١١، ١٢].

٦ ـ أن يكون معهم في حال العسر واليسر والشدة والرخاء.

بخلاف أهل النفاق الذين يكونون مع المؤمنين في حالة اليسر والرخاء ويتخلون عنهم في حال الشدة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ [النساء: ١٤١].

٧ ـ زيارتهم ومحبة الالتقاء بهم والاجتماع معهم.

وفي الحديث القدسي: «**وجبت محبتي للمتزاورين فيَّ**»[(١)].

= و١٩٨٦، و١٩٨٧) من طرق عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانًا**».

وأخرج مسلم من حديث الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أبيه، عن أبي هريرة: «**لا تهجروا ولا تدابروا ولا تحسسوا ولا يبع بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عباد الله إخوانًا**».

وأخرجه مسلم كذلك من حديث يزيد بن الأصم، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» وثمة شواهد أخرى في «الصحيحين» وغيرهما.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٣) من طريق روح، وإسحاق بن عيسى. وأخرجه الطبراني =

وفي حديث آخر: «**أن رجلًا زار أخًا له، في الله فأرصد الله على مدرجته ملكًا، فسأله: أين تريد؟ قال: أزور أخًا لي في الله. قال: هل لك عليه من نعمة تربها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه**»(١).

٨ ـ احترام حقوقهم.

فلا يبيع على بيعهم ولا يسوم على سومهم ولا يخطب على خطبتهم ولا يتعرض لما سبقوا إليه من المباحات.

قال ﷺ: «**ألا لا يبع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبته**»(٢).

= في «الكبير» (٢٠/ ٨٠) برقم (١٥٠)، والقضاعي -مختصرًا- في «مسند الشهاب» (٢/ ٣٢٣) برقم (١٤٥٠) من طريق القعنبي. وأخرجه الحاكم (٤/ ١٦٨- ١٦٩) من طريق إسحاق بن سليمان الرازي. وأخرجه القضاعي -مختصرًا- في «مسند الشهاب» (٢/ ٣٢٢- ٣٢٣) برقم (١٤٤٩) من طريق سعيد بن أبي عروبة، جميعهم: عن مالك، بهذا الإسناد.

(١) رواه مسلم برقم (٢٥٦٧).

فَأَرْصَدَ: أعدَّ وهيأ وأقعد. مَدْرَجَتِهِ: طريقه. تَرُبُّهَا: تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك.

(٢) البخاري في البيوع (٤/ ٣١٣) في البيوع، باب النهي عن تلقي الركبان، وباب لا يبيع على بيع أخيه ولا يسوم على سوم أخيه، وفي النكاح، باب ما يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع. وأخرجه مسلم رقم (١٤١٢) في البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه، ورقم (١٤١٢) في النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه. و«الموطأ» (٢/٦٨٣) في البيوع، باب ما ينهى عنه من المساومة والمبايعة. والترمذي رقم (١٢٩٢) في البيوع، باب ما جاء في النهي عن البيع على بيع أخيه. وأبو داود رقم (٢٠٨٠) في النكاح، باب كراهية أن يخطب الرجل على خطبة أخيه. والنسائي (٧/ ٢٥٨) في البيوع، باب بيع الرجل على بيع أخيه، وفي النكاح، =

٩ ـ الرفق بضعفائهم.

كما قال النبي ﷺ: «**ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم؟**»(٢).

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: ٢٨].

١٠ ـ الدعاء لهم والاستغفار لهم.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ﴾ [محمد: ١٩] وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

* * *

= (٦/ ٧٢، ٧٣، ٧٤) باب خطبة الرجل إذا ترك الخاطب أو أذن له. وأخرجه ابن ماجه في التجارات رقم (٢١٧١)، باب لا يبيع الرجل على بيع أخيه.

(١) أخرجه أحمد (٢٧٨٢٣)، وهناد في «الزهد» (١٣٢١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٥٥)، والترمذي (١٩٢٠)، وأبو داود (٤٩٤٣)، وقد صححه النووي في الرياض، وحسنه العراقي والسيوطي. انظر: «الجامع الصغير» (٩٥٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٤٤) قال: حدثنا سليمان بن حرب، قال: حدثنا محمد بن طلحة، عن طلحة، عن مصعب بن سعد، قال: رأى سعد، رضي الله عنه، أن له فضلًا على مَن دونه، فقال النبي ﷺ: «**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟**» هكذا أخرجه مرسلًا. وأخرجه النسائي (٦/ ٤٥) قال: أخبرنا محمد بن إدريس، قال: حدثنا عمر بن حفص ابن غياث عن أبيه، عن مِسعر، عن طلحة بن مُصرِّف، عن مصعب بن سعد... فذكره.

الفصل الثامن: التفريق بين الصلة والمكافأة الدنيوية والمودة

وأما قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾  [الممتحنة: ٨].

فمعناه أن من كف أذاه من الكفار فلم يقاتل المسلمين ولم يخرجهم من ديارهم، فإن المسلمين يقابلون ذلك بمكافأته بالإحسان والعدل معه في التعامل الدنيوي ولا يحبونه بقلوبهم لأن الله قال: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ﴾. ولم يقل توالونهم وتحبونهم.

ونظير هذا قوله تعالى في الوالدين الكافرين: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ﴾ [لقمان: ١٥].

وقد جاءت أم أسماء إليها تطلب صلتها وهي كافرة، فاستأذنت أسماء رسول الله ﷺ في ذلك فقال لها: «**صِلِي أمك**»[(١)].

---

(١) أخرجه الحميدي (٣١٨)، وأحمد (٦/ ٣٤٤) قالا: حدثنا سفيان. وفي (٦/ ٣٤٤) قال أحمد: حدثنا يونس. قال: حدثنا ليث. يعني ابن سعد، وفي (٦/ ٣٤٧) قال: حدثنا أبو النضر هاشم بن القاسم. قال: حدثنا أبو عقيل. يعني عبد الله بن عقيل الثقفي. وفي (٦/ ٣٤٧) قال: حدثنا ابن نُمير. وفي (٦/ ٣٥٥) قال: حدثنا عفان. قال: حدثنا حماد بن سلمة. والبخاري (٣/ ٢١٥) قال: حدثنا عبيد بن إسماعيل، قال: حدثنا أبو أسامة. وفي (٤/ ١٢٦) قال: حدثنا قُتيبة بن سعيد. قال: حدثنا حاتم ابن إسماعيل. وفي (٨/ ٥)، وفي الأدب المفرد (٢٥) قال: حدثنا الحميدي، قال: حدثنا سفيان، ومسلم (٣/ ٨١) قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، قال: حدثنا عبد الله بن إدريس. (ح)، وحدثنا أبو كريب محمد بن العلاء. قال: حدثنا =

وقد قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فالصلة والمكافأة الدنيوية شيء، والمودة شيء آخر.

ولأن في الصلة وحسن المعاملة ترغيبًا للكافر في الإسلام، فهما من وسائل الدعوة، بخلاف المودة والموالاة فهما يدلان على إقرار الكافر على ما هو عليه والرضا عنه وذلك يسبب عدم دعوته إلى الإسلام.

وكذلك تحريم موالاة الكفار لا تعني تحريم التعامل معهم بالتجارة المباحة واستيراد البضائع والمصنوعات النافعة والاستفادة من خبراتهم ومخترعاتهم.

فالنبي ﷺ استأجر ابن أريقط الليثي ليدله على الطريق وهو كافر. واستدان من بعض اليهود.

وما زال المسلمون يستوردون البضائع والمصنوعات من الكفار. وهذا من باب الشراء منهم بالثمن وليس لهم علينا فيه فضل ومِنَّة.

وليس هو من أسباب محبتهم وموالاتهم، فإن الله أوجب محبة المؤمنين وموالاتهم وبغض الكافرين ومعاداتهم.

= أبو أسامة. وأبو داود (١٦٦٨) قال: حدثنا أحمد بن أبي شُعيب الحراني، قال: حدثنا عيسى بن يونس.

تسعتهم - سفيان بن عيينة، وليث بن سعد، وأبو عقيل الثقفي، وعبد الله بن نُمير، وحماد بن سلمة، وحماد بن أسامة أبو أسامة، وحاتم بن إسماعيل، وابن إدريس، وعيسى بن يونس- عن هشام بن عروة.

وأخرجه أحمد (٦/ ٣٤٤) قال: حدثنا حسن. قال: حدثنا ابن لهيعة. قال: حدثنا أبو الأسود.

كلاهما - هشام وأبو الأسود يتيم عُروة- عن عروة بن الزبير... فذكره.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: ٧٢، ٧٣].

قال الحافظ ابن كثير: ومعنى قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت فتنة في الناس، وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل. انتهى[١].

قلت: وهذا ما حصل في هذا الزمان والله المستعان[٢].

الفصل التاسع: أقسام الناس فيما يجب في حقهم من الولاء والبراء

وهذا قد تعرضنا له في فصل سابق وهو اعتقاد أهل السنة في الولاء والبراء، ولكن لأهميته نعرضه منفصلًا فنقول: الناس في الولاء والبراء على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مَن يُحَب محبة خالصة لا معادة معها.

وهم المؤمنون الخلَّص من الأنبياء والصِّديقين والشهداء والصالحين.

وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ فإنه تجب محبته أعظم من محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين.

ثم زوجاته أمهات المؤمنين وأهل بيته الطيبون وصاحبته الكرام -

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٣٥).

(٢) «الولاء والبراء» للفوزان بتصرف (ص: ٧).

خصوصًا الخلفاء الراشدين وبقية العشرة والمهاجرين والأنصار وأهل بدر وأهل بيعة الرضوان ثم بقية الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

ثم التابعون والقرون المفضلة وسلف هذه الأمة وأئمتها؛ كالأئمة الأربعة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ١٠].

ولا يبغض الصحابة وسلف هذه الأمة من في قلبه إيمان.

وإنما يبغضهم أهل الزيغ والنفاق وأعداء الإسلام؛ كالرافضة والخوارج، نسأل الله العافية.

القسم الثاني: مَن يُبْغَض ويعادى بغضًا ومعاداة خالصين لا محبة ولا موالاة معهما.

وهم الكفار الخُلَّص من الكفار والمشركين والمنافقين والمرتدين والملحدين على اختلاف أجناسهم.

كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى عائبًا على بني إسرائيل: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝٨٠ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨١﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١].

القسم الثالث: مَن يُحَب من وجه ويُبْغَض من وجه.

فتجتمع فيه المحبة والعداوة وهم عصاة المؤمنين. يُحَبون لما فيهم من الإيمان ويبغضون لما فيهم من المعصية التي هي دون الكفر والشرك.

ومحبتهم تقتضي مناصحتهم والإنكار عليهم. فلا يجوز السكوت على معاصيهم، بل ينكر عليهم ويؤمرون بالمعروف ويُنهون عن المنكر وتقام عليهم الحدود والتعزيرات حتى يكفوا عن معاصيهم ويتوبوا من سيئاتهم.

ولكن لا يُبْغَضون بغضًا خالصًا ويُتبرأ منهم كما تقوله الخوارج في مرتكب الكبيرة التي هي دون الشرك.

ولا يُحَبون ويوالَون حبًّا وموالاة خالصين كما تقوله المرجئة.

بل يعتدل في شأنهم على ما ذكرنا كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

والحب في الله والبغض في الله أوثق عرى الإيمان، والمرء مع من أحب يوم القيامة كما في الحديث.

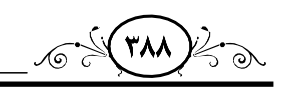
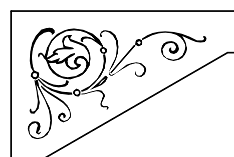
وقد تغير الوضع وصار غالب موالاة الناس ومعاداتهم لأجل الدنيا:

فمَن كان عنده طمع من مطامع الدنيا والوه وإن كان عدوًّا لله ولرسوله ولدين المسلمين.

ومَن لم يكن عنده طمع من مطامع الدنيا عادوه ولو كان وليًّا لله ولرسوله عند أدنى سبب وضايقوه واحتقروه[1].



(١) «الولاء والبراء» للفوزان بتصرف (ص: ١٢).

المبحث الثالث عشر:
الفِرق التي أشركت في توحيد الألوهية

الفرق التي أشركت في هذا النوع من التوحيد كثيرة، منها:

١- اليهود: الذين عبدوا العجل، ولا يزالون يعبدون الدرهم والدينار؛ فالمال هو معبودهم.

٢- النصارى: لادعائهم ألوهية المسيح عليه السلام وعبادتهم له.

٣- الرافضة: لدعائهم عليًّا، والعباس رضي الله عنهما وغيرهما من آل البيت.

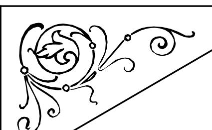
٤- النصيرية: لعبادتهم عليًّا رضي الله عنه وزعمهم أنه الإله.

٥- الدروز: لقولهم بألوهية الحاكم بأمر الله العبيدي.

٦- غلاة الصوفية، وعُباد القبور: لغلوهم في الأولياء، وصرف النذور والقرابين لأصحاب القبور، وطوافهم حول القبور... إلى غير ذلك من القربات التي تُصرف لأصحابها[1].

❊ ❊ ❊

(١) «توحيد الألوهية» (ص: ٢٤).



المبحث الرابع عشر
ما يضاد هذا التوحيد أو ينافي كماله

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الشرك

وبه تسع مسائل:

المسألة الأولى: تعريف الشِّرك لغةً:

مادة (شَرَكَ) في اللغة تَدُلُّ على معانٍ عديدة، منها:

١ ـ الاقتران وعدم الانفراد:

قال ابن فارس: «يقال: شاركت فلانًا في الشيءِ؛ إذا صرت شريكه، وأشركت فلانًا؛ إذا جعلته شريكًا لك، قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ٣٢﴾ [طه: ٣٢]»[(١)].

٢ ـ الامتداد والاستقامة:

قال ابن فارس: «والآخر [أي: المعنى الآخر للشرك] يدُلُّ على امتداد واستقامة، وهو الشَّرَك، ومنه لقم الطريق، أي: منهجه، كأنَّه لقم من مَرَّ فيه، وشَرَاكُ النَّعْلِ مشبهة بهذا، ومنه شَرَكُ الصائِدِ، سُمي بذلك لامتداده»[(٢)].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٢٦٠)، مادة (شرك).

(٢) المصدر نفسه.

٣ ـ العدل وتسوية الشيء بغيره: ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١٣]، قال الأزهري: «وإنَّمَا دخلت الباء في قوله تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾؛ لأَنَّ معناه: لا تعدِلْ به غيره، فتجعله شريكًا له. وكذلك قال تعالى: ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ [آل عمران: ١٥١]؛ لأَنَّ معناه: عَدَلُوا به. ومَنْ عَدَلَ بالله شيئًا من خلقه فهو مشرك كافر؛ لأنَّ الله واحِدٌ لا شريك له ولا نَدَّ ولا نَدِيد»(١).

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النار يقولون لآلِهَتِهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧- ٩٨](٢).

٤ ـ الحصة والنصيب:

قال الأزهري: وجمع الشَّرِيك شُرَكاءُ وأشراكٌ وقال لبيد(٣).

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٢- ١٣)، مادة (شرك).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٢١).

(٣) هو الشاعر لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قدم على رسول الله ﷺ فأسلم ونال الصحبة، ورجع إلى بلاد قومه، مُعَمَّر، قيل: عاش مئة وستين سنة، وقيل: مئة وخمسًا وأربعين، وقيل: مئة وأربعين، تسعين منها في الجاهلية، والباقي في الإسلام، ثم قدم الكوفة وأقام بها إلى أن مات بها في خلافة معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ينظر: «الطبقات الكبرى» (طبقات ابن سعد): محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، ت (٢٣٠هـ)، دار صادر - بيروت (٦/ ٣٢)، و«التاريخ الكبير»: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري الجُعْفي، ت (٢٥٦هـ)، دار الفكر. بيروت، تحقيق: السيد هاشم الندوي (٧/ ٢٤٩)، و«الإصابة» (٥/ ٦٧٥).

وخلافة معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من سنة (٤١- ٦٠ هـ). ينظر: «تاريخ الخلفاء» =

تَطِيرُ عَدَائِدُ الأَشْرَاكِ شَفْعًا وَوِتـرًا والـزَّعـامـةُ لِـلْـغُـلامِ

يقال: شَرِيكٌ وأشْرَاكٌ كما قالوا: يتيمٌ وأيتامٌ، ونصيرٌ وأنصارٌ، والأشراكُ أيضًا جمع الشِّرْكِ، وهو النصيبُ، كما يقال: قِسمٌ وأقسامٌ، فإن شئت جعلت الأشْرَاكَ في بيت لبيد جمع شريكٍ، وإن شئت جعلته جمع شِرْكٍ وهو النصيبُ»(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، أي: نصيب(٢)، وقوله ﷺ: «**مَنْ أَعْتَقَ شركًا له في عبد**»(٣). أي: حصة ونصيبًا(٤).

= عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت (٩١١هـ)، مطبعة السعادة - مصر، الطبعة الأولى (١٣٧١هـ- ١٩٥٢م، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (ص١٩٤- ١٩٥).

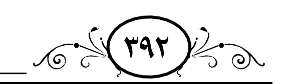
(١) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٣)، مادة (شرك)، وبنحوه قال ابن منظور في «لسان العرب» (١٠/ ٤٤٩)، مادة (شرك).

(٢) ينظر: «تفسير البحر المحيط» (٧/ ٢٥٥).

(٣) أخرجه الستة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، صحيح البخاري، كتاب العتق، باب إذا أعتق عبدًا بين اثنين، رقم (٢٣٨٦)، (٢/ ٨٩٢)، صحيح مسلم، كتاب العتق، باب من أعتق شركًا له في عبد، رقم (١٥٠١)، (٣/ ١٢٨٧)، سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، ت (٢٧٥هـ)، دار الفكر - بيروت، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد: كتاب العتق، باب فيمن روى أنه لا يستسعي، رقم (٣٩٤٦)، (٤/ ٢٤)، سنن ابن ماجه، كتاب العتق، باب من أعتق شركا له في عبد، رقم (٢٥٢٨)، (٢/ ٨٤٤)، سنن الترمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء في العبد يكون بين الرجلين فيعتق أحدهما نصيبه، رقم (١٣٤٦)، (٣/ ٦٢٩)، سنن النسائي الكبرى، ذكر العبد يكون بين اثنين فيعتق أحدهما نصيبه، رقم (٤٩٤٣)، (٣/ ١٨١).

(٤) ينظر: «لسان العرب» (١٠/ ٤٤٩)، و«فتح الباري» (٥/ ١٥٦).

٥ ـ الاشتراك في الشيء بين اثنين فصاعدًا:

قال الراغب الأصفهاني: «والمشاركة خلط الملكين، وقيل: هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعدًا عينًا كان ذلك الشيء أو معنى، كمشاركة الإنسان والفرس في الحيوانية، ومشاركة فرس وفرس في الكُمْتة[(١)]. والدُّهْمة[(٢)] يقال: شركته وشاركته وتشاركوا واشتركوا وأشركته في كذا، قال تعالى:  ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝﴾ [طه: ٣٢] وبمثله قال الفيروزآبادي[(٣)].

وعبارة الراغب في شرح الشِّركة أعم لأن يكون الشيء لاثنين يشمل ما كان لهما ملكًا كالمال، أو وصفًا كاللون، وفي الجنس كالحيوانية. ولفظ الشرك المصدر، ويطلق ويراد به الشريك، أي: المشارك، وجمعه أَشْرَاكٌ وشُرَكَاءُ[(٤)]، ومنه قوله ﷺ: «**المُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ في ثَلاثٍ: في المَاءِ والكلأ وَالنَّارِ**»[(٥)].

---

(١) الكمتة لون بين السواد والحمرة، يكون في الخيل والإبل. «لسان العرب» (١٢/ ١٥٣)، مادة (كمت).

(٢) الدهمة: السواد. ينظر: «مختار الصحاح» (ص٨٩)، مادة (دهم).

(٣) ينظر: «البصائر» (٣/ ٣١٣)، بصيرة في (شرك).

(٤) ينظر: «القاموس المحيط» (ص١٢٢)، مادة (شرك).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد بن حنبل، وأبو داود، والبيهقي - عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وأخرجه ابن ماجه، والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما: مصنف ابن أبي شيبة (الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار): أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، (ت٢٣٥هـ)، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، في حِمى الكلأ وبيعه، رقم (٢٣١٩٤)، (٥/ ٧)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم (٢٣١٣٢)، (٥/ ٣٦٤)، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح. سنن أبي داود: باب في منع الماء، رقم (٣٤٧٧)، (٣/ ٢٧٨)، =

ويتضح مما يتعلق بهذه المسألة: أنَّ اجتماع الشركاء في شيءٍ لا يقتضي تساوي أنصبتهم فيه، يقال: فلان شريك لغيره في دار، أو في أرض، أو في بضاعة، ولو لم يكن له إلّا العُشْر، هذا في الحِسِّيَّات، ومثله في المعنويات، تقول: الأبوان شريكان في طاعة أبنائهما، وإن كان بعضهم أشد من بعض.

٦ ـ الخلط والضم:

قال الراغب: «الشِّرْكَةُ والمشاركة خلط المِلْكَيْن»، وبمثله قال الفيروزآبادي(١).

٧ ـ المصاهرة:

قال ابن منظور: «ويقال في المصاهرة: رَغِبْنَا في شرككم وصهركم، أي: مشاركتكم في النسب»(٢).

وقال الأزهري: «وسمعت بعض العرب يقول: فلان شريك فلان، إذا كان متزوجًا بابنته أو بأخته، وهو الذي يسميه الناسُ الخَتَن»(٣).

= سنن ابن ماجه: كتاب الرهون، باب المسلمون شركاء في ثلاث، رقم (٢٤٧٢)، (٣/ ١١٣)، وصححه الألباني في طبعة مكتبة المعارف، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ)، (٢/ ٢٩٦)، و«المعجم الكبير» رقم (١١١٠٥)، (١١/ ٨٠)، و«سنن البيهقي الكبرى» كتاب إحياء الأموات، باب ما جاء في الأسواق وغيرها، رقم (١١٦١٣)، (٦/ ١٥٠).

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٤٥١)، مادة (شرك)، وينظر: «البصائر» (٣/ ٣١٣)، بصيرة في شرك.

(٢) «لسان العرب» (١٠/ ٤٥٠)، مادة (شرك).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٣)، مادة (شرك).

٨ ـ قسمة الشيءِ بين القوم بالسَّوِيَّة:

ومنه ما أخرجه الطحاوي، قال: «حدثنا ابن أبي دَاوُد قال: ثنا عَمْرُو بن خَالِدٍ قال: ثنا ابن لَهِيعَةَ عن عُقَيْلٍ أَنَّهُ سمع ابن شِهَابٍ يُخْبِرُ عن أبي سَلَمَةَ بن عبد الرحمن عن زَيْدِ بن ثَابِتٍ أَنَّ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَسَمَ الْمِيرَاثَ بين الابنة والأخت نِصْفَيْنِ»[١]، أي: قَسَمَ الميراثَ بينهما بالتساوي.

٩ ـ الكُفْرُ:

قال الجوهري: «الشِّرْكُ: الكُفْرُ، وقد أَشْرَكَ فلانٌ بالله، فهو مشرك، ومُشْرِكِيٌّ، قال الراجز: ومُشْرِكِيٌّ كافِرٍ بالفُرْقِ، أي بالفُرقانِ»[٢].

ولمفهوم الشرك نظائر لغوية كثيرة، وقد وافق الفيروزآبادي أهل اللغة في معنى الشرك، وفَصَّلَ بهذا الكثير[٣][٤].

المسألة الثانية: تعريف الشِّرك في الاصطلاح الشرعي:

عَرَّفه ابن القيم، فقال: «وهو أن يتخذ من دون الله ندًّا، يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين؛ ولهذا

---

(١) «شرح معاني الآثار»: كتاب الفرائض، باب الرجل يموت ويترك بنتا وأختا وعصبة سواها (٤/ ٣٩).

(٢) «مختار الصحاح» (ص٢٣٩)، مادة (شرك)، وينظر: «القاموس المحيط» (ص١٢٢٠)، مادة (شرك)، و«تاج العروس» (٢٧/ ٢٢٤)، مادة (شرك)، و(كتاب الكليات): الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، مؤسسة الرسالة - بيروت (١٤١٩هـ- ١٩٩٨م)، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري (ص٥٣٣).

(٣) ينظر: «البصائر» (٣/ ٣١٣)، بصيرة في (شرك).

(٤) «المباحث العقدية في كتاب بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» للفيروزآبادي بتصرف (ص: ١٥٢).

قالوا لآلهتم في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]»(١).

ونقل الدكتور محمود سالم عبيدات تعريف الأستاذ عزَّت دروزة للشرك بقوله: «هو إشراك ما دون الله مع الله، سواء أكان ذلك الإشراك في الألوهية أم الربوبية»(٢)(٣).

وعرّفه الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بقوله:** «هو أن تجعل لله ندًّا، وهو خلقك.

ويمكن القول بأن الشرك في الشرع هو أنْ يصرف العبدُ شيئًا من أنواع العبادة لغير الله تعالى من أصنام، أو أوثان، أو أشجار، أو أحجار، أو إنس، أو جن، أو قبور، أو أجرام سماوية، أو قوى طبيعية، أو غير ذلك.

ومن هذا يتبين لنا أن مَن صَرَف شيئًا من أنواع العبادة كالدعاء والذبح والنذر والصلاة والاستغاثة والخوف والرجاء والتوكل ونحوها لغير الله تعالى فقد أشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ.

وقد بَيَّنَ النبي ﷺ **حقيقة الشرك وعِظم جرمه،** ففي الصحيحين عن عبد الله ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سألت النبي ﷺ: أيُّ الذنبِ أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك..**»(٤) الحديث.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٥٤).

(٢) «قضية الإيمان والتكفير في آراء فرق المسلمين»: الدكتور محمود سالم عبيدات (ص٨٥).

(٣) «المباحث العقدية في كتاب بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» للفيروزآبادي (ص: ١٥٧).

(٤) صحيح البخاري بشرح الفتح (٨/ ١٦٣) كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: ٢٢]. وصحيح مسلم (١/ ٩٠) كتاب الإيمان، باب كون الشرك أكبر الذنوب... حديث رقم: (١٤١).

وفي الصحيحين عن أبي بكرة عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - ثلاثًا -: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور...**»(١) الحديث.

فالشرك أكبر الكبائر وأعظم الذنوب؛ لأنه تَنَقُّص برب العالمين وانتهاك لِحَقِّه تبارك وتعالى، فقد ثبت في الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معاذ، هل تدري ما حق الله على العباد؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنّ حق اللهِ على العباد أن يعبدُوهُ ولا يشرِكُوا به شيئًا...**»(٢)(٣).

إذن الشرك في الشرع يراد به جعل شريك لله تعالى في استحقاق العبادة، أو صرف بعض أنواع العبادات لغير الله تعالى؛ ليكون ذلك المخلوق شريكًا للخالق(٤).

المسألة الثالثة: أَوَّلُ ظُهُورِ الشِّرْكِ:

أولًا: مبدأ الشرك:

أول من عُرفوا بالشرك قوم نوح عليه السلام، وأول من وقعوا فيه منهم القبوريون المنصرفون بقلوبهم إلى الموتى من صلحائهم؛ فكان نوح عليه السلام

---

(١) صحيح البخاري بشرح الفتح (١٠/ ٤٠٥) كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر. وصحيح مسلم (١/ ٩١) كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم: (١٤٣).

(٢) صحيح البخاري بشرح الفتح (٦/ ٥٨) كتاب الجهاد، باب اسم الفرس والحمار. وصحيح مسلم (١/ ٥٨) كتاب الإيمان، حديث رقم: (٤٨).

(٣) «منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام» (١/ ١٠٧).

(٤) «عناية السلف بالحديث الشريف» - ابن جبرين (ص: ١٦).

أول رسول من الله لمقاومة الشرك وإقامة الحجة على المشركين؛ بتذكيرهم بنعم الله ووجوب شكرها، ودلالتهم على سوء مغبة الشرك ولزوم التبري منه.

ولكن القوم غلب عليهم هوى الشرك، ففقدوا رشدهم، ولم يفقهوا جدال نبيهم، وأتوا في الدفاع عن وثنيتهم بما هو خارج عن موضوع النزاع.

وهاك ما حكاه القرآن في هذا الشأن[١].

ثانيًا: المشركون في الانتصار لوثنيتهم:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٥ - ٢٧].

فانظر إلى هذا السفه والخبال: يدعوهم إلى توحيد الخلاق المتعال، فيردون عليه بأنه بشر، وأن من آمن به من الطبقة المنحطة في مجتمعهم، وأنه وهؤلاء المؤمنين لا يعلمون لهم فضلًا عليهم، كأنهم علموا للأصنام فضلًا على جميع الأنام فعبدوها.

واستمروا على هذا الضلال عدة أجيال، يوصي فيها السلف الخلف؛ بأن يعضوا بالنواجذ على وثنيتهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

وأخذ الخلف بوصية السلف، فلم يستمعوا لنبيهم على قوة حجته، ولم يتأثروا بآدابه على طول مدته، ولما لم يجدوا مدفعًا لبرهانه، واستبطؤوا

---

(١) «رسالة الشرك ومظاهره» (ص: ١١١).

عقوبة الله لهم بطوفانه: ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢](١).

ثالثًا: ذِكر نوح عليه السلام في الكتاب:

ما أحد صَبَرَ صَبْرَ هذا الرسول وثَبَتَ ثباته، فخلدَتْ ذكره سور القرآن وآياته، تجد حديثه في الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات والقمر، واختص بسورة من المفصل سميت سورة نوح، وتجد اسمه دون قصته في سور أخر.

وفي تَكرار قصته والعناية بتصريف القول فيها حض للدعاة على سلوك خطته، وزجر للأمم أن تحذو حذو أمته.

وفي ذكرنا لتلك السور إحالة للقارئ على ما فيها من عبر، ونكتفي هنا بإثبات روايات فيها بيان عن الذريعة التي انتهت بهم إلى الشرك(٢).

رابعًا: الأخبار في منشأ الشرك:

١ - ففي كتاب التفسير من «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود؛ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع؛ فكانت لهذيل، وأما يغوث؛ فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق؛ فكانت لهمذان، وأما نسر؛ فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا؛ أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم. ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا

---

(١) المصدر السابق (ص: ١١١).

(٢) المصدر السابق (ص: ١١١).

هلك أولئك وتَنَسَّخ العلم، عبدت»[1].

٢ - وأخرج الفاكهي عن عبيد الله بن عبيد بن عمير، قال: «أول ما حدثت الأصنام على عهد نوح، وكانت الأبناء تبر الآباء، فمات رجل منهم، فجزع عليه، فجعل لا يصبر عنه، فاتخذ مثالًا على صورته، فكلما اشتاق إليه؛ نظره، ثم مات، ففُعل به كما فعل، ثم تتابعوا على ذلك، فمات الآباء، فقال الأبناء: ما اتخذ هذه آباؤنا إلا أنها كانت آلهتهم. فعبدوها».

نقله الحافظ في «الفتح» (٨/ ٥٤٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٩)، والروايات الثلاث بعد من «الدر» أيضًا.

وقوله: «فجزع عليه»: كذا نقله، من غير تصريح بفاعل الجزع، ولعل لفظة: «عليه» محرفة عن: «ابنه»، فيكون هو الفاعل، وبذلك ينسجم الكلام.

٣ - وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤]، قال: «كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح، فنشأ قوم بعدهم يأخذون كأخذهم في العبادة، فقال لهم إبليس: لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم. فصوروا، ثم ماتوا، فنشأ قوم بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين كانوا من قبلكم كانوا يعبدونها. فعبدوها».

هذا؛ قالوا: نعم. قال: هل لكم أن أصور لكم مثله في قبلتكم إذا نظرتم إليه ذكرتموه؟ قالوا: لا؛ نكره أن تجعل لنا في قبلتنا شيئًا نصلي إليه. قال:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ (٨/ ٦٦٧/ ٤٩٢٠) عن ابن عباس موقوفًا.

فأجعله في مؤخر المسجد. قالوا: نعم. فصوره لهم، حتى مات خمستهم، فصور صورهم في مؤخر المسجد، وأخرج الأشياء، حتى تركوا عبادة الله، وعبدوا هؤلاء، فبعث الله نوحًا، فقالوا: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ [نوح: ٢٠]، إلى آخر الآية».

وقوله: «وأخرج الأشياء»: لا يظهر له معنى، ولعل فيه تحريفًا وحذفًا، وأصله: وأدرك الأبناء وتناسلوا. كما يأتي نحوه في الرواية التالية.

وفي «تفسير ابن كثير» عن ابن عباس: أن ودًّا ابن لآدم وأب لسواع ويغوث ويعوق ونسر.

٥ - وأخرج عبد بن حميد عن أبي مطهر، قال: «ذكروا عند أبي جعفر يزيد بن المهلب، فقال: أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله. ثم ذكر ودًّا. قال: وكان ود رجلًا مسلمًا، وكان محببًا في قومه، فلما مات، عسكروا حول قبره في أرض بابل، وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم عليه، تشبه في صورة إنسان، ثم قال: أرى جزعكم على هذا، فهل لكم أن أصور لكم مثله، فيكون في ناديكم، فتذكرونه به؟ قالوا: نعم. فصور لهم مثله، فوضعوه في ناديهم، وجعلوا يذكرونه، فلما رأى ما بهم من ذكره؛ قال: هل لكم أن أجعل لكم في منزل كل رجل تمثالًا مثله، فيكون في بيته، فتذكرونه؟ قالوا: نعم. فصور لكل أهل بيت تمثالًا مثله، فأقبلوا، فجعلوا يذكِّرونه به». قال: «وأدرك أبناؤهم، فجعلوا يرون ما يصنعونه به، وتناسلوا، ودرس أمر ذكرهم إياه، حتى اتخذوه إلهًا يعبدونه من دون الله». قال: «وكان أول ما عبد غير الله في الأرض ود الصنم الذي سموه بود»[١].

---

(١) «رسالة الشرك ومظاهره» (ص: ١١٢).

خامسًا: الجمع بين الأخبار في منشأ الشرك:

وبين بعض هذه الروايات اختلاف من أربع جهات:

إحداها: هل الذين مع ود أبناء له أم إخوة له؟

وليس لهذا الاختلاف أهمية؛ فإن العهد بعيد، والأعلام قد تتعدد، والمقصود على كل حال متحد.

ثانيتها: هل حدوث الأصنام وقع على عهد نوح كما تصرح به الرواية الثانية؟ أم قبله كما هو ظاهر الروايتين بعدها؟

ويمكن الجمع بأن من سميت بهم تلك الأصنام سابقون على نوح، وتسمية الأصنام بهم تأخرت إلى زمنه، فترجع الروايتان الثالثة والرابعة إلى الثانية، ولك أن ترجع الثانية إلى ما بعدها، بأن حدوث الأصنام كان قبل نوح، وإنما أضافته الرواية الثانية إلى عهده لما كان هو الذي عاب الأصنام وقبحها، وهذا الاحتمال الثاني أقرب؛ لأن الإرسال لإنكار الشرك إنما يكون بعد ذيوعه وانتشاره في الأمة وطول عهدهم بالتوحيد، ويتأيد ذلك بشدة إصرارهم عليه، مع لبث نوح في محاربته ألف سنة إلا خمسين عامًا.

ثالثتها: هل ابتداع التماثيل من برور الأبناء بالآباء كما في الرواية الثانية، أم من ولوع المريد بشيخه كما في الرواية الثالثة؟

وليس هذا من الاختلاف المتعارض، إذ يمكن حدوثه من الفريقين مجتمعين أو متعاقبين.

رابعتها: نسبة هذا الابتداع إلى الناس تارة، وإلى إبليس أخرى، وإلى شيطان في صورة إنسان في رواية.

وكل ذلك من اختلاف العبارات الذي لا يختلف به المعنى، فإن شياطين

الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا[١].

المسألة الرابعة: أسباب تلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأنصام:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في خاتمة كتابه «الإغاثة»: فصل[٢]:

وتلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة، وتلاعب بكل قوم على قدر عقولهم[٣]:

١- طائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم، كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام.

٢- وطائفة أخرى اتخذت القمر صنما وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العلم السفلي.

٣- الغلو في المخلوق وإعطاؤه فوق منزلته حتى جعلوا فيه حظًّا من الإلهية وشبهوه بالله تعالى[٤].

المسألة الخامسة: أَكْثَرُ شِرْكِ الْأُمَمِ فِي الْإِلَهِيَّةِ، لَا بِجُحُودِ الصَّانِعِ:

إن مشركي العرب الذي بُعث إليهم محمد ﷺ كلهم معترفون بأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تدبر شيئًا من دون الله.

ونصوص القرآن كثيرة في ذلك كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس:٣١]. أي: أفلا تتقون

---

(١) المصدر السابق (ص: ١١٥).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٢٢).

(٣) «معارج القبول بشرح سلم الوصول» (٢/ ٤٦٩).

(٤) «مختصر معارج القبول» (ص: ١٣١).

الشرك في الألوهية إذا أقررتم بالربوبية. وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩]. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]. واعترفوا أيضًا بصفة العزة والعلم لله.

والآيات في هذا كثيرة معلومة عند الجميع يحتج سبحانه عليهم بإقرارهم بتوحيد الربوبية على إشراكهم في توحيد الألوهية كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: إيمانهم إذا قيل لهم مَن خلق السموات والأرض والجبال؟ قالوا: الله. وهم يعبدون معه غيره! ولهذا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك.

وقال عطاء في الآية: إيمانهم وإخلاصهم الدعاء لله في الشدائد وينسَون في الرخاء كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] الآية.

والآية تعم ذلك كله، فهذه نصوص القرآن صريحة في أن المشركين يعترفون بتوحيد الربوبية اعترافًا جازمًا غير مترددين ولا متوقفين، بل يُقرون بجملة من صفات الرب ﷻ ينكرها كثير من المسلمين المنحرفين كإقرارهم بصفة العزة والعلم، ويقرون أيضًا بعلوه فوق سمواته كما في حديث حصين بن المنذر لما قال له النبي ﷺ: «**كم إلهًا تعبد؟**» قال: سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء. قال: «**فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك؟**» قال: الذي في

السماء»(١). وكما في شعر أمية بن الصلت وغيره.

وأخبر الله عنهم أنهم ما أرادوا من آلهتهم إلا الشفاعة عند الله في أمور دنياهم، وكذا من يعترف منهم بالآخرة، فإذا طلبوا من آلهتهم حاجة من حوائجهم من رزق أو نصر على عدو ونحو ذلك؛ لم يقولوا إن آلهتهم تُحْدث شيئًا من مطلوبهم من دون الله وتستقل بذلك. لم يقل هذا أحد منهم، وإنما كانوا يقولون: إننا إذا طلبنا حاجتنا من هذا الوجيه عند الله حصل مطلوبنا لوجاهته عند الله. ولهذا يخلصون الدعاء لله في الشدائد وينسَون الوسائط كما قال تعالى: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٤١](٢).

المسألة السادسة: بيان خطر الشرك.

أولًا: الشرك بالله أعظم الذنوب؛ لأن الله لا يغفره لمن لقيه به، بخلاف غيره من الذنوب؛ فإنه تحت مشيئة الله، إن شاء الله غفره لمن لقيه به، وإن شاء عذبه به، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب (٧٠)، حديث (٣٤٨٣). من حديث عمران بن حصين، قال: قال النبي ﷺ لأبي: يا حصين... الحديث. وضعفه العلامة الألباني. انظر: ضعيف الترمذي، رقم (٦٩٠).
والحديث على ضعفه فإن السؤال فيه موجه إلى والد عمران بن الحصين وهو الحصين بن عبيد بن خلف الخزاعي، وليس إلى الحصين بن المنذر كما ذكر المؤلف. ثم إني لم أجد من الصحابة سمي بالحصين بن المنذر «بالصاد المهملة» وقد وجد في التابعين من اسمه الحضين بن المنذر «بالضاد المعجمة» روى عن عثمان وعلي والمهاجر بن منقذ، ومات سنة (٩٧ هـ. انظر: تهذيب التهذيب (٢ / ٣٥٦).

(٢) «تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس» (ص:٤٧).

ثانيًا: الشرك بالله أظلم الظلم، وأقبح القبيح؛ لأن فيه تنقصًا لله، وصرفًا بخالص حقه لغيره، وعدل غيره به، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، فالمشرك عدل غير الله بالله، فهو أظلم الظلم، وأقبح القبيح، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وأي ظلم أعظم من أن يضع الإنسان العبادة في غير موضعها؟! والمشرك وضع العبادة في غير موضعها، فعَبَد غير الله، فوقع في أظلم الظلم وأقبح القبيح، حيث عدل غير الله بالله، وتنقص رب العالمين.

ثالثًا: الشرك بالله مناقض للمقصود بالخلق والأمر، إذ المقصود بخلق الخلق أن يعبدوا الله، والله تعالى أمرهم أن يفردوه بالعبادة، فالشرك مناقض للمقصود بالخلق والأمر، منافٍ له من كل وجه، وهذا غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته والذل له والخضوع والانقياد لأوامره التي لا صلاح للعالم إلا بها، فلا صلاح للعالم إلا بالتوحيد والإيمان، فمتى خلا العالم من الإيمان والتوحيد خرب وقامت القيامة، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**».

إذًا: صلاح هذا العالم وبقاؤه بالتوحيد والإيمان، فإذا خلا من التوحيد والإيمان خرب؛ ولهذا فإنه في آخر الزمان تُقبض أرواح المؤمنين والمؤمنات بريح طيبة تأتي من جهة الشام، وفي بعض الروايات: من جهة اليمن، حتى لو كان الواحد من المؤمنين في كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه، فلا يبقى إلا الكفرة يتهارجون ويتناكحون في الأسواق تهارج الحمر والعياذ بالله، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، ويتمثل لهم الشيطان فيأمرهم بعبادته، فعليهم تقوم الساعة، فتنفطر السماء وتنشق، وتنكدر

النجوم، ويخرب هذا العالم بسبب خلوه من الإيمان والتوحيد، ومتى كان الإيمان والتوحيد موجودين فإن صلاح هذا العالم يبقى.

رابعًا: الشرك بالله تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الربوبية؛ مِن مِلك الضر والنفع والعطاء والمنع الذي يوجب تعليق الخوف والرجاء والدعاء والتوكل وسائر أنواع العبادة بالله ﷻ.

خامسًا: الشرك بالله هضم لجناب الربوبية، وسوء ظن برب العالمين، فإن من خصائص الألوهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون الخشية والتعظيم والدعاء وسائر أنوع العبادة لله ﷻ، وهذا واجب شرعًا وعقلًا وفطرة.

وهذه الأمور التي يتبين بها خطر الشرك توجب للعبد شدة الخوف من الشرك، والحذر على نفسه من أن يقع في شيء من الشرك هذا الذنب العظيم والحوب الكبير[1].

المسألة السابعة: خوف الصالحين من الشرك.

ثبت في صحيح البخاري عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني). وقد أخبر الله ﷻ أن من دعاء إبراهيم الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتم التسليم أنه قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٣٦]، فإبراهيم الخليل الذي فارق الناس من أجل الله، وسماه الله أمة وحده، ووقف كالجبل الأشم صامدًا لا يتزعزع أمام أبيه وقومه، وكسر الأصنام بنفسه، وبقي وحده، وفارق الناس

(١) «دروس في العقيدة» - الراجحي (٧/٧، بترقيم الشاملة آليًّا).

جميعًا - كان يخاف على نفسه وعلى بنيه من عبادة الأصنام! قال الله عنه وهو يدعو الله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، وهو إبراهيم الخليل الذي بعثه الله أمة وحده، وسماه الله حنيفًا فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل:١٢٠]، وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾، أي: مائلًا عن الشرك إلى التوحيد ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وفارق الناس ووقف صامدًا كالجبل العظيم أمام عُباد الأصنام والأوثان، وكسرها كلها، ووضع الفأس على الصنم الكبير، وصبر حتى ألقوه في النار ليحرقوه، ومع ذلك يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

فإذا كان إبراهيم الخليل يخاف الشرك على نفسه وبنيه الأنبياء فما حالنا؟! وقد رزقه الله إسحاق وإسماعيل، وهما نبيان كريمان، وإسحاق رزقه الله يعقوب، وهو نبي، ويعقوب رزقه الله يوسف، وهو نبي، فهي سلالة أنبياء؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل**».

فإذا كان إبراهيم الخليل يخاف هذا الأمر، وهو الذي قال الله عنه لنبيه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل:١٢٣]، فكيف بالواحد منا لا يخاف؟! ولهذا قال إبراهيم التيمي تعليقًا على هذه الآية: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟! إذا كان إبراهيم الخليل يخاف من عبادة الأصنام ويقول: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥ - ٣٦]، فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟! وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية)؛ لأن الصحابة الذين عرفوا الشرك وخبروه وذاقوا مرارته - لا يقعون فيه،

بخلاف من نشأ في الإسلام ولم يعرف الشرك، فقد يقع فيه ويظن أنه توحيد، مثل ما حصل لعُباد القبور، فتجد أحدهم يطوف بالقبر، ويدعوه من غير الله، وينذر له، فإذا قلت له: إن هذا شرك. قال: ليس هذا شركًا، بل هذه محبة للصالحين، وتوسل بهم. بخلاف الصحابة الذين كانوا على الشرك قبل الإسلام ثم هداهم الله إلى الإسلام، فقد عرفوا الشرك وخبروه وذاقوا مرارته، فلا يقعون فيه، لكن من نشأ في الإسلام وهو لا يعرف الجاهلية ولا الشرك قد يقع فيه وهو لا يشعر.

ومن هنا يتبين فضل الصحابة على أبنائهم فمَن بعدهم، فهم عرفوا الشر ثم عرفوا الخير، فذاقوا مرارة الشرك وخبروه وعرفوه، فلا يقعون فيه، بخلاف من بعدهم؛ فإن من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية ولا الشرك وأنواعه قد يقع فيه ويظن أنه توحيد.

فجدير بالإنسان أن يخاف الشرك على نفسه، وحقيقة الخوف من الشرك توجب للعبد الابتهال إلى الله، والتضرع إليه، وصدق الالتجاء إليه، وسؤاله أن يجنبه الشرك، والبحث عن الشرك ووسائله وذرائعه المفضية إليه حتى يحذرها ولا يقع فيها، هذه حقيقة الخوف من الشرك(١).

المسألة الثامنة: الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ.

وهو اتخاذ الأنداد من دون الله، ودعوتهم ومحبتهم والتقرب إليهم من دون الله تعالى، وهو أعظم الذنوب، وأشد المحرمات، لا يغفره الله تعالى لمن لم يتب منه توبة نصوحا، ولا يقبل منه صرفًا ولا عدلًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ

(١) المصدر السابق (٧/٨، بترقيم الشاملة آليًّا).

وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦].

وقال: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن مات وهو يدعو لله ندًّا دخل النار**»(١).

وعنه رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»(٢).

وهذا النوع من أنواع الشرك ينقسم إلى أقسام(٣):

الأول: اعتقاد شريك لله تعالى في الألوهية.

النوع الثاني: صرف شيء من العبادات المحضة لغير الله تعالى.

النوع الثالث من أنواع الشرك في الألوهية: الشرك في الحكم والطاعة.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: ١٦٥] (ح/٤٤٩٧)، وأيضًا في الجنائز (ح/١١٢٣٨)، وأيضًا في الأيمان والنذور، باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم (ح/٦٦٨٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وأخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٧٤، ٤٢٥، ٤٦٢، ٤٦٤).

(٢) صحيح البخاري مع الفتح (٨/ ١٦٣).

(٣) «حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد» (ص: ٢٧٢).

الأول: اعتقاد شريك لله تعالى في الألوهية(١).

فمن اعتقد أن غير الله تعالى يستحق العبادة مع الله»(٢) أو يستحق أن يُصرف له أي نوع من أنواع العبادة فهو مشرك في الألوهية.

ويدخل في هذا النوع من يسمي ولده أو يتسمى باسم يدل على التعبد لغير الله تعالى»(٣)، كمن يتسمى بـ«عبد الرسول»، أو «عبد الحسين»، أو غير ذلك.

فمن سمى ولده أو تسمى بشيء من هذه الأسماء التي فيها التعبد للمخلوق معتقدًا أن هذا المخلوق يستحق أن يُعبَد، فهو مشرك بالله تعالى.

النوع الثاني: صرف شيء من العبادات المحضة لغير الله تعالى:

فالعبادات المحضة بأنواعها القلبية والقولية والعملية والمالية حق لله تعالى لا يجوز أن تُصرف لغيره - كما سبق بيان ذلك عند الكلام على توحيد الألوهية - فمن صرف شيئًا منها لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر.

قال علاَّمة الهند: صِديق حسن خان القنوجي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد تقرر أن العبادة لا تجوز إلا لله، وأنه هو المستحق لها، فكل ما يسمى في الشرع عبادة ويصدق عليه مسماها فإن الله يستحقه، ولا استحقاق لغيره فيها، ومن أشرك فيها أحدًا من دون الله فقد جاء بالشرك، وكتب اسمه في ديوان الكفر»(٤).

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (ص٢٨) نقلًا عن القرطبي.

(٢) «الإرشاد» للسعدي: الردة (ص٢٠٥).

(٣) «الدين الخالص» لصِديق حسن خان (٢/ ١٠٤)، و«رسالة التوحيد» للدهلوي الهندي (ص١٧، ٢٥)، وينظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» آخر (١/ ٣٧٨، ٣٧٩).

(٤) «الدين الخالص» باب في رد الإشراك في العبادات (٢/ ٥٢).

والشرك بصرف شيء من العبادة لغير الله له صور كثيرة، يمكن حصرها في الأمرين التاليين:

الأمر الأول: الشرك في دعاء المسألة:

دعاء المسألة هو أن يطلب العبد من ربه جلب مرغوب أو دفع مرهوب[١].

ويدخل في دعاء المسألة: الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والاستجارة[٢].

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنى الدعاء: استدعاء العبد ربه عَزَّ وَجَلَّ العناية، واستمداده إياه المعونة. وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة. وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عَزَّ وَجَلَّ وإضافة الجود والكرم إليه»[٣].

والدعاء من أهم أنواع العبادة، فيجب صرفه لله تعالى، ولا يجوز لأحد أن يدعو غيره كائنًا من كان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨]، وثبت عن

---

(١) «الاستغاثة» (٢/ ٤٥٢)، و«تيسير العزيز الحميد» باب من الشرك الاستعاذة بغير الله (ص١٨٠)، و«فتح المجيد» (٢/ ٣٠١)، و«مجموعة الرسائل» (٥/ ٥٩٤).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٢٧): «الاستعاذة والاستجارة والاستغاثة كلها من نوع الدعاء أو الطلب، وهي ألفاظ متقاربة»، وينظر: «الاستغاثة» الموضع السابق.

(٣) «شأن الدعاء» (ص٤).

النبي ﷺ أنه قال: «**الدعاء هو العبادة**»[١]، وقال ﷺ في وصيته لابن عباس: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»[٢].

فمن دعا غير الله فقد وقع في الشرك الأكبر - نسأل الله السلامة والعافية-.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» في الدعاء (١٠/ ٢٠٠)، والطيالسي (٨٠١)، وأحمد (٤/ ٢٧١، ٢٧٦)، وأبو داود في الصلاة (٤٧٩)، والترمذي في التفسير (٣٢٤٧)، وابن ماجه في فاتحة الدعاء (٣٨٢٨)، والطبراني في الدعاء (١-٧)، وابن حبان «الإحسان (٨٩٠)، والحاكم (١/ ٤٩١)، والبيهقي في كتابه «الدعوات» (٤)، والخطابي في شأن الدعاء (١) من طريقين صحيحين عن ذر بن عبد الله عن يسيع الحضرمي عن النعمان. وإسناده صحيح، وقال الترمذي «حسن صحيح»، وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي، وصححه كذلك النووي كما في «فيض القدير» (٣/ ٥٤٠)، وشيخنا عبد العزيز بن باز في تحفة الأخيار (ص١٣)، والألباني في صحيح الترمذي.

ولهذا الحديث شاهد من حديث ابن عباس رواه الحاكم (١/ ٤٩١)، وصححه، ووافقه الذهبي.

ومعنى الحديث: أن الدعاء من أفضل أنواع العبادة. ينظر: «شأن الدعاء» للخطابي (ص٥)، والفتح أول كتاب الدعاء (١١/ ٩٤)، و«فيض القدير» (٣/ ٥٤٠).

(٢) رواه الإمام أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي في القيامة (٢٥١٦)، وأبو يعلى (٢٥٥٦)، والطبراني في الدعاء (٤٢)، والمزي في ترجمة قيس بن الحجاج من طريق الليث بن سعد، عن قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس.

وإسناده حسن، رجاله ثقات، عدا «قيس»، وهو «صدوق»، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وذكره النووي في الأربعين، وحَسَّن هذا الإسناد ابن رجب في «جامع العلوم» (١/ ٤٦٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

ولهذا الحديث طرق أخرى وشواهد تنظر عند الطبراني في الدعاء، وينظر: «جامع العلوم» (١/ ٤٦٠-٤٦٢).

ومن أمثلة الشرك في دعاء المسألة ما يلي:

أ - أن يطلب من المخلوق ما لا يقدر عليه إلا الخالق، سواء أكان هذا المخلوق حيًّا أم ميتًا، نبيًّا أم وليًّا أم ملكًا أم جنيًّا أم غيرهم، كأن يطلب منه شفاء مريضه أو نصره على الأعداء، أو كشف كربة، أو أن يغيثه، أو أن يعيذه، وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله.

فهذا كله شرك أكبر، مُخرج من الملة بإجماع المسلمين»[١]؛ لأنه دعا غير الله، واستغاث به، واستعاذ به، وهذا كله عبادة لا يجوز أن تُصرف لغير الله بإجماع المسلمين، وصرفها لغيره شرك، ولأنه اعتقد في هذا المخلوق ما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ[٢].

---

(١) ينظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١/ ١٢٤، ١٩٤)، و(٢٧/ ٦٧- ٨٧، ١٤٥)، و«قاعدة في التوسل» (ص٥٨، ٥٩)، و«قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام وعبادات أهل الشرك» (ص٧٠)، و«الاستغاثة» (١/ ٣٧٦)، و(٢/ ٦١٩)، و«مدارج السالكين» «منزلة التوبة» (٣/ ٣٧٥)، و«القول الفصل النفيس» (ص٩٥)، و«منهاج التأسيس» (ص١٠٤)، و«الدر النضيد» (ص٢٨-٩٢)، و«مصباح الظلام» (ص١٨٨)، و«الدرر السنية» (٢/ ١٩٢- ١٩٤)، و«تيسير العزيز الحميد» و«فتح المجيد» باب من الشرك الاستعاذة بغير الله، والأبواب الأربعة بعده، و«مجموعة الرسائل» (٤/ ٤٦٩)، و«السنن والمبتدعات فصل في الأدعية المحرمة» (ص٢١٢- ٢٦٦)، و«القول الجلي» (ص٥٦)، و«سيف الله» لصنع الله الحنفي (ص٤٨).

(٢) «الدر النضيد» للشوكاني (ص٦٩، ٧٠)، «الكواكب الدرية» للرباطي الحنفي (ص٣٦-٣٩)، و«الوسيلة» لجوهر الباكستاني الحنفي (ص٤٢- ٦٧)، و«التبيان» للرستمي الحنفي (ص١٥٥- ١٦١) نقلًا عن كتاب «جهود علماء الحنفية» لشمس الدين الأفغاني (ص١٤٧٢- ١٤٧٤)، و«منهاج التأسيس» (ص١٨٧)، و«القول الفصل النفيس» (ص٨٢)، و«حجة الله البالغة» (١/ ١٨٥)، و«صيانة الإنسان» (ص٣٧٣)، و«مجموعة الرسائل» (٥/ ٥٩٣- ٦٠٣، ٦١٠- ٦١٨)، و«الصواعق =

ب- دعاء الميت.

ج - دعاء الغائب.

فمن دعا غائبًا أو دعا ميتًا وهو بعيد عن قبره وهو يعتقد أن هذا المدعو يسمع كلامه أو يعلم بحاله، فقد وقع في الشرك الأكبر، سواء أكان هذا المدعو نبيًّا أم وليًّا، أم عبدًا صالحًا أم غيرهم، وسواء طلب من هذا المدعو ما لا يقدر عليه إلا الله أم طلب منه أن يدعو الله تعالى له، ويشفع له عنده[1].

= المرسلة الشهابية» (ص١٣٢- ١٣٧)، و«تصحيح الدعاء» (ص٢٤٧، ٢٥١).

(١) **وقريب من هذا** من جاء إلى القبر وطلب من صاحبه أن يدعو الله له، فهذا عمل محرم، وهو بدعة باتفاق السلف. ينظر: «قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام»... (ص١١١- ١٣٦)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ٣٣٠، ٣٥١، ٣٥٤)، و(٢٧/ ٧٦)، و«قاعدة في المحبة» (ص١٩٠- ١٩٢)، و«رسالة زيارة القبور» لابن تيمية (ص٢٥، ٤٩، ٥٠)، و«تلخيص الاستغاثة» (ص٥٧)، و«الرد على الأخنائي» (ص١٦٤، ١٦٥، ٢١٦)، و«صيانة الإنسان» (ص٣٦٠)، و«القول الجلي» (ص٥٦)، تعليق شيخنا عبد العزيز بن باز على الفتح كتاب الاستسقاء (٢/ ٤٩٥)، و«تصحيح الدعاء» (ص٢٥١).

وقد نصّ جمع من أهل العلم على أن هذا العمل شرك أكبر. ينظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٩)، و«إغاثة اللهفان» «الفرق بين زيارة الموحدين... (١/ ٢١٨-٢٢٢)، و«تطهير الاعتقاد» (ص١٥)، و«الدين الخالص» (١/ ١٩١، ٢١٣، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٨، ٤١٣)، و(٢/ ٥٧)، و«الدرر السنية» (١/ ٨٥، ٢٢٤)، و(٢/ ٢٣٨، ٢٣٩)، و«تيسير العزيز الحميد» و«فتح المجيد» باب من الشرك الاستعاذة بغير الله وباب الشفاعة، «الكواكب الدرية» للرباطي الحنفي (ص٧٧- ١٠٨)، و«التبيان» للرستمي الحنفي (ص١٥٥-١٦١)، و«الوسيلة» لجوهر الباكستاني الحنفي (ص٤٢- ٦٧) نقلًا عن كتاب «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» للدكتور =

فهذا كله شرك بالله تعالى مُخرج من الملة؛ لما فيه من دعاء غير الله، ولما فيه من اعتقاد أن المخلوق يعلم الغيب، ولما فيه من اعتقاد إحاطة سمعه بالأصوات، وهذا كله من صفات الله تعالى التي اختص بها، فاعتقاد وجودها في غيره شرك مُخرج من الملة»[١].

د - أن يجعل بينه وبين الله تعالى واسطة في الدعاء[٢]، ويعتقد أن الله تعالى لا يجيب دعاء من دعاه مباشرة، بل لا بد من واسطة بين الخلق وبين الله في الدعاء، فهذه شفاعة شركية مخرجة من الملة»[٣].

= شمس الدين الأفغاني (٣/ ١٤٧٢- ١٤٧٤)، ويراجع «الرسالة الصفدية» (٢/ ١٨٧- ٢٩١).
وللتوسع في هذه المسألة ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٠٣، ٣٣١، ٣٣٢)، الروح «المسألة الأولى»، تفسير الآية (٦٤) من النساء في تفسيري القرطبي وابن كثير، كتاب الدعاء للعروسي.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٨١، ٨٢)، و«رسالة التوحيد» لإسماعيل الدهلوي (ص١٧، ٢٠- ٢٣، ٣١، ٤٣)، «مجموع فتاوى عبد الحي اللكنوي» (١/ ٢٦٤) نقلًا عن كتاب «الدعاء» للعروسي (ص٢٧٤، ٢٧٥، ٤٩٦)، و«مصباح الظلام» للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن (ص١٩٩- ٢٠١، ٢٥٤)، و«روح المعاني» للألوسي (١٣/ ٦٧)، و(١٧/ ٢١٣)، و(٢٤/ ١١)، و«صيانة الإنسان» لمحمد بن بشير السهسواني الهندي (ص٣٧٣)، تنظر المراجع المذكورة عند ذكر حكم الكهانة (٣/ ١٤٧٢- ١٤٧٤)، ويراجع «الرسالة الصفدية» (٢/ ١٨٧- ٢٩١).
وللتوسع في هذه المسألة ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٠٣، ٣٣١، ٣٣٢)، و«الروح» «المسألة الأولى»، تفسير الآية (٦٤) من النساء في تفسيري القرطبي وابن كثير، كتاب «الدعاء» للعروسي.

(٢) سواء أكانت هذه الواسطة من بني آدام كالأنبياء والصالحين أم من الملائكة أم من الجن أم من غيرهم.

(٣) **ومثله** من يعتقد أن الله تعالى يجيب دعاء الواسطة لحاجته إلى هذه الواسطة، =

واتخاذ الوسائط والشفعاء هو أصل شرك العرب[١]، فهم كانوا يزعمون أن الأصنام تماثيل لقوم صالحين، فيتقربون إليهم طالبين منهم الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

الأمر الثاني: الشرك في دعاء العبادة:

دعاء العبادة هو: عبادة الله تعالى بأنواع العبادات القلبية، والقولية، والفعلية؛ كالمحبة، والخوف، والرجاء، والصلاة، والصيام، والذبح، وقراءة القرآن، وذكر الله تعالى وغيرها.

وسُمي هذا النوع «دعاء» باعتبار أن العابد لله بهذه العبادات طالب وسائل لله في المعنى؛ لأنه إنما فعل هذه العبادات رجاء لثوابه وخوفًا من عقابه، وإن لم يكن في ذلك صيغة سؤال وطلب[٢]، فهو داعٍ لله تعالى بلسان حاله،

= أو يعتقد أن لهذه الواسطة حقًّا على الله كما هو حال من يشفع عند الملوك، فهذا كله شرك مُخرج من الملة. ينظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١/ ١٢٦- ١٣٥، ١٥٠- ١٦٣)، و(٢٤/ ٣٤١)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ٦٢)، و«رسالة التوحيد» للدهلوي الهندي (ص٤٦-٤٨).

(١) «شرح الطحاوية» (ص٢٩)، و«تطهير الاعتقاد» (ص١٥)، بل هو أصل شرك الخلق كلهم. ينظر: «إغاثة اللهفان» فصل فيما في الشرك والزنا من الخبث (١/ ٦٢).
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (١/ ١٣٤، ١٣٥): «من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك، بل هذا دين المشركين عُباد الأوثان، كانوا يقولون: إنها تماثيل الأنبياء والصالحين، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله، وهو من الشرك الذي أنكره الله تعالى على النصارى».

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ٢-٥)، «تيسير العزيز الحميد» و«فتح المجيد» باب من الشرك أن يستغيث بغير الله، مقدمة تفسير السعدي (ص١٤).

لا بلسان مقاله.

ومن أمثلة الشرك في هذا النوع:

أ- شرك النية والإرادة والقصد:

هذا الشرك إنما يصدر من المنافق النفاق الأكبر، فقد يُظهر الإسلام وهو غير مُقر به في باطنه، فهو قد راءى بأصل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [البقرة:١٤]، وقد يرائي ببعض العبادات، كالصلاة، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢][(١)]، فهم قد جمعوا بين الشرك والنفاق.

ب- الشرك في الخوف:

الخوف في أصله ينقسم إلى أربعة أقسام:

١- الخوف من الله تعالى: ويسمى «خوف السر»، وهو الخوف المقترن بالمحبة والتعظيم والتذلل لله تعالى، وهو خوف واجب، وأصل من أصول العبادة.

٢- الخوف الجِبلِّي: كالخوف من عدو، والخوف من السباع المفترسة ونحو ذلك. وهذا خوف مباح؛ إذا وُجدت أسبابه، قال الله تعالى عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

٣- الخوف الشركي: وهو أن يخاف من مخلوق خوفًا مقترنًا بالتعظيم

---

(١) وقد عدَّ بعض العلماء من هذا الشرك: الرياء المحض إذا صدر من المسلم، وإرادة الدنيا وحدها بالعبادة، ولعل الأقرب أن هذا من الشرك الأصغر، وسيأتي الكلام على ذلك عند الكلام على الرياء في الباب الآتي - إن شاء الله -.

والخضوع والمحبة. ومن ذلك الخوف من صنم أو من ميت خوفًا مقرونًا بتعظيم ومحبة، فيخاف أن يصيبه بمكروه بمشيئته وقدرته، كأن يخاف أن يصيبه بمرض أو بآفة في ماله، أو يخاف أن يغضب عليه؛ فيسلبه نِعَمَهُ.

فهذا من الشرك الأكبر؛ لأنه صرف عبادة الخوف والتعظيم لغير الله، ولما في ذلك من اعتقاد النفع والضر في غير الله تعالى[1]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨]

قال ابن عطية المالكي الأندلسي المولود سنة (٤٨١هـ) في تفسيره في تفسير هذه الآية: «يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة».

ومن الخوف الشركي: أن يخاف من مخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، كأن يخاف من مخلوق أن يصيبه بمرض بمشيئته وقدرته»[2].

---

(١) **ومن هذا النوع: ما ذكره الله تعالى عن قوم هود** عليه السلام **أنهم قالوا:** ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤، ٥٥].

ومنه: ما رواه ابن إسحاق - كما في السيرة لابن هشام (٤/ ٥٧٣، ٥٧٤)، ومن طريقه الإمام أحمد (٢٣٨٢)، والدارمي (٦٥٨)، وأبو داود (٤٨٧)، والحاكم (٣/ ٥٤، ٥٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه قال لقومه لما جاءهم مسلمًا: بئست اللات والعزى. قالوا: مه يا ضمام - أي: اسكت - اتق البرص واتق الجنون واتق الجذام. قال: ويلكم، إنهما لا تضران ولا تنفعان.. إلخ. وقد صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه أيضًا أحمد شاكر في تعليقه على المسند، وحسنه الألباني في تعليقه على «فقه السيرة» (ص٤٢٤).

(٢) فإن صحب هذا الخوف تعظيم فهو شرك في الألوهية كما سبق، وإن لم يصحبه تعظيم فهو شرك في الربوبية.

٤- الخوف الذي يحمل على ترك واجب أو فعل محرم، وهو خوف محرم[١]، كمن يخاف من إنسان حي أن يضره في ماله أو في بدنه، وهذا الخوف وهمي لا حقيقة له، وقد يكون هناك خوف فعلًا ولكنه يسير لا يجوز معه ترك الواجب أو فعل المحرم[٢].

---

(١) ينظر في أنواع الخوف «تيسير العزيز الحميد» (ص٢٤)، وينظر: باب ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ في تيسير العزيز الحميد، وفتح المجيد، وإبطال التنديد، والقول السديد، والقول المفيد، والإرشاد للفوزان (ص٥٣-٦٠).

(٢) **وهذا حال كثير من ضعفاء الإيمان!!** تجده يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفًا من سباب العاصي أو من أذى يسير يحصل له منه، أو يفعل بعض المحرمات خوفًا من ظالم، وقد يكون هذا الخوف وهميًا لا حقيقة له، وقد يكون هناك خوف حقيقة ولكنه يسير لا يجوز ترك الواجب أو فعل المحرم من أجله، فقد نص أهل العلم في مسائل الإكراه ومسائل الخوف أن الضرر الذي يجوز ترك الواجب أو فعل المحرم من أجله هو الضرر الكبير كالقتل أو قطع عضو أو إتلاف مال كثير أو سجن طويل أو ضرب مؤلم، أما الضرر اليسير كإتلاف لجزء يسير من ماله أو سباب أو شتام لا ضرر كبير يلحقه بسببه، فهذا لا يجوز فعل المحرم أو ترك الواجب بسببه، بل يجب على المسلم تحمله، وكذلك يشترط أن يغلب على الظن وقوع ما خافه إن لم يترك هذا الواجب أو إن لم يفعل هذا المحرم.

ينظر: «الإحياء» كتاب الأمر بالمعروف (٢/ ٣٤٧-٣٥١) فقد فَصَّل في هذه المسألة، والآداب الشرعية: الأمر بالمعروف (١/ ١٥٥-١٥٧)، وتنبيه الغافلين لابن النحاس الباب الثاني (ص١٠٧)، والمغني والشرح الكبير وروضة الطالبين، باب التيمم وباب الطلاق، والكنز الأكبر، الباب الثاني (١/ ١٩٠-٢١٥)، وتفسير ابن عطية تفسير الآية (٧٩) من المائدة، وأدب الدنيا والدين «الأمر بالمعروف»، (ص١٠٢)، وغذاء الألباب «الأمر بالمعروف»، ونصاب الاحتساب، الباب (٤٧)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ١١٨)، ورفع الحرج في الشريعة الإسلامية «الإكراه»، ومعالم =

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يمنعنَّ أحدَكم مخافةُ الناس أن يتكلم بالحق إذا رآه أو علمه»**(١).

ج – الشرك في المحبة:

المحبة في أصلها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١– محبة واجبة: وهي محبة الله ومحبة رسوله ﷺ(٢)، ومحبة ما يحبه الله تعالى من العبادات وغيرها(٣).

٢– محبة طبيعية مباحة: كمحبة الوالد لولده، والإنسان لصديقه، ولماله

= أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة «التكليف» (ص٣٥٦، ٣٥٧)، وينظر: الأمر بالمعروف لابن أبي الدنيا رقم (٩، ١٤، ٣٩)، والأمر بالمعروف لعبد الغني المقدسي رقم (٢٨، ٣٠، ٤٩، ٥٠، ٥٣).

(١) رواه الطيالسي (٢١٥١)، وأحمد (٣/ ٥، ٤٧، ٨٤)، وابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف (٩، ١٥) وغيرهم من طرق صحيحة عن أبي نضرة عن أبي سعيد مرفوعًا. وإسناده صحيح، وفي آخره قال أبو سعيد: «وددت أني لم أسمعه». وقد صححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٨).

(٢) قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله في «فتح المجيد» شرح كتاب التوحيد: باب «ومن الناس من يتخذ...» (ص٥٦٢) عند شرحه للحديث الذي رواه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤) عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»** قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفيه أن محبة الرسول ﷺ واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها، فإنها محبة لله ولأجله، وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك، كالاعتماد عليه ﷺ ورجائه في حصول مرغوب منه أو دفع مرهوب، وما كان فيها ذلك فمحبة مع الله لما فيها من التعلق على غيره والرغبة إليه من دون الله».

(٣) ينظر: «الجواب الكافي» (ص٢٧٤).

ونحو ذلك[١].

ويشترط في هذه المحبة أن لا يصحبها ذل ولا خضوع ولا تعظيم، فإن صحبها ذلك فهي من القسم الثالث، ويشترط أيضًا أن لاتصل إلى درجة محبته لله ومحبته لرسول الله ﷺ، فإن ساوتها أو زادت عليها فهي محبة محرمة[٢]؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ

---

(١) **وقد ذكر الحافظ ابن القيم في «طريق الهجرتين» (ص٣٨٢،٣٨٣) أن هذه المحبة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:**

١- محبة طبيعية مشتركة: كمحبة الجائع للطعام.

٢- محبة رحمة وإشفاق: كمحبة الوالد لولده.

٣- محبة أنس وإلف: وهي محبة المشتركين في صناعة أو مرافقة أو غيرها.

ثم قال: «فهذه الأنواع الثلاثة هي المحبة التي تصلح للخلق بعضهم من بعض ووجودها فيهم لا يكون شركًا في محبة الله سبحانه. وينظر: «الجواب الكافي» (ص٢٧)، و«إكمال المعلم» (١/ ٢٨٣)، و«تيسير العزيز الحميد» باب «ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا»، و«الدرر السنية» (٢/ ٣٢١،٣٢٢)، و«الإرشاد» للفوزان (ص٦٠).

(٢) لكنها لاتصل إلى حد الشرك الأكبر؛ لأن المحبة إذا لم يكن معها خضوع لم تكن عبادة، ويُتصور ذلك فيما إذا كانت محبة الله في قلب العبد ليست قوية، وكان يحب ماله أو أهله أو غيرهما محبة قوية، لكنها لم تصل إلى حد الإفراط، فهذه محبة محرمة؛ لأنه أحب المخلوق أكثر من محبة الله، ولكنها ليست شركًا؛ لأنه لم يصحبها خضوع.

ينظر: العبودية «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٥٣)، والتحفة العراقية «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٩،٥٦)، و«قاعدة في المحبة» (ص٩٨)، والكلام على حقيقة الإسلام و«مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٧١)، و«الدرر السنية» (٢/ ٢٩١)، و«الإرشاد» للفوزان: و«توحيد الألوهية» (ص٢٠، ٢١)، و«الشرك في المحبة» (ص٦٠، ٦٢)، وينظر: =

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤][(١)].

٣- محبة شركية، وهي أن يحب مخلوقًا محبة مقترنة بالخضوع والتعظيم، وهذه هي محبة العبودية، التي لا يجوز صرفها لغير الله، فمن صرفها لغيره فقد وقع في الشرك الأكبر[(٢)]، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ

= «الجواب الكافي» (ص٢٧٥)، وينظر أكثر مراجع المحبة الشركية فيما يأتي.

(١) قال أبو عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية (٨/ ٩٥): «في الآية دليل على وجوب حب الله ورسوله، ولا خلاف في ذلك بين الأمة، وأن ذلك مقدم على كل محبوب»، وينظر: «الشفا» لعياض، الباب الثاني (٢/ ٣٢-٣٥)، و«المفهم» (١/ ١٨٣، ١٨٤)، ورسالة الكلام على حقيقة الإسلام «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٥، ٧٤)، و«الرسالة التبوكية» لابن القيم (ص٣٨)، و«فتح الباري» لابن حجر، و«فتح الباري» لابن رجب، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ. استنشاق نسيم الأنس لابن رجب الباب الأول (ص٢٨-٣٥)، و«الإرشاد» للفوزان «الشرك في المحبة» (ص٦٠، ٦١).

(٢) «قاعدة في المحبة» (ص٦٧-١٠٧)، و«الجواب الكافي» (ص١٩٥و٢٦٣-٢٧٥)، و«طريق الهجرتين» (ص٣٨٣)، و«جلاء الأفهام» فصل تسمية النبي ﷺ بمحمد (ص٩٣)، والباب الخامس (ص٢٤٩)، و«تفسير ابن كثير» - تفسير الآية (١٦٥) من سورة البقرة، و«تجريد التوحيد» (ص٨٠، ٨١)، و«تيسير العزيز الحميد» باب «ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا»، و«الدرر السنية» (٢/ ٢٩١)، و«الإرشاد» للفوزان (ص٦٠، ٦١)، وينظر: «الدين الخالص» (١/ ٦٩، ٢١٩).

وقال الحافظ ابن القيم في «الجواب الكافي» (ص٣٠٠، ٣٠١) عند كلامه على العشق: «وهو أقسام: تارة يكون كفرًا، كمن اتخذ معشوقه ندًّا يحبه كما يحب الله، فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه؟ فهذا عشق لا يغفره الله لصاحبه، =

مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

د- الشرك في الرجاء: وهو أن يرجو من مخلوق ما لا يقدر عليه إلا الله، كمن يرجو من مخلوق أن يرزقه ولدًا، أو يرجو منه أن يشفيه بإرادته وقدرته. فهذا من الشرك الأكبر المُخرج من الملة(١).

هـ- الشرك في الصلاة والسجود والركوع:

فمن صلى أو سجد أو ركع أو انحنى لمخلوق محبة وخضوعًا له وتقربًا إليه(٢). فقد وقع في الشرك الأكبر بإجماع أهل العلم(٣).



= فإنه من أعظم الشرك، وعلامة هذا العشق الشركي الكفري أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على رضاء ربه، وكثير من العشاق يصرح بأنه لم يَبْقَ في قلبه موضع لغير معشوقه البتة، بل قد ملك معشوقه عليه قلبه كله، فصار عبدًا مخلصًا من كل وجه لمعشوقه، فقد رضي هذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبوديته لمخلوق مثله، فإن العبودية هي كمال الحب والخضوع، وهذا قد استغرق قوة حبه وخضوعه وذله لمعشوقه، فقد أعطاه حقيقة العبودية». وينظر: التحفة العراقية «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٨-٧١).

قلت: وقد يقع في هذا الشرك من يحب مغنيًا أو لاعبًا محبة مفرطة تجعله يعظمه، فيحمله ذلك على الخضوع لذلك المحبوب بسبب تعظيمه له.

(١) «تيسير العزيز الحميد» (ص٢٤).

(٢) ومن ذلك السجود أمام المشايخ بوضع الرأس على الأرض أو تقبيل الأرض أمامهم، تعظيمًا لهم وتقربًا إليهم. ينظر: «زاد المعاد»: الطب: حلق الرأس (٤/ ١٥٨-١٦٠).

(٣) حكى هذا الإجماع في السجود القاضي عياض المالكي في آخر كتاب: «الشفا» (٢/ ٥٢١، ٥٢٨)، والحافظ ابن عبد الهادي في «الصارم المنكي» (ص٢١٥)، وذكره ابن حجر الهيتمي المكي الشافعي في كتابه «الإعلام بقواطع الإسلام» (ص٢٠) نقلًا عن كتاب المواقف وشرحه، وينظر: «التمهيد» (٥/ ٤٥)، و«الاستغاثة» (١/ ٣٥٦)، و(٢/ ٦٢٩)، و«مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٩٢)، و«الجواب الكافي» =

قال الله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢،١٦٣] وقال النبي ﷺ لمعاذ لما سجد له: «**لا تفعل، فإني لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**»[١]، وقال ﷺ: «**ما ينبغي لأحدٍ أن يسجد لأحد**»[٢]، ولأنه قد صرف شيئًا من العبادة لغير الله ﷻ.

= (ص١٩٦، ١٩٩)، و«سيف الله» لصنع الله الحنفي (ص٦٩)، و«الدين الخالص» (١/ ٩٤)، و«رسالة التوحيد» للدهلوي (ص٥٣، ٥٤)، وينظر: أيضًا رسالة «النواقض العملية» ففيها نقول كثيرة عن كثير من العلماء من جميع المذاهب في أن الصلاة والسجود والركوع والانحناء تقربًا إلى المخلوق - شرك أكبر مُخرج من الملة. وذكر البركوي الحنفي في «إيقاظ النائمين» (ص٧٩) أن الصلاة لغير الله حرام بالاتفاق.

هذا وإذا كان السجود ليس من باب العبادة، وإنما من باب التحية فهو حرام في ملة نبينا محمد ﷺ، وكبيرة من كبائر الذنوب؛ لعموم النصوص الواردة في النهي عن السجود للمخلوق، ومثله الركوع والانحناء إذا كان من باب التحية فهو محرم أيضًا؛ لما ثبت عن النبي ﷺ أنه سئل عن الرجل يلقى أخاه أو صديقه أينحني له؟ فقال ﷺ: «**لا**» رواه الإمام أحمد (٣/ ١٩٨)، والترمذي (٢٧٢٨) وحسنه، وابن ماجه (٣٧٠٢). وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٦٠).

وينظر: «الشفا» لعياض (٢/ ٥٢١)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ٣٧٧)، و«تفسير ابن كثير» - تفسير آية (١٠٠) من سورة يوسف - «غاية المنتهى» (٣/ ٣٣٧)، و«كشاف القناع» (٦/ ١٣٧)، و«الزواجر» (١٦٧)، و«أبجد العلوم» (١/ ١٢٧).

(١) رواه الإمام أحمد (٤/ ٣٨١)، وابن ماجه (١٨٥٣)، وابن حبان في صحيحه (٤١٧١) من حديث ابن أبي أوفى. وإسناده حسن، رجاله رجال مسلم، وقال الألباني في الصحيحة (١٢٠٣): «إسناده صحيح على شرط مسلم»، وله شواهد كثيرة، منها الحديث الآتي بعده.

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٤١٦٢) وغيره من حديث أبي هريرة. وإسناده =

وصرف العبادة لغيره شرك بإجماع أهل العلم[١].

و- الشرك في الذبح:

الذبح في أصله ينقسم إلى أربعة أقسام:

١- ذبح الحيوان المأكول اللحم تقربًا إلى الله تعالى وتعظيمًا له، كالأضحية، وهدي التمتع والقران في الحج، والذبح للتصدق باللحم على الفقراء ونحو ذلك. فهذا مشروع، وهو عبادة من العبادات.

٢- ذبح الحيوان المأكول لضيف، أو من أجل وليمة عرس ونحو ذلك. فهذا مأمور به إما وجوبًا وإما استحبابًا.

٣- ذبح الحيوان الذي يؤكل لحمه من أجل الاتجار ببيع لحمه، أو لأكله، أو فرحًا عند سكنى بيت ونحو ذلك. فهذا الأصل أنه مباح، وقد يكون مطلوبًا فعله، أو منهيًّا عنه حسبما يكون وسيلة إليه[٢].

٤- الذبح تقربًا إلى مخلوق وتعظيمًا له وخضوعًا له. فهذا عبادة -كما سبق- ولا يجوز التقرب به إلى غير الله[٣]، فمَن ذبح تقربًا إلى مخلوق

= حسن، وحسنه الألباني في الإرواء (١٩٩٨) وذكر له خمسة شواهد.

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» باب من الشرك أن يستغيث بغير الله (ص١٩٢).

(٢) ويدخل في المنهي عنه ما كان فيه إسراف، وما ذُبح على غير الطريقة الشرعية.

(٣) ينظر: «الأشباه والنظائر» للسيوطي، المبحث الثالث فيما شرعت النية لأجله (ص١٢)، و«شرح مسلم» للنووي (١٣/ ١٤١)، و«الأشباه والنظائر» لابن نجيم: قاعدة الأمور بمقاصدها (ص٢٩)، و«حاشية ابن عابدين»: كتاب الذبائح (٥/ ١٩٦، ١٩٧)، و«شرح الأصول الستة» للشيخ ابن عثيمين (ص٢٧، ٢٨)، وينظر في أنواع الذبائح المباحة - الفتح: الأطعمة، باب حق إجابة الوليمة. والروض مع حاشية لابن قاسم: النكاح، باب الوليمة.

وقال ابن نجيم الحنفي في الموضع السابق: «اعلم أن المدار على القصد عند =

وتعظيمًا له فقد وقع في الشرك الأكبر وذبيحته محرمة لا يجوز أكلها، سواء أكان هذا المخلوق من الإنس أم من الجن أم من الملائكة أم كان قبرًا، أم غيره.

وقد حكى نظام الدين الشافعي النيسابوري المتوفى سنة (٤٠٦هـ) إجماع العلماء على ذلك(١).

= ابتداء الذبح.. ويظهر ذلك أيضًا فيما لو ضافه أمير فذبح عند قدومه، فإن قصد التعظيم لا تحل وإن أضافه بها، وإن قصد الإكرام تحل وإن أطعمه غيرها».

وقال الشيخ ابن عثيمين في القول المفيد، باب ما جاء في الذبح لغير الله: «لو قَدِم السلطان إلى بلد فذبحنا له، فإن كان تقربًا وتعظيمًا فإنه شرك أكبر، وتحرم هذه الذبائح، وعلامة ذلك أننا نذبحها في وجهه ثم ندعها. أما لو ذبحناها إكرامًا له وضيافة، وطُبخت وأُكلت، فهذا من باب الإكرام، وليس بشرك».

(١) فقد حكى في «تفسيره» في تفسير الآية (١٧٣) من سورة البقرة (٢/ ١٢٠) إجماع أهل العلم على أن ذبيحة المسلم التي قصد بها التقرب إلى غير الله ذبيحة مرتد وعلى أن المسلم قد صار بهذا الذبح مرتدًّا. وينظر: «الدين الخالص» (٢/ ٦١)، وذكر في «فتح المجيد» باب ماجاء في الذبح لغير الله (١/ ٢٧٠) أنه لا اختلاف بين العلماء في ذلك.

وذكر الإمام النووي الشافعي في «شرح مسلم» (١٣/ ١٤١) أن من ذبح لغير الله ففعله محرم. ثم قال: «نص عليه الشافعي، واتفق عليه أصحابنا، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله تعالى والعبادة له كان ذلك كفرًا، فإن كان الذابح مسلمًا قبل ذلك صار بالذبح مرتدًّا».

وقال علامة اليمن الإمام محمد بن علي الشوكاني في «الدر النضيد» (ص٧٥): «النحر للأموات عبادة لهم، والنذر لهم بجزء من المال عبادة لهم، والتعظيم عبادة لهم، كما أن النحر للنسك وإخراج صدقة المال والخضوع والاستكانة عبادة لله ﷻ بلا خلاف».

وقال الإمام الشوكاني أيضًا في رسالة «شرح الصدور بتحريم رفع القبور» =

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢][(١)]، وقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وعن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**لعن الله من ذبح لغير الله**». رواه مسلم[(٢)].

ز - الشرك في النذر والزكاة والصدقة:

النذر هو: إلزام مكلف مختار نفسه عبادة لله تعالى غير واجبة عليه بأصل

= (ص٣٤، ٣٥): «ومن المفاسد البالغة إلى حد يرمى بصاحبه إلى وراء حائط الإسلام ويلقيه على رأسه من أعلى مكان الدين - أن كثيرًا منهم يأتي بأحسن ما يملكه من الأنعام وأجود ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر، متقربًا به إليه، راجيًا ما يضمر حصوله منه، فيهلّ به لغير الله، ويتعبد به لوثن من الأوثان، إذ إنه لا فرق بين النحائر لأحجار منصوبة يسمونها وثنًا، وبين قبر لميت يسمونه قبرًا، ومجرد الاختلاف في التسمية لا يغني من الحق شيئًا ولا يؤثر تحليلًا ولا تحريمًا، ولاشك أن النحر نوع من أنواع العبادة التي تَعَبَّد الله العباد بها، كالهدايا والفدية والضحايا، فالمتقرب بها إلى القبر والناحر لها عنده لم يكن له غرض بذلك إلا تعظيمه وكرامته واستجلاب الخير منه واستدفاع الشر به، وهذه عبادة لاشك فيها. وكفاك من شر سماعه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون، والنبي ﷺ يقول: «**لا عقر في الإسلام**» قال عبد الرزاق: كانوا يعقرون عند القبر- يعني بقرًا أو شياهًا. رواه أبو داود بإسناد صحيح. انتهى كلامه رحمه الله.

وينظر: «التوحيد» لعلامة الهند إسماعيل الدهلوي (ص٥٧-٦١)، و«الشرك ومظاهره» لعلامة الجزائر الشيخ مبارك الميلي (ص٢٤٧-٢٧٢).

(١) النسك هو الذبح. وقوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي إن جميع أعمالي لله تعالى، وهو المتصرف فيَّ في حياتي وبعد مماتي. ينظر: «تفسير البغوي» و«تفسير ابن كثير» و«تفسير الشوكاني» و«تفسير السعدي» لهذه الآية، و«سيف الله» لصنع الله الحنفي (ص٦٩)، و«تيسير العزيز الحميد» و«فتح المجيد» و«القول المفيد» باب ما جاء في الذبح لغير الله.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله (١٩٧٨).

الشرع[١].

كأن يقول: لله عليّ نذر أن أفعل كذا، أو لله عليّ أن أصلي أو أصوم كذا، أو أتصدق بكذا، أو ما أشبه ذلك.

والنذر عبادة من العبادات، لا يجوز أن يُصرف لغير الله تعالى، فمن نذر لمخلوق كأن يقول: لفلان عليّ نذر أن أصوم يومًا، أو لقبر فلان عليّ أن أتصدق بكذا، أو إن شُفِي مريضي أو جاء غائبي للشيخ فلان عليّ أن أتصدق بكذا، أو لقبره عليّ أن أتصدق بكذا.

فقد أجمع أهل العلم على أن نذره محرم وباطل[٢]، وعلى أن من فعل

---

(١) «التوضيح عن توحيد الخلاق» (ص٢٨٠)، وينظر: «المقنع» و«الشرح الكبير» و«الإنصاف» باب النذر (١٢٨/٢٨). قال في «الشرح الكبير»: «فيقول: لله عليَّ أن أفعل كذا، وإن قال: عليّ نذر كذا. لزمه أيضًا؛ لأنه صرح بلفظ النذر». وقال في «التعريفات» (ص٣٠٨) في تعريفه: «إيجاب عين الفعل المباح على نفسه تعظيمًا لله تعالى». وقال في «كشاف القناع» (٦/ ٢٧٣): «لا تعتبر له صيغة بحيث لا ينعقد إلا بها، بل ينعقد بكل ما أدى معناه، كالبيع».

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٨٦، و٣١/ ١١، ٢٧، و٣٥/ ٣٥٤)، و«منهاج السنة» (٢/ ٤٤٠)، و«كشاف القناع» (٦/ ٢٧٦). وينظر: «الدر المختار» للحصكفي الحنفي مع حاشيته لابن عابدين آخر كتاب الصيام (١٢٨/٢)، و«البحر الرائق» لابن نجيم الحنفي (٢/ ٣٢٠) نقلًا عن الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي، ونقل حكاية هذا الإجماع أيضًا جمع من علماء الحنفية، وكذلك نقل جماعة من الحنفية الإجماع على أنه لا يجوز الوفاء به. ينظر: رسالة «جهود علماء الحنفية» (ص١٥٥٠-١٥٥٢).
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عند ذكره لنذر الدهن للقبور لتُنوَّر به: «وهذا النذر معصية باتفاق المسلمين، لا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر مالًا للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة، فإن فيهم شبهًا من السدنة التي كانت عند اللات =

ذلك قد أشرك بالله تعالى الشرك الأكبر المُخرج من الملة[١] لأنه صرف عبادة النذر لغير الله، ولأنه يعتقد أن الميت ينفع ويضر من دون الله، وهذا كله شرك[٢].

ومثله إخراج زكاة المال وتقديم الهدايا والصدقات إلى قبر ميت تقربًا إليه، أو تقديمها إلى سدنة القبر[٣] تقربًا إلى الميت، أو تقديمها إلى الفقراء الذين يذهبون إلى القبر، وكان يفعل ذلك تقربًا إلى الميت، فهذا كله من الشرك الأكبر أيضًا؛ لما فيه من عبادة غير الله ومن اعتقاد أن هذا الميت

= والعزى ومناة، يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله. والمجاورون هناك فيهم شبه من الذين قال فيهم الخليل عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾ [الأنبياء: ٥٢]. والذين اجتاز بهم موسى وقومه، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع نذر معصية، وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها أو لسدنة الأبداد -وهي الأصنام- التي في الهند والمجاورين عندها».

ينظر: «فتح المجيد» (ص٢٨٨، ٢٨٩). وينظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥٠٤)، و«الدين الخالص» (١/ ١٨٣)، و«الدرر السنية» (١/ ٢٩٨-٣٠٢).

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٨٦)، و«التوضيح عن توحيد الخلاق» (ص٢٨٢)، و«الدين الخالص» (١/ ١٨٣)، و(٢/ ٦٠)، و«سيف الله» لصنع الله الحنفي (ص٦٩)، و«السنن والمبتدعات» للشقيري المصري (ص٧٤-٧٦).

(٢) «حاشية ابن عابدين» آخر كتاب الصيام (٢/ ١٢٨).

(٣) من المعلوم أن وضع سدنة للقبر يأخذون الهدايا والصدقات من البدع المحرمة، ومن الأسباب التي تؤدي إلى وقوع الجهلة في الشرك الأكبر. وينظر: كلام شيخ الإسلام الذي سبق نقله قريبًا، وسيأتي الكلام على هذه المسألة بشيء من التوسع عند الكلام على وسائل الشرك - إن شاء الله تعالى-.

ينفع أو يضر من دون الله.

قال الشيخ قاسم الحنفي: «ما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها ويُنقل إلى ضرائح الأموات تقربًا إليهم حرام بإجماع المسلمين»[(١)]، فمن زكى أو تصدق تدينًا وتقربًا إلى غير الله فقد وقع في الشرك الأكبر[(٢)].

ح - الشرك في الصيام والحج:

الصيام والحج من العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله بالإجماع، فمَن تعبَّد بها لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر، وذلك كمن يصوم أو يحج إلى الكعبة تقربًا إلى ولي أو ميت أو غيرهما من المخلوقين، وكمن يحج إلى قبر تقربًا إلى صاحبه. فهذا كله من الشرك الأكبر المُخرج من الملة، سواء أفعله العبد أم اعتقد جوازه[(٣)].

ط- الشرك في الطواف:

الطواف عبادة بدنية لا يجوز أن تصرف إلا لله تعالى، ولا يجوز أن يطاف إلا بالكعبة المشرفة، وهذا كله مجمع عليه، فمن طاف بقبر نبي أو عبد صالح أو بمنزل معين أو حتى بالكعبة المشرفة تقربًا إلى غير الله تعالى؛ فقد وقع في الشرك الأكبر بإجماع المسلمين[(٤)].

---

(١) «البحر الرائق» (٢/ ٣٢٠)، نقلًا عن الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي. وقد سبق قريبًا نقل كلام الإمام الشوكاني في أن إخراج صدقة المال عبادة بلا خلاف.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٧٥).

(٣) «منهاج السنة» (٢/ ٤٤٠)، و«درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٢٢٧،٢٢٨)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ٧٥،٣٥١)، و«الصارم المنكي» (ص٢١٥)، و«الدين الخالص» (٢/ ٥٨)، و«رسالة التوحيد» للدهلوي، الفصل الرابع (ص٥٧،٥٨).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٠٨)، و«الصارم المنكي» (ص٢١٥)، وينظر: «الجواب =

وهذا بقية العبادات كالتوكُّل[١]، والتبرك، والتعظيم البالغ[٢]، والخضوع[٣]، وقراءة القرآن، والذكر، والأذان[٤] والتوبة والإنابة. فهذه كلها عبادات لا يجوز أن تصرف لغير الله، فمن صرف شيئًا منها لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر[٥].

وسيأتي التفصيل في الشرك في بعض هذه العبادات وذكر بعض العبادات التي لم تذكر هنا عند الكلام على الشرك الأصغر وعند الكلام على الوسائل التي تؤدي إلى الوقوع في الشرك الأكبر - إن شاء الله تعالى -.

= الكافي» (ص١٩٦، ١٩٩، ٢٠٠)، و«الدين الخالص» (٢/ ٥٨، ٩٤)، و«رسالة التوحيد» للعلامة إسماعيل الدهلوي الهندي، الفصل الرابع (ص٥٥، ٥٦).

(١) ينظر: في الشرك في هذه العبادة: التحفة العراقية، «مجموع الفتاوى» (٧/ ٧٩)، و«الفوائد» (ص١٦٣، ٢٠٨، ٢١١)، و«مدارج السالكين» «منزلة التوكل» (٣/ ٥٢١، ٥٢٢)، و«الجواب الكافي» (ص١٩٩، ٢٠٠)، و«تيسير العزيز الحميد»، فتح المجيد، قرة عيون الموحدين، القول المفيد باب ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، مجموعة التوحيد (١/ ٢٨٥، ٤١٥، ٤٧٤)، و«الإرشاد» للفوزان (ص٦٤).

(٢) «مرقاة المفاتيح»، باب دفن الميت (٢/ ٣٧٢).

(٣) الخضوع عبادة لله تعالى بلا خلاف كما قال الإمام الشوكاني، وقد سبق نقل كلامه في الشرك في النذر.

(٤) حكى العيني في «عمدة القاري» عند شرح الحديث الأول (١/ ٣١): أن هذه الأقوال كلها عبادات بلا خلاف. وينظر: «الجواب الكافي» (ص١٩٩).

(٥) ينظر: في الشرك في هذه العبادات: «مجموع الفتاوى» (١/ ٧١، ٢٩١، ٣٥١)، و«مدارج السالكين» (١/ ٣٧٤)، و«زاد المعاد»: الطب «حلق الرأس» (٤/ ١٥٨-١٦٢)، و«الجواب الكافي» (ص١٩٦، ١٩٧، ٢٠٠)، و«تجريد التوحيد» (ص٣١، ٣٨، ٤٥)، و«تيسير العزيز الحميد» (ص٢٤-٢٦)، و«الدرر السنية» (٢/ ٣١٨)، و«جهود علماء الحنفية» (ص١٥٧٥)، وغيرها.

النوع الثالث من أنواع الشرك في الألوهية: الشرك في الحكم والطاعة:

ومن صور الشرك في هذا النوع:

١- أن يعتقد أحد أن حكم غير الله أفضل من حكم الله أو مثله، فهذا شرك أكبر مُخرج من الملة؛ لأنه مكذب للقرآن، فهو مكذب لقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠]، ولقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين: ٨] وهذا استفهام تقريري، أي أن الله تعالى أحكم الحاكمين، فليس حكم أحد غيره أحسن من حكمه ولا مثله.

٢- أن يعتقد أحد جواز الحكم بغير ما أنزل الله، فهذا شرك أكبر؛ لأنه اعتقد خلاف ما دلت عليه النصوص القطعية من الكتاب والسنة، وخلاف ما دل عليه الإجماع القطعي من المسلمين من تحريم الحكم بغير ما أنزل الله[1].

---

(١) ينظر: تفسير الآيات (٦٠-٦٥) من سورة النساء، وتفسير الآيات (٤٤-٥٠) من سورة المائدة، وتفسير الآيتين (٣١، ٣٧) من سورة التوبة - في تفاسير ابن جرير والقرطبي وابن كثير والشوكاني وابن سعدي والشنقيطي. و«التمهيد» (٤/ ٢٢٦)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ٩٧، ٩٨)، و(٣/ ٢٦٧)، و(٧/ ٦٧-٧٢)، و(٣٥/ ٣٧٣)، و«شرح الطحاوية» (ص٤٤٦)، و«الدين الخالص» (٢/ ٦٦، ٦٧)، و«تيسير العزيز الحميد»، وفتح المجيد، والقول المفيد، باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم، والباب بعده. ورسالة «تحكيم القوانين» للشيخ محمد ابن إبراهيم مفتي المملكة السابق، المطبوعة ضمن فتاويه (١٢/ ٢٨٤-٢٩١)، ورسالة «فتنة التكفير» للألباني، وتقديم شيخنا عبد العزيز بن باز رحمه الله لها، وتعليق شيخنا محمد بن عثيمين عليها، ورسالة «تحذير أهل الإيمان من الحكم بغير ما أنزل الرحمن» مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١/ ١٣٦-١٧٣)، و«رسالة النواقض القولية والعملية» (ص٣١٢-٣٤٣)، و«رسالة النواقض الاعتقادية» =

٣- أن يضع تشريعًا أو قانونًا مخالفًا لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويحكم به[(١)]، معتقدًا جواز الحكم بهذا القانون، أو معتقدًا أن هذا القانون خير من حكم الله أو مثله[(٢)]، فهذا شرك مُخرج من الملة.

= الفصل الأخير (٢/ ٢٢٢-٢٣٢)، و«رسالة الحكم بغير ما أنزل الله» للدكتور عبد الرحمن المحمود، و«رسالة الغلو» (ص٢٨٩-٣٠٠).

(١) أما لو حكم بغير الشرع في قضية واحدة وشبهها لشهوة أو رشوة أو نحوهما، فهذا من الشرك الأصغر. تنظر أكثر المراجع السابقة.

(٢) وهذا هو ظاهر حال أغلب الذين يضعون هذه القوانين ويحكمون بها، ومثلهم الذين يحكمون بعادات «سلوم» قبائلهم. ينظر: تعليق الشيخ ابن عثيمين على رسالة «فتنة التكفير» (ص٣٥).

أما من وضع هذا القانون مكرهًا أو تحت ضغط من غيره، مع اعتقاده حرمة الحكم به وأن حكم الله تعالى أفضل منه، فقد ذهب بعض العلماء إلى أنه لا يكفر، قال الشيخ ابن عثيمين في الموضع السابق عند كلامه على هذه المسألة: «قد يكون الذي يحمله على ذلك - أي على وضع قانون والحكم به - خوفًا من أناس آخرين أقوى منه إذا لم يطبقه، فيكون مداهنًا لهم، فحينئذٍ نقول: إن هذا كالمداهن في بقية المعاصي».

ولبعض العلماء خلاف في هذه المسألة، فقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن مجرد تحكيم قانون أو نظام عام مخالف لشرع الله تعالى كفرٌ مخرجٌ من الملة ولو لم يصحبه اعتقاد أن هذا القانون أفضل من شرع الله أو مثله أو يجوز الحكم به. وقد استدل أصحاب هذا القول بعموم آية المائدة الآتية، رقم (٤٤) ينظر في هذا القول أكثر المراجع السابقة.

وقد استدل أصحاب القول الأول بما روى ابن جرير في تفسير هذه الآية، ومحمد بن نصر (٥٧١)، وابن بطة (١٠٠٥) بإسناد صحيح، رجاله رجال الصحيحين عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] قال: «هي به كفر، وليس كفرًا بالله وملائكته وكتبه ورسله»، وروى سعيد بن منصور في سننه (٧٤٩)، وابن جرير، وابن أبي حاتم في تفسير الآية (٤٤) من =

٤- من يحكم بعادات آبائه وأجداده أو عادات قبيلته - وهي ما تسمى عند بعضهم بـ: السُّلُوم - وهو يعلم أنها مخالفة لحكم الله، معتقدًا أنها أفضل من حكم الله أو مثله أو أنه يجوز الحكم بها؛ فهذا شرك أكبر مُخرج من الملة.

٥- أن يطيع من يحكم بغير شرع الله عن رضا، مقدمًا لقولهم على شرع الله، ساخطًا لحكم الله، أو معتقدًا جواز الحكم بغيره، أو معتقدًا أن هذا

= سورة المائدة، والحاكم (٢/ ٣١٣)، وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله عز وجل:  ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، إنه ليس كفرًا ينقل عن الملة. وسنده حسن، رجاله رجال الصحيحين. ويؤيد هذه الرواية المفصلة الرواية الثالثة عن ابن عباس عند ابن أبي حاتم (٦٤٢٦)، أما رواية عبد الرزاق في «تفسيره» عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس بلفظ: هي كفر. قال ابن طاوس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله. فإنها تؤيد الروايات السابقة، بدليل فهم راويها ابن طاوس كما سبق، وقد أخرجها ابن جرير وابن نصر (٥٧٠) وغيرهما من طريق عبد الرزاق بلفظ: «هي به كفر»، فهي مختصرة من الرواية الأولى. وعلى فرض أنها تعارضها فإن الرواية الأولى أقوى إسنادًا فتُقدم عليها. فقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما وهو ترجمان القرآن ومن أئمة العربية أن الكفر المذكور في الآية المراد به الكفر الأصغر، مع أن كلًّا من «مَن» و«ما» في الآية من صيغ العموم، فتشمل «مَن» كل حاكم بغير الشرع، وتشمل «ما» كل نظام أو قانون يحكم به.

وقد أطال الحافظ ابن القيم في كتاب الصلاة: فصل كفر الاعتقاد وكفر العمل، (ص٥٥-٥٩) في التفريق بين كفر الاعتقاد وبين كفر العمل، وذكر أن الحكم بغير ما أنزل الله من كفر العمل، ونقل عن السلف نصوصًا صريحة في ذلك، وذكر أن هذا الكفر لا يُخرج من الملة، ثم قال: «وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله وبالإسلام والكفر ولوازمهما، فلا تُتلقى هذه المسائل إلا عنهم، فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم، فانقسموا فريقين...». والله أعلم.

الحكم أو القانون أفضل من حكم الله أو مثله[(١)].

ومثل هؤلاء من يتبع أو يتحاكم إلى الأعراف القبلية - التي تسمى: السُّلوم - المخالفة لحكم الله تعالى، مع علمه بمخالفتها للشرع، معتقدًا جواز الحكم بها، أو أنها أفضل من الشرع أو مثله. فهذا كله شرك أكبر مُخرج من الملة[(٢)].

والدليل على أن هذا كله شرك قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤][(٣)].

---

(١) أما من تابع من يحكم بغير الشرع مع أنه كان راضيًا بحكم الله معتقدًا أنه أفضل وأصلح للعباد ولكن تابع هؤلاء لهوى في نفسه، كأن يريد وظيفة ونحو ذلك؛ فقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يكفر. قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (٧/ ٧٠) عند كلامه على هذه المسألة: «أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتًا، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أصحاب الذنوب»، وقال الشيخ ابن عثيمين في «القول المفيد» (٢/ ١٥٨): «إننا لو قلنا بكفرهم لزم من ذلك تكفير كل صاحب معصية يَعرف أنه عاصٍ لله ويَعلم أنه حكم الله».

(٢) وألحق بهم بعض العلماء من يقلد العلماء أو المذاهب الفقهية ويترك الدليل لقول مقلده، فيقدم قول مقلده عليه تعصُّبًا له. ينظر: «فتح المجيد» آخر باب من أطاع العلماء...، و«الدين الخالص» (٢/ ٦٦)، وينظر: تفسير الآية (٣١) من سورة التوبة في تفسير الشوكاني.

(٣) روى الإمام أحمد (١٨٥٢٥)، ومسلم (١٧٠٠) عن البراء بن عازب أن هذه الآية نزلت في شأن اليهود، وقال البراء أيضًا في آخر هذه الرواية بعد ذكر هذه الآية والآيات بعدها: «هذه في الكفار كلها».

وذكر الحافظ ابن جرير الخلاف في المراد بالكفر في هذه الآية، فذكر فيها =

. . . .

= خمسة أقوال: (١- أنه عُني به اليهود. (٢- أنه عُني به المسلمون أي: من لم يحكم منهم بما أنزل الله. (٣- أنه كفر دون كفر. (٤- أنها نزلت في أهل الكتاب ومراد بها جميع الناس. (٥- أن الكفر لمن لم يحكم بالشرع جاحدًا به، والظلم والفسق للمُقر به. وذكر آثارًا كثيرة في هذه الأقوال، ثم رجح القول الأول.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: «قال ابن مسعود والحسن: هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار، أي: معتقدًا ذلك ومستحلًّا له، فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكب محرم فهو من فساق المسلمين، وأمره إلى الله تعالى، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، وقال ابن عباس في رواية: ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلًا يضاهي أفعال الكفار. وقيل: أي: ومن لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر، فأما من حكم بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل في هذه الآية، والصحيح الأول».

وقال ابن العربي في تفسير هذه الآية أيضًا بعد ذكره للخلاف في هذه المسألة: «وهذا يختلف: إن حكم بما عنده على أنه من عند الله فهو تبديل له يوجب الكفر، وإن حكم به هوى ومعصية فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين».

وما ذكره ابن العربي من كفر من بدل الشرع مُجمع عليه كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٦٧)، وعليه يُحمل ما ذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٥/ ١٦٣) عند كلامه على حكم جنكز خان بالياسق من الإجماع على كفر من حكم به، بدليل أن الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ قرنه بالحكم بالشرائع السابقة التي أكثرها مبدل، ويؤيد هذا أن جنكز وابنه كانا يدعيان أنهما نائبان عن رب السماء كما في «البداية والنهاية» (١/ ١٦٢).

ولا يصح حمل كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ على حكاية الإجماع على كفر من لم يحكم بجميع ما أنزل الله مطلقًا، فإن كلامَ كثير من أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم يدل على وجود الخلاف في هذه المسألة، والقرطبي إنما ذكر في كلامه السابق هذا القول كأحد الأقوال في تفسير آية المائدة التي هي عمدة من قال بكفره، فهذه المسألة بلا شك مسألة خلافية؛ ولهذا رجح بعض كبار علماء عصرنا كشيخنا عبد العزيز بن باز وشيخنا محمد بن عثيمين القول الآخر في هذه المسألة كما سبق، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: ٣١].

ورُوي عن عَدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقلت: إنا لسنا نعبدهم؟ فقال ﷺ: «**أليس يحرِّمون ما أحلَّ اللهُ فتُحرِّمونه، ويُحِلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه؟**» قال: قلت: بلى. فقال ﷺ: «**فتلك عبادتهم**»[1]. فذكر في هذا الحديث أن طاعتهم في مخالفة الشرع عبادة لهم، وذكر الله تعالى في آخر الآية أن ذلك شرك، ولأن من كره شرع الله كفر؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾ [محمد: ٩].

٦- من يدعو إلى عدم تحكيم شرع الله، وإلى تحكيم القوانين الوضعية محاربةً للإسلام وبغضًا له؛ كالذين يدعون إلى سفور المرأة واختلاطها بالرجال الأجانب في المدارس والوظائف وإلى التعامل بالربا، وإلى منع تعدد الزوجات... وغير ذلك مما فيه دعوة إلى محاربة شرع الله، فالذي يدعو إلى ذلك مع علمه بأنه يدعو إلى المنكر وإلى محاربة شرع الله - ظاهر حاله أنه لم يدعُ إلى ذلك إلا لما وقع في قلبه من الإعجاب بالكفار وقوانينهم واعتقاده أنها أفضل من شرع الله، ولما وقع في قلبه من كره لدين

(١) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٧/ ١٠٦)، والترمذي في التفسير (٣٠٩٥)، وابن جرير في «تفسيره» (١٦٦٣١-١٦٦٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٥٧). وقد حسَّنه شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (٦٧/٣)، والشيخ محمد ناصرالدين في صحيح الترمذي (٢٤٧١). وله شاهد من قول حذيفة عند ابن جرير (١٦٦٣٤)، وابن أبي حاتم (١٠٠٥٨) ورجاله ثقات، لكن في سنده انقطاع.

الإسلام وأحكامه، وهذا كله شرك وكفر مُخرج من الملة.

ومن كانت هذه حقيقة حاله فقد وقع في الشرك الأكبر، وإن كان يُظهر أنه من المسلمين فهو نفاق أيضًا؛ للأدلة التي سبق ذكرها في الفقرة السابقة، بل هنا أولى؛ لأن الدعوة إلى الشيء شر من مجرد اتباعه(١)(٢).

المسألة التاسعة: الشرك الأصغر:

الشرك الأصغر ينقص التوحيد ويخلُّ به، وهناك أشياء من الشرك الأصغر حذرنا منها الله ورسوله؛ صيانة للعقيدة، وحماية للتوحيد؛ لأنها تنقص التوحيد، وربما تجر إلى الشرك الأكبر.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: «الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي. وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت. وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلانًا؛ هذا كله به شرك»(٣).

فقد بَيَّن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الأشياء من الشرك، والمراد به الشرك الأصغر، والآية عامة تشمل الشرك الأكبر والشرك الأصغر؛ فابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) ينظر: في جميع الصور السابقة أكثر المراجع المذكورة عند بيان الصورتين الأوليين لهذا النوع.

وينظر في الصورة الأخيرة أيضًا ما يأتي عند الكلام على النفاق الأكبر في الفصل الثالث من هذا الباب - إن شاء الله تعالى -.

(٢) فصل الشرك الأكبر مقتبس من «تسهيل العقيدة الإسلامية» بتصرف (ص: ١٦١).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» - محققًا (١/ ٦٢).

نبه بهذه الأشياء بالأدنى «وهو الشرك الأصغر» على الأعلى «وهو الشرك الأكبر»، ولأن هذه الألفاظ تجري على ألسنة كثير من الناس إما جهلًا أو تساهلًا.

ومن هذه الأشياء:

١ - الحلف بغير الله ﷻ:

وهو شرك؛ كما روى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من حلف بغير الله؛ فقد كفر - أو: أشرك-**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (١/ ٢٩٠). وكذا أبو داود (كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بالآباء (٣/ ١٧٨رقم: ٣٢٥١). وابن حبان (١١٧٧). والحاكم (٤/ ٢٩٧). والبيهقي (١٠/ ٢٩). والطيالسي (١٨٩٦). وأحمد (٢/ ٣٤/ ٦٧/ ٦٩/ ٨٦/ ١٢٥). من طرق عن سعد بن عبيدة. وحسنه الترمذي في (جامعه في كتاب النذر والأيمان باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، (٣/ ١٨٥/ رقم: ١٥٤٠)، وقال الحاكم: (صحيح على شرط الشيخين)، ووافقه الذهبي. كما في «المستدرك» (٤/ ٢٩٧). وابن حبان في «صحيحه» (٤٣٥٨). وإسناده صحيح على شرط مسلم. وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٥٩٢٦). وغيرهم من طرق عن سعد ابن عبيدة به. نحوه.

واللفظ الذي ذكر لأحمد. قال الإمام أبو حنيفة: (لا يحلف إلا بالله مُتُجُرِّدًا بالتوحيد والإخلاص ولو قال: وَعِبَادَةِ، وَحَمْدِ الله، فليس بيمين؛ لأنه حَلْف بغير الله، ألا ترى أن العبادة والحمد فعلك-«بدائع الصنائع» (٣/ ٨). وقال الإمام الشافعي في «الأم» (٧/ ٦١): (فكل مَن حَلَفَ بغير الله كَرِهْتُ له وخشيتُ أن تكون يمينه معصية... وأكره الأيمان بالله على كل حال إلا فيما كان لله طاعة، مثل البيعة على الجهاد وما أشبه ذلك- «المدونة الكبرى» (٢/ ٣٢)، و«نيل الأوطار» (٨/ ٢٣٧)، و«المغني لابن قدامة» (٨/ ٦٧٧)، و«بداية المجتهد» (١/ ٧٤٧)، و«مغني المحتاج» (٨/ ٣٢٠). وغيرهم.

قال ابن حزم في «المحلى» (٨/ ٣٠): (وأما من حَلَف بغير ما ذكرنا-بغير اسم =

قوله: «فقد كفر - أو: أشرك-»: يحتمل أن يكون هذا شكًّا من الراوي، ويحتمل أن يكون (أو) بمعنى الواو؛ فيكون قد كفر وأشرك، ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر؛ كما أنه من الشرك الأصغر.

وقد كثر من الناس اليوم من يحلف بغير الله؛ كمن يحلف بالأمانة، أو يحلف بالنبي ﷺ، أو يقول: وحياتي وحياتك يا فلان... وما أشبه هذه الألفاظ، وقد سمعنا ما ورد في الأحاديث من النهي عن الحلف بغير الله - ﷻ، واعتباره كفرًا أو شركًا؛ لأن الحلف بالشيء تعظيم له، والذي يجب أن يُعظم ويُحلف به هو الله ﷻ والحلف بغيره شرك وجريمة عظمى.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا»[1].

= من أسماء الله أو نحو ذلك-فليس حالفًا ولا هي يمينًا ولا كفارة في ذلك إن حَنِث، ولا يلزمه الوفاءُ بما حلف عليه بذلك، وهو عاصٍ لله تعالى فقط، وليس عليه إلا التوبة من ذلك والاستغفار).

وقد قيل للإمام مالك: أرأيت الرجل يقول للرجل: وأبي وأبيك وحياتي وحياتك وعَيْشِي وعيشك.. فقال الإمام مالك: هذا من كلام النساء وأهل الضعف من الرجال، فلا يعجبني هذا. وكان يكره الأيمان بغير الله تعالى. وقال ابن عباس: (والله لأن أحلف بالله مائة مرة ثم آثم، أحب إليّ من أن أحلف بغيره مرة ثم أَبر). وقال ابن مسعود: (لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا).

قال الشيخ الألباني في «الإرواء» (٨/ ١٩١/ ١٩٢/ رقم: ٢٥٦٢) على هذا الأثر: صحيح أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ ١٧/ ٢). ثم ساق سنده فقال الألباني: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين. وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١٧٧): رواه الطبراني في «الكبير»، ورجاله رجال الصحيح. وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ١٧٩).

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ ١٧/ ٢). وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١٧٧): رواه الطبراني في «الكبير»، ورجاله رجال الصحيح. =

ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذبًا كبيرة من الكبائر، لكن الشرك - وهو الحلف بغير الله - أكبر من الكبائر، وإن كان شركًا أصغر.

فيجب على المسلم أن يتنبه لهذا، ولا تأخذه العوائد الجاهلية؛ قال ﷺ: «**مَن كان حالفًا؛ فليحلف بالله أو ليصمت**»(١). وقال ﷺ: «**لا تحلفوا بآبائكم**»(٢) إلى غير ذلك من النصوص التي تأمرنا إذا أردنا أن نحلف أن نقتصر على الحلف بالله وحده ولا نحلف بغيره.

٢- الشرك في الألفاظ:

ومن الشرك الأصغر الشرك في الألفاظ؛ مثل قول: ما شاء الله وشئت. فقد روى الإمام أحمد والنسائي عن قتيلة؛ أن يهوديًّا أتى النبي ﷺ فقال: «إنكم تشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة! فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت»(٣).

= وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ١٧٩).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، حديث (٦٦٤٦) انظر: «فتح الباري» (١١/ ٥٣٠). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى (٥/ ٨٠).

(٢) البخاري في الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، حديث (٦٦٤٧)، ومسلم (ص١٢٦٦)، وأحمد (١/ ١٨)، والترمذي في الأيمان والنذور، باب كراهية الحلف بغير الله «تحفة» (٥/ ١٣٢)، والنسائي في الأيمان والنذور، باب الحلف بالآباء (٧/ ٥)، وأبو داود في الأيمان والنذور، باب كراهية الحلف بالآباء، حديث رقم (٣٢٥١)، وابن ماجه، كتاب الكفارات، باب النهي أن يحلف بغير الله، حديث رقم (٢٠٩٤).

(٣) أحمد (٦/ ٣٧١، ٣٧٢). والنسائي (٧/ ٦) في الأيمان والنذور، باب الحلف =

وروى النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ما شاء الله وشئت. فقال: «**أجعلتني لله ندًّا؟! قل: ما شاء الله وحده**»(١).

فدل الحديثان وما جاء بمعناهما على منع قول: ما شاء الله وشئت، وما شابهه من الألفاظ؛ مثل: لولا الله وأنت، ما لي إلا الله وأنت... لأن العطف بالواو يقتضي التسوية بين المتعاطفين، وهذا شرك؛ فالواجب أن يعطف بـ«ثم»، فيقال: ما شاء الله ثم شئت، أو شاء فلان، لولا الله ثم أنت، أو: ثم فلان، ما لي إلا الله ثم أنت... لأن العطف بـ«ثم» يقتضي الترتيب والتعقيب، وأن مشيئة العبد تأتي بعد مشيئة الله تعالى، لا مساوية لها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فمشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى؛ فالعبد وإن كانت له مشيئة - خلافًا للجبرية - فمشيئة تابعة لمشيئة الله، ولا يقدر على أن يشاء شيئًا إلا إذا كان قد شاءه؛ خلافًا للقدرية من المعتزلة وغيرهم، الذين يُثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده

= بالكعبة.

وابن ماجه (١/ ٦٨٥/ح٢١١٨) في الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت. وإسناده صحيح.

(١) أخرجه في «مسنده» (١/ ٢١٤، ٢٢٤)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١/ ٢٨٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٨٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/ ٣٤٠)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ٤٢٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ١٠٤).

من طريق الأجلح بن عبد الله عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس مرفوعًا. وعبد الله ابن الأجلح، وثقه ابن معين، وقال أحمد: روى غير حديث يذكر. وقال أبو حاتم: يُكتب حديثه ولا يُحتج به. وقال النسائي: ضعيف ليس بذاك. لكن له شواهد يُحسن بها. وانظر: «علل ابن أبي حاتم» (٢٢١٠) (٢/ ٢/ ٢٤٠).

الله، تعالى الله عما يقولون.

٣- الشرك في النيات والمقاصد:

ومن الشرك الأصغر الشرك في النيات والمقاصد، وهو ما يسمى بالشرك الخفي؛ كالرياء، وهو نوعان:

أ- الرياء: وهو مشتق من الرؤية، والمراد به إظهار العبادة؛ لقصد رؤية الناس لها؛ فيحمدون صاحبها.

والفرق بين الرياء وبين السمعة: أن الرياء لِما يُرى من العمل كالصلاة، والسمعة لما يُسمع كالقراءة والوعظ والذكر.

ويدخل في ذلك تحدث الإنسان عن أعماله وإخباره بها.

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **في معنى الآية:** «أي: كما أن الله واحد لا إله سواه؛ فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له؛ فكما تفرد بالإلهية يجب أن يُفرد بالعبودية؛ فالعمل الصالح هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة» انتهى(١).

وقد توعد الله المرائين بالويل؛ فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤ - ٧].

وأخبر تعالى أن الرياء من صفات المنافقين؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢].

---

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء» (ص: ١٣٢).

وعن أبي هريرة مرفوعا؛ قال: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَن عمل عملًا أشرك معي فيه غيري؛ تركته وشركه**»[(١)]. أي: مَن قصد بعمله غيري من المخلوقين؛ تركته وشركه، وفي رواية لابن ماجه: «**فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك**».

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن العمل لغير الله أقسام:

فتارة يكون رياء محضًا؛ كحال المنافقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها؛ فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله؛ فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه، وأما إن كان العمل لله وطرأ عليه نية الرياء؛ فإن كان خاطرًا ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أو لا؛ فيجازي على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجّحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن وغيره...» انتهى[(٢)].

فتحفظوا على أعمالكم من الشرك أعظم مما تتحفظون على أنفسكم من أعدائكم، وأعظم مما تتحفظون على أموالكم من السُّراق؛ فإن خطر الشرك عظيم.

---

(١) مسلم: الزهد والرقائق (٢٩٨٥)، وابن ماجه: الزهد (٤٢٠٢)، وأحمد (٢/ ٣٠١، ٢/ ٤٣٥).

(٢) «جامع العلوم والحكم» ط/ المعرفة بتصرف (ص:١٦).

نسأل الله لنا ولكم السلامة والإخلاص في القول والعمل.

ب- إرادة الإنسان بعمله الدنيا:

إرادة الإنسان بعمله الدنيا نوع من أنواع الشرك في النية والقصد، وقد حذر الله منه في كتابه، وحذر منه رسوله في سنته، وهو أن يريد الإنسان بالعمل الذي يُبتَغى به وجه الله مطمعًا من مطامع الدنيا، وهذا شرك ينافي كمال التوحيد ويحبط العمل.

قال الله تبارك تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: ١٥، ١٦].

ومعنى الآيتين الكريمتين: أن الله - سبحانه - يخبر أن من قصد بعمله الحصول على مطامع الدنيا فقط؛ فإن الله يوفر له ثواب عمله في الدنيا بالصحة والسرور وبالمال والأهل والولد، وهذا مقيد بالمشيئة؛ كما قال في قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، وهؤلاء ليس لهم في الآخرة إلا النار؛ لأنهم لم يعملوا ما يخلصهم منها، وكان عملهم في الآخرة باطلًا لا ثواب له؛ لأنهم لم يريدوها.

قال قتادة: «يقول تعالى: من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته؛ جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء. وأما المؤمن؛ فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة».

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذُكر عن السلف في معنى الآية أنواع مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناه:

فمن[1] ذلك: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله

(١) هذا هو النوع الأول.

من صدقة وصلاة وصلة وإحسان إلى الناس وترك ظلم ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصًا لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته أو حفظ أهله وعياله أو إدامة النعمة عليه، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار؛ فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب، وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكره مجاهد في الآية أنها أنزلت فيه، وهو أن يعمل أعمالًا صالحة ونيته رياء الناس لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالًا صالحة يقصد بها مالًا؛ مثل أن يحج لما يأخذه، أو يهاجر لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم؛ فقد ذكر هذا النوع - أيضًا - في تفسير الآية، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رئاستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد؛ كما هو واقع كثيرًا.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصًا في ذلك لله وحده لا شريك له، لكنه على عمل يكفره ويُخرجه من الإسلام؛ مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك يخرجهم من الإسلام بالكلية إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام، وتمنع قبول أعمالهم.

فهذا النوع - أيضًا - قد ذكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره، وكان السلف يخافون منها. انتهى ما ذكره رَحِمَهُ اللهُ.

والآيتان تتناولان هذه الأنواع الأربعة؛ لأن لفظها عام.

فالأمر خطير، يوجب على المسلم الحذر من أن يطلب بعمل الآخرة طمع الدنيا.

وقد جاء في «صحيح البخاري» أن من كان قصده الدنيا ويجري وراءها بكل همه؛ أنه يصير عبدًا لها:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعْطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»(١).

ومعنى «تعس» لغة: سقط، والمراد هنا هلك، وسماه عبدًا لهذه الأشياء لكونها هي المقصودة بعمله؛ فكل من توجه بقصده لغير الله؛ فقد جعله شريكًا له في عبوديته؛ كما هو حال الأكثر.

وقد دعا الرسول ﷺ في هذا الحديث على من جعل الدنيا قصده وهمه - بالتعاسة والانتكاسة وإصابته بالعجز عن انتقاش الشوك من جسده، ولا بد أن يجد أثر هذه الدعوات كل من اتصف بهذه الصفة الذميمة؛ فيقع فيما يضره في دنياه وآخرته.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦) في الجهاد: باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، و(٦٤٣٥) في الرقاق: باب ما تبقى من فتنة المال. وابن ماجه (٤١٣٥) في الزهد: باب المكثرين، والبيهقي (١٠/ ٢٤٥)، والبغوي (٤٠٥٩) من طرق عن أبي بكر بن عياش، عن أبي حصين، عن أبي صالح عن أبي هريرة.

وأخرجه البخاري (٢٨٨٧)، والبيهقي (٩/ ١٥٩)، و(١٠/ ٢٤٥) من طريق عمرو بن مرزوق، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبي صالح، عن أبي هريرة.

قوله: «**تعس عبد الدينار**» أي: انكب وعثر، ومعناه: الدعاء عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٨] أي: عثارًا وسقوطًا، إذا سقط الساقط به فأريد به الاستقامة، قيل: لعا له، وإذا لم يرد به الانتعاش، قيل: تعسًا له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فسماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة، وذكر فيها ما هو دعاء بلفظ الخبر، وهو قوله: «تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»، وهذا حال من إذا أصابه شر؛ لم يخرج منه ولم يفلح؛ لكونه تعس وانتكس؛ فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه: إن أُعطي رضي، وإن مُنع سخط؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التوبة: ٥٨]، رضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقًا برئاسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط؛ فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته؛ فما استرق القلب واستعبده فهو عبده...»[(١)].

إلى أن قال: «وهكذا طالب المال؛ فإن ذلك يستعبده ويسترقه، وهذه الأمور نوعان:

الأول: منها ما يحتاج العبد إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك؛ فهذا يُطلب من الله، ويُرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماله الذي يركبه وبساطه الذي يجلس عليه من غير أن يستعبده فيكون هلوعًا.

الثاني: ومنها ما لا يحتاج إليه العبد؛ فهذا ينبغي أن لا يعلق قلبه به، فإذا علق قلبه صار مستعبدًا له، وربما صار مستعبدًا على غير الله؛ فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا أحق الناس بقوله ﷺ: «**تعس**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨١).

عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة»، وهذا عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله؛ فإن الله إذا أعطاه إياها؛ رضي، وإن منعه إياها سخط.

وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله؛ فهذا الذي استكمل الإيمان...» انتهى كلامه رحمه الله[(١)].

قلت: ومن عبيد المال اليوم الذين يُقْدمون على المعاملات المحرمة والمكاسب الخبيثة بدافع حب المادة؛ كالذين يتعاملون بالربا مع البنوك وغيرها، والذين يأخذون المال عن طريق الرشوة والقمار وعن طريق الغش في المعاملات والفجور في المخاصمات، وهم يعلمون أن هذه مكاسب محرمة، لكن حبهم للمال أعمى أبصارهم، وجعلهم عبيدًا له؛ فصاروا يطلبونه من أي طريق.

نسأل الله العافية لنا ولإخواننا المسلمين من الشح المطاع والهوى المتبع وإعجاب كل ذي رأي برأيه.

٤ - مسبة الدهر ونحوه:

ومن الأشياء التي يرتكبها بعض الناس بحكم العادة، وهي مما ينقص التوحيد - أيضًا - ويسيء إلى العقيدة - مسبة الدهر ومسبة الريح وما أشبه ذلك من إسناد الذم إلى المخلوقات فيما ليس لها فيه تصرف، فيكون هذا الذم في الحقيقة موجه إلى الله سبحانه؛ لأنه الخالق المتصرف.

قال الله تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

(١) «الفتاوى الكبرى» (٥/١٨٦).

فقد كذبوا بالبعث ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها، ليس هناك حياة سواها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: يموت قوم ويعيش آخرون. وهذا منهم إنكار لوجود الخالق المتصرف، ورد جريان الحوادث إلى الطبيعة ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؛ أي: لا يفنينا إلا مرور الليالي والأيام. فنسبوا الإهلاك إلى الدهر على سبيل الذم له، وإنما قالوا هذا القول عن جهل وتخرص، لا عن علم وبرهان؛ لأن البرهان يَرُد هذا القول ويبطله، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، وكل قول لا ينبني على علم وبرهان فهو قول باطل مردود.

والبراهين تدل على أن ما يجري في الكون لا بد له من مدبر حكيم قادر، وهو الله ﷻ.

فكل من سب الدهر ونسب إليه شيئًا من الحوادث؛ فقد شارك المشركين والدهرية في هذا الوصف الذميم وإن لم يشاركهم في أصل الاعتقاد.

وفي «الصحيحين» وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، بسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار**»[1]، وفي رواية: «**لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٢٦)، و(٦١٨١٩)، باب: لا تسبوا الدهر، والتوحيد (٧٤١١). ومسلم في الأدب ((٢٢٤٦/ ٢)، باب النهي عن سبّ الدهر، وفي رواية ثانية عند مسلم ((٢٢٤٦/ ٥): «**لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله**».

(٢) رواه البخاري (١٠ / ٤٦٥) في الأدب، باب لا تسبوا الدهر، وفي تفسير سورة الجاثية، وفي التوحيد، باب ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، ومسلم رقم (٢٢٤٦) في الألفاظ، باب النهي عن سب الدهر. و«الموطأ» (٢ / ٩٨٤) في الكلام، باب ما يُكره من الكلام. وأبو داود رقم (٥٢٧٤) في الأدب، باب في الرجل يسب الدهر. صحيح: أخرجه الحميدي (١٠٩٦) قال: حدثنا سفيان. وأحمد (٢/٢٣٨) =

فدل الحديث على أن من سب الدهر فقد آذى الله - سبحانه - لأن السب يتجه إلى مدبر الحوادث والوقائع وخالقها، والدهر إنما هو ظرف ومحل وخلق مدبَّر، ليس له شيء من التدبير؛ ولهذا قال الله: «**وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار**»؛ فقوله - سبحانه -: «**أقلب الليل والنهار**» تفسير لقوله: «**وأنا الدهر**»، وكذا قوله: «**فإن الله هو الدهر**»؛ معناه أن الله هو المتصرف الذي يُصرف الدهر وغيره؛ فالذي يسب الدهر إنما يسب من خلقه، وهو الله تعالى وتقدس.

قال بعض السلف: «كانت العرب في جاهليتها من شأنها ذم الدهر؛ أي:

= قال: حدثنا سفيان. وفي (٢/ ٢٧٢، ٢٧٥) قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر. والبخاري (٦/ ١٦٦و٩/ ١٧٥) قال: حدثنا الحميدي، قال: حدثنا سفيان. ومسلم (٧/ ٤٥) قال: حدثناه إسحاق بن إبراهيم وابن أبي عمر. قال إسحاق: أخبرنا. وقال ابن أبي عمر: حدثنا سفيان. (ح)، وحدثنا عبد بن حميد، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر. وأبو داود (٥٢٧٤) قال: حدثنا محمد بن الصباح ابن سفيان وابن السرح، قالا: حدثنا سفيان. والنسائي في الكبرى تحفة الأشراف (١٣١٣١) عن محمد بن عبد الله بن يزيد، عن سفيان.

كلاهما - سفيان، ومعمر - عن الزهري، عن سعيد بن المسيب. . . فذكره.

* زاد في رواية معمر: « . . . فإذا شئت قبضتهما».

والرواية الأخرى: أخرجها البخاري (٨/ ٥١) قال: حدثنا يحيى بن بكير، قال: حدثنا الليث. ومسلم (٧/ ٤٥) قال: حدثني أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن سرح وحرملة بن يحيى، قالا: أخبرنا ابن وهب. والنسائي في الكبرى تحفة الأشراف (١١/ ١٥٣١٢) عن وهب بن بيان، عن وهب.

كلاهما - الليث، وابن وهب - عن يونس، عن ابن شهاب، قال: أخبرني أبو سلمة ابن عبد الرحمن. . . فذكره.

أخرجه أحمد (٢/ ٣٩٥) قال: حدثنا هوذة، قال: حدثنا عوف، عن خلاس ومحمد، فذكراه.

سبه عند النوازل؛ فكانوا إذا أصابتهم شدة أو بلاء؛ قالوا: أصابتهم قوارع الدهر. وأبادهم الدهر. وقالوا: يا خيبة الدهر! فيسندون الأفعال إلى الدهر، ويسبونه، وإنما فاعل ذلك هو الله، فإذا أضافوا ما نالهم من الشدائد إلى الدهر؛ فإنما سبوا الله ﷻ؛ لأن الله هو الفاعل لذلك حقيقة.

فالذي يليق بالمسلم تجنب مثل هذه الألفاظ، وإن كان يعتقد أن الله هو المتصرف، لكن في تجنبها ابتعاد عن مشابهة الكفار ولو في الألفاظ، وفي ذلك حفاظ على العقيدة، وتأدب مع الله سبحانه.

ومن جنس مسبة الدهر مسبة الريح، وقد ورد النهي عنها في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن أُبي بن كعب رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون؛ فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به**»[١].

---

(١) سنن الترمذي (٤/ ٥٢١)، ح (٢٢٥٢)، كتاب الفتن، باب ما جاء في النهي عن سب الرياح، و«عمل اليوم والليلة» للنسائي ص (٥٢٢)، ح (٩٣٧)، و«مسند الإمام أحمد» (٥/ ١٢٣). والحديث عن أبي بن كعب رضي الله عنه. والحديث قال فيه الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني أيضًا. انظر: «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٢٥٣، ح ١٨٣٦)، و«مشكاة المصابيح» (١/ ٤٨٠، ح ١٥١٨)، كتاب الصلاة، باب في الرياح ٢ [٢٤٨] «سنن أبي داود» (٥/ ٣٢٨- ٣٢٩، ح ٥٠٩٧)، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا هاجت الريح. «سنن ابن ماجه» (٢/ ١٢٢٨، ح ٣٧٢٧)، كتاب الأدب، باب النهي عن سب الريح.

والحديث أورده الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٨٥)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وصححه الألباني، انظر: «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٣٠٥، ح ٣٠٠٣)، و«صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٩٦٠، ح ٤٢٥٠).

وذلك أن الريح إنما تهب بأمر الله وتدبيره؛ لأنه هو الذي أوجدها وأمرها؛ فمسبتها مسبة للفاعل، وهو الله سبحانه؛ كما تقدم في سب الدهر؛ لأن سب الريح وسب الدهر يرجعان إلى مسبة الخالق الذي دبر هذه الكائنات.

ثم أرشدهم النبي ﷺ عندما يرون ما يكرهون مما يأتي مع الريح بأن يتوجهوا إلى خالقها وآمرها؛ ليسألوه من خيرها وخير ما فيها، ويستعيذوا من شرها وشر ما فيها؛ فما استُجلبت نعمة إلا بطاعة الله وشكره، ولا استُدفعت نقمة إلا بالالتجاء إلى الله والاستعاذة به.

وأما سب هذه المخلوقات؛ ففيه مفاسد: منها: أنه سب ما ليس أهلًا للسب؛ فإنها مخلوقات مسخرة مدبرة.

ومنها: أن سب هذه الأشياء متضمن للشرك؛ فإنه إنما سبها لظنه أنها تضر وتنفع من دون الله.

ومنها: أن السب إنما يقع على من فعل هذه الأفعال، وهو الله.

وإذا قال العبد عند هبوب الريح ما أرشده إليه النبي ﷺ بقوله: «**إذا رأيتم ما تكرهون؛ فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به**» فقد لجأ إلى الله خالق الريح ومدبرها ومصرفها، وهذا هو التوحيد والاعتقاد السليم الذي يخالف اعتقاد الجاهلية.

وهكذا يكون المسلم دائمًا وأبدًا مع الأحداث؛ يَرجعها إلى خالقها، ويسأله من خيرها، ولا يُلقي باللوم عليها ويسبها ويفسرها بغير تفسيرها الصحيح.

وليعلم أن ما أصابه من هذه الأحداث مما يكره إنما هو بتقدير من الله

وتسليط لها عليه بسبب ذنوبه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ الآية [الروم: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾ [النور: ٤٤].

فالأمر كله راجع إلى الله؛ فالواجب حمده في الحالتين؛ حالة السراء وحالة الضراء، وحسن الظن به، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: ١٣٠].

هذا هو التفسير الصحيح لمجريات الأحداث؛ فالمؤمن يعلم أن ما أصابه مما يكره إنما هو بسبب ذنوبه، فيلقي باللوم على نفسه، لا على الدهر، ولا على الريح، فيتوب إلى الله، والكافر والفاسق أو الجاهل يلقي باللوم على هذه المخلوقات، ولا يحاسب نفسه، ولا يتوب من ذنبه، كما قال الشاعر:

يا دهر وَيحَكَ ما أبقَيتَ لي أحدًا　　　إذ أنت والِدُ سوءٍ تأكُلُ الوَلَد

وقال آخر:

قُبحًا لِوَجهِكَ يَا زمانُ فإنَّهُ　　　وَجْهُ لَهُ في كُلِّ قُبحٍ بُرقُعُ

تسأل الله العافية والبصيرة في دينه.

٥- قول (لو) في بعض الحالات:

ومن الألفاظ التي لا ينبغي التلفظ بها لأنها تُخل بالعقيدة، وقد ورد النهي عنها بخصوصها - كلمة (لو) في بعض المقامات، وذلك عندما يقع الإنسان في مكروه، أو تصيبه مصيبة؛ فإنه لا يقول: لو أني فعلت كذا؛ ما حصل

عليَّ هذا، أو: لو أني لم أفعل؛ لم يحصل كذا. لما في ذلك من الإشعار بعدم الصبر والتأسف على ما فات مما لا يمكن استدراكه، ولما يُشعر به هذا اللفظ من ضعف الإيمان بالقضاء والقدر، ولما في ذلك من إيلام النفس وتسليط الشيطان على الإنسان بالوساوس والهموم.

والواجب بعد نزول المصائب التسليم للقدر والصبر على ما أصاب الإنسان، مع عمل الأسباب الجالبة للخير والواقية من الشر والمكروه بدون تَلَوَّم.

وقد ذم الله الذين قالوا هذه الكلمة عند المصيبة التي حلت بالمسلمين في وقعة أُحد؛ فقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، هذه مقالة قالها بعض المنافقين يوم أحد لما حصل على المسلمين ما حصل من المصيبة، قالوها يعارضون القدر ويعتبون فرد الله على ذلك بقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] أي: هذا قدر مقدر من الله، لا بد أن يقع، ولا يمنع منه التحرز في البيوت والتلهف، وقول (لو) بعد نزول المصيبة لا يفيد إلا التحسر والحزن وإيلام النفس والضعف، مع تأثيره على العقيدة من حيث إنه يوحي بعدم التسليم للقدر.

ثم ذكر سبحانه عن هؤلاء المنافقين مقالة أخرى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وهذه من مقالات بعض المنافقين يوم أحد - أيضًا، ويروى أنه عبد الله بن أبي، كان يعارض القدر، ويقول: لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج؛ ما قُتلوا مع من قتل. فَرَدّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]؛ أي: إذا كان القعود وعدم الخروج يَسْلَم به الشخص

من القتل أو الموت؛ فينبغي أن لا تموتوا، والموت لا بد أن يأتي إليكم في أي مكان؛ فادفعوه عن أنفسكم إن كنتم صادقين في دعواكم أن من أطاعكم سلم من القتل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية لما ذكر مقالة ابن أُبي هذه: «فلما انخزل يوم أُحد، وقال: يدع رأيي ورأيه ويأخذ برأي الصبيان «أو كما قال»؛ انخزل معه خلق كثير كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك؛ فأولئك كانوا مسلمين، وكان معهم إيمان، هو الضوء الذي ضرب الله به المثل، فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق لماتوا على الإسلام، وهؤلاء لم يكونوا من المؤمنين حقًّا، الذين امتحنوا فثبتوا على المحنة، ولا من المنافقين الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة...» انتهى.

والشاهد منه أن اللهج بكلمة (لو) عند حصول المصائب من سمات المنافقين الذين لا يؤمنون بالقضاء والقدر.

فيجب على المؤمن الابتعاد عن التلفظ بهذه الكلمة عندما تصيبه محنة أو مكروه، وأن يعدل إلى الألفاظ الطيبة التي فيها الرضا بما قدر الله والصبر والاحتساب، وهي الألفاظ التي وَجَّه إليها رسول الله ﷺ بقوله فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٦، رقم ٨٧٧٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٢، رقم ٢٦٦٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٥، رقم ٤١٦٨). وأخرجه أيضًا: الحميدي (٢/ ٤٧٤، رقم ١١١٤)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ١٥٩، رقم ١٠٤٥٧)، وأبو يعلى =

فقد وَجَّه النبي ﷺ إلى فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وآخرته مما شرعه الله لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة، ويكون العبد في حال فعله السبب مستعينًا بالله؛ ليتم له سببه وينفعه؛ لأن الله تعالى هو الذي خلق السبب والمسبب، والجمع بين فعل السبب والتوكل على الله توحيد، ثم نهى عن العجز، وهو ترك فعل الأسباب النافعة، وهو ضد الحرص على ما ينفع، فإذا حرص على ما ينفعه وبذل السبب ثم وقع خلاف ما أراد أو أصابه ما يكره؛ فلا يقل: لو أني فعلت كذا؛ لكان كذا؛ لأن هذه الكلمة لا تجدي شيئًا، وإنما تفتح عمل الشيطان، وتبعث على التأسف ولوم القدر، وذلك ينافي الصبر والرضا، والصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض.

ثم أرشده النبي ﷺ إلى اللفظ النافع المتضمن للإيمان بالقدر، وهو أن يقول: (قَدَّر الله وما شاء فعل)؛ لأن ما قدر الله لا بد أن يكون، والواجب التسليم للمقدور، وما شاء الله فعل؛ لأن أفعاله لا تَصدر إلا عن حكمة.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعبد إذا فاته المقدور له حالتان: حالة عجز: وهي عمل الشيطان، فليقيه العجز إلى (لو)، ولا فائدة فيها، بل هي مفتاح اللوم. والحالة الثانية: النظر إلى المقدور وملاحظته، وأنه لو قدر؛ لم يفته، ولم يغلبه عليه أحد.

فأرشد النبي ﷺ إلى ما ينفعه حال حصول مطلوبه وحال فواته، ونهاه عن قول «لو»، وأخبره أنها تفتح عمل الشيطان؛ لما فيها من التأسف على ما فات والتحسر والحزن ولوم القدر؛ فيأثم بذلك، وذلك من عمل الشيطان،

= (١١/ ١٢٤، رقم ٦٢٥١)، وابن حبان (١٣/ ٢٨، رقم ٥٧٢١)، والحكيم (١/ ٤٠٤)، والديلمي (٤/ ١٨٧، رقم ٥٨٠)، والبيهقي (١٠/ ٨٩، رقم ١٩٩٦٠).

وليس هذا لمجرد لفظ«لو»، بل لِما قارنها من الأمور القائمة بقلبه، المنافية لكمال الإيمان، الفاتحة لعمل الشيطان.

فإن قيل: الرسول ﷺ قد قال هذه الكلمة حينما أمر أصحابه بفسخ الحج إلى العمرة، ولم يفسخ هو؛ لأنه ساق الهدي.

فالجواب عن ذلك أن قوله ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت؛ ما سقت الهدي**» خبر عن مستقبل، لا اعتراض فيه على قدر، بل هو إخبار لأصحابه أنه لو استقبل الإحرام بالحج؛ ما ساق الهدي ولأحرم بالعمرة، قال ذلك لهم لما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة؛ حثًّا وتطييبًا لقلوبهم، لما رآهم توقفوا في أمره؛ فليس هذا من المنهي عنه، بل هو إخبار لهم عما كان يفعل في المستقبل لو حصل، ولا خلاف في جواز ذلك، وإنما ينهى عن ذلك في معارضة القدر، والله أعلم».

فهذا الحديث الذي رواه أبو هريرة لا يستغني عنه العبد، وهو يتضمن إثبات القدر، وإثبات الكسب، والقيام بالعبودية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في معنى هذا الحديث: «لا تعجز عن مأمور، ولا تجزع من مقدور»[(١)][(٢)].



(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٣٨).

(٢) «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد» بتصرف (ص: ١١٧).

الفصل الثاني: الكفر

وبه أربع مسائل:

المسألة الأولى: معنى الكفر:

معنى الكفر لغة:

الكفر في اللغة: الجحود. وأصله من الكَفْر، وهو الستر والتغطية. يقال: كَفَر الشيءَ كَفْرًا: ستره وغطاه. ويقال: كفر الزارع البذور بالتراب، غطاها وسترها؛ فهو كافر. وكَفَر التراب ما تحته: غطاه. وكفر الليل الأشياء بظلامه، غطاها وسترها، فهو كافر. وتَكَفَّر بالشيء: تغطى به وتستر. وكفر نعمة الله، وكفر بها كفورًا وكفرانًا: جحدها وسترها[١].

معنى الكفر في الشرع:

الكفر ضد الإيمان، ويعرف شرعًا بأنه: جحد ما لا يتم الإسلام بدونه. أو جحد ما لا يتم كمال الإسلام بدونه[٢].

والصلة بين المعنيين: أن جاحد الحق كأنه ساتر له، مغطيه، وجاحد نعم الله: كأنه ساتر لها، مغطيها[٣].

---

(١) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (ص٥٤٧)، و«معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٥/ ٩). و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (ص٦٠٥-٦٠٦)، و«لسان العرب» لابن منظور (٥/ ١٤٤)، و«مفردات غريب القرآن» للأصفهاني (ص٤٣٤)، و«المعجم الوسيط» لجماعة من المؤلفين (ص٧٩١-٧٩٢).

(٢) انظر: «أعلام السنة المنشورة» لحافظ الحكمي (ص١٤٦)، و«المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» للبريكان (ص١٨١).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (ص٦٠٥).

ملاحظة هامة:

التكفير من الأحكام الشرعية -التي يطلقها الشارع؛ فلا يجوز لأحد إطلاقه بمجرد الهوى، أو بقياس عقلي، أو نحو ذلك، بل هو حق لله ورسوله ﷺ، فلا يطلق هذا الوصف على أحد إلا بعد استحقاقه له.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن الإيجاب والتحريم والثواب والعقاب والتكفير والتفسيق هو إلى الله ورسوله، ليس لأحد في هذا حكم؛ وإنما على الناس إيجاب ما أوجبه الله ورسوله، وتحريم ما حرمه الله ورسوله[(١)][(٢)].

المسألة الثانية: أنواع الكفر الأكبر وأنواعه:

تمهيد:

الكفر نوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر: فالكفر الأكبر اعتقادي، يُخرج من الإيمان بالكلية. والكفر الأصغر عملي، ينافي كمال الإيمان، ولا ينافي مطلقه؛ فهو لا يُخرج من الإيمان بالكلية، بل ينقص من كماله[(٣)].

والحديث في هذا المبحث مُنصبّ على الكفر الأكبر، وهو الاعتقادي، الذي ينافي الإيمان ويضاده من كل وجه، ويُخرج صاحبه من الدين والملة، ويوجب له الخلود في النار، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة: ٦].

وإنما قلنا عن هذا النوع: إنه اعتقادي؛ لأن مَقره القلب.

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٥/ ٥٤٥).

(٢) «المفيد في مهمات التوحيد» (ص: ١٧٦).

(٣) انظر: «أعلام السنة المنشورة» للشيخ حافظ الحكمي (ص١٤٧).

وقلنا: إنه ينافي الإيمان ويضاده؛ لأننا عرفنا الإيمان بأنه قول وعمل؛ «قول القلب وعمله، وقول اللسان، وعمل الجوارح»؛ فإذا زالت هذه الأربعة، زال الإيمان بالكلية، وإذا زال تصديق القلب، لم تنفع البقية. والكافر جاحد غير مصدق كما بينا ذلك آنفًا.

والكفر الأكبر أنواع متعددة، من لقي الله بنوع منها لم يغفر له، وقد ذكر بعضها العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: وأما الكفر الأكبر، فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبارًا وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر نفاق[1].

ومن أنواع الكفر الأكبر أيضًا: كفر البغض، والكفر بدعوى علم الغيب.

وسأقتصر على ذكر بعض أنواع الكفر الأكبر -بإذن الله- في المطالب التالية:

النوع الأول من أنواع الكفر الأكبر: «كفر الجحود».

أ- تعريفه:

هو أن يعرف الإنسان الحق بقلبه؛ لكنه لا يقر به ولا يعترف به بلسانه، وبالتالي لا ينقاد بجوارحه، فهو جاحد له ظاهرًا، مع معرفته باطنًا[2].

ت- من الأمثلة عليه، مع الأدلة:

١- كفر فرعون وقومه؛ حيث جحدوا الله ﷻ بألسنتهم، مع معرفتهم له بقلوبهم.

كما قال ﷻ عنهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ

---

(١) انظر: «أعلام السنة المنشورة» للشيخ حافظ الحكمي (ص١٤٧).

(٢) انظر: «أعلام السنة المنشورة» للشيخ حافظ الحكمي (ص١٤٨)، و«مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» لعثمان جمعة ضميرية (ص٣٣٧).

كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، وعللوا جحودهم بقولهم -كما حكى الله عنهم -: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

٢- كفر اليهود؛ حيث جحدوا نبوة رسولنا ﷺ، وكتموا أمره، وكتموا صفاته الموجودة في كتبهم، على الرغم من معرفتهم له كمعرفتهم لأبنائهم، يقول ﷻ عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦]، ويقول ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ث- أقسام كفر الجحود:

قَسَّم العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كفر الجحود إلى نوعين: جحود مطلق عام، وجحود مقيد خاص:

فالمطلق: أن يجحد جملة ما أنزل الله، وإرساله الرسول.

والخاص المقيد: أن يجحد فرضًا من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفة وصف الله بها نفسه، أو خبرًا أخبر الله به؛ عمدًا، أو تقديمًا لقول من خالفه عليه، لغرض من الأغراض[(١)].

هـ- أمر يجدر التنبيه إليه:

مَن جحد شيئًا مما تقدم ذكره -في أمثلة الجحود الخاص المقيد- جهلًا أو تأويلًا يعذر فيه صاحبه، فلا يكفر صاحبه به؛ كحديث الذي جحد قدرة الله عليه وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح. ومع هذا فقد غفر الله له، ورحمه لجهله؛ إذ كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه، ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادًا أو تكذيبًا[(٢)].

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ١٧٦).

(٢) الحديث في صحيح البخاري، كتاب التوحيد، (ح٧٥٠٨).

النوع الثاني من أنواع الكفر الأكبر: «كفر الإباء والاستكبار».

أولًا: تعريفه.

هو أن يعرف الإنسان الحق بقلبه، ويعترف به بلسانه، ولكنه يأبى أن يقبله أو يدين به؛ إما أشرًا وبطرًا، وإما احتقارًا له ولأهله، أو لسبب آخر[١].

ثانيًا: من الأمثلة عليه، مع الأدلة.

١- كفر إبليس؛ فإنه لم يجحد أمر الله ﷻ، ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار؛ كما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤].

٢- كفر من عرف صدق الرسول ﷺ، وأنه جاء بالحق من عند الله ﷻ؛ عرف، وأقر بذلك، ولم يشك في صدقه؛ لكنه لم ينقد إليه إباء واستكبارًا، أو أخذته الحمية وتعظيم الآباء أن يرغب عن ملتهم، أو يشهد عليهم بالكفر[٢].

وخير من يمثل هذه الحال: أبو طالب عم رسول الله ﷺ، الذي عرف صدق ابن أخيه، واعترف بذلك قائلًا:

ولقد علمت ﷺ بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينا[٣]

لكن هذه المعرفة وهذا الإقرار لم ينفعاه؛ لأنه أبى أن ينقاد ويقول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» خشية أن يقال: ترك دين آبائه وأجداده.

---

(١) انظر: «أعلام السنة المنشورة» للشيخ حافظ الحكمي (ص١٤٩)، و«مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» لعثمان جمعة ضميرية (ص٣٣٨).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٣٦٦).

(٣) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٤٦١).

وقد سأل العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله ﷺ عن حال أبي طالب في الآخرة، فأجابه: «**هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[1].

فهو خالد في النار، لكن عذابه أهون من غيره.

النوع الثالث من أنواع الكفر الأكبر: الكفر بدعوى علم الغيب.

أولًا: تعريفه.

هو اعتقاد أن أحدًا غير الله تعالى يعلم الغيب. وهو كفر لمعارضته لقوله ﷻ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥]، وقوله ﷻ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ثانيًا: من الأمثلة عليه.

الأمثلة على هذا النوع كثيرة، ويمكن بيان بعضها في المسائل التالية.

المثال الأولى: السحر.

أولًا: تعريفه.

السحر في اللغة: ما خفي ولطف سببه[2].

وفي الاصطلاح: عزائم ورقى وعقد وكلام يتكلم به، أو يكتب، أو يعمل شيء يؤثر في القلوب والأبدان والعقول؛ فيمرض، ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه[3].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، والتخفيف عنه بسببه.

(٢) انظر: «الصحاح» للجوهري (٥/٦٧٨)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (ص٥١٩).

(٣) انظر: «المغني» لابن قدامة (٨/ ١٥٠).

ثانيًا: قسما السحر:

السحر قسمان[١].

قسم خيالات ترهب بظاهرها، وتؤثر في القلوب، بيد أنه لا حقيقة لها؛ كسحر سحرة فرعون. قال تعالى عنه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

وقسم له حقيقة؛ كالذي حدث لرسول الله ﷺ حين سحره اليهودي لبيد ابن الأعصم؛ فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ سُحر حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى أتاه ملكان؛ فقعد أحدهما عند رجليه ﷺ، والآخر عند رأسه، فأخبراه بصنيع اليهودي، وأنه سحره في مشط ومشاطة؛ جعله في وعاء طلع النخل، ودفنه في بئر ذي أروان، فأخرجه رسول الله ﷺ[٢].

ثالثًا: حكم السحر، مع الدليل:

السحر محرم بالكتاب والسنة والإجماع.

وهو من أكبر الكبائر، ومن السبع الموبقات.

ودليل ذلك من كتاب الله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى

---

(١) انظر: «المجموع الثمين» للشيخ ابن عثيمين (٢/ ١٤٣).

(٢) انظر: الحديث بطوله في صحيح البخاري، كتاب الطب، باب السحر، وباب: هل يستخرج السحر؟ وفي صحيح مسلم، كتاب السلام، باب السحر.

ملاحظة: هذا الذي وقع لرسول الله ﷺ ليس فيه انتقاصا لشخصه، بل هو كالأمراض التي كانت تعتريه ﷺ وإصابته به كإصابته بالسم، لا فرق بينهما. انظر: «زاد المعاد» لابن القيم (٤/ ١٢٤).

ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فدلت هذه الآية الكريمة على أن السحر كفر، وأن السحرة يفرقون بين المرء وزوجه. كما دلت على أن السحر ليس بمؤثر بذاته نفعًا ولا ضرًّا، وإنما يؤثر بإذن الله الكوني والقدري؛ لأن الله ﷻ هو الذي خلق الخير والشر. كما دلت الآية الكريمة على أن الذين يتعلمون السحر إنما يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، وأنه ليس لهم عند الله من خلاق -أي: من حظ ونصيب. وهذا وعيد عظيم يدل على شدة خسارتهم في الدنيا والآخرة، وأنهم باعوا أنفسهم بأبخس الأثمان[١].

ودليل حرمة السحر من السنة: قوله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر...**»[٢].

فالسحر من الموبقات. يقول الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ عن السحر: عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عده النبي ﷺ من السبع الموبقات. ومنه ما يكون كفرًا، ومنه ما لا يكون كفرًا؛ بل معصية كبيرة. فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر فهو كفر، وإلا فلا. وأما تعلمه وتعليمه فحرام[٣].

---

(١) «رسالة في حكم السحر والكهانة» للشيخ ابن باز (ص٧).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الشرك والسحر من الموبقات.

(٣) نقله عنه ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٤)، وانظر: كلام الحافظ ابن حجر =

فالسحر قد يكون كفرًا إذا كان فيه تعظيم غير الله؛ من الجن والشياطين والكواكب وغيرهم، وإذا كان فيه ادعاء علم الغيب.

وأكثر العلماء على أن الساحر كافر يجب قتله[(١)].

وحده -كما في الحديث-: «**ضربة بالسيف**»[(٢)].

وسئل الإمام أحمد عن الساحر، فقال: إذا عُرف بذلك فأقر؛ يُقتل[(٣)].

رابعًا: علاج السحر:

يحصل العلاج بأن يقرأ على المسحور: سورة الإخلاص، والمعوذتين، وآية الكرسي، والآيات التي ذُكر فيها السحر، وخاصة التي في سورة يونس، في قوله ﷻ: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، شريطة أن يصدر ذلك عن إخلاص، وصدق، وتوكل، وإيمان جازم بأن النافع والضار هو الله ﷻ وحده.

ولو أضاف سبع ورقات من السدر الأخضر، ودقهن، ووضعهن في ماء تُقرأ فيه تلك الآيات، ويحسو منها المسحور ثلاث حسوات، ويغتسل بالباقي، لكان ذلك أفضل[(٤)].

= عن حكم السحر وتعلمه في الموضع نفسه. وانظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٥٨)، و«أضواء البيان» للشنقيطي (٤/ ٤٥٦).

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢٩/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٧١). والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٦٠) مرفوعًا، ولا يصح رفعه، بل هو موقوف.

(٣) انظر: «مسائل الإمام أحمد»، برواية ولده عبد الله (ص٢٤٧)، و«أحكام أهل الملل» للخلال (ص٢٠٧).

(٤) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٢٣٣-٢٣٤)، و«أضواء البيان» للشنقيطي (٤/ ٤٦٤)، و«رسالة في حكم السحر والكهانة» للشيخ ابن باز (ص٨-١٣)، =

المثال الثاني: الكهانة.

أولًا: تعريف الكاهن.

الكاهن هو الذي يدعي أنه يعلم الغيب، وهو لفظ يطلق على العراف، والرَّمَّال، والذي يضرب بالحصى، والمنجم(١). فكل من أخبر عن المغيبات في المستقبل، فهو كاهن، وكل من ادعى معرفة علم شيء من المغيبات، فهو إما داخل في اسم الكاهن، أو مشارك له في المعنى، فيلحق به(٢).

فائدة:

سئل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: الكاهن شر أو الساحر؟ قال: كل شر(٣).

ثانيًا: حكم الكهانة، مع الدليل.

الكهانة محرمة بالكتاب، والسنة، والإجماع.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الطور: ٢٩].

ووجه الدلالة من هذه الآية على تحريم الكهانة: أن الله عَزَّ وَجَلَّ نفى الكهانة عن نبيه ﷺ؛ لأن الكهان يدعون علم الغيب. ومجرد ادعاء علم الغيب كفر بَواح، فاعتبر الله عَزَّ وَجَلَّ السلامة من الكهانة نعمة. ومفهوم ذلك أن الكهانة تتنافى مع نعمة الإسلام(٤).

= و«المجموع الثمين» للشيخ ابن عثيمين (١/ ١٥٥).

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٢١٦).

(٢) انظر: «فتح المجيد» شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن (ص٤١٤).

(٣) انظر: «أحكام أهل الملل» للخلال (ص٢٠٨).

(٤) انظر: «أضواء البيان» للشنقيطي (٧/ ٤٥٦).

ومن السنة قوله ﷺ: «**ليس منا مَن تَطَير أو تُطير له، أوتَكَهن أو تُكُهن له، أو سَحَر أو سُحر له، ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»(١).

ففي قوله ﷺ: «**أو تَكَهن أو تُكُهن له**» إشارة إلى أن من تلقى الكهانة عمن يتعاطها فقد برئ منه رسول الله ﷺ. ففيه وعيد وتحذير من مجرد إتيان الكهان والعرافين ونحوهم ممن يدعون معرفة الغيب -ولو لم يصدقهم- ويشهد لهذا المعنى قوله ﷺ: «**من أتى عرافًا فسأله عن شيء، لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة**»(٢). هذا إذا سأله ولم يصدقه. أما إذا سأله، وصدقه فالوعيد أشد -والعياذ بالله تعالى، يقول ﷺ: «**من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، أو أتى امرأة حائضًا، أو أتى امرأة في دبرها، فقد برئ مما أنزل الله على محمد ﷺ**»(٣).

---

(١) رواه البزار كما في «الكشف» (٣٠٤٤) من طريق الحسن عن عمران. وذكر الحافظ المنذري في «الترغيب» (٤٤٦٧) والحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٢١٧) أن إسناده جيد.

ولشطره الأول شاهد من حديث ابن عباس عند البزار (٣٠٤٣). قال المنذري في «الترغيب»: «إسناده حسن». وشاهد آخر من حديث علي رواه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٩٥).

ولشطره الثاني شاهد عند أحمد (٢/ ٤٢٩) من حديث أبي هريرة بلفظ: «**من أتى كاهنًا أو عرافًا...**» إلخ، وهو حسن.

الطيرة: التشاؤم بالطير، فقد كان أحدهم إذا كان له أمر فرأى طيرًا طار يَمنة استبشر واستمر بأمره، وإن رآه طار يَسرة تشاءم به ورجع. وتطلق على التشاؤم مطلقًا.

(٢) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة، وإتيان الكهان.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الكاهن. والترمذي في جامعه، كتاب الطهارة، باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض. وابن ماجه في سننه، =

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ معلقًا على هذا الحديث: ظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان[(١)].

فإذا كان هذا حال من أتى الكاهن، فما هو حال الكاهن نفسه؟!

المثال الثالث: التنجيم.

أولًا: تعريفه.

التنجيم -كما يزعم أهله: هو الاستدلال على الحوادث الأرضية قبل حدوثها بالنظر في الأحوال الفلكية[(٢)].

فيخبر أهل هذه الصناعة عما سيقع في العالم مستقبلًا، ويزعمون أنهم استفادوا ذلك من النظر في سير الكواكب في مجاريها، واجتماعها واقترانها، زاعمين أن لها تأثيرًا في العالم السفلي[(٣)].

ثانيًا: حكم التنجيم، مع الدليل.

قبل الحديث عن حكم التنجيم، تجدر الإشارة إلى أن التنجيم نوعان:

أحدهما: مباح، وهو ما يُعرف بعلم الحساب، أو علم التسيير؛ كمعرفة وقت الكسوف، والخسوف، والرصد، وهبوب الرياح، واتجاهاتها، مع الاعتقاد الجازم أن كل شيء يجري في هذا الكون بقضاء الله وقدره. وعند

= كتاب الطهارة، باب النهي عن إتيان الحائض.
والحديث صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٧٣٩)، وفي «صحيح سنن الترمذي» (١/ ٤٤).

(١) «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» للشيخ عبد الرحمن بن حسن (ص٤١١).

(٢) انظر: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٣٥/ ١٩٢).

(٣) انظر: «التنجيم والمنجمون وحكمهم في الإسلام» للدكتور عبد المجيد المشعبي (ص٣١-٣٣).

الإخبار بشيء من ذلك يقيد الكلام بمشيئة الله، وبعبارة التوقع. فهذا قال العلماء بجوازه. ولا يدخل تحت هذه المسألة(١).

أما النوع الثاني: - وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية - فيدعي المنجم أنه من خلال النظر في النجوم يمكن أن يعرف ما سيقع في الأرض؛ من نصر قوم، أو هزيمة آخرين، أو موت أو حياة، أو قيام أو زوال، أو خسارة لرجل وربح لآخر.

فهذا النوع هو المراد بهذه المسألة، وهو محرم، وصاحبه يُعَد كافرًا كفرًا بَواحًا إذا اعتقد أن للنجوم تأثيرًا ذاتيًّا في الحوادث الأرضية.

ومن الأدلة على تحريم التنجيم: أن الله ﷻ إنما خلق النجوم زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها. لم يخلقها سبحانه للاستدلال بها على ما يجري على الأرض.

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ٥]، ويقول ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧].

وقد دلت السنة على تحريم التنجيم؛ فمن ذلك قول رسول الله ﷺ: «**من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**»(٢). وقوله ﷺ:

---

(١) انظر: «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» للشيخ عبد الرحمن بن حسن (ص٤٤٨). و«المجموع الثمين» للشيخ ابن عثيمين (٢/ ١٤١-١٤٢)، و«التنجيم والمنجمون وحكمهم في الإسلام» للدكتور عبد المجيد المشعبي (ص١٦٠-١٦٢، ٣٠٥-٣٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الطب، باب في النجوم. وابن ماجه في السنن، كتاب الأدب، باب تعلم النجوم. =

«إن أخوف ما أخاف على أمتي في آخر زمانها: النجوم، وتكذيب بالقدر، وحيف السلطان»[(١)][(٢)].

المسألة الثالثة: تعريف الكفر الأصغر وأنواعه:

أولًا: تعريف الكفر الأصغر:

هو كل معصية أطلق عليها الشارع اسم الكفر، مع بقاء اسم الإيمان على عاملها[(٣)]؛ فهو معصية عملية لا تُخرج من أصل الإيمان، وإنما توجب لصاحبها الوعيد بالنار دون الخلود فيها. وسميت كفرًا لأنها من خصال الكفر[(٤)].

ثانيًا: من أشهر أنواع الكفر الأصغر.

للكفر الأصغر أنواع متعددة ضابطها ما تقدم في التعريف: كل معصية أطلق الشارع عليها اسم الكفر، مع بقاء اسم الإيمان على عاملها.

= وقد صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٧٩٣)، وفي «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٧٣٩)، وفي «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٣٠٥).

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم في الكبير»، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٣)، وقال: «فيه ليث بن أبي سليم، وهو لين، وبقية رجاله وُثقوا».

وقال الألباني: «الحديث له شواهد كثيرة يرتقي بها إلى درجة الصحة في نقدي». «السلسلة الصحيحة» (٣/ ١١٩، رقم ١١٢٧).

(٢) «المفيد في مهمات التوحيد» (ص: ١٧٩).

(٣) انظر: «أعلام السنة المنشورة» للشيخ حافظ الحكمي (ص١٤٩).

(٤) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٣٤٦)، و«فتح الباري» لابن حجر (١/ ٨٣-٨٥).

وبيان بعض هذه الأنواع يمكن فيما يلي:

النوع الأول من أنواع الكفر الأصغر: كفر النعمة.

أولًا: المراد به.

نسبة النعم التي أنعم الله ﷻ بها علينا إلى غير المنعم ﷻ، أو استعمالها في غير مرضاة الله؛ كالإسراف، والتبذير، وشراء المحرمات، أو إعطاء النعم لمن نهانا ربنا ﷻ عن إعطائهم؛ كالسفهاء من الصبيان وغيرهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء: ٥].

ثانيًا: الأدلة عليه.

من الأدلة على كفر النعمة:

١- قول الله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

٢- قول الله ﷻ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل: ٨٣]؛ فهؤلاء عرفوا نعم الله ﷻ، وعرفوا أن الله هو المنعم عليهم بها، ولكنهم جحدوها، وزعموا أنهم ورثوها كابرًا عن كابر[١].

٣- قصة الثلاثة: الأبرص، والأقرع، والأعمى، الذين أنعم الله عليهم بإصلاح حالهم وبالمال، فجحد اثنان منهم نعمة الله، وقالا: إنما ورثنا هذا المال كابرًا عن كابر. واعترف الأعمى بنعم الله، وقال: قد كنت أعمى، فَرَدّ الله إليّ بصري. فقال له المَلَك: أمسِكْ مالك، فإنما ابتليتم، فقد

---

(١) انظر: «جامع البيان» للطبري (٧/ ٦٢٩)، و«القول المفيد على كتاب التوحيد» لابن عثيمين (٢/ ٢٠١-٢٠٢)، و«فتح المجيد» لعبد الرحمن بن حسن (ص٥٩٢-٥٩٤).

رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك[١].

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ معلقًا على هذا الحديث: وهذا حديث عظيم، وفيه معتبر؛ فإن الأولَين جحدا نعمة الله، فما أقرا لله بنعمة، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها، ولا أديا حق الله، فحل عليهما السخط. وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله، ونسبها إلى من أنعم عليه بها، وأدى حق الله فيها، فاستحق الرضا من الله لقيامه بشكر النعمة لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التي لا يقوم الشكر إلا بها، وهي الإقرار بالنعمة، ونسبتها إلى المنعم، وبذلها فيما يجب[٢].

النوع الثاني من أنواع الكفر الأصغر: الطعن في الأنساب والنياحة على الميت.

أولًا: المراد بهما.

عيب النسب والطعن فيه، ورفع الصوت بندب الميت وتَعداد فضائله.

وهما من أنواع الكفر العملي؛ لما فيهما من مشابهة صنيع الكفار في الجاهلية قبل الإسلام[٣].

ثانيًا: من الأدلة عليهما.

١- قول رسول الله ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت**»[٤].

---

(١) الحديث بطوله أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع. ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب رقم (١٠).

(٢) «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (ص٦٣٦).

(٣) انظر: «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (ص٥٢٠).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب =

فهاتان الخصلتان بالناس كفر؛ لأنهما من أعمال الجاهلية، وهما قائمتان بالناس، ولا يَسْلَم منهما إلا مَن سَلَّمه الله ﷻ[١]. يقول الإمام النووي في معنى قوله ﷺ: «**هما بهم كفر**»: فيه أقوال أصحها أن معناه: هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية[٢]. فلهذا عدهما العلماء من جنس الكفر العملي.

٢- قول رسول الله ﷺ: «**ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»[٣]. وقد ذكر رسول الله ﷺ هذه الأصناف الثلاثة؛ لأنها غالبًا ما يفعلها الناس عند نزول المصائب، وهي من التسخط المنهي عنه، وفيها إظهار عدم الرضا بقدر الله، أو الصبر على قضائه. ودعوى الجاهلية هي: النياحة، وندب الميت، والدعاء بالويل وشبهه[٤].

فهذه من أعمال الكفار في الجاهلية قبل الإسلام. من أجل هذا عدها العلماء من جنس الكفر العملي.

النوع الثالث من أنواع الكفر الأصغر: قتال المسلم.

أولًا: المراد به.

يراد به: قتال المسلم للمسلم بغير وجه حق، وهو نوع من أنواع الكفر العملي، المنافي لكمال الإيمان.

= والنياحة.

(١) انظر: «فتح المجيد» شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص٥٢٠).

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٢/ ٥٧).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود.

(٤) انظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (٢/ ١١٠).

ثانيًا: من الأدلة عليه.

١- قول رسول الله ﷺ: «**سِباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[1].

فأطلق ﷺ على قتال المسلم اسم: «الكفر» تنبيهًا على عظم حق المسلم، وبيان حكم من قاتله بغير حق.

وهذا كفر عملي لأنه شبيه بفعل الكفار؛ فهو كفر أخوة الإسلام لا كفر الجحود[2].

٢- قول رسول الله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[3].

فأطلق ﷺ في هذين الحديثين على قتال المسلمين بعضهم بعضًا اسم «كفر»، وسمى من يفعل ذلك «كفارًا». وليس المراد بالكفر هاهنا الكفر الأكبر المُخرج من الملة؛ لأن الله ﷻ أبقى على المتقاتلين من المؤمنين اسم «الإيمان»، فقال سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩]، ثم سماهم مؤمنين، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**».

(٢) انظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (٢/ ٥٤).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**».

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات: ١٠]، فأثبت لهم الإيمان وأخوة الإيمان، ولم ينفي عنهم شيئًا من ذلك[١].

فعلم أن الكفر هنا كفر عملي لا يُخرج صاحبه من دائرة الإسلام، وهو من جنس الكفر الأصغر[٢][٣].

المسألة الرابعة: الفرق بين الكفر الأكبر والأصغر:

الكفر الأصغر أحد نوعي الكفر. ومن الفروق بينه وبين الكفر الأكبر[٤]:

١- الكفر الأكبر يحبط العمل؛ كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٨﴾ [إبراهيم: ١٨]. والأصغر لا يحبط العمل وإن كان ينقصه.

٢- الكفر الأكبر كفر اعتقادي، والكفر الأصغر كفر عملي.

٣- الكفر الأكبر يُخرج من ملة الإسلام، وأما الأصغر فلا يُخرج، وصاحبه مؤمن ناقص الإيمان.

٤- الكفر الأكبر إذا مات العبد عليه لم يُغفر له. والكفر الأصغر إن مات العبد عليه فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه. ولا ينافي ذلك إيجابه للوعيد؛ لأننا نقول: إن استحقاقه للوعيد لا يمنع العفو عنه.

٥- الكفر الأكبر يوجب الخلود في النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر: «أعلام السنة المنشورة» للشيخ حافظ الحكمي (ص١٥٠).

(٢) انظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (٢/ ٥٥).

(٣) «المفيد في مهمات التوحيد» (ص: ١٨٤).

(٤) انظر: «المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» للدكتور إبراهيم البريكان (ص١٨٢-١٨٣).

كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾ [البينة: ٦]، والكفر الأصغر لا يوجب الخلود في النار إن دخلها صاحبه[١].

الفصل الثالث: النفاق

وبه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: معنى النفاق:

معنى النفاق لغة:

النفاق في اللغة: من «النفق»، وهي تدل على الإخفاء وعدم الإظهار. ومنه سُمي السرب في الأرض الذي له مخلص إلى مكان نفقًا. وقيل لأحد جحري اليربوع: النافقاء والنفقة؛ لأنه يكتمه ويظهر غيره؛ فإذا أتى من جهة القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق. يقال: نافق اليربوع، إذا أخذ في نافقائه[٢].

معنى النفاق في الشرع:

النفاق شرعًا: هو أن يُظهر المرء ما يوافق الحق، ويبطن ما يخالفه. فمَن أظهر أمام الناس ما يدل على الحق، وكان حقيقة أمره أنه على باطل من

---

(١) «المفيد في مهمات التوحيد» (ص: ١٨٤).

(٢) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (ص٦٤٨-٦٤٩)، و«معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٥/ ٤٥٤-٤٥٥)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (ص١١٩٥-١١٩٦)، و«لسان العرب» لابن منظور (١٠/ ٣٥٨-٣٥٩)، و«المعجم الوسيط» لجماعة من المؤلفين (ص٩٤٢).

الاعتقاد أو الفعل، فهو المنافق. واعتقاده أو فعله هو النفاق[(١)].

الصلة بين المعنيين: يلاحظ أن المنافق قد ستر اعتقاده أو عمله، وأخفاه وأضمره، فمثله كمثل الضب؛ يدخل من جحر ظاهر، ثم إذا شعر بالخطر خرج من باب آخر تتعذر رؤيته. وكذلك يفعل المنافق، يدخل في الإسلام من باب ظاهر؛ فينطق الشهادتين، ويصلي مع الناس، مع أنه يكتم خلاف الإسلام، ويتربص بالمسلمين الدوائر، وينتظر ظهور الكفر حتى يتخلى عما أظهره، كما قال الله عن المنافقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

المسألة الثانية: النفاق الأكبر الاعتقادي:

للنفاق نوعان: نفاق أكبر «اعتقادي»، ونفاق أصغر «عملي».

أولًا: تعريف النفاق الأكبر.

هو أن يُظهر الرجل للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله، مكذب به[(٢)].

فهو قد أظهر الانقياد والتصديق ظاهرًا؛ لكنه أبى ذلك باطنًا[(٣)].

ثانيًا: حكم النفاق الأكبر.

النفاق الأكبر نفاق اعتقادي محله القلب، وصاحبه كافر، خالد مخلد في

(١) انظر: «المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» للبريكان (ص١٩٢)، و«المعجم الوسيط» (ص٩٤٢).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٣٧٩-٣٧٧)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (١١٩٦).

(٣) انظر: «أعلام السنة المنشورة» للشيخ حافظ الحكمي (ص١٤٩).

النار، بل في الدرك الأسفل منها إن لم يتب[1] كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥].

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن، وجَلَّى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر؛ فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدا؛ لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة[2].

ثالثًا: صفات المنافقين نفاقا أكبر.

قد كشف الله في كتابه أسرار المنافقين، وهتك أستارهم، في آيات كثيرة، نزلت تخبر عن أوصافهم، وأهدافهم، ووسائلهم الدنيئة لهدم الدين أو إضعاف المسلمين.

والنفاق الأكبر «الاعتقادي» قد جمع أهله خصالًا كثيرة، وصفات عديدة، سأقتصر على ذكر بعضها؛ كي لا يقع شيء منها في قلب المؤمن، فيخسر الدنيا والآخرة، فمنها:

١- تكذيب الرسول ﷺ باطنًا لا ظاهرًا. ودليل هذه الصفة قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١]؛ أي كاذبون فيما أظهروا من شهادتهم، وحلفهم بألسنتهم. فمن قال شيئًا واعتقد خلافه فهو كاذب[3].

٢- موالاة الكافرين، وإعانتهم في حربهم ضد المسلمين. ودليل هذه الصفة قول الله ﷻ: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٣٧٦).

(٢) انظر: المرجع نفسه (١/ ٣٧٧).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٨/ ٨٠).

أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر: ١١]؛ فهؤلاء المنافقون أطمعوا إخوانهم من أهل الكتاب في نصرتهم، وموالاتهم على المؤمنين، وأقسموا أنهم لن يطيعوا في عدم نصرتهم أحدًا يعذلهم أو يخوفهم، وأنهم سينصرونهم ويعينوهم على المسلمين إن قاتلوهم(١).

٣- تبييت الشر للمسلمين، وتدبير المكائد لهم. ودليل هذه الصفة قول الله ﷻ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء: ١٠٨]؛ فمخافة الخلق عند هؤلاء المنافقين أعظم من مخافة الله ﷻ؛ لذلك تجدهم يحرصون بالوسائل المباحة والمحرمة على تجنب الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم، خصوصًا في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول(٢).

٤- المسرة بانخفاض دين المسلمين، وكراهية انتصاره. ودليل هذه الصفة قول الله ﷻ: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [التوبة: ٤٨]؛ فقد طلب هؤلاء المنافقون الشر من البداية، واحتالوا في تشتيت أمر المسلمين وإبطال دينهم، حتى أظهر الله دينه، وأعز جنده، والمنافقون كارهون لذلك(٣). ومن الأدلة أيضًا قوله ﷻ: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للشيخ عبد الرحمن بن سعدي (٧/ ٣٣٨).

(٢) انظر: المرجع نفسه (٢/ ١٥٤).

(٣) انظر: «زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي (٣/ ٤٤٨).

أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: ٥٠]؛ فقد أخبر ﷻ أن المنافقين إن أصاب رسول الله ﷺ ومن معه نصر وغنيمة ساءهم ذلك، وإن أصابهم قتل وهزيمة قالوا: عملنا بالحزم فلم نخرج معكم!! ثم ينقلبون وهم فرحون بمصابكم وسلامتهم(١).

المسألة الثالثة: النفاق الأصغر العملي.

أولًا: تعريف النفاق الأصغر:

هو ترك المحافظة على أمور الدين سرًّا، ومراعاتها علنًا(٢).

ثانيًا: حكم النفاق الأصغر:

النفاق الأصغر نفاق عملي؛ فصاحبه يدعي الإيمان بالله ﷻ، والطاعة لله ولرسوله ﷺ، ولكنه يعمل أعمالًا عدها رسول الله ﷺ من النفاق.

وصاحب هذا النوع لا يخرج من ملة الإسلام في الدنيا، وهو في الآخرة مستحق للوعيد؛ لكنه لا يخلد في النار إن دخلها.

ثالثًا: صفات المنافقين نفاقًا أصغر:

ذكر رسول الله ﷺ في أحاديث عديدة علامات ظاهرة، مَن اتصف بها فقد شابه المنافقين في أعمالهم؛ وإنما بينها رسول الله ﷺ وأخبر عنها كي نحذر من هذه الصفات الذميمة؛ لأنها من علامات النفاق، ويُخشى أن يكون هذا النفاق العملي مؤديًا إلى نفاق في الاعتقاد، والعياذ بالله تعالى(٣).

---

(١) انظر: المصدر نفسه (٣/ ٤٥٠).

(٢) انظر: «مدخل لدراسة العقيدة الإسلامة» لعثمان جمعة ضميرية (ص٣٤٨).

(٣) انظر: «شرح رياض الصالحين» للصديقي (٤/ ٥٧٨).

ومن هذه العلامات:

١- الكذب في الحديث. فيُحَدث الناس بحديث يصدقونه فيه، وهو كاذب.

٢- إخلاف الوعد. فيعد بوعد، ومن نيته أن لا يفي، أو يعد ثم يبدو له أن يخلفه من غير عذر في الخلف[١].

٣- خيانة الأمانة؛ فإذا ائتمن أمانة، لم يؤدها.

٤- الغدر. فإذا عاهد غدر، ولم يفِ بعهده.

٥- الفجور في الخصومة. فيخرج عن الحق عمدًا، حتى يصير الحق باطلًا والباطل حقًّا[٢].

وهذه العلامات الخمس جمعها رسول الله ﷺ في قوله: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حَدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[٣]، وفي قوله ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن**

---

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٤٨٢).

(٢) انظر: المصدر نفسه (٢/ ٤٨٦).

(٣) أخرجه: البخاري، كتاب الإيمان، باب (٢٤) علامة المنافق «فتح» (١/ ٨٩)، وفي الجزية، باب (١٧): إثم من عاهد ثم غدر (٦/ ٢٧٩)، وفي المظالم، باب (١٧): إذا خاصم فجر. ومسلم في كتاب الإيمان، باب (٢٥): حال المنافق (١/ ٧٨)، وأبو داود في السنة، حديث (٤٦٨٨)، والترمذي في الإيمان، حديث رقم (٢٦٣٢، ٥/ ١٩)، والنسائي في الإيمان (٨/ ١١٦)، وعزاه المزي في «الأطراف» إلى النسائي في التفسير «الكبرى»، وفي «السير» (٩٩/ ١): عن بشر بن خالد، وأخرجه أحمد (٢/ ١٨٩، ١٩٨).

خان»[(١)].

تنبيه: النفاق الأصغر «العملي» مقدمة للنفاق الأكبر «الاعتقادي»؛ فمَن اتصف بصفات النفاق العملي، فقد أشبه المنافقين «اعتقادًا» في أعمالهم، ولكنه ليس على كفرهم أو اعتقادهم. وإن كان يُخشى عليه من النفاق الاعتقادي.

فالواجب على المؤمن أن يتجنب هذه الصفات؛ لأن الإيمان ينهى عنها. وعلينا أن نعلم أن هذه الصفات إذا اجتمعت في شخص، وغلبت على أعماله، ولم يكن له ما ينهاه عن شيء منها؛ فهو المنافق الخالص[(٢)] والعياذ بالله[(٣)].



(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري برقم (٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥)، ومسلم برقم (٥٩)، والترمذي برقم (٢٦٣١)، والنسائي (٨/ ١١٧)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٥٧)، والبيهقي في «الشعب» برقم (٤٨٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (٢/ ٤٧).

(٣) «المفيد في مهمات التوحيد» بتصرف (ص: ١٩١).



المطلب الرابع: توحيد الأسماء والصفات

وتحته أحد عشر مبحثًا:

المبحث الأول: تعريف توحيد الأسماء والصفات

الأسماء: جمع اسم، والاسم: «مشتق من السمو، أي: العلو... أو من الوسم، أي: العلامة...»[١]، وهو اللفظ الدال على المسمى[٢].

وأسماء الله كل ما دل على ذات الله مع صفات الكمال القائمة به؛ كالعليم والقدير والحكيم والسميع والبصير[٣].

والصفات: جمع صفة، والصفة: أصلها «وَصَفَ» حُذفت الواو وعُوض عنها التاء[٤]، «وهي الاسم الدال على أحوال الذات... وهي الأمارة اللازمة بذات الموصوف التي يُعرف بها»[٥].

---

(١) ينظر: «تهذيب اللغة» (٢/١٧٤٨)، و«الصحاح» (٦/٢٣٨٣)، و«معجم مقاييس اللغة» (ص٤٩٠)، و«لسان العرب» (١٤/٤٠١) و«القاموس المحيط» (ص١٦٧٢).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٦/١٨٩، ١٩٢)، و«بدائع الفوائد» لابن القيم (١/١٦).

(٣) ينظر: «فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء» (٣/١٦٠).

(٤) ينظر: «تهذيب اللغة» (٤/٣٩٠٠- ٣٩٠١)، و«الصحاح» (٤/١٤٣٨- ١٤٣٩)، و«معجم مقاييس اللغة» (ص١٠٩٣)، و«لسان العرب» (٩/٣٥٦)، و«القاموس المحيط» (ص١١١).

(٥) «التعريفات» للجرجاني (ص١٣٣).

وصفات الله نعوت الكمال القائمة بذاته كالعلم والقدرة والحكمة والسمع والبصر[(١)].

وعليه فتوحيد الأسماء والصفات هو: «أن يسمى الله ويوصف، بما سمى ووصف به نفسه، أو سمَّاه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف[(٢)] ولا تأويل[(٣)]، ومن غير تكييف[(٤)] ولا تمثيل[(٥)]»[(٦)].

---

(١) ينظر: «فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء» (٣/ ١٦٠).

(٢) التحريف لغة: التغيير والتبديل. واصطلاحًا: تغيير ألفاظ الأسماء الحسنى والصفات العلى أو معانيهما. ينظر: «لسان العرب» (٩/ ٤٣)، و«مختصر الأسئلة والأجوبة على العقيدة الواسطية» لعبد العزيز السلمان (ص٢٣).

(٣) التأويل في أسماء الله وصفاته: هو الميل والعدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها إلى الإشراك والتعطيل والكفر.
ينظر: «مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية» (ص٣٢)، و«المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» للدكتور/ إبراهيم البريكان (ص٣٣).

(٤) التكييف لغة: جعل الشيء على هيئة معينة معلومة. والتكييف في صفات الله هو: الخوض في كنه وهيئة الصفات التي أثبتها الله لنفسه. ينظر: «معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات» لمحمد خليفة التميمي (ص٧٠- ٨١).

(٥) التمثيل لغة: من المثيل وهو الند والنظير. والتمثيل في باب الأسماء والصفات هو: الاعتقاد في صفات الخالق أنها مثل صفات المخلوق. وينقسم إلى قسمين: الأول: تشبيه المخلوق بالخالق كتشبيه النصارى للمسيح ابن مريم بالله، وكتشبيه اليهود عزيزًا بالله، وكتشبيه المشركين أصنامهم بالله. الثاني: تشبيه الخالق بالمخلوق، وذلك كتشبيه المشبهة الذين يقولون لله وجه كوجه المخلوق، ويد كيد المخلوق ونحو ذلك. ينظر: «معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات» لمحمد خليفة التميمي (ص٧٠- ٨١)، و«مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية» (ص ٢٥).

(٦) «مذكرة التوحيد» (ص٣٢)، وينظر: تعليق الشيخ عبد الرزاق على الإحكام =

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، لا يتجاوز القرآن والحديث. قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث»[(١)][(٢)].

إذًا نستطيع أن نعرفه بقولنا: هو أن يعتقد العبد اعتقادًا جازمًا أن ما أخبر الله في كتابه من أوصافه العليا وأسمائه الحسنى، وكذا ما جاءت به الأحاديث الصحيحة من أسمائه وصفاته - هي على ما يليق بجلاله وعظمته وكبريائه.

وهو: اعتقاد انفراد الله ﷻ بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة، والجلال، والجمال. وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله؛ من الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة بالكتاب والسنة[(٣)].

جاء في لوامع الأنوار: «وتوحيد الصفات أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه ﷺ نفيًا وإثباتًا، فيثبت له ما أثبته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه، وقد عُلم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من

= (٤/ ١٢٩). ويأتي في معنى هذا التعريف ما ذكر في المراجع التالية وغيرها: «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣)، و«تيسير العزيز الحميد» (ص٣٤)، و«فتح المجيد» (١/ ٧٩)، «القول السديد» للسعدي (ص١٠)، و«معارج القبول» (١/ ٩٨)، و«القول المفيد» لابن عثيمين (١/ ١٢)، و«القواعد المثلى» لابن عثيمين (ص٥- ٦).

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٦)، وينظر: «الحموية» لابن تيمية (ص٢٠٣)، و«لمعة الاعتقاد» لابن قدامة بشرح الشيخ ابن عثيمين (ص٩)، و«بدائع الفوائد» (١/ ١٨٣)، و«لوامع الأنوار البهية» للسفاريني (١/ ١٢٤- ١٢٥).

(٢) «منهج الشيخ عبد الرزاق عفيفي وجهوده في تقرير العقيدة والرد على المخالفين» (ص: ٩٢).

(٣) انظر: «الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية» للشيخ عبد العزيز السلمان، (ص٤١، ٤٢).

الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل. وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه ويثبتون له ما أثبته من الصفات من غير إلحاد في الأسماء ولا في الآيات، فإنه تعالى ذم الملحدين في أسمائه وآياته» اهـ[(١)].

ولا يعرف الإنسان ربه إلا بمعرفته بصفاته وأسمائه، فإذا ما تم له معرفة ذلك عرف ربه جل وعلا، وحينئذ يسأل ربه ويدعوه بأسمائه الحسنى كما أمر الله بذلك في محكم كتابه حيث قال عز شأنه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه: ٨].

وقد عرف السلف ربهم ومعبودهم عن طريق معرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلى التي أثبتها لنفسه في كتابه العزيز وأثبتها له رسوله ﷺ في سنته الشريفة.

قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي[(٢)] مقررًا عقيدة السلف في صفات الله تعالى: «الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣].

يعلم سر خلقه وجهرهم ويعلم ما يكسبون، نحمده بجميع محامده،

(١) «لوامع الأنوار البهية» (١/ ١٢٩)، وانظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص١٩).
(٢) هو: أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي الشافعي السجستاني الهروي. وُلد سنة مائتين وتُوفي سنة ثمانين ومائتين هجرية، وهو أحد الأعلام الثقات من أئمة الحديث والفقه، وكان شديد الرد على المحرفين للعقيدة الإسلامية. انظر: ترجمته في: «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٦٢١)، و«الأعلام» (٤/ ٢٠٥).

ونصفه بما وصف به نفسه ووصفه به الرسول، فهو الله، الرحمن الرحيم قريب مجيب مريد ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء له الأمر من قبل ومن بعد و ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨] يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، يقبض ويبسط ويتكلم ويرضى، ويسخط ويغضب، ويحب ويبغض، ويكره ويضحك، ويأمر وينهى. ذو الوجه الكريم، والسمع السميع والبصر البصير، والكلام المبين، واليدين والقبضتين، والقدرة والسلطان والعظمة والعلم الأزلي، لم يزل كذلك ولا يزال، استوى على عرشه فبان من خلقه، لا تخفى عليه منهم خافية، علمه بهم محيط وبصره بهم نافذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فبهذا الرب نؤمن وإياه نعبد وله نصلي ونسجد، فمن قصد بعبادته إلى إله بخلاف هذه الصفات فإنما يعبد غير الله وليس معبوده بإله، كفرانه لا غفرانه» اهـ(١).

هذا هو منهج السلف في تعرفهم على ربهم، وهو معرفته لهم عن طريق معرفة أسمائه وصفاته التي اتصف بها كما نطق بها كتابه الكريم ونطقت بها سنة رسوله الأمين ﷺ، يدعونه تعالى بها ويتعبدونه بذكرها.

وقال الصابوني(٢) مبينًا عقيدة السلف في أسماء الله تعالى وصفاته:

---

(١) «الرد على الجهمية» (ص٣- ٤).

(٢) هو: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل، أبو عثمان الصابوني، مقدم أهل الحديث في بلاده خراسان، لَقَّبه أهل السنة فيها بشيخ الإسلام، فلا يعنون عند إطلاقهم هذه اللفظة غيره. وُلد سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، وتُوفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة هجرية. انظر ترجمته في: «معجم الأدباء» (١٦/٧)، و«تهذيب تاريخ دمشق» لابن عساكر (٣/ ٣٠- ٣٦)، و«الأعلام» (١/ ٣١٤).

«أصحاب الحديث - حفظ الله أحياءهم ورحم أمواتهم - يشهدون لله تعالى بالوحدانية وللرسول ﷺ بالرسالة والنبوة، ويعرفون ربهم ﷻ بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله، أو شهد له بها رسوله ﷺ على ما وردت الأخبار الصحاح به، ونقلته العدول الثقات عنه، ويُثبتون له - جلّ وعلا - ما أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، ولا يعتقدون تشبيهًا لصفاته بصفات خلقه فيقولون: إنه خلق آدم بيده كما نص - سبحانه وتعالى - عليه في قوله عز من قائل: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥] ولا يحرفون الكلام عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين، أو القوتين، ولا يكيفونهما بكيف أو تشبيههما بأيدي المخلوقين.

وقد أعاذ الله أهل السنة من التحريف والتكييف، ومنَّ عليهم بالتعريف، والتفهيم حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه، وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه واتبعوا قول الله ﷻ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح؛ من السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوة والقدرة والعزة والعظمة والإرادة والمشيئة، والقول والكلام والرضا والسخط والحياة واليقظة والفرح والضحك وغيرها، من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله تعالى وقاله رسوله ﷺ من غير زيادة عليه ولا إضافة إليه ولا تكييف له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل» اهـ[١][٢].

وعرفه حافظ حكمي فقال: هو الإيمان بما وصف الله تعالى به نفسه في

(١) «مجموع الرسائل المنيرية» (١/ ١٠٦- ١٠٧).

(٢) «مباحث العقيدة في سورة الزمر» بتصرف (ص: ٢٣).

كتابه ووصف به رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وإمرارها كما جاءت بلا كيف، كما جمع الله تعالى بين إثباتها ونفي التكييف عنها في كتابه في غير موضع كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه: ١١٠] وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٣] وغير ذلك، وفي الترمذي عن أُبي بن كعب رضي الله عنه «أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ - يعني لما ذكر آلهتهم -: انسب لنا ربك. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١- ٢]» والصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣]؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله تعالى لا يموت ولا يورث ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤] قال: لم يكن له شبيه ولا عديل، وليس كمثله شيء[١][٢].

وعَرَّفه الشيخ عبد الرحمن بن سعدي بتعريف جامع حيث قال: وهو اعتقاد انفراد الرب جل جلاله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة،

---

(١) **حسن:** رواه أحمد (٥ / ١٣٤)، والترمذي (٣٣٦٤)، ورواه عن أبي العالية مرسلًا (٣٣٦٥)، والحاكم (٢ / ٥٤٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٥٤)، وابن أبي عاصم (١/ ٢٩٨)، وفي سنده أبو بكر الرازي، قال عنه الحافظ في التقريب»: صدوق سيئ الحفظ. وقد نوه الترمذي إلى أن المرسل أصح، قال الحافظ في الفتح (٨ / ٧٣٩): وصحح الموصول ابن خزيمة والحاكم، وله شاهد من حديث جابر عند أبي يعلى والطبري والطبراني في «الأوسط»، اهـ.
وقد حسن إسناده السيوطي في «الدر المنثور» (٦ / ٤١٠) من حديث جابر اهـ. قال الهيثمي

(٢) «أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة» -نشر - أيضًا - بعنوان- «٢٠٠ سؤال وجواب في العقيدة الاسلامية» (ص:٢٦).

والجلال، والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه.

وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله من جميع الأسماء، والصفات، ومعانيها، وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله، من غير نفي لشيء منها، ولا تعطيل، ولا تحريف، ولا تمثيل.

ونفي ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله من النقائص والعيوب ومن كل ما ينافي كماله[١][٢].



(١) «القول السديد في مقاصد التوحيد» (٣/ ١٠) مجموعة ابن سعدي.

(٢) «رسائل الشيخ الحمد في العقيدة» (٤/ ٢، بترقيم الشاملة آليًّا).



المبحث الثاني: توحيد الأسماء والصفات أشرف العلوم وأهمها على الإطلاق

لا ريب أن أَجَلَّ معلوم وأعظمه وأكبره هو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين، وقيوم السموات والأَرَضين، الملك الحق المبين، الموصوف بالكمال كله، المنزه عن كل عيب ونقص وعن كل تشبيه وتمثيل في كماله.

فلا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله - أَجَلَّ العلوم وأفضلها، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات[1].

فإن قيل: فالعلم إنما هو وسيلة إلى العمل ومراد له، والعمل هو الغاية، ومعلوم أن الغاية أشرف من الوسيلة، فكيف تفضل الوسائل على غاياتها؟

قيل: كل من العلم والعمل ينقسم إلى قسمين، منه ما يكون وسيلة، ومنه ما يكون غاية، فليس العلم كله وسيلة مرادة لغيرها، فإن العلم بالله وأسمائه صفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢] فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ونزل الأمر بينهن ليعلم عباده أنه بكل شي عليم، وعلى كل شي قدير. فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فالعلم بوحدانيته تعالى وأنه لا إله إلا - هو مطلوب لذاته وإن كان لا يكتفى به

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٨٦).

وحده، بل لابد معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما. الأمر الأول: أن يعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه. والأمر الثاني: أن يعبد بموجبها ومقتضاها.

فكما أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها، فكذلك العلم به ومعرفته أيضًا، فإن العلم من أفضل العبادات(١).

ولك أن تعلم أن معرفة الله تعالى هي من أشرف العلوم وأجلّها على الإطلاق، إذ الاشتغال بفهمها والبحث التام عنها هو اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد هو من أشرف المواهب.

ولك أن تعلم أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته، وخشيته، وخوفه، ورجائه، وإخلاص العمل له. وهذا هو عين سعادة العبد.

ولا يمكن معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته وفهم معانيها؛ وقد اشتمل القرآن الكريم من تفصيلها، وبيان تعرف الله بها إلى عباده، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه ما لم يشتمل عليه غيره من بيان.

ولك أن تعلم أن معرفة الله تعالى هي أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها، وليس الإيمان مجرد قوله: «آمنت بالله» من غير معرفته بربه، بل إن حقيقة الإيمان أن يعرف الرب الذي يؤمن به، بل ويجب عليه أن يبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفة العبد بربه تكون درجة إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه، وكلما نقصت معرفته نقص إيمانه.

وأقرب طريق يوصل إلى معرفة الله تعالى تدبر أسمائه وصفاته من

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٧٨).

نصوص القرآن والسنة، فإذا مر به اسم من أسماء الله تعالى أثبت له معناه وما يتضمنه من صفات كمال مطلقة، ومع ذلك ينزهه سبحانه عما يضاد كماله.

ولك أن تعلم أن الله تعالى خلق الخلق ليعبدوه، يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٦]، ولا يمكن أن يعبدوه دون أن يعرفوه، فلا بد من معرفتهم له سبحانه ليحققوا الغاية المطلوبة منهم والحكمة من خلقهم، والاشتغال بمعرفته سبحانه هو اشتغال العبد بما خُلق له، وتركه وتضييعه إهمال لما خُلق له، وقبيح بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم متوالٍ من كل وجه - أن يكون جاهلًا بربه، مُعْرضا عن معرفته

ولك أن تعلم أن معرفة الله تعالى هي أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به سبحانه حق المعرفة يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله وعلى ما يشرعه من الأحكام؛ لأنه سبحانه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة، وكذلك لا يشرع ما يشرعه من أحكام إلا حسب ما يقتضيه حمده وحكمته وفضله وعدله. فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه كلها عدل وحكمة[١].



(١) «مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة» (١٩/ ٢٩٩، بترقيم الشاملة آليًّا).



المبحث الثالث:
أثر الإيمان بالأسماء والصفات في سلوك المسلم

إن للإيمان بأسماء الله وصفاته آثارًا عظيمة في نفس المسلم وتحقيقه لعبادة ربه.

فمن آثارها تلك المعاني التي يجدها العبد في عبوديته القلبية التي تثمر التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه، وحفظ جوارحه، وخطرات قلبه، وضبط هواجسه حتى لا يفكر إلا فيما يرضي الله تعالى، ويحب لله وفي الله، به يسمع، وبه يبصر، ومع ذلك هو واسع الرجاء وحسن الظن بربه.

هذه المعاني وغيرها مما يتعلق بالإيمان بمعاني الأسماء والصفات تثمر العبودية الظاهرة والباطنة على تفاوت بين شخص وآخر وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فلاسمه «الغفار» أثره العظيم في محبته وعدم اليأس من رحمته، ولاسمه «شديد العقاب» أثره الكبير في خشيته وعدم الجرأة على محارمه. وهكذا لأسمائه الأخرى وصفاته آثارها بحسب دلالاتها المتنوعة في نفس المسلم واستقامته على شرع الله بل وتحقيق محبته في القلوب التي هي أساس سعادة المسلم في الدنيا والآخرة، ومفتاح كل خير وأعظم عون للعبد على عبادته لربه على أكمل الوجوه إذ الأعمال الظاهرة تخف وتثقل على النفس بحسب المحبة القلبية لله تعالى. فإكمال العمل وتحسينه على ما أراد الله منوط بالمحبة القلبية لله. والمحبة منوطة بمعرفة الله بأسمائه وصفاته.

ولهذا كان أعظم الناس عبادة لله رسل الله الذين هم أعظم الناس محبة له وأعرفهم به[١].

(١) «أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة» (ص: ٧٦).

المبحث الرابع: عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته إجمالًا

وبه فصلان:

الفصل الأول: التعريف بالسلف الصالح أهل السنة والجماعة

وبه مسألتان:

المسألة الأولى: التعريف بالسلف:

أ- معنى السلف لغة:

(السلف: جمع سالف، على وزن حارس وحَرَس، وخادم وخَدَم. والسالف: المتقدم. والسلف... الجماعة المتقدمون)[1].

قال ابن فارس: (السين، واللام، والفاء) أصل يدل على تقدم وسبق، من ذلك السلف الذين مضَوا، والقوم السلاف: المتقدمون)[2].

ب- المقصود بالسلف الصالح:

(تعددت أقوال العلماء في تحديد ذلك من حيث المدى الزمني:

١- فمن العلماء من قصر ذلك على الصحابة -رضوان الله عليهم- فقط.

(١) «لسان العرب» (٩/ ١٥٨).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٩٥) مادة «سلف».

٢- ومن العلماء من قال بأنهم هم: الصحابة والتابعون.

٣- ومن العلماء من قال بأنهم هم: الصحابة والتابعون وتابعو التابعين[(١)].

والقول الصحيح المشهور الذي عليه جمهور أهل السنة هو أن المقصود بالسلف الصالح هم القرون الثلاثة المفضلة الذين شهد لهم النبي ﷺ بالخيرية، حيث قال: «**خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[(٢)].

فالسلف الصالح هم الصحابة والتابعون وتابعو التابعين.

وكل من سلك سبيلهم وسار على نهجهم فهو سلفي نسبة إليهم.

والسلفية: هي المنهج الذي سار عليه النبي ﷺ والقرون المفضلة من بعده والذي أخبر النبي ﷺ بأنه باقٍ إلى أن يأتي أمر الله؛ لحديث: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**»[(٣)].

فيصح الانتساب إلى هذا المنهج متى التزم الإنسان بشروطه وقواعده، فكل من حافظ على سلامة العقيدة طبقًا لفهم القرون الثلاثة المفضلة فهو ذو نهج سلفي.

ج- قواعد المنهج السلفي:

يمكن حصر ركائز وقواعد المنهج السلفي على سبيل الاختصار في النقاط

---

(١) «وسطية أهل السنة بين الفِرق» د. محمد باكريم (ص٩٢-٩٤)، و«كتاب لزوم الجماعة» (ص٢٧٦-٢٧٧) تأليف جمال بادي.

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ١٩٩ و١١/ ٤٦٠)، ومسلم (٧/ ١٨٤، ١٨٥).

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٣/ ١٥٢٣).

التالية:

أولًا: ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها.

ثانيًا: التقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وذلك يتم بـ:

أ- الاجتهاد في تمييز صحيحه من سقيمه.

ب- الاجتهاد في الوقوف على معانيه وتفهمه[١].

ثالثًا: العمل بذلك والاستقامة عليه اعتقادًا وتفكيرًا وسلوكًا وقولًا والبعد عن كل ما يخالفه ويناقضه.

رابعًا: الدعوة إلى ذلك باللسان والبنان.

فمن التزم هذه القواعد في الاعتقاد والعمل فهو على النهج السلفي بإذن الله.

د- الأدلة على وجوب اتباع السلف الصالح ولزوم منهجهم:

أولًا: من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

فرضي ﷻ عن السابقين الأولين رضاءً مطلقًا، ورضي عن التابعين لهم بإحسان.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ

(١) «بيان فضل السلف على الخلف» لابن رجب (ص١٥٠-١٥٢)، و«أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (١/ ٩-١٠).

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء ١١٥].

فتوعد الله من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد في الآية السابقة متبعهم بالرضوان.

ثانيًا: الأدلة من السنة:

١- قوله ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»(١).

فهذه «الخيرية» التي شهد النبي ﷺ بها لهذه القرون الثلاثة - تدل على تفضيلهم وسبقهم وجلالة قدرهم وسعة علمهم بشرع الله وشدة تمسكهم بسنة رسوله ﷺ وهذا ما تؤكده الأحاديث التالية.

٢- قوله ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**» قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: «**من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٩٩ و٦/٧ و١١/ ٤٦٠)، وأخرجه مسلم (٧/ ١٨٤، ١٨٥).

(٢) هذا الحديث أخرجه أحمد (٨٣٩٦ و١٢٢٠٨ و١٢٤٧٩ و١٦٩٣٧)، وأبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠و ٢٦٤١)، وابن ماجه (٣٩٩١ و٣٩٩٢ ٣٩٩٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢ و٤٥ و٦٣ و٦٤ و٦٥ و٦٩ و٧٠ و٧١)، وعبد الرزاق (١٨٦٧٤)، وابن أبي شيبة (٣٧٨٩٢)، والبزار (٢٧٥٥و ٦٢١٤)، والحارث بن أبي أسامة كما في «بغية الباحث» (٧٠٦)، والمروزي في «السنة» (٥١، و٥٣، و٥٤، و٥٥، و٥٦و٥٧و٥٨و٦٠و٦١)، وأبو يعلى (٣٩٣٨ و٣٩٤٤ و٤١٢٧ و٥٩١٠ و٥٩٧٨ و٦١١٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٤٨)، والحاكم (١٠ و٤٤١ و٤٤٢ و٤٤٣ و٤٤٤ و٤٤٥ و٣٧٩٠ و٦٣٢٥ و٨٣٢٥)، وابن حبان (٦٢٤٧ و٦٧٣١)، والطبراني في «الأوسط» (٧٢٠٢، و٧٨٤٠)، وفي «الكبير» (٣ و٦٢ و٩١ و١٢٩ و٨٨٥ و٨٠٣٥ و٨٠٥٣ ٨٠٥٤)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» =

. . . .

= (٢/ ٣٨١-٣٨٢ و٣/ ٣٨٧-٣٨٨)، والشاشي في «مسنده» (٧٧٢)، والآجري في «الشريعة» (٢١ و٢٣ و٢٤ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و١١١ و٧٧٢ و١٨٦٠)، وابن المقرئ في «معجمه» (٤١١)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١ و٢٦٣ و٢٦٤ و٢٦٥ و٢٦٦ و٢٦٧ و٢٦٨ و٢٧٠ و٢٧١ و٢٧٥ و٤١١ و٧٣٦)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٤٥ و١٤٦ و١٤٧ و١٤٨ و١٤٩ و١٥٠ و١٥٢)، وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (٢٥٠)، والبيهقي (١٦٧٨٣ و٢٠٩٠١)، والخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص٢٤)، وفي «تاريخ بغداد» (١٥/ ٤١٩)، وبحشل في «تاريخ واسط» (١/ ١٩٦و٢٣٥)، وغيرهم.

وممن رواه من الصحابة ﷺ:

أبو هريرة وأنس بن مالك ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن عمرو بن العاص وسعد ابن أبي وقاص وعوف بن مالك الأشجعي وعمرو بن عوف المزني وأبو أمامة وعبد الله بن مسعود وجابر بن عبد الله وأبو الدرداء وواثلة بن الأسقع وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس.

وبعض طرقه ثابتة، وبعضها ليست بثابتة.

وإليك تفصيل ذلك من كلام العلامة الألباني حيث قال:

(أخرجه أبو داود (٢ / ٥٠٣- ٥٠٤)، والدارمي (٢ / ٢٤١)، وأحمد (٤ / ١٠٢) وكذا الحاكم (١ / ١٢٨)، والآجري في «الشريعة» (١٨)، وابن بطة في «الإبانة» (٢ / ١٠٨ / ٢، ١١٩ / ١)، واللالكائي في «شرح السنة» (١/ ٢٣/ ١) من طريق صفوان قال: حدثني أزهر بن عبد الله الهوزني عن أبي عامر عبد الله بن لحي عن معاوية بن أبي سفيان أنه قام فينا فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال. . . فذكره.

وقال الحاكم وقد ساقه عقب أبي هريرة المتقدم: قلت «هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث». ووافقه الذهبي.

وقال الحافظ في «تخريج الكشاف» (ص٦٣): «وإسناده حسن».

قلت: وإنما لم يصححه لأن أزهر بن عبد الله هذا لم يوثقه غير العجلي وابن حبان. ولما ذكر الحافظ في «التهذيب» قول الأزدي: «يتكلمون فيه»، تعقبه بقوله: «لم يتكلموا إلا في مذهبه». ولهذا قال في «التقريب»: «صدوق، تكلموا فيه =

. . . .

= للنصب».
والحديث أورده الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٩٠) من رواية أحمد، ولم يتكلم على سنده بشيء، ولكنه أشار إلى تقويته بقوله: «وقد ورد هذا الحديث من طرق».
ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «المسائل» (٨٣ / ٢): «هو حديث صحيح مشهور». وصححه أيضًا الشاطبي في «الاعتصام» (٣/ ٣٨).
ومن طرق الحديث التي أشار إليها ابن كثير، وفيها الزيادة، ما ذكره الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٩٩) قال: رواه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه، وأبو داود من حديث معاوية، وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك، وأسانيدها جياد.
قلت: ولحديث أنس طرق كثيرة جدًّا تَجَمَّع عندي منها سبعة، وفيها كلها الزيادة المشار إليها، مع زيادة أخرى يأتي التنبيه عليها.
وهذه هي:
الطريق الأولى: عن قتادة عنه.
أخرجه ابن ماجه (٢ / ٤٨٠)، وقال البوصيري في «الزوائد»: «إسناده صحيح، رجاله ثقات».
قلت: وفي تصحيحه نظر عندي لا ضرورة لذكره الآن، فإنه لا بأس به في الشواهد.
الثانية: عن العميري عنه.
أخرجه أحمد (٣ / ١٢٠)، والعميري هذا لم أعرفه، وغالب الظن أنه محرف من (النميري)، واسمه زياد بن عبد الله فقد روى عن أنس، وعنه صدقة بن يسار، وهو الذي روى هذا الحديث عنه، والنميري ضعيف، وبقية رجاله ثقات.
الثالثة: عن ابن لهيعة حدثنا خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عنه. وزاد: «قالوا: يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال: «الجماعة الجماعة».
أخرجه أحمد أيضًا (٣ / ١٤٥)، وسنده حسن في الشواهد.
الرابعة: عن سلمان أو سليمان بن طريف عنه.
أخرجه الآجري في «الشريعة» (١٧)، وابن بطة في «الإبانة» (٢ / ١١٨ / ٢)، =

. . . .

= وابن طريف هذا لم أجد له ترجمة.

الخامسة: عن سويد بن سعيد قال: حدثنا مبارك بن سحيم عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس.

أخرجه الآجري، وسويد ضعيف، وأخرجه ابن بطة أيضًا، ولكني لا أدري إذا كان من هذا الوجه أو من طريق آخر عن عبد العزيز فإن كتابه بعيد عني الآن.

السادسة: عن أبي معشر عن يعقوب بن زيد بن طلحة عن زيد بن أسلم عن أنس به. وفيه الزيادة.

أخرجه الآجري (١٦). وأبو معشر اسمه نجيح بن عبد الرحمن السندي، وهو ضعيف.

ومن طريقه رواه ابن مردويه كما في «تفسير ابن كثير» (٢ / ٧٦- ٧٧).

السابعة: عن عبد الله بن سفيان المدني عن يحيى بن سعيد الأنصاري عنه.

وفيه الزيادة بلفظ: «قال: ما أنا عليه وأصحابي».

أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (ص٢٠٧- ٢٠٨)، والطبراني في «الصغير» (١٥٠)، وقال: «لم يروه عن يحيى إلا عبد الله بن سفيان».

وقال العقيلي: «لا يتابع على حديثه».

قلت: وهو على كل حال خير من الأبرد بن أشرس فإنه روى هذا الحديث أيضًا عن يحيى بن سعيد به، فإنه قلب متنه، وجعله بلفظ: «تفترق أمتي على سبعين أو إحدى وسبعين فرقة، كلهم في الجنة إلا فرقة واحدة»، قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال: «الزنادقة وهم القدرية».

أورده العقيلي أيضًا وقال: «ليس له أصل من حديث يحيى بن سعيد» وقال الذهبي في «الميزان»: «أبرد بن أشرس قال ابن خزيمة: كذاب وضاع».

قلت: وقد حاول بعض ذوي الأهواء من المعاصرين تمشية حال هذا الحديث بهذا اللفظ الباطل، وتضعيف هذا الحديث الصحيح، وقد بينت وضع ذاك في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» رقم (١٠٣٥).

والغرض الآن إتمام الكلام على هذا اللفظ الصحيح، فقد تبين بوضوح أن الحديث ثابت لا شك فيه؛ ولذلك تتابع العلماء خلفًا عن سلف على الاحتجاج به، حتى =

. . . .

= قال الحاكم في أول كتابه «المستدرك»: «إنه حديث كبير في الأصول» ولا أعلم أحدًا قد طعن فيه، إلا بعض من لا يُعتد بتفرده وشذوذه، أمثال الكوثري الذي سبق أن أشرنا إلى شيء من تنطعه وتحامله على الطريق الأولى لهذا الحديث، التي ليس فيها الزيادة المتقدمة: «كلها في النار»، جاهلًا بل متجاهلًا حديث معاوية وأنس على كثرة طرقه عن أنس كما رأيت. وليته لم يقتصر على ذلك إذن لما التفتنا إليه كثيرًا، ولكنه دعم رأيه بالنقل عن بعض الأفاضل، ألا وهو العلامة ابن الوزير اليمني، وذكر أنه قال في كتابه: «العواصم والقواصم» ما نصه: «إياك أن تغتر بزيادة «كلها في النار إلا واحدة» فإنها زيادة فاسدة، ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة. وقد قال ابن حزم: إن هذا الحديث لا يصح».

وقفت على هذا التضعيف منذ سنوات. ثم أوقفني بعض الطلاب في «الجامعة الإسلامية» على قول الشوكاني في «تفسيره» «فتح القدير» (٢ / ٥٦).

قال ابن كثير في «تفسيره»: وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مروي من طرق عديدة، قد ذكرناها في موضع آخر. انتهى. قلت: أما زيادة كونها في النار إلا واحدة «فقد ضعفها جماعة من المحدثين (!)، بل قال ابن حزم: إنها موضوعة».

ولا أدري من الذين أشار إليهم بقوله: «جماعة. . . » فإني لا أعلم أحدًا من المحدثين المتقدمين ضَعَّف هذه الزيادة، بل إن الجماعة قد صححوها وقد سبق ذكر أسمائهم، وأما ابن حزم فلا أدري أين ذكر ذلك، وأول ما يتبادر للذهن أنه في كتابه «الفصل في الملل والنحل» وقد رجعت إليه، وقلبت مظانه فلم أعثر عليه، ثم إن النقل عنه مختلف، فابن الوزير قال عنه: «لا يصح»، والشوكاني قال عنه: «إنها موضوعة»، وشتان بين النقلين كما لا يخفى.

فإن صح ذلك عن ابن حزم، فهو مردود من وجهين:

الأول: أن النقد العلمي الحديثي قد دل على صحة هذه الزيادة، فلا عبرة بقول من ضعفها.

والآخر: أن الذين صححوها أكثر وأعلم بالحديث من ابن حزم، لاسيما وهو معروف عند أهل العلم بتشدده في النقد، فلا ينبغي أن يُحتج به إذا تفرد عند عدم المخالفة فكيف إذا خالف؟! =

. . . .

= و أما ابن الوزير، فكلامه الذي نقله الكوثري يُشعر بأنه لم يطعن في الزيادة من جهة إسنادها، بل من حيث معناها، وما كان كذلك فلا ينبغي الجزم بفساد المعنى لإمكان توجيهه وجهة صالحة ينتفي به الفساد الذي ادعاه.
وكيف يستطاع الجزم بفساد معنى حديث تلقاه كبار الأئمة والعلماء من مختلف الطبقات بالقبول وصرحوا بصحته؟! هذا يكاد يكون مستحيلًا!
وإن مما يؤيد ما ذكرته أمرين:
الأول: أن ابن الوزير في كتاب آخر له قد صحح حديث معاوية هذا، ألا وهو كتابه القيم: «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم» فقد عقد فيه فصلًا خاصًّا في الصحابة الذين طعن فيهم الشيعة وردوا أحاديثهم، ومنهم معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فسرد ما له من الأحاديث في كتب السنة مع الشواهد من طريق جماعة آخرين من الصحابة لم تطعن فيه الشيعة، فكان هذا الحديث منها!
الأمر الآخر: أن بعض المحققين من العلماء اليمانيين ممن نقطع أنه وقف على كتب ابن الوزير، ألا وهو الشيخ صالح المقبلي - قد تكلم على هذا الحديث بكلام جيد من جهة ثبوته ومعناه، وقد ذكر فيه أن بعضهم ضعف هذا الحديث، فكأنه يشير بذلك إلى ابن الوزير.
وأنت إذا تأملت كلامه وجدته يشير إلى أن التضعيف لم يكن من جهة السند، وإنما من قِبل استشكال معناه، وأرى أن أنقل خلاصة كلامه المشار إليه لما فيه من الفوائد.
قال رَحِمَهُ اللَّهُ في «العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ» (ص٤١٤):
«حديث «افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة» رواياته كثيرة يشد بعضها بعضًا بحيث لا يبقى ريبة في حاصل معناها - ثم ذكر حديث معاوية هذا، وحديث ابن عمرو بن العاص الذي أشار إليه الحافظ العراقي وحسنه الترمذي - ثم قال: (والإشكال في قوله: «كلها في النار إلا ملة»، فمن المعلوم أنهم خير الأمم، وأن المرجو أن يكونوا نصف أهل الجنة، مع أنهم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، حسبما صرحت به الأحاديث، فكيف يتمشى هذا؟ فبعض الناس تكلم في ضعف هذه الجملة، وقال: هي زيادة غير ثابتة. وبعضهم تأول الكلام.
قال: ومن المعلوم أن ليس المراد من الفرقة الناجية أن لا يقع منها أدنى =

. . . .

= اختلاف، فإن ذلك قد كان في فضلاء الصحابة. إنما الكلام في مخالفة تصير صاحبها فرقة مستقلة ابتدعها. وإذا حققت ذلك فهذه البدع الواقعة في مهمات المسائل، وفيما يترتب عليه عظائم المفاسد - لا تكاد تنحصر، ولكنها لم تخص معينًا من هذه الفرق التي قد تحزبت والتأم بعضهم إلى قوم وخالف آخرون بحسب مسائل عديدة.

ثم أجاب عن الإشكال بما خلاصته:

«إن الناس عامة وخاصة، فالعامة آخرهم كأولهم، كالنساء والعبيد والفلاحين والسوقة ونحوهم ممن ليس من أمر الخاصة في شيء، فلا شك في براءة آخرهم من الابتداع كأولهم.

وأما الخاصة، فمنهم مبتدع اخترع البدعة وجعلها نصب عينيه، وبلغ في تقويتها كل مبلغ، وجعلها أصلًا يرد إليها صرائح الكتاب والسنة، ثم تبعه أقوام من نمطه في الفقه والتعصب، وربما جددوا بدعته وفَرَّعوا عليها وحملوه ما لم يتحمله، ولكنه إمامهم المقدم، وهؤلاء هم المبتدعة حقًّا، وهو شيء كبير (تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا)، كنفي حكمة الله تعالى، ونفي إقداره المكلف، وككونه يكلف ما لا يطاق، ويفعل سائر القبائح ولا تقبح منه، وأخواتهن!

ومنها ما هو دون ذلك، وحقائقها جميعها عند الله تعالى، ولا ندري بأيها يصير صاحبها من إحدى الثلاث وسبعين فرقة.

ومن الناس من تبع هؤلاء وناصرهم وقَوى سوادهم بالتدريس والتصنيف، ولكنه عند نفسه راجع إلى الحق، وقد دس في تلك الأبحاث نقوضها في مواضع لكن على وجه خفي، ولعله تخيل مصلحة دنيئة، أو عظم عليه انحطاط نفسه وإيذاؤهم له في عرضه وربما بلغت الأذية إلى نفسه.

وعلى الجملة فالرجل قد عرف الحق من الباطل، وتخبط في تصرفاته، وحسابه على الله سبحانه، إما أن يحشره مع من أحب بظاهر

حاله، أو يقبل عذره، وما تكاد تجد أحدًا من هؤلاء النظار إلا قد فعل ذلك، لكن شرهم والله كثير، فلربما لم يقع خبرهم بمكان، وذلك لأنه لا يفطن لتلك اللمحة الخفية التي دسوها إلا الأذكياء المحيطون بالبحث، وقد أغناهم الله بعلمهم عن =

. . . .

= تلك اللمحة، وليس بكبير فائدة أن يعلموا أن الرجل كان يعلم الحق ويخفيه. والله المستعان.

ومن الناس من ليس من أهل التحقيق، ولا هيئ للهجوم على الحقائق، وقد تدرب في كلام الناس، وعرف أوائل الأبحاث، وحفظ كثيرًا من غثاء ما حصلوه، ولكن أرواح الأبحاث بينه وبينها حائل. وقد يكون ذلك لقصور الهمة والاكتفاء والرضا عن السلف لوقعهم في النفوس. وهؤلاء هم الأكثرون عددًا، والأرذلون قدرًا، فإنهم لم يحظوا بخصيصة الخاصة، ولا أدركوا سلامة العامة.

فالقسم الأول من الخاصة مبتدعة قطعًا. والثاني ظاهره الابتداع، والثالث له حكم الابتداع.

ومن الخاصة قسم رابع ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، أقبلوا على الكتاب والسنة وساروا بسيرها، وسكتوا عما سكتا عنه، وأقدموا وأحجموا بهما وتركوا تكلف ما لا يعنيهم، وكان تهمهم السلامة، وحياة السنة آثر عندهم من حياة نفوسهم، وقرة عين أحدهم تلاوة كتاب الله تعالى، وفهم معانيه على السليقة العربية والتفسيرات المروية، ومعرفة ثبوت حديث نبوي لفظًا وحكمًا.

فهؤلاء هم السنية حقًّا، وهم الفرقة الناجية، وإليهم العامة بأسرهم، ومن شاء ربك من أقسام الخاصة الثلاثة المذكورين، بحسب علمه بقدر بدعتهم ونياتهم.

إذا حققت جميع ما ذكرنا لك، لم يلزمك السؤال المحذور وهو الهلاك على معظم الأمة؛ لأن الأكثر عددًا هم العامة قديمًا وحديثًا، وكذلك الخاصة في الأعصار المتقدمة، ولعل القسمين الأوسطين، وكذا من خفت بدعته من الأول - تنقذهم رحمة ربك من النظام في سلك الابتداع بحسب المجازاة الأخروية، ورحمة ربك أوسع لكل مسلم، لكنا تكلمنا على مقتضى الحديث ومصداقه، وأن أفراد الفرق المبتدعة وإن كثرت الفرق فلعله لا يكون مجموع أفرادهم جزءا من ألف جزء من سائر المسلمين.

فتأمل هذا تسلم من اعتقاد مناقضة الحديث لأحاديث فضائل الأمة المرحومة».

قلت: وهذا آخر كلام الشيخ المقبلي رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو كلام متين يدل على علم الرجل وفضله ودقة نظره، ومنه تعلم سلامة الحديث من الإشكال الذي أظن أنه عمدة =

٣- قوله ﷺ: «... **فإنه من يعش بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، فتمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[(١)].

= ابن الوزير رحمه الله في إعلاله إياه.

والحمد لله على أن وفقنا للإبانة عن صحة هذا الحديث من حيث إسناده، وإزالة الشبهة عنه من حيث متنه. وهو الموفق لا إله إلا هو.

ثم وقفت على كلام لأحد الكتاب في العصر الحاضر ينكر في كتابه «أدب الجاحظ» (ص٩٠) صحة هذا الحديث للدفاع عن شيخه الجاحظ! فهو يقول: «و لو صح هذا الحديث لكان نكبة كبرى على جمهور الأمة الإسلامية. إذ يسجل على أغلبيتها الخلود في الجحيم، ولو صح هذا الحديث لما قام أبو بكر في وجه مانعي الزكاة معتبرًا إياهم في حالة ردة. . .» إلى آخر كلامه الذي يغني حكايته عن تكلف الرد عليه؛ لوضوح بطلانه لاسيما بعد قراءة كلام الشيخ المقبلي المتقدم.

على أن قوله «الخلود في الجحيم» ليس له أصل في الحديث، وإنما أورده الكاتب المشار إليه من عند نفسه ليتخذ ذلك ذريعة للطعن في الحديث. وهو سالم من ذلك كله كما بينا، والحمد لله على تُوفيقه).

انتهى كلام الجبل الهمام الألباني رحمه الله.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦- ١٢٧) من طريق الوليد بن مسلم، بهذا الإسناد. ومن طريق أحمد هذه أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٠٧) باب: في لزوم السنة. وأخرجه أحمد (٤/ ١٢٦)، والترمذي في العلم (٢٦٧٨) باب:- ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع- بعده بدون رقم-، والدارمي في المقدمة (١/ ٤٤) باب: اتباع السنة، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢٠٥ برقم ١٠٢) من طريق الضحاك بن مخلد.

وأخرجه البيهقي في آداب القاضي (١٠/ ١١٤) باب: ما يقضي به القاضي. . . من طريقين عن أبي عاصم، كلاهما عن ثور بن يزيد، بهذا الإسناد. وصححه الحاكم (١/ ٩٥- ٩٦)، ووافقه الذهبي.

وأخرجه ابن ماجه في المقدمة (٤٤) باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، =

. . . .

= من طريق يحيى بن حكيم، حدثنا عبد الملك بن الصباح، حدثنا ثور بن يزيد، به.
وأخرجه الترمذي (٢٦٧٨) من طريق علي بن حُجْر، حدثنا بقية بن الوليد، عن بحير ابن سعد، عن خالد بن معدان، به. وقال: «هذا حديث حسن صحيح».
وأخرجه أحمد (٤/ ١٢٦)، وابن ماجه في المقدمة (٤٣) من طريق عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن ضمرة بن حبيب، عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي، به. وانظر: «السنة» لابن أبي عاصم (١/ ١٧، ٢٩)، والشريعة للآجري (ص٤٦- ٤٧).
والسنة: ما جاء عن النبي ﷺ من أقوال، وأفعال، وتقريرات، وما هَمَّ ﷺ بفعله، والسنة في أصل اللغة: الطريقة، وفي اصطلاح الأصوليين والمحدثين، ما سبق، وفي اصطلاح بعض الفقهاء ما يرادف المستحب.
ومحدثات الأمور: ما أحدث على غير أصل من أصول الدين وعلى غير عياره وقياسه.
وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٥٤): وقوله: «**كل بدعة ضلالة**»، قاعدة شرعية كلية بمنطوقها ومفهومها: أما منطوقها فكأن يقال: حكم كذا بدعة، وكل بدعة ضلالة، فلا تكون من الشرع لأن الشرع كله هدى، فإن ثبت أن الحكم المذكور بدعة صحت المقدمتان وأنتجتا المطلوب.
والمراد بقوله: «**كل بدعة ضلالة**» ما أحدث ولا دليل له من الشرع بطريق خاص ولا عام».
وقد أخرج الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٠٥) من طريق سريج بن النعمان قال: حدثنا بقية، عن أبي بكر بن عبد الله، عن حبيب بن عبيد الرحبي، عن غضيف بن الحارث الثمالي قال: «بعث إليّ عبد الملك بن مروان فقال: يا أبا أسماء، إنا قد جمعنا النَّاس على أمرين. قال: وما هما؟ قال: رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة، والقصص بعد الصبح والعصر. فقال: أما إنهما أمثل بدعتكم عندي، ولست مجيبك إلى شيء منهما. قال: لِمَ؟. قال: لأن النبي ﷺ قال: «**ما أحدث قوم بدعة إلا رُفع مثلها من السنة**» فَتَمَسُّكٌ بسنة خير من إحداث بدعة».
ووصفه الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٢٥٣) بجودة الإسناد. =

فحث ﷺ على أن يتبعوا سنته وسنة مَن بعده من الخلفاء الراشدين، عند وقوع التفرق والاختلاف.

ثالثًا: من أقوال السلف الصالح وأتباعهم:

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** «لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من أصحاب محمد ﷺ ومن أكابرهم، فإذا أتاهم العلم من قِبل أصاغرهم وتفرقت أهواؤهم هلكوا»(١).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** «من كان منكم مستنًّا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»(٢).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** «إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر»(٣).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** «اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفيتم»(٤).

= فإذا كان هذا جواب صحابي في أمر له أصل في السنة، فما ظنك بما لا أصل له فيها، وكيف بما يشتمل على ما يخالفها؟

فتنبهوا أيها المسلمون!! فإنه لا عصمة لأحد إلا في كتاب الله وفي سنة نبيه، وتدبروا قول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

(١) «الزهد» لابن المبارك (ص٢٨١ ح٨١٥).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٨٧).

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (ح١١٥).

(٤) «البدع والنهي عنها» لابن وضاح (ص١٣).

وقال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا معشر القراء، استقيموا وخذوا طريق من كان قبلكم، فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا»[(١)].

وقال مجاهد: «العلماء أصحاب محمد ﷺ»[(٢)].

وقال الأوزاعي: «العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ، فما كان غير ذلك فليس بعلم»، وكذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)].

وقال أيضًا: «اصبر نفسك على السنة، وقِفْ حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكُف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم»[(٤)].

وكان الحسن البصري في مجلس فذكر أصحاب محمد ﷺ فقال: «إنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قومًا اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم؛ فإنهم ورب الكعبة على الهدى المستقيم[(٥)].

وقيل لأبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟

قال: «مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة، فإنها بدعة[(٦)].

---

(١) «جامع بيان العلم» (٢/ ٢٩).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) «الشريعة» للآجري (ص٥٨).

(٥) «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٧).

(٦) «صون المنطق» للسيوطي (٣٢٢).

وقال الأوزاعي: «عليك بآثار السلف وإن رفضك الناس، وإياك ورأي الرجال وإن زخرفوه لك بالقول، فإن الأمر ينجلي وأنت منه على طريق مستقيم»[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله - أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له وطاعة رسوله، يدور على ذلك، ويتبعه أين وجده، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، فلا ينتصر لشخص انتصارًا مطلقًا عامًّا إلا لرسول الله ﷺ، ولا لطائفة انتصارًا مطلقًا عامًّا إلا للصحابة رضي الله عنهم أجمعين. فإن الهدي يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا، فإذا أجمعوا لم يُجمعوا على خطأ قط، بخلاف أصحاب عالم من العلماء، فإنهم قد يُجمعون على خطأ، بل كل ما قالوه ولم يقله غيرهم من الأمة لا يكون إلا خطأ، فإن الدين الذي بعث الله به رسوله ليس مسلمًا إلى عالم واحد وأصحابه، ولو كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيرًا لرسول الله ﷺ، وهو شبيه بقول الرافضة في الإمام المعصوم.

ولابد أن يكون الصحابة والتابعون يعرفون ذلك الحق الذي بعث الله به الرسول، قبل وجود المتبوعين الذين تنسب إليهم المذاهب في الأصول والفروع، ويمتنع أن يكون هؤلاء جاءوا بحق يخالف ما جاء به الرسول، فإن كل ما خالف الرسول فهو باطل، ويمتنع أن يكون أحدهم علم من جهة الرسول ما يخالف الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فإن أولئك لم يجتمعوا على ضلالة، فلابد أن يكون قوله- إن كان حقًّا- مأخوذًا عما جاء به

(١) «المدخل إلى السنن» للبيهقي رقم (٢٣٣).

الرسول، موجودًا فيمن قبله، وكل قول قيل في دين الإسلام، مخالف لما مضى عليه الصحابة والتابعون، لم يقله أحد منهم بل قالوا خلافه - فإنه قول باطل»[(١)(٢)].

المسألة الثانية: التعريف بأهل السنة:

يَستعمل العلماء تارة مسمى «أهل السنة والجماعة» بدلًا من عبارة «السلف».

وهذه العبارة وردت في استعمال العلماء لمعنيين هما:

أ- المعنى الأخص:

وهو بعينه مدلول لفظة السلف، فأهل السنة والجماعة هم الصحابة والتابعون وتابعوهم ومن سلك سبيلهم وسار على نهجهم من أئمة الهدى ومن اقتدى بهم من سائر الأمة أجمعين.

فيخرج من هذا المعنى كل طوائف المبتدعة وأهل الأهواء.

فالسنة هنا في مقابل البدعة.

والجماعة هنا في مقابل الفِرقة.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قالت: «تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفِرقة»[(٣)].

وهذا المعنى هو المقصود في الأحاديث التي وردت في لزوم الجماعة. والنهي عن التفرق.

---

(١) «منهاج السنة» (٥/ ٢٦٢-٢٦٣).

(٢) «معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات» (ص: ٤٧).

(٣) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٩٠).

وهذا المعنى وإن كان أخص من جهة معناه لكنه هو الأكثر ورودًا واستعمالًا في كلام العلماء.

ب- المعنى الأعم:

والذي يدخل فيه بعض طوائف المبتدعة في حالة موافقة قولهم لقول السلف في مسألة بعينها في مقابلة طائفة بعينها.

وهذا المعنى أقل استعمالًا لتقيده بشروط معينة هي:

أ- كونه في مسائل اعتقادية معينة.

ب- كونه في مقابل طوائف معينة.

مثاله: استعمال هذا المسمى في مقابل الرافضة في مسألتي «الخلافة» و«الصحابة».

فيقال هنا: المنتسبون للإسلام قسمان:

١- أهل السنة.

٢- الرافضة.

فيدخل هنا مع أهل السنة بعض طوائف المبتدعة كالأشاعرة وغيرهم، وقد أُدخلوا هنا لموافقة قولهم لقول السلف في مسألتي «الخلافة» و«الصحابة» لما حصل فيهما النزاع مع الرافضة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فلفظ (أهل السنة) يراد به:

١- من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة.

٢- وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من يُثبت الصفات لله تعالى ويقول: (إن القرآن غير مخلوق، وإن الله يُرى في الآخرة، ويُثبت القدر... وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل

الحديث والسنة)[(١)].

وقد عبر شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذين القسمين بتسمية أهل القسم الأول بأهل «السنة العامة» وهو كل ما ليس برافضي[(٢)] وأهل القسم الثاني بأهل «السنة الخاصة» أي: أهل الحديث[(٣)].

الفصل الثاني: عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته إجمالًا

أهل السنة والجماعة يؤمنون بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، مِنْ غَيْرِ: تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ: تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ. بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ. وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ. وَلَا يُلْحِدُونَ فِي: أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَآيَاتِهِ. وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ. لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفُوَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ. ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ؛ بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ؛ وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا

---

(١) «منهاج السنة» (٢/ ٢٢١)، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود.

(٢) قال شيخ الإسلام: «ولا ريب أنهم (أي الروافض) أبعد طوائف المبتدعة عن الكتاب والسنة؛ ولهذا كانوا هم المشهورين عند العامة بالمخالفة للسنة، فجمهور العامة لا تعرف ضد السني إلا الرافضي، فإذا قال أحدهم: (أنا سني)، فإنما معناه: لست رافضيًّا...» «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٥٦).

(٣) «معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات» (ص: ٥٣).

يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]. فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ.

فَلَا عُدُولَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَتْ بِهِ الْمُرْسَلُونَ. فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ[(١)].

ومن هنا تتضح الأسس التي قام عليها معتقد أهل السنة في باب الأسماء والصفات.

ارتكز معتقد أهل السنة في باب أسماء الله وصفاته على ثلاثة أسس رئيسية، هي[(٢)]:

الأساس الأول: الإيمان بما وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته إثباتًا ونفيًا.

الأساس الثاني: تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين.

الأساس الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الله بتلك الصفات.

وهذه الأسس الثلاثة هي التي تفصل وتميز عقيدة أهل السنة في هذا الباب عن عقيدة أهل التعطيل (من الفلاسفة وأهل الكلام) من جهة. وعن عقيدة

---

(١) «العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة» (ص: ٦١).

(٢) «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» (ص٢٥).

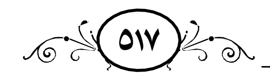
أهل التمثيل (من الكرامية والهشامية وغيرهم) من جهة أخرى[١].

فأهل السنة سلكوا في هذا الباب منهج القرآن والسنة الصحيحة، فكل اسم أو صفة لله سبحانه وردت في الكتاب والسنة الصحيحة فهي من قبيل الإثبات فيجب بذلك إثباتها.

وأما النفي فهو أن ينفى عن الله ﷻ كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص، مع وجوب اعتقاد ثبوت كمال ضد ذلك المنفي.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والسنة».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وطريقة سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، إثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقات، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فهذا رد على الممثلة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على المعطلة.



فقولهم في الصفات مبني على أصلين:

أحدهما: أن الله ﷻ منزه عن صفات النقص مطلقًا؛ كالسِّنة والنوم والعجز والجهل وغير ذلك.

والثاني: أنه متصف بصفات الكمال التي لا نقص فيها على وجه الاختصاص بما له من الصفات، فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات»[٢][٣].

---

(١) «معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات» (ص: ٧١).

(٢) «منهاج السنة» (٢/ ٥٢٣).

(٣) «معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات» (ص: ٥٧).

ومن هذا نعلم أن منهج أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء والصفات يقوم علي على الإيمان الكامل والتصديق الجازم بما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

والتحريف: هو التغيير وإمالة الشيء عن وجهه. وهو قسمان:

١ - تحريف لفظي، وذلك بالزيادة في الكلمة أو النقص أو تغيير حركة في الكلمة؛ كتحريف كلمة استوى في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه: ٥] إلى استولى. قال صاحب النونية:

نون اليهود ولام جهمي هما... في وحي رب العرش زائدتان

٢ - تحريف معنوي، وذلك بتفسير اللفظ على غير مراد الله ورسوله منه؛ كمن فسر «اليد» لله تعالى بالقوة أو النعمة. فإن هذا تفسير باطل لا يدل عليه الشرع ولا اللغة.

والتعطيل: هو نفي صفات الله تعالى؛ كمن زعم أن الله تعالى لا يتصف بصفة.

والفرق بين التحريف والتعطيل هو أن التحريف نفي المعنى الصحيح الذي دلت عليه النصوص واستبداله بمعنى آخر غير صحيح. أما التعطيل فهو نفي المعنى الصحيح من غير استبدال له بمعنى آخر.

والتكييف: تعيين كيفية الصفة والهيئة التي تكون عليها؛ كفعل بعض المنحرفين في هذا الباب الذين يكيفون صفات الله فيقولون: كيفية يده كذا وكذا، وكيفية استوائه على هيئة كذا وكذا. فإن هذا باطل إذ لا يعلم كيفية صفات الله إلا هو وحده، وأما المخلوقون فإنهم يجهلون ذلك ويعجزون عن إدراكه.

والتمثيل: هو التشبيه؛ كمن يقول: لله سمع كسمعنا ووجه كوجوهنا، تعالى الله عن ذلك.

وينتظم المنهج الحق في باب الأسماء والصفات في ثلاثة أصول، مَن حققها سلم من الانحراف في هذا الباب، وهي:

الأصل الأول: تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين.

الأصل الثاني: الإيمان بما سمى ووصف الله به نفسه وبما سماه ووصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته.

الأصل الثالث: قطع الطمع عن إدراك حقيقة كيفية صفات الله تعالى لأن إدراك المخلوق لذلك مستحيل.

فمَن حقق هذه الأصول الثلاثة فقد حقق الإيمان الواجب في باب الأسماء والصفات على ما قرره الأئمة المحققون في هذا الباب.

ثالثًا: أدلة هذا المنهج:

دلت الأدلة من كتاب الله تعالى على تقرير هذا المنهج.

فمن الأدلة على الأصل الأول - وهو تنزيه الرب ﷻ عن مشابهة المخلوقين -:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. ومقتضى الآية نفي المماثلة بين الخالق والمخلوق من كل وجه مع إثبات السمع والبصر لله ﷻ. وفي هذا إشارة إلى أن ما يثبت لله من السمع والبصر ليس كما يثبت للمخلوقين من هاتين الصفتين مع كثرة من يتصف بهما من المخلوقين. وما يقال في السمع والبصر يقال في غيرهما من الصفات.

واقرأ قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ

﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١] أورد ابن كثير في تفسير الآية ما ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات! لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع، فأنزل الله ﷻ ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة: ١] إلى آخر الآية»(١)(٢).

ومن الأدلة أيضًا قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ [النحل: ٧٤]. قال الطبري في تفسير الآية: «فلا تمثلوا لله الأمثال ولا تشبهوا له الأشباه فإنه لا مثل له ولا شبه»(٣).

وقال تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥] قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: «هل تعلم للرب مثلًا أو شبيهًا؟».

ومن الأدلة لهذا الأصل: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤] قال الطبري: «ولم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء».

ومن الأدلة على الأصل الثاني - وهو الإيمان بما جاء في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته -:

قول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ

---

(١) رواه البخاري في التوحيد (١٣ / ٣٧٢)، والإمام أحمد في المسند (٦ / ٤٦).

(٢) ابن كثير (٨ / ٦٠).

(٣) الطبري (٧ / ٦٢١).

وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢- ٢٤].

ومن السنة حديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم في صحيحه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول: «**اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها. اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنا الدَّيْن وأغْنِنا من الفقر**»[1].

والنصوص في تقرير هذا الباب كثيرة تجل عن الحصر.

وأما الأصل الثالث – وهو قطع الطمع عن إدراك كيفية صفات الله تبارك وتعالى –: فقد دل عليه قول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠]. قال بعض أهل العلم في معنى الآية: «لا إحاطة للعلم البشري برب السماوات والأرض، فينفي جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها».

ومن الأدلة لهذا الأصل أيضًا قول الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قال بعض العلماء في معرض حديثه عن الآية:

---

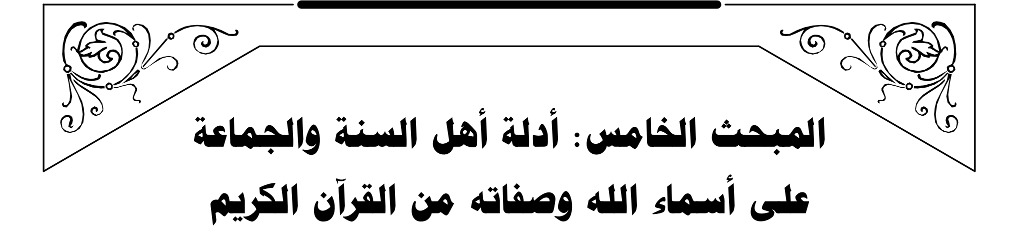
(١) صحيح مسلم برقم (٢٧١٣).

«وهذا يدل على كمال عظمته وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به فإن الإدراك وهو الإحاطة بالشيء قدر زائد على الرؤية، فالرب يُرى في الآخرة ولا يدرَك كما يعلم ولا يحاط بعلمه».

وينبغي للعاقل أن يعلم أن للعقل حدًّا يصل إليه ولا يتعداه، كما أن للسمع والبصر حدًّا ينتهيان إليه، فمَن تكلف ما لا يمكن أن يدرك بالعقل كالتفكر في كيفية صفات الله، فهو كالذي يتكلف أن يبصر ما وراء الجدار أو يسمع الأصوات في الأماكن البعيدة جدًّا عنه[1].



(١) «أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة» (ص: ٧٧).



المبحث الخامس: أدلة أهل السنة والجماعة على أسماء الله وصفاته من القرآن الكريم

أهل السنة والجماعة يؤمنون بما وصف الله به نفسه في كتابه،

وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ:

[سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن]:

مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي «سُورَةِ الْإِخْلَاصِ» الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.

حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

[آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله]:

وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ.

حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ - أَيْ: لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ - ﴿حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي لَيْلَةٍ؛ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ(١).

---

(١) الحديث أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب من لم ير بأسًا أن يقول سورة البقرة وسورة كذا كذا، و(٩/ ٩٤ رقم ٥٠٥١) كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ: حسبك، باب فضل البقرة عن أبي هريرة، ولفظه: وكَّلني =

[صفة الحياة]:

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

[صفة العلم]:

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣].

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَه: ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٣].

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢].

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١].

وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

[صفة القوة]:

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨].

= رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجَعلَ يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ... فقص الحديث، فقال - أي الشيطان -: إذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي لن يزال معك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وقال النبي ﷺ: «**صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان**» (٦/ ٢٣٢).
كما أخرجه في ك/ الوكالة، ب/ إذا وكل رجلًا فترك الوكيل شيئًا (٣/ ١٣٣)، ك/ بدء الخلق ب صفة إبليس (٤/ ١٤٩). ومسلم (١/ ٥٥٥ رقم (٨٠٧، ٨٠٨) في صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة.

[صفة السمع وصفة البصر]:

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

[صفة الإرادة]:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف: ٣٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

[صفة المحبة]:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ﴾ [آل عمران: ٣١].

[صفة الرضى]:

وَقَوْلُهُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البينة: ٨].

[صفة الرحمة]:

وَقَوْلُهُ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [النمل: ٣٠].

﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧].

﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

[صفات: الغضب والسخط والكراهية والبغض]:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ [محمد: ٢٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٣].

[صفتي: المجيء والإتيان]:

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ [البقرة: ٢١٠].

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي

بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٢].

﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥﴾ [الفرقان: ٢٥].

[صفة الوجه لله سبحانه]:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧﴾ [الرحمن: ٢٧].

﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨].

[إثبات اليدين لله تعالى]:

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥].

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

[إثبات العينين لله تعالى]:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤﴾ [القمر: ١٣ - ١٤].

﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

[إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى]:

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة: ١].

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١﴾ [آل عمران: ١٨١].

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠].

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤].

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢١٩].

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

[صفات المكر والكيد والمِحال لله تعالى على ما يليق بجلاله]:

وَقَوْلُهُ: ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٥٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥ - ١٦].

[صفات العفو والمغفرة والرحمة والعزة والقدرة]:

وَقَوْلُهُ: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩].

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

[إثبات الاسم لله]:

وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٧٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

[آيات الصفات المنفية في تنزيه الله ونفي المثل عنه]:

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤].

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن: ١].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١ - ٢].

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١ - ٩٢].

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤].

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

[استواء الله على عرشه]:

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ: [الأعراف: ٥٤] [يونس: ٣] [الرعد: ٢] [الفرقان: ٥٩] [السجدة: ٤] [الحديد: ٤].

[إثبات علو الله على مخلوقاته]:

﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: ١٥٨].

﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧].

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾ [الملك: ١٦ - ١٧].

[إثبات معية الله لخلقه]:

وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٤﴾ [الحديد: ٤].

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠].

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨].

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

[إثبات الكلام لله تعالى]:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢].

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء: ١٠].

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥].

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧].

﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦].

[إثبات أن القرآن مُنَزَّل من الله تعالى]:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠١ - ١٠٣].

[إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة]:

وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين: ٢٤].

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥].

وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرٌ.

وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ(١).

❊ ❊ ❊

---

(١) «العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة» بتصرف (ص: ٦١).

المبحث السادس: أدلة أهل السنة والجماعة على أسماء الله وصفاته من سنة النبي المصطفى ﷺ

أهل السنة والجماعة يؤمنون بما وصف به الرسول ﷺ ربه.

وسُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ، وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ.

وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

[**أحاديث الصفات**]:

[**١- في إثبات نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا**]:

مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

[**٢- في إثبات الفرح لله ﷻ**]:

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ...**» الْحَدِيثَ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

---

(١) رواه البخاري في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ (١٣/ ٤٦٤-فتح)، وفي التهجُّد، (باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل) (٣/ ٢٩-فتح)، وفي الدعوات، (باب: الدعاء نصف الليل)، ومسلم في صلاة المسافرين، (باب: الترغيب في الدعاء) (٦/ ٢٨٢-نووي)، كما رواه مالك في «الموطأ»، والترمذي، وأبو داود.

(٢) رواه البخاري في الدعوات، (باب: التوبة) (١١/ ١٠٢-فتح)، ومسلم في =

[٣- في إثبات الضحك]:

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ؛ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

[٤- في إثبات العَجَب وصفات أخرى]:

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ؛ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ**». حَدِيثٌ حَسَنٌ(٢).

= التوبة، (باب: الحضِّ على التوبة) (١٧/ ٦٥-نووي)، والترمذي في صفة القيامة، (باب: المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه)؛ بألفاظ مختلفة.

(١) رواه البخاري في الجهاد، (باب: الكافر يقتل المسلم ثم يسلم) (٦/ ٣٩-فتح)، ومسلم في الإمارة، (باب: بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة) (١٣/ ٣٩-نووي)، ومالك في «الموطأ»، والنسائي في «سننه»، وتتمة الحديث: «يقاتل هذا في سبيل الله، ثم يستشهد، فيتوب الله على القاتل، فيسلم، فيقاتل في سبيل الله، فيستشهد».

(٢) **ضعيف**: لم أجده بهذا اللفظ، ولكن بلفظ: «يضحك»، أو: «ضحك ربنا»، وبلفظ: «غِيَرِه»؛ بدل: «خيره».

والحديث رواه ابن ماجه في المقدمة، (باب: فيما أنكرت الجهمية)، وأحمد في «المسند» (٤/ ١١)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٢٠٨)، والآجري في «الشريعة» (ص٢٧٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٤٢٦)؛ كلهم من طريق وكيع بن حُدُس. وقيل: عُدُس. عن عمه أبي رزين.

ووكيعٌ؛ قال عنه الذهبي: «لا يُعرف». وقال الحافظ: «مقبول».

والحديث قال عنه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٥٨٥): «ضعيف جدًّا».

وانظر: «السنة» لابن أبي عاصم (١/ ٢٤٤).

[٥- في إثبات الرِّجل أو القدم]:

وَقَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا - وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا - قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ؛ وَتَقُولُ: قَط قَط». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

[٦- في إثبات الكلام والصوت]:

وَقَوْلُهُ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ..». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

وَقَوْلُهُ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ وَلَا تُرْجُمَانٌ»(٣).

---

(١) رواه البخاري في تفسير سورة ق، (باب قول الله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (٨/ ٥٩٤-فتح)، وفي الأيمان والنذور، والتوحيد، ومسلم في الجنة، (باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء) (١٧/ ١٨٩-نووي)، ورواه الترمذي في تفسير سورة ق.

(٢) تتمة الحديث: «... قال: يا رب! وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون. فحينئذٍ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾» [الحج: ٢].
فشق ذلك على الناس حتى تغيَّرت وجوههم، قالوا: يا رسول الله! أينا ذلك الرجل؟ فقال رسول الله ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسع مئة وتسعة وتسعون، ومنكم واحد».
وللحديث روايات أخرى.
رواه البخاري في «الأنبياء»، (باب: قصة يأجوج ومأجوج» (٦/ ٣٨٢-فتح)، وفي الرقاق والتوحيد، ومسلم في الإيمان، (باب: قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار») (٣/ ٩٧-نووي).

(٣) رواه بألفاظ مختلفة: البخاري في التوحيد، (باب: كلام الربّ عزّ وجلّ)، =

[٧- في إثبات العلو لله وصفات أخرى]:

وَقَوْلُهُ ﷺ فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ: «رَبُّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ! تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُك فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؛ كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ؛ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوْبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ»(١).

[٨- في إثبات العلو أيضًا]:

وَقَوْلُهُ ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ؟!»(٢).

= و(باب: في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾) (١٣/ ٤٢٣-فتح)، وفي الزكاة، والأنبياء، والأدب، والرقاق، ومسلم في الزكاة، (باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة) (٧/ ١٠٦-نووي)، والترمذي في صفة القيامة.

(١) **ضعيف، أو ضعيف جدًّا**: رواه أبو داود في الطب، (باب: كيف الرقى) (١٠/ ٣٨٥-عون) من حديث أبي الدرداء.

وفيه زيادة بن محمد الأنصاري..

قال عنه البخاري والنسائي: «منكر الحديث». انظر: «الميزان» (٢/ ٩٨).

وقال الذهبي فيه: «وقد انفرد بحديث الرقية: ربنا الله الذي في السماء».

وقد رواه الحاكم من هذا الوجه.

انظر: «ضعيف الجامع» (٥٤٢٢). وفيه قال الألباني: «ضعيف جدًّا»، و«مشكاة المصابيح» (١٥٥٥)، و«جامع الأصول» (٥٧١٧).

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٢١) من حديث فَضَالة بن عبيد الأنصاري. وفي سنده أبو بكر بن أبي مريم الغساني، وهو ضعيف. انظر: «زاد المعاد» (٤/ ١٧٥).

وهو في «الكامل» لابن عدي (٣/ ١٠٥٤) من طريق فضالة عن أبي الدرداء به.

والحديث أورده ابن القيسراني في «معرفة التذكرة في الأحاديث الموضوعة» (ص٢٠٢).

(٢) رواه البخاري في المغازي، (باب: بعث علي وخالد إلى اليمن) (٨/ ٦٧-فتح) =

[٩- في إثبات العلو أيضًا]:

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ**»[١].

[١٠- في إثبات العلو أيضًا]:

وَقَوْلُهُ عليه السلام لِلْجَارِيَةِ: «**أَيْنَ اللَّهُ؟**». قالتْ: فِي السَّمَاءِ. قال: «**مَنْ أَنَا؟**». قالتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قال: «**أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[٢].

[١١- في إثبات المعية]:

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**أَفْضَلُ الْإِيمَانِ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ**». حَدِيثٌ حَسَنٌ[٣].

= ومسلم في الزكاة، (باب: ذكر الخوارج وصفاتهم) (٧/ ١٦٨-نووي).

(١) **صحيح موقوفًا:** لم أجده مرفوعًا بهذا اللفظ؛ بل موقوفًا على ابن مسعود، وله حكم الرفع، بلفظ: «العرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم».

قال الذهبي في «العلو»: «إسناده صحيح». ووافقه الألباني.

انظر: «مختصر العلو» (ص١٠٣)، و«التوحيد» لابن خزيمة (١/ ٢٤٣)، و«الرد على الجهمية» للدارمي، تحقيق: بدر البدر، (ص٤٦).

والذي في «سنن أبي داود» (١٣/ ١٤-عون) بلفظ: «إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته».

صححه الجوزجاني في «الأباطيل» (١/ ٧٩)، وقواه ابن تيمية في مناظرة الواسطية ضمن «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٩٢)، وابن القيم في «تهذيب السنن» (٧/ ٩٢)، وشيخ الإسلام ذكر الحديث بالمعنى.

(٢) رواه مسلم في المساجد، (باب: تحريم الكلام في الصلاة) (٥/ ٢٥-نووي)، ورواه مالك، وأبو داود، والنسائي.

(٣) **ضعيف:** قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٦٠): «رواه الطبراني في «الأوسط» =

[١٢- في إثبات كون الله قِبل وجه المصلي]:

وَقَوْلُهُ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ؛ فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

[١٣- في إثبات العلو وصفات أخرى]:

وَقَوْلُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا. اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ»(٢).

= و«الكبير»، وقال: تفرد به عثمان بن كثير. قلت: ولم أرَ مَن ذكره بثقة ولا جرح». اهـ.

وهو في «الأسماء والصفات» للبيهقي (ص٥٤١) من رواية عثمان بن كثير أيضًا، ولكنه في «مسند الشاميين» للطبراني (١/ ٣٠٥) من رواية عثمان بن سعيد بن كثير؛ قال عنه في «التقريب»: «ثقة عابد».

وفي سنده أيضًا نعيم بن حماد الراوي عنه. انظر: «الحلية» (٦/ ١٢٤) رواه أبو نعيم وقال: غريب من حديث عروة، لم نكتبه إلا من حديث محمد بن مهاجر. من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال عنه الذهبي في «الميزان»: «من الأئمة الأعلام، على لين في حديثه»، وقال الحافظ في «التقريب»: «صدوق يخطئ كثيرًا». وقال: ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٩): غريب

والحديث ضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٠٠٢).

(١) رواه جمع من الصحابة بألفاظ مختلفة في الصحيحين وغيرهما، ولم أجده بهذا اللفظ، وأقرب لفظ له حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صحيح مسلم (٣٠٠٨)، وأما الشاهد منه فرواه البخاري (٤٠٦)، ومسلم (٥٤٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والبخاري (٤٠٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، (باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع) =

[١٤- في إثبات قرب الله تعالى]:

وَقَوْلُهُ ﷺ لَمَّا رَفَعَ أَصْحَابُهُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا؛ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

[١٥- إثبات رؤية المؤمنين لربهم]:

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

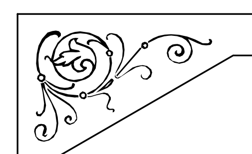
إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ عَنْ رَبِّهِ؛ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ. فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ(٣).

= (١٧-٣٩-نووي)، ورواه أيضًا أبو داود والترمذي بألفاظ متقاربة.

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٩٩٢) كتاب الجهاد والسير، باب: ما يُكره من رفع الصوت في التكبير. ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر رقم (٢٧٠٤)، عن أبي موسى الأشعري قال: (كنا مع النبي ﷺ في سفر فجعل الناس يجهرون التكبير فقال النبي ﷺ: «**أيها الناس، اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم**» اهـ.

(٢) رواه البخاري في مواقيت الصلاة، (باب: فضل صلاة العصر) (٢/ ٣٣-فتح)، وفي تفسير سورة ق، وفي التوحيد. ومسلم في المساجد، (باب: فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما) (٥/ ١٣٨-نووي)، ورواه أبو داود والترمذي.

(٣) «العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة» (ص: ٧٥).





المبحث السابع:
قواعد دلالات الأسماء والصفات ومعانيها

وبه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: معنى الاسم والصفة والفرق بينهما

الاسم: «هو ما دل على معنى في نفسه»[١]، و «أسماء الأشياء هي الألفاظ الدالة عليها»[٢].

«وقيل: الاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل»[٣].

الصفة: «هي الاسم الدال على بعض أحوال الذات... وهي الأمارة اللازمة بذات الموصوف التي يُعرف بها»[٤]، «وهي ما وقع الوصف مشتقًّا منها، وهو دال عليها، وذلك مثل العلم والقدرة ونحوه»[٥].

---

(١) «التعريفات» للجرجاني (ص٢٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/ ١٩٥).

(٣) «الكليات» لأبي البقاء الكفوي (ص٨٣).

(٤) «التعريفات» (ص١٣٣).

(٥) «الكليات» (ص٥٤٦)، ويعنى بالوصف هنا الاسم؛ فالعلم صفة، والعالم وصف دال عليها.

والقدرة صفة، والقادر وصف دال عليها.

وقال ابن فارس: «الصفة: الأمارة اللازمة للشيء»[١]، وقال: «النعت: وصفك الشيء بما فيه من حسن»[٢].

الفرق بين الاسم والصفة:

سُئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية عن الفرق بين الاسم والصفة؟ فأجابت بما يلي:

«أسماء الله كل ما دل على ذات الله مع صفات الكمال القائمة به؛ مثل: القادر، العليم، الحكيم، السميع، البصير؛ فإن هذه الأسماء دلَّت على ذات الله، وعلى ما قام بها من العلم والحكمة والسمع والبصر. أما الصفات؛ فهي نعوت الكمال القائمة بالذات؛ كالعلم والحكمة والسمع والبصر. فالاسم دل على أمرين، والصفة دلت على أمر واحد. ويقال: الاسم متضمن للصفة، والصفة مستلزمة للاسم...»[٣].

ولمعرفة ما يُميِّز الاسم عن الصفة، والصفة عن الاسم أمور، منها:

أولًا: «أن الأسماء يُشتق منها صفات، أما الصفات فلا يُشتق منها أسماء، فنشتق من أسماء الله الرحيم والقادر والعظيم - صفات الرحمة والقدرة والعظمة، لكن لا نشتق من صفات الإرادة والمجيء والمكر اسم المريد والجائي والماكر»[٤].

فأسماؤه ﷻ أوصاف؛ كما قال ابن القيم في «النونية»:

أسماؤُهُ أوْصافُ مَدْحٍ كُلُّها ... مُشْتَقَّةٌ قَدْ حُمِّلَتْ لِمَعانِ

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٤٤٨).

(٢) المصدر السابق (٦/ ١١٥).

(٣) «فتاوى اللجنة الدائمة» (٣/ ١١٦-فتوى رقم (٨٩٤٢).

(٤) انظر: القاعدة الثامنة.

ثانيًا: «أن الاسم لا يُشتق من أفعال الله؛ فلا نشتق من كونه يحب ويكره ويغضب اسم المحب والكاره والغاضب. أما صفاته؛ فتشتق من أفعاله فنثبت له صفة المحبة والكره والغضب ونحوها من تلك الأفعال؛ لذلك قيل: باب الصفات أوسع من باب الأسماء»(١).

ثالثًا: أن أسماء الله ﷻ وصفاته تشترك في الاستعاذة بها والحلف بها(٢)، لكن تختلف في التعبد والدعاء، فيتعبد الله بأسمائه، فنقول: عبد الكريم، وعبد الرحمن، وعبد العزيز، لكن لا يُتعبد بصفاته؛ فلا نقول: عبد الكرم، وعبد الرحمة، وعبد العزة. كما أنه يُدعى اللهُ بأسمائه، فنقول: يا رحيم! ارحمنا، ويا كريم أكرمنا، ويا لطيف الطف بنا، لكن لا ندعو صفاته فنقول: يا رحمة الله ارحمينا، أو: يا كرم الله أو: يا لطف الله. ذلك أن الصفة ليست هي الموصوف؛ فالرحمة ليست هي الله، بل هي صفةٌ لله، وكذلك العزة وغيرها؛ فهذه صفات لله، وليست هي الله، ولا يجوز التعبد إلا لله، ولا يجوز دعاء إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠] وغيرها من الآيات(٣)(٤).

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤١٥).

(٢) انظر: القاعدة الثانية عشرة.

(٣) انظر: «فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (١/ ٢٦-ترتيب أشرف عبد المقصود)، وقد نسب هذا القول لشيخ الإسلام ابن تيمية، لكن ينبغي هنا أن نفرق بين دعاء الصفة كما سبق وبين دعاء الله بصفة من صفاته؛ كأن تقول: اللهم ارحمنا برحمتك، فهذا لا بأس به. والله أعلم.

(٤) «صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسنة» (ص: ١٩).

الفصل الثاني: اشتقاق أسماء الله وصفاته ودلالتها على الوصفية

كل اسم من أسمائه يدل على الذات المسماة وعلى الصفة التي تضمنها الاسم؛ كالعليم يدل على الذات والعلم، والقدير يدل على الذات والقدرة، والرحيم يدل على الذات والرحمة. ومن أنكر دلالة أسمائه على صفاته ممن يدعي الظاهر فقوله من جنس قول غلاة الباطنية القرامطة الذين يقولون لا يقال: هو حي ولا ليس بحي. بل ينفون عنه النقيضين فإن أولئك القرامطة الباطنية لا ينكرون اسما هو علم محض كالمضمرات، وإنما ينكرون ما في أسمائه الحسنى من صفات الإثبات، فمن وافقهم على مقصودهم كان مع دعواه الغلو في الظاهر موافقًا لغلاة الباطنية في ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك. وإنما المقصود أن كل اسم من أسمائه يدل على ذاته وعلى ما في الاسم من صفاته، ويدل أيضًا على الصفة التي في الاسم الآخر بطريق اللزوم. وكذلك أسماء النبي مثل محمد وأحمد والماحي والحاشر والعاقب. وكذلك أسماء القرآن مثل القرآن والفرقان والهدى والشفاء والبيان والكتاب. وأمثال ذلك[١].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: هل أسماء الله مشتقة أو جامدة -يعني: هل المراد بها الدلالة على الذات فقط، أو على الذات والصفة-؟

الجواب: على الذات والصفة، أما أسماؤنا نحن فيراد بها الدلالة على الذات فقط، فقد يسمى محمدًا وهو من أشد الناس ذمًّا، وقد يسمى عبد الله وهو من أفجر عباد الله. أما أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ، وأسماء الرسول ﷺ، وأسماء القرآن وأسماء اليوم الآخر وما أشبه ذلك فإنها أسماء متضمنة للأوصاف[٢].

---

(١) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية- (١٣/ ٣٣٣).

(٢) «القول المفيد على كتاب التوحيد» لمحمد بن صالح بن عثيمين- (٣/ ١٥).

الفصل الثالث: التفاضل بين الأسماء والصفات[(١)]

وبه ثماني مسائل:

المسألة الأولى: تمهيد:

قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ٨] وقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤].

فأسماء الله ﷻ كلها حسنى، متناهية في الكمال، ليس فيها اسم غير ذلك أصلًا، وذلك لوجوه من الفضل والحسن لا تحصر، ما نجهله منها أكثر وأعظم مما نعلمه، فمن ذلك:

* أن الاسم يشرف بشرف المسمى، فأسماء الله بهذا أشرف الأسماء.

* «أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم، فالرب تبارك وتعالى فعاله عن كماله؛ والمخلوق كماله عن أفعاله، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل، فالرب لم يزل كاملًا، فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به»[(٢)].

---

(١) هذا الفصل بأكمله مقتبس من كتاب «مباحث المفاضلة في العقيدة» للشظيفي من (٦٣ -٨٩) بتصرف يسير.

(٢) انظر في «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٢) لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

* «أن أسماءه الحسنى هي أعلام وأوصاف، والوصف لا ينافي العلمية، بخلاف أوصاف العبادة فإنها تنافي علميتهم؛ لأن أوصافهم مشتركة، فنافتها العلمية المختصة، بخلاف أوصافه تعالى»(١).

* أن أسماءه دالة على صفاته سبحانه، وصفاته صفات كمال وعلو، كما تقدم بيانه في الفصل الأول.

* ومن أظهر وجوه فضل الأسماء الحسنى أنه يُتعبد بها.

وأسماؤه سبحانه غير محصورة، وهي كثيرة لا يعلم كثرتها إلا صاحبها ﷻ.

ففي الحديث - من الدعاء -: «**وأسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك أو أستأثرت به في علم الغيب عندك**»(٢).

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٢).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٩١، (٤٥٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٥٣)، وأبو يعلى في «المسند» (٥/ ٣٥)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢١٩)، وصححه ابن حبان- الإحسان (٢/ ١٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٩)، وضعفه الدارقطني في «العلل» (٥/ ٢٠١)، وانظر: في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» حديث (١٩٨).

وأصح ما في الباب ما أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧٤١٠)، ومسلم في «صحيحه» (١٩٣)، وهذا لفظه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه «... فَيُؤْتَى عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ. فَأُوتَى، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا. فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآنَ، يُلْهِمُنِيهِ اللهُ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ...» الحديث.

وفي «الموطأ» عن كعب الأحبار[(١)] في دعائه: . . . وبأسماء الله الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم»[(٢)]. وعند ابن ماجه نحوه من دعاء عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بحضرة النبي ﷺ، إلا أنه ضعيف[(٣)]، وفي حديث الشفاعة: «... **ثم**

---

(١) كَعْبُ الْأَحْبَارِ بْنُ مَاتِعٍ، وَيُكْنَى أَبَا إِسْحَاقَ، وَهُوَ مِنْ حِمْيَرَ، مِنْ آلِ ذِي رُعَيْنٍ، أَدْرَكَ عَهْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يَرَهُ، وَكَانَ عَلَى دِينِ يَهُودَ وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ فَأَسْلَمَ، وكَانَ إِسْلَامُهُ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خَرَجَ إِلَى الشَّامِ، فَسَكَنَ حِمْصَ حَتَّى تُوُفِّيَ بِهَا سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ، فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ. «الطبقات الكبرى» ط دار صادر (٧/ ٤٤٥)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٥/ ٢٣٨٦).

(٢) انظر: في «الموطأ» (٢/ ٩٥٢) رقم الحديث (٢٠٠٢) رواية أبي مصعب الزهري: باب ما يؤمر به من التعوذ.

(٣) أخرجه ابن ماجه في «السنن» (٣٨٥٩) (٢/ ١٢٦٩) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ الْجُهَنِيِّ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الطَّاهِرِ الطَّيِّبِ الْمُبَارَكِ الْأَحَبِّ إِلَيْكَ، الَّذِي إِذَا دُعِيتَ بِهِ أَجَبْتَ، وَإِذَا سُئِلْتَ بِهِ أَعْطَيْتَ، وَإِذَا اسْتُرْحِمْتَ بِهِ رَحِمْتَ، وَإِذَا اسْتُفْرِجَتَ بِهِ فَرَّجْتَ**».

قَالَتْ: وَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: «**يَا عَائِشَةُ، هَلْ عَلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ دَلَّنِي عَلَى الِاسْمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ؟**» قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي فَعَلِّمْنِيهِ. قَالَ: «**إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَكِ يَا عَائِشَةُ**»، قَالَتْ: فَتَنَحَّيْتُ وَجَلَسْتُ سَاعَةً، ثُمَّ قُمْتُ فَقَبَّلْتُ رَأْسَهُ، ثُمَّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِيهِ. قَالَ: «**إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَكِ يَا عَائِشَةُ أَنْ أُعَلِّمَكِ، إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَكِ أَنْ تَسْأَلِي بِهِ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا**»، قَالَتْ: فَقُمْتُ فَتَوَضَّأْتُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْعُوكَ اللَّهَ، وَأَدْعُوكَ الرَّحْمَنَ، وَأَدْعُوكَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ، وَأَدْعُوكَ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى كُلِّهَا، مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي!! قَالَتْ: فَاسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّهُ لَفِي الْأَسْمَاءِ الَّتِي دَعَوْتِ بِهَا**».

قال ابن حجر: (سنده ضعيف) الفتح (١١/ ٢٢٤)، وانظر في «مصباح الزجاجة» (٢/ ٢٧٢).

يَفتح عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي...»(١)، ومن دعائه في السجود ﷺ قوله: «...لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(٢).

والمحامد والثناء هي في أسمائه وصفاته ﷻ.

فهذه نصوص دالة على أن أسماءه سبحانه غير محصورة فلا يَلتفت إلى من زعم حصرها كما زعمه ابن حزم(٣).

وحكى النووي عن ابن العربي(٤) أنه ذكر عن بعضهم أن لله ألف اسم، وذكر ابن حجر نقل الرازي عن بعضهم أن لله أربعة آلاف اسم استأثر بعلم

---

(١) انظر: في «الموطأ» (٢/ ٩٥٢) رقم الحديث (٢٠٠٢) رواية أبي مصعب الزهري: باب ما يؤمر به من التعوذ.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) (١/ ٣٥٢) باب: ما يقال في الركوع والسجود، بسنده عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: **«اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»**.

(٣) انظر في كتابه «المحلى بالآثار» (١/ ٣٠).

(٤) مُحَمَّدِ بْن عَبْد اللَّه بْن مُحَمَّدِ بْن عَبْدِ الله بْن أحمد الإمام، أبو بكر ابن العربيّ، المَعَافِرِيّ، الأندلسيّ، الإشبيليّ، الحافظ أحد الأعلام. وُلد في شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة. ومن تصانيفه: كتاب «عارضة الأحوَذي في شرح التّرْمِذيّ»، وكتاب «التّفسير» في خمس مجلّدات كبار، وغير ذَلِكَ من الكُتُب في الحديث، والفقه، والأُصُول. وكان أَبُوهُ رئيسًا، عالمًا، من وزراء أمراء الأندلس، وكان فصيحًا، مفوَّهًا، شاعرًا، تُوُفّي بمصر في أوّل سنة ثلاثٍ وتسعين وخمسمائة. «تاريخ الإسلام» ت بشار (١١/ ٨٣٤) رقم (١٧٤).

ألف منها، وأعلم الملائكة بالبقية والأنبياء بألفين منها، وسائر الناس بألف[(١)].

كل هذا لا يَلتفت إليه، وإنما يجاب عن استدلال ابن حزم ومن وافقه على الحصر، وسيأتي بيان دليله والجواب عنه قريبًا إن شاء الله.

المسألة الثانية: أدلة تفاضل أسماء الله:

والحاصل أن أسماء الله كثيرة لا تُحصر ولا تُحد بعدد، وهي متفاضلة غير متساوية في الفضل بعضها أفضل من بعض، وإن كانت أسماء لمسمى واحد.

والأدلة على تفاضل أسماء الله متعددة، فإن النصوص تدل على أن بعض أسمائه سبحانه أفضل من بعض، ففي الآثار ذكر اسمه الأعظم سبحانه وقد وردت روايات متعددة في ذكر اسم الله الأعظم، ففي روايات يقول ﷺ: «**لقد سأل الله باسمه الأعظم**»[(٢)] وفي أخرى: «**دعا الله باسمه الأعظم**»[(٣)]، وفي أخرى: «**لقد دعا الله باسمه العظيم**»[(٤)]، وفي أخرى: «**اسم الله الأعظم كذا**»[(٥)] وفي

(١) انظر: في كتابه «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١١/ ٢٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٦٠)، والترمذي في «السنن» مع تحفة الأحوذي (٩/ ٤٥٥)، وابن ماجه في «السنن» (٢/ ١٢٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي - مع التحفة - في «السنن» (٩/ ٥٢٩)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٤).

(٤) أخرجه أبو داود في «السنن» (٢/ ٨٠)، والنسائي في «السنن» (٣/ ٥٢).

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٤٦١)، والدارمي في «السنن» (٢/ ٤٥٠)، وأبو داود في «السنن» (٢/ ٨٠)، والترمذي في «السنن»- مع التحفة- ٩/ ٤٤٧)، وابن ماجه في «السنن» (٢/ ١٢٦٧).

رواية: «**باسمه الأعظم الأكبر**»[(١)]، وفي رواية: «**أسألك باسمك الأعلى الأعز الأجل الأكرم**»[(٢)]، على اختلاف في تعيين الاسم الأعظم ما هو ؟ وهي مسألة للناس فيها خلاف معروف في كتب العلم[(٣)].

ففي هذه الروايات دلالة ظاهرة على تفاضل الأسماء الحسنى؛ لدلالتها على أن في الأسماء الحسنى اسم أعظم يفضلها فهو أعظمها.

ومن الأدلة على تفاضل أسمائه ﷻ قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة**»[(٤)].

فخص النبي ﷺ في هذا الحديث الأسماء التسعة والتسعين بهذه الفضيلة، وهي أن من أحصاها دخل الجنة، فاختصت بهذه الفضيلة[(٥)].

---

(١) أخرجها الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٤).

(٢) أخرجها الطبراني انظر: في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٦) للهيثمي.

(٣) أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١/ ٦١-٦٤)، وانظر: في «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١١/ ٢٢٤) لابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ فقد ذكر أربعة عشر قولًا في تعيين الاسم الأعظم.

(٤) **متفق عليه:** انظر: «صحيح البخاري مع الفتح» (٥/ ٣٥٤)، وصحيح مسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) وقد ورد تعيين الأسماء التسعة والتسعين في روايات مرفوعًا إلى النبي ﷺ ولم يثبت، بل الصحيح عدم الرفع وأن بعض رواة الحديث سردها من اجتهاده بعد روايته الحديث، فكانت من المدرج في الحديث عن النبي ﷺ في بعض طرقه وليست من كلامه. انظر: «فتح الباري» (١١/ ٢١٥-٢١٩) لابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولقد اعتنى بعض العلماء بتتبعها من القرآن، ومنهم: سفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل وغيرهما. انظر: «الفتاوى» (٦/ ٣٨٠)، ووقع اختلاف في أعيانها، فذكر بعضهم من الأسماء ما لم يذكره البعض الآخر. =

. . . .

= **وقد ظهر لابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وجهان من الفهم في تفسير الحديث حمل عليهما اختلاف العلماء في تعيين الأسماء:**

* **أحدهما:** أن المراد إحصاء أي تسعة وتسعين اسمًا من أسماء الله، فالأسماء غير معينة؛ ولذا يصح وقوع الاختلاف في التعيين بين المحصين.

* **ثانيهما:** أن المراد إحصاء أسماء معينة من أسماء الله عدتها تسعة وتسعون اسمًا. ولكن الاسمين اللذين يتفق معناهما يقوم أحدهما مقام الآخر، فيقع الاختلاف لهذا الوجه.

قال ابن تيميَّة في العلماء الذين جمعوا الأسماء فاختلفوا في تعيينها: (واعتقدوا - هم وغيرهم - أن الأسماء الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة - ليست شيئًا معينًا بل مَن أحصى تسعة وتسعين اسمًا من أسماء الله دخل الجنة، أو أنها وإن كانت معينة فالاسمان اللذان يتفق معناهما يقوم أحدهما مقام صاحبه، كالأحد والواحد)، وذكر في بعض الروايات عن أهل العلم ورود «الأحد» و«المعطي» بدل «الواحد» و«الغني» وفي روايات أخرى. انظر: «الفتاوى» (٦/ ٣٨٠).

ولا أرى الحديث دالًّا على معنى غير أن أسماء الله على كثرتها إلا أن فيها تسعة وتسعين اسمًا معينة مخصوصة بأن من أحصاها دخل الجنة، متميزة عن غيرها من أسماء الله بذلك، وهذا هو وجه الحصر في الحديث في قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا**» ولو كان المراد إحصاء أي تسعة وتسعين اسمًا لما كان للحصر وجهٌ، ولكانت الفضيلة للعدد لا للأسماء؛ ولهذا لم نجد في جواب العلماء على من زعم أن الحديث دال على أن ليس لله من الأسماء إلا هذا العدد من دفع هذا الزعم بأن المراد إحصاء أي تسعة وتسعين اسمًا، بل اتفقوا في الجواب على أن في الحديث حصر ولكنه موصوف متعلق بصفته المقصود به تخصيص هذه الأسماء بتلك الفضيلة المذكورة - كما في كلام ابن القيم وغيره - بل ومثلوا له بما يوضح معناه على الوجه الذي ذكرته نحو: قول من يملك ألف درهم: أعددت مائة درهم للصدقة، فهو تخصيص للمائة دون غيرها للصدقة من غير أن يمنع ملكه غيرها.

أما اختلاف العلماء - الذين جمعوا الأسماء - في تعيينها، فلا يسوغ حمله على أنهم فهموا أن مراد الحديث إحصاء أي تسعة وتسعين اسمًا، ولم يُذكر أن أحدًا =

وأسماء الله غير محصورة في هذا العدد، فله سبحانه أسماء غيرها، إذ هذه هي دلالة الحديث التي نقل النووي الاتفاق عليها في قوله: واتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه ﷻ، فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث أنه هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها[1].

= من المتقدمين الذين جمعوا الأسماء فاختلفوا قال بأن هذا هو المراد، وجمع كل منهم ما اعتقد أنه هو المعنيُّ في الحديث، واختلفت اجتهاداتهم، لكن قد قال البغوي: «قيل: معنى قوله: (من أحصاها) معناه: أحصى من أسماء الله تسعة وتسعين دخل الجنة، سواء أحصى مما جاء في حديث الوليد بن مسلم أو من سائر ما دل عليه الكتاب أو السنة، ذكر هذا المعنى الشيخ أحمد البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ» انظر: «شرح السنة» للبغوي (٥/ ٣٥).

وما وقع في هذا الحديث من عدم تعيين الأسماء هو نظير ما وقع في حديث الشعب المتفق عليه فإن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بضع وستون شعبة**» ولم يعين النبي ﷺ تلك الشعب، فاجتهد العلماء في تعيينها فكان ما قاله ابن حجر في «الفتح» (١/ ٥٢): (ولم يتفق مَن عد الشعب على نمط واحد).

فعدم تعيين الأسماء التسعة والتسعين نظير عدم تعيين الشعب، بل ونظير تعيين الاسم الأعظم فقد قيل: إنه مخفي في الأسماء الحسنى لدلالة حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند البخاري لما دعت ببعض الأسماء بالأسماء الحسنى فقال لها ﷺ: «**إنه لفي الأسماء دعوت بها**» انظر: «فتح الباري» (١١/ ٢٢٥).

ولعلَّ الحكمة من عدم تعيين الأسماء التسعة والتسعين هي الحكمة من عدم تعيين ساعة الجمعة أو ليلة القدر أو الصلاة الوسطى.

وقد نقل ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتح» (١١/ ٢١٧) عن الرازي أنه قال بجواز أن يكون المراد من عدم تعيين الأسماء التسعة والتسعين أن يستمر المرء في المواظبة بإحصاء جميع أسماء الله رجاء أن يقع على تلك الأسماء المخصوصة، والله أعلم.

(١) انظر: «شرح النووي على مسلم» (١٧/ ٥)، وانظر: «المقصد الأسنى» (ص١٣١) =

وقد مثل العلماء لهذا بقول من يملك ألف مملوك: إن لي مائة مملوك أعددتهم للجهاد. فليس قوله هذا مانعًا من أن له غيرهم معدودون لغير الجهاد، فلا دلالة في الحديث لمن احتج به على حصر الأسماء الحسنى في هذا العدد وأنه ليس لله من الأسماء إلى هذا العدد فقط، كما فعله ابن حزم[(١)].

ومن الأدلة على تفاوت أسماء الله في الفضل: الحديث المتقدم الذي فيه أن أسماءه سبحانه أقسام، منها ما استأثر الله بعلمه، ومنها أنزله في كتابه، ومنها ما عَلَّمه أحدًا من خلقه. ففي هذه دلالة على تفاوتها وعلى اختصاص كل منها بخصيصة.

ثم إن كل دليل من كتاب وسنة دل على تفاضل صفات الله التي تدل عليها أسماؤه - هو دليل على تفاضل تلك الأسماء لتفاضل دلالتها؛ لأن الاسم يراد لمعناه لا لحروفه، وسيأتي بيان أدلة تفاضل الصفات إن شاء الله.

المسألة الثالثة: وجوه تفاضل أسماء الله:

الناظر في أسماء الله يجد أنها تتفاوت من وجوه عدة يظهر بها تفاضلها، فمن ذلك:

* **أن أسماءه تعالى منها ما يطلق عليه مفردًا ومقترنًا بغيره،** وهو غالب الأسماء، كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم، وهذا يسوغ أن يدعى بها مفردًا ومقترنًا بغيره، فتقول: يا عزيز، يا حليم، يا غفور، يا رحمان، يا رحيم، وأن يفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه الخبر عنه بما يسوغ لك

= و«الفتاوى» (٦/ ٣٨١)، و«بدائع الفوائد» (١/ ١٦٦) لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.

(١) انظر في كتابه «المحلى بالآثار» (١/ ٣٠)، و«الدرة» (ص: ٢٤٢).

الإفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده بل مقرونًا بمقابله كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع، الضار النافع، المنتقم العفو، المعز المذل؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله؛ لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاء ومنعًا ونفعًا وضرًا وعفوًا وانتقامًا. وأما أن تثني عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ، فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد؛ ولذلك لم تجئ مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة، فاعلمه، فلو قلت: يا مذل يا ضار يا مانع، وأخبرت بذلك لم تكن مثنيًا عليه ولا حامدًا له حتى تذكر مقابلها[(١)].

فهذا وجه من وجوه تفاوتها يظهر به تفاضلها، فليس الاسم الدال على الكمال مفرده مساويًا للذي لا يدل على الكمال إلا باقترانه بمقابله.

ومن ذلك:

* أن من أسمائه سبحانه ما يدل على صفة واحدة؛ كالسميع والبصير.
ومنها ما يدل على صفات عديدة لا تختص بصفة معينة؛ كالمجيد والعظيم، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، وهو موضوع لبلوغ النهاية في كل محمود، ولنيل الشرف بكرم الفعال، وللكثرة؛ ولذا قالوا: استمجد المرخ والعفار، أي استكثرا من النار حتى تناهيا في ذلك

---

(١) انظر: في كتاب «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٧)، وانظر: في «تفسير الرازي» (١٥/ ٦٧).

حتى إنه يُقبس منهما[١]، وكذا العظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال، وكذلك الصمد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الصمد: السيد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد»[٢].

فهذا وجهٌ من وجوه تفاوت أسماء الله، وهو على تفاضلها فليس الاسم المتضمن لصفات عديدة كالدال على صفة واحدة.

ومن ذلك:

* أن من الأسماء ما يتضمن سلب صفة نقص عن الله، وهي الصفة المقابلة للصفة التي يثبتها الاسم؛ كالبصير مثلًا، فيها سلب صفة نقص عن الله وهي العمى، سبحانه وتعالى وتنزه وتقدس. ومنها ما يرجع إلى التنزيه المحض من كل نقص وعيب جملةً وتفصيلًا فيكون متضمنًّا للكمال المحض كالقدوس والسلام. وهو وجه قريب من سابقه.

ومن ذلك:

* أن من أسمائه سبحانه ما يدل على صفة بعينها، ومنها ما يدل على تلك الصفة وزيادة؛ كالعليم يدل على العلم مطلقًا، والخبير يدل على علمه

---

(١) «تهذيب اللغة» للأزهري (١٠/ ٦٨٢)، و«الصحاح» للجوهري (٢/ ٥٣٦)، و«معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٢٩) لابن فارس.

(٢) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٧٨)، وغيره. انظر «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٤١٥).

بالأمور الباطنة، وكذلك الغني هو الذي استغنى بنفسه عن كل شيء فلا يحتاج إلى شيء، والملك أيضًا لا يحتاج إلى شيء ولكنه يحتاج إليه كل شيء، فيكون الملك مفيدًا معنى الغنى وزيادة[(١)].

ويدل على تفاوت الأسماء الحسنى في الفضل: وجود أسماء منها دالة على صفة واحدة، واشتقاقها واحد، مع الاختلاف في مبانيها، مثل: القدير المقتدر القادر، والغفور الغفار الغافر، والرحمن الرحيم، ونحو ذلك. فإن كلًّا منها معدود اسمًا مستقلًّا، وهي متغايرة متفاضلة، دل على تفاضلها صيغ مبانيها، فإن «فعَّال وفَعيل وفَعْلان» صيغ مبالغة و«فعَّال» أبلغ من «فاعل»، ثم «فَعْلان» أبلغ من «فعيل»، ولذا ذكر ابن جرير أنه لا تمانع بين أهل العلم بلغات العرب أن الرحمن أبلغ من الرحيم[(٢)] وهو مذهب أكثر العلماء[(٣)].

قال الزمخشري[(٤)]: «في الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم؛ ولذلك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا. ويقولون: إن الزيادة في البناء لزيادة المعنى»[(٥)].

---

(١) انظر: كتاب «المقصد الأسنى» (ص٢٢).

(٢) في كتاب «تفسير الطبري» (١/ ٤٢).

(٣) انظر في «البرهان في علوم القرآن» (٢/ ٥٠٤)، و«معترك الأقران» (١/ ٤١٢).

(٤) الزمخشري هو: محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم، لُقب بجار الله لملازمته في مكة زمنًا، معتزلي المذهب مجاهر بمذهبه، ومعدود في أئمة اللغة، تُوفي سنة (٥٣٨هـ).

انظر: «وفيات الأعيان» (٥/ ١٦٨) لابن خلكان، و«لسان الميزان» (٦/ ٤) للذهبي، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٤/ ١١٨).

(٥) راجع كتاب: «الكشاف» (١/ ٦)، والزمخشري من المعتزلة القائلين بأن أسماء =

وقال الغزالي[1]: «الغافر يدل على أصل المغفرة فقط، والغفور يدل على كثرة المغفرة بالإضافة إلى كثرة الذنوب حتى إن من لا يغفر إلا نوعًا واحدًا من الذنوب لا يقال له: الغفور، والغفار يشير إلى كثرة غفران الذنوب على سبيل التكرار، أي: يغفر الذنوب مرة بعد أخرى، حتى إن من يغفر الذنوب جميعًا ولكن أول مرة ولا يغفر للعائد إلى الذنب مرة بعد أخرى لم يستحق اسم الغفار»[2].

فهذه بعض أدلة ووجوه تفاضل أسماء الله فيما بينها، فبعضها أفضل من بعض، وهي كلها فاضلة في غاية التمام والكمال ليس فيها نقص؛ ولذا فإن قولنا بأنها متفاضلة غير قادح في كونها فاضلة كلها متوافرة في الكمال؛ لأن التفاضل بينها بدلالة النصوص كما رأيت، ولأن التفاضل بين الأشياء الفاضلة الكاملة يستلزم نقص المفضول كما سيأتي بيانه في المبحث الثالث إن شاء الله عند نقض قول من نفى تفاضل الأسماء.

المسألة الرابعة: دلالة تفاضل أسماء الله تعالى:

تفاضل أسماء الله تعالى يدل على أنها متباينة المعاني، وأن ترادفها إنما هو من جهة المسمى، أي: من حيث كونها جميعًا أسماء لذات واحدة هو الله ﷻ،

= الله أعلام لا معاني لها. وفي هذا النقل إلزام من كلامه ببطلان مذهبه.

(١) هو: محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، صوفي فيلسوف، وهو معروف بلقب: «حجة الإسلام»، وله نحو مائتي مصنف في التصوف والفلسفة والاعتقاد، وأشهر كتبه «إحياء علوم الدين» خلط فيه خلطًا بين الصالح والفاسد، وكان بخس البضاعة في الحديث، وله كتاب «المستصفى» في أصول الفقه وهو كتاب مطبوع نافع.

انظر: «طبقات الشافعية» (٤/ ١٠١) للسبكي و«وفيات الأعيان» (٤/ ٢١٦).

(٢) انظر: كتاب «المقصد الأسنى» (ص٢٢).

أما من حيث معانيها فهي متباينة.

ووجه دلالة تفاضلها على ذلك: أن التفاضل لا يكون إلا بين شيئين فصاعدًا، إذ الواحد من كل وجه المترادف من كل وجه لا يُعقل فيه شيء أفضل من شيء. والأسماء إذا كانت مترادفة المعاني لا يكون في واحد منها زيادة دلالة على الآخر، بل يقوم كل واحد منهما مقام الآخر، ويدل على ما يدل عليه الآخر من معنى، سواء بسواء، وليست أسماء الله كذلك، بل إنَّ كل اسم منها يدل على معنًى غير المعنى الذي يدل عليه غيره منها؛ ولذلك وقع التفاضل فيها ولا يقع التفاضل في الأسماء المترادفة، وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرًا بمرادف محض، بل هو على سبيل التقريب والتفهيم[(١)].

ويدل تفاضل أسماء الله كذلك على أنها أسماء تدل على معانٍ وصفات، وليست أعلامًا محضة لا مفهوم لها إلا مجرد الدلالة المحضة على مسماها، فإن الأعلام المحضة لا تدل على معانٍ ولا يشتق منها أوصاف للمسمى؛ ولذلك لا يقع فيها التفاضل إذ لا وجه لتفاضلها، إذ لا يُفهم منها جميعها إلا معنى واحد وهو الدلالة على المسمى لا غير.

أما أسماء الله فهي معانٍ وأوصاف؛ ولذلك تشتق منها الأوصاف لله؛ ولذلك وقع فيها التفاضل ولا يقع التفاضل في الأعلام المحضة.

ففي ثبوت تفاضل أسماء الله نقض لما ضل به المعتزلة ومن لف لفهم من اعتقاد أن أسماء الله أعلام مترادفة.

---

(١) انظر في كتاب «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٨) لابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ.

المسألة الخامسة: من أدلة تفاضل صفات الله:

معنى تفاضل صفات الله كون بعض الصفات أفضل من بعض لوجه من وجوه الفضل.

ومن أدلة تفاضل الصفات: قوله ﷺ: «**لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي**»(١) وفي رواية: «**سبقت غضبي**»(٢).

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وصف رحمته بأنها تغلب وتسبق غضبه، وهذا يدل على فضل رحمته على غضبه من جهة سبقها وغلبتها»(٣).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ كان يقول في سجوده: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»(٤)، فكان يستعيذ من صفة السخط بصفة الرضا، ومن عقوبة الله بمعافاته، وبه سبحانه منه.

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعلوم أن المستعاذ به أفضل من المستعاذ منه»(٥).

وأما قوله: «أعوذ بك منك» فمعناه والله أعلم الاستعاذة بكل صفة مرغوب فيها من صفات الله من كل صفة مرهوب منها من صفات الله، فيكون دليلًا جامعًا يدل على تفاضل صفات الله المستعاذ بها والمستعاذ منها جميعها.

وقد قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما استعاذته به منه فلا بد أن يكون باعتبار جهتين: يستعيذ به باعتبار تلك الجهة؛ ومنها باعتبار تلك الجهة، ليتغاير،

---

(١) **متفق عليه:** البخاري مع الفتح (٦/ ٢٨٧)، ومسلم (٤/ ٢١٨).

(٢) في البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٠٤)، ومسلم (٤/ ٢١٠).

(٣) «جواب أهل العلم والإيمان» (٨٩).

(٤) أخرجه مسلم (١/ ٣٥٢).

(٥) انظر: جواب أهل العلم والإيمان (٩٠).

المستعاذ به مدعو مستجار به ملتجأ إليه، والجهة الواحدة لا تكون مطلوبة مهروبًا منها، لكن باعتبار جهتين تصح»[١] والجهتان متعلقتان بصفاته لا وريب.

وشَبَّه رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعوذ بك منك» بقوله في حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الدعاء عند النوم «لا منجا لا ملجأ منك إلا إليك»[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعلوم أن جهة كونه منجيًا غير جهة كونه منجيًا منه، وكذلك جهة كونه ملتجأ إليه غير كونه ملتجأ منه، سواء قيل: إن ذلك يتعلق بمفعولاته أو أفعاله القائمة به أو صفاته أو بذاته باعتبارين»[٣].

ثم إن كل دليل على تفاضل أسماء الله دليل على تفاضل صفاته؛ لأن أسماء الله أسماء وأوصاف.

المسألة السادسة: تفاضل الصفة الواحدة:

التفاضل في صفات الله قد يقع في الصفة الواحدة، فتكون الصفة الواحدة متفاضلة.

ومن أدلة ذلك: تفاضل صفة الحب والبغض، قال ﷺ: «**أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها**»[٤] «أحب» و«أبغض» صيغة تفضيل، وقال ﷺ: «**أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»[٥] وقال ﷺ: «**أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم**

---

(١) «جواب أهل العلم والإيمان» (٩٠، ٩١).

(٢) **متفق عليه:** البخاري مع الفتح (١١/ ١١٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٢).

(٣) انظر: «جواب أهل العلم والإيمان» (٩١).

(٤) أخرجه مسلم (١/ ٤٦٤).

(٥) **متفق عليه:** البخاري مع الفتح (٨/ ١٨٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٤).

امرئ بغير حق يهريق دمه»[١].

وكذا تفاضل صفة اليد كما في حديث: «**يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإن يغض ما في يمينه، وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض»**[٢].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فبيَّن ﷺ أن الفضل بيده اليمنى والعدل بيده الأخرى، ومعلوم أنه مع أن كلتا يديه يمين فالفضل أعلى من العدل، وهو سبحانه كل رحمة منه فضل وكل نقمة منه عدل، ورحمته أفضل من نقمته».

قال: «ولهذا كان المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن[٣] ولم يكونوا عن يده الأخرى، وجعلهم على يمين الرحمن تفضيل لهم، كما فضل في القرآن أهل اليمين وأهل الميمنة على أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة، وإن كانوا إنما عذبهم بعدله، وكذلك الأحاديث والآثار جاءت بأن أهل قبضة اليمين أهل السعادة وأهل القبضة الأخرى هم أهل الشقاوة»[٤].

ومن تفاضل الصفة الواحدة من صفات الله تفاضل صفة الكلام، والدلائل عليه كثيرة من كتاب الله سنة نبيه ﷺ:

فمن ذلك: أن القرآن كلام الله وقد فضله على سائر كتبه التي سبقته وهي كلها كلامه ﷻ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

(١) أخرجه البخاري مع الفتح (١٢/ ٢١٠).

(٢) **متفق عليه:** البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٠٣)، ومسلم (٢/ ٦٩١).

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٣/ ١٤٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) انظر: «جواب أهل العلم والإيمان» (٩٢، ٩٣).

مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

واختص الله القرآن من بين سائر كلامه بخصائص، فاختصه بأن تكفل سبحانه بحفظه، واختصه بأن جعله معجزة نبيه التي اجتمع عليه البشر، واختصه بأن تحدى الخلق بأن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة منه، وغير ذلك من خصائصه.

وتخصيص القرآن بأحكام وفضائل توجب تشريفه وتفضيله على غيره مما أنزل الله على رسله، وقد قال سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، وقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]

ثم إن القرآن نفسه متفاضل، كما صح عن رسول الله ﷺ تفضيل بعض آياته وسوره على غيره.

فمن ذلك:

حديث أُبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري وقال: «**والله ليهنك العلم أبا المنذر**»[1].

فهذه آية من كلام الله وهي آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله.

ووردت أحاديث فيها تخصيص بعض الآيات من كتاب الله بفضائل، كما ثبت في الآيتين من آخر سورة البقرة: «**من قرأهما في ليلة كفتاه**»[2]، وكذا

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٦).

(٢) **متفق عليه:** البخاري مع الفتح (٧/ ٣١٧)، ومسلم (١/ ٥٥٥).

ثبت في بعض السور، نحو قوله ﷺ: «**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران**»[١].

فهذا في تفضيل هاتين السورتين من كلام الله.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما جبريل قاعد عن النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم لم يُفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيتنه»[٢].

وقال ﷺ: «**قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن**»[٣]، وقال: «**والذي نفسي بيده لتعدل ثلث القرآن**»[٤].

ووردت أحاديث عديدة يطول حصرها، فيها ما ذكر من تخصيص بعض الآيات والسور بفضائل، وجميعها يدل على أن كلام الله يتفاضل.

قال الغزالي: «لعلك تقول: قد توجه قصدك في هذه التنبيهات إلى تفضيل بعض القرآن على بعض والكل قول الله تعالى فكيف يفارق بعضها بعضًا؟ وكيف يكون بعضها أشرف من بعض؟

فاعلم: أن نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسي وآية

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٤).

(٣) أخرجه مسلم (٨١١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم (٨١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٠١٣، ٥٠١٤، ٥٠١٥، ٦٦٤٣، ٧٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

المداينات، وبين سورة الإخلاص وسورة تبت، وترتاع من اعتقاد الفرق نفسك الجوارة، والمستغرقة بالتقليد، فلقد صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه، فهو الذي أُنزل عليه القرآن، وقد دلت الأخبار على شرف بعض الآيات وعلى تضعيف الأجر في بعض السور المنزلة»[(١)].

ونقل السيوطي عن العز بن عبد السلام قوله: «كلام الله في الله أفضل من كلامه في غيره، فـ«قل هو الله أحد» أفضل من «تبت يدا أبي لهب»[(٢)]، فهذا من جوه تفاضل صفة الكلام.

ومن وجوهها أيضًا ما قاله ابن تيميَّة: «إذا كان المخبر به أكمل وأفضل وإذا كان المأمور به أفضل، كان الأمر به أفضل»[(٣)]. وقد قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

قال ابن تيمية: «معلوم أن تكليمه من وراء حجاب أفضل من تكليمه بالإيحاء وبإرسال رسول؛ ولهذا كان من فضائل موسى عليه السلام أن الله كلمه تكليمًا وقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]»[(٤)].

وقد قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقال ابن تيمية: «أخبر أنه يأتي بخير منها أو مثلها، وهذا بيان من الله لكون

---

(١) انظر: «جواهر القرآن» (٦٢، ٦٣).

(٢) انظر في كتاب «الإتقان» (٢/ ١٩٩).

(٣) «جواب أهل العلم والإيمان» (٦١).

(٤) «جواب أهل العلم والإيمان» (٦٦).

تلك الآية قد يأتي بمثلها تارة أو خير منها أخرى، فدل ذلك على أن الآيات تتماثل تارة وتتفاضل أخرى»[١].

والحاصل: أن النصوص الشرعية من القرآن وصحيح السنة قاطعة في الدلالة على تفاضل صفات الله ﷻ.

المسألة السابعة: دلالة تفاضل صفات الله:

تفاضل صفات الله ﷻ يدل على تعددها؛ لأن التفاضل لا يُعقل إلا مع التعدد، إذ لا يكون إلا بين شيئين فصاعدًا - كما سبق بيانه - وهذا يدل على أن صفات الله ليست هي عين ذاته، وإنما هي متعلقة بذاته ﷻ؛ لأن الذات واحدة غير متعددة، ولكنها متصفة بصفات متعددة، واتصاف الذات بالصفات دليل كمالها؛ لأن الذات المجردة هي التي لا تتعلق بها صفة ناقصة.

وثبوت تعدد صفات الله يدل على ثبوتها لله ﷻ، فلا يسع المؤمن إلا إثباتها متعددة لكل منها معنى يغاير معنى الآخر؛ ولذلك كان ورود إثبات صفات الله في نصوص الشرع إنما يكون على وجه التفصيل، أما النفي فيكون مجملًا، ففي النصوص ذكر أسماء وصفات الله مفصلة، وفيها نفي ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل إجمالًا، وهذا بخلاف طريقة أهل الضلال والباطل الذين يفصلون في النفي، فينفون عنه صفاته على وجه التفصيل، ولا يثبتون له إلا وجودًا مطلقًا لا تتعلق به صفة[٢].

وإثبات تفاضل الصفات هو من لوازم إثبات الصفات، فمَن أثبت الصفات

---

(١) «جواب أهل العلم والإيمان» (١١).

(٢) انظر: «الرسالة التدمرية» (٨-١١ و٧٤، ٧٥).

لزمه إثبات تفاضلها؛ لأن إثبات التفاضل بين الشيئين فرع عن إثبات كل واحد منهما بمعناه وما تضمنه من كمال، فينظر في أيهما أفضل وأكمل، أما إذا كان الشيئان منفيين، فلا تفاضل بينهما؛ لأنه لا وجود لهما أصلًا، فلا كمال ولا فضيلة هناك أصلًا حتى يمكن النظر في التفاضل؛ ولذلك فإنه يمتنع التفاضل بين صفات الله بناءً على مذهب المعطلة الباطلة من الجهمية والمعتزلة ونحوهم.

المسألة الثامنة: ما وقع من الشذوذ والباطل في هذا الباب:

قد ظهرت أقوال شاذة تمنع وقوع التفاضل في صفات الله، وأعظم ما وقع الكلام فيه واشتهر: التفاضل في كلام الله ﷻ، فمنع تفاضل كلام الله جمع من الناس، واشتهر حتى توهم بعضهم أن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، وظنوا أن القول بتفضيل كلام الله بعضه على بعض لا يمكن إلا على قول الجهمية والمعتزلة وغيرهم من القائلين بأنه مخلوق؛ ولذا اعتقد هؤلاء أن ذلك يمنع وقوع التفاضل في صفات الله القائمة بذاته.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولأجل هذا الاعتقاد - أي: اعتقاد أن القرآن كلام الله غير مخلوق - صار من يعتقده يذكر إجماع أهل السنة على امتناع التفضيل في القرآن كما قال أبو عبد الله بن الدراج في مصنف صنفه في هذه المسألة، قال: «أجمع أهل السنة على أن ما ورد في الشرع مما ظاهره المفاضلة بين آي القرآن وسوره ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض إذ هو كلام الله وصفة من صفاته، بل هو كله لله فاضل كسائر صفاته الواجب لها نعت الكمال. وهذا النقل للإجماع هو بحسَب ما ظنه لازمًا لأهل السنة، فلما علم أنهم يقولون القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وظن هو أن المفاضلة إنما تقع في المخلوقات لا في الصفات، قال ما قال، وإلا

فلا ينقل عن أحد من السلف والأئمة أنه أنكر فضل كلام الله بعضه على بعض: لا في نفسه، ولا في لوازمه ومتعلقاته، فضلًا على أن يكون هذا إجماعًا»[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وربما نُقل عن بعض السلف في قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] أنه قال: خير لكم منها، أو أنفع لكم. فيظن الظانُّ أن ذلك القائل موافق لهؤلاء، وليس كذلك، بل مقصوده بيان وجه كونه خيرًا وهو أن يكون أنفع للعباد، فإن ما كان أكثر من الكلام نفعًا للعباد كان في نفسه أفضل، كما بين في موضعه، وصار من سلك مسلك الكلابية من متأخري أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم - يظنون أن القول بتفاضل كلام الله بعضه على بعض إنما يمكن على قول المعتزلة ونحوهم الذين يقولون: إنه مخلوق، فإن القائلين بأنه مخلوق يرون فضل بعضه على بعض فضل مخلوق على مخلوق، وتفضيل بعض المخلوقات على بعض لا ينكره أحد، فإذا ظن أولئك أن القول بتفضيل بعض كلام الله على بعض مستلزم لكون القرآن مخلوقًا، فروا من ذلك وأنكروا القول به لأجل ما ظنوه من التلازم.

وليس الأمر كما ظنوه، بل سلف الأمة وجمهورها يقولون: إنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وكذلك سائر كلام غير الله مخلوق، ويقولون مع ذلك: إن كلام الله بعضه أفضل من بعض. كما نطلق بذلك الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين من غير خلاف يُعرف في ذلك عنهم»[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الجملة فدلالة النصوص النبوية والآثار السلفية والأحكام الشرعية والحجج العقلية على أن كلام الله بعضه أفضل من بعض

---

(١) «جواب أهل العلم والإيمان» (٧٢).

(٢) «جواب أهل العلم والإيمان» (٥٣).

- هو من الدلالات الظاهرة المشهورة»[١].

وقد وقع في القول بمنع تفاضل كلام الله بعض أفاضل العلماء، كابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ **أحد أئمة المفسرين وقد قال:** «غير جائز أن يكون من القرآن شيء خير من شيء؛ لأن جميعه كلام الله، ولا يجوز في صفات الله تعالى ذكره أن يقال: بعضها أفضل من بعض وبعضها خير من بعض»[٢].

وكذلك ابن حبان إذ قال: «كلام الله يستحيل أن يكون فيه تفاوت التفاضل»[٣].

وقد نُسب هذا القول لبعض الأئمة المتقدمين، فقد رُوي عن سفيان بن عيينة[٤] رَحِمَهُ اللَّهُ.

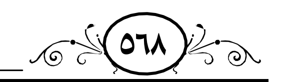
---

(١) «جواب أهل العلم والإيمان» (٥٦).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٣٨٣).

(٣) «صحيح ابن حبان مع الإحسان» (٢/ ٧٥).

(٤) سُفْيان بْن عُيَيْنَة بْن أَبِي عِمران، واسم أبي عِمران ميمون، مولى محمد بْن مُزاحم الهلاليّ أخي الضحّاك المفسِّر، أبو محمد الكوفيُّ ثمّ الْمَكِّيّ، الإمام شيخ الإسلام. مولده سنة سبْعٍ ومائة في نصف شَعْبان.
قَالَ الشّافعيّ: لولا مالك وسُفْيان بْن عُيَيْنَة لذهب عِلم الحجاز. وعنه قَالَ: تطلّبت أحاديث الأحكام، فوجدتها كلّها سوى ثلاثين حديثًا عند مالك، ووجدتها كلّها سوى ستّة أحاديث عند ابن عُيَيْنَة.
وقال عَبْد الرَّحْمَن بْن مهديّ: كَانَ ابن عُيَيْنَة مِن أعلم الناس بحديث الحجاز. وقال التِّرْمِذيّ: سمعتُ محمدًا - يعني الْبُخَارِيّ - يَقُولُ: ابن عُيَيْنَة أحفظ مِن حمّاد بْن زيد. وقال أحمد: ما رَأَيْت أعلم بالسُّنَن منه. وقال ابن المَدِينيّ: ما في أصحاب الزُّهْرِيّ أتقن مِن سُفْيان. وقال بَهْز بْن أسد: ما رأيت مثل سُفْيان بْن عُيَيْنَة. فقيل لَهُ: ولا شُعْبَة؟ قَالَ: ولا شُعْبَة. وقال ابن مَعِين: هُوَ أثبت الناس في عَمْرو بْن دينار =

قال محمد بن نصر المروزي[(١)]: «حدثنا أبو قدامة[(٢)] قال: سمعت سفيان ابن عيينة يقول: كنت أقرأ الآية فلا أعرفها ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] أقول: هذا قرآن، وهذا قرآن، فكيف يكون خيرًا منها؟! حتى فسر لي فكان بينًا نأت بخير منها لكم، أيسر عليكم، أخف

= وقال ابن مهديّ: عند ابن عيينة مِن معرفته بالقرآن وتفسير الحديث ما لم يكن عند سُفْيان الثَّوْريّ.
تُوُفّي سُفْيان في سنة ثمانٍ وتسعين ومائة. «تاريخ الإسلام» ت بشار (٤/ ١١١٠) رقم (١٠٩).

(١) محمد بن نصر المَرْوَزيّ. الإمام أبو عبد الله، أحد الأعلام في العلوم والأعمال.
وُلد سنة اثنتين ومائتين ببغداد، ونشأ بنيسابور، وسكن سَمَرْقَنْد وغيرها. وكان أبوه مَرْوزِيًّا. قال الحاكم فيه: إمام أَهْل الحديث فِي عصره بلا مُدَافعة. له كتاب «تعظيم قدْر الصّلاة»، وكتاب «رفع اليدين»، وغيرهما من الكُتُب المعجزة. تُوُفّي بسَمَرْقَنْد، في المحرَّم سنة أربعٍ وتسعين. «تاريخ الإسلام» ت بشار (٦/ ١٠٤٥) رقم (٤٩٧) «تاريخ بغداد وذيوله» ط العلمية (٤/ ٨٥) رقم الراوي (١٧٣٢).

(٢) عبيد الله بن سعيد بن يحيى بن برد، أبو قدامة السَّرْخسيُّ. مولى بني يشكر. سكن نَيْسابور وَنَشَرَ بها عِلْمَه. وكان من الحُفَّاظ الأثبات. رَوَى عَنْهُ: البخاري، ومسلم، والنسائي، وإبراهيم بن أبي طالب، وأبو زُرْعة، وجعفر الفِرْيابيّ، والحسين بن محمد القبّانيّ، ومحمد بن إسحاق السّرّاج، وابن خُزَيْمَة، وخلْق.
قال النَّسائيّ: ثقة مأمون، قَلَّ من كتبنا عنه مثله. وقال إبراهيم بن أبي طالب: ما قدم علينا نيسابور أثبت من أبي قدامة ولا أتقن منه. وقال ابن حِبّان: هو الذّي أظهر السنة بسَرْخَس، ودعا النّاس إليها. وقال يحيى بن الذهلي: كان إمامًا فاضلًا خيّرًا. وقال البخاريّ: مات سنة إحدى وأربعين. زاد غيره: بفِرَبْر.
«تاريخ الإسلام» ت بشار (٥/ ١١٧٧) رقم (٣٠٠)، و«تهذيب الكمال في أسماء الرجال» (٣٤/ ٢٠٠).

عليكم أهون عليكم»[١].

ونسب كذلك للإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال القرطبي[٢]: «اختلف العلماء في تفضيل بعض السور والآيات على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله الحسنى على بعض:

فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري والقاضي أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حبان البستي وجماعة من الفقهاء».

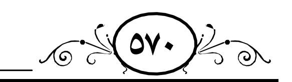
قال: «وروى معناه مالك، قال: يحيى بن يحيى[٣]: تفضيل بعض القرآن

---

(١) انظر: كتاب «السنة» للمروزي (٦٦).

(٢) مُحَمَّد بْن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح، الإِمَام، العلّامة، أبو عَبْد اللّه الأَنْصَارِيّ، الخَزْرَجِيّ، القُرْطُبِيّ. [المتوفى: (٦٧١هـ)] إمام متفنّن متبحّر فِي العلم، له تصانيف مفيدة تدلّ على كثرة اطّلاعه ووُفُور فضْله، تُوُفِّيَ فِي أوائل هَذِهِ السّنة بمُنْية بني خصيب من الصّعيد الأدنى. وقد سارت بتفسيره العظيم الشّأن الرُّكْبان؛ وهو كامل فِي معناه. وله كتاب «الأسْنَى فِي الأسماء الحُسْنى»، وكتاب «الجامع لأحكام القرآن» المعروف بتفسير القرطبي. «تاريخ الإسلام» ت بشار (١٥/ ٢٢٩) رقم (٢٧).

(٣) يحيى بْن يحيى بْن كثير بْن وسلاس بن شملال بن منغايا الْإِمَام، أَبُو محمد البربريّ المَصْمُوديّ الليثيّ، مولى بني ليث، الأندلسيّ القُرْطُبِيّ الفقيه. دخل جدّه أَبُو عيسى كثير بْن وسلاس إلى الأندلس، وتولّى بني ليث. ووُلِدَ يحيى بْن يحيى سنة اثنتين وخمسين ومائة، وسمع «الموطأ» من زياد بْن عَبْد الرَّحْمَن شَبْطون، وَسَمِعَ مِنْ: يحيى بْن مُضَر، وغيرُ واحد. ثُمَّ رحل إلى المشرق وهو ابن بضع وعشرين سنة في آخر أيام مالك، فسمع من مالك «الموطأ» غير أبواب من الاعتكاف، شك فِي سماعها، فرواها عَنْ زياد، عَنْ مالك. قَالَ غير واحد: تُوُفِيّ فِي رجب سنة =

على بعض خطأ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها. وقال عن مالك في قول الله تعالى:  [البقرة: ١٠٦] قال: محكمة مكان منسوخة. وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك».

قال: «واحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يُشعر بنقص المفضول، والذاتية في الكل واحدة وهي كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه»[١].

فمأخذ هؤلاء في منعهم التفاضل في كلام الله تعالى هو توهمهم أن القول بالتفاضل يُشعر بنقص المفضول ولا تجوز نسبة النقص لصفات الله ﷻ، وهذا ظاهر كلام ابن جرير وغيره؛ ولذلك حملوا التفاضل الوارد في النصوص على تفاضل الأجر والثواب ونحو ذلك مما يتعلق بالصفة مما ليس منها؛ ولذلك قال ابن حبان: «قوله ﷺ: «**ألا أخبرك بأفضل القرآن؟**» أراد به بأفضل القرآن لك، لا أن بعض القرآن يكون أفضل من بعض»[٢]. وقال في حديث الفاتحة: «**إنه ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلها**»[٣]: «معنى هذه اللفظة (ما في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن) أن الله لا يعطي لقارئ التوراة والإنجيل الثواب ما يعطي لقارئ أم القرآن»[٤].

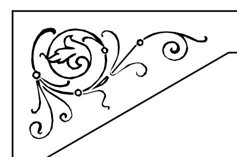
= أربع وثلاثين ومائتين: وقيل: سنة ثلاث. «تاريخ الإسلام» ت بشار (٥/ ٩٧٢) رقم الراوي (٤٩٥)، و«سير أعلام النبلاء» ط الرسالة (١٠/ ٥١٩).

(١) «تفسير القرطبي» (١/ ١٠٩)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ٤٣٨)، والإتقان (٢/ ١٩٩).

(٢) انظر: «صحيح ابن حبان مع الإحسان» (٢/ ٧٥).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ٨٣)، وأحمد في «المسند» (٥/ ١١٤)، والترمذي في «السنن» (٥/ ١٤٣)، والنسائي في «السنن» (٢/ ١٣٩) وابن خزيمة في «الصحيح» (١/ ٢٥٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٥٧).

(٤) انظر: «صحيح ابن حبان مع الإحسان» (٢/ ٧٥).



المبحث الثامن
قواعد في الأسماء والصفات وأدلتها[(١)]

وبه أربعة فصول:

الفصل الأول: قواعد في أسماء الله تعالى

القاعدة الأولى: أسماء الله تعالى كلها حسنى.

أي: بالغة في الحسن غايته، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ وذلك لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، لا احتمالًا ولا تقديرًا.

مثال ذلك: «الحي» اسم من أسماء الله تعالى، متضمن للحياة الكاملة التي لم تُسبق بعدم ولا يلحقها زوال. الحياة المستلزمة لكمال الصفات من العلم والقدرة والسمع والبصر وغيرها.

ومثال آخر: «العليم» اسم من أسماء الله تعالى، متضمن للعلم الكامل الذي لم يُسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، قال الله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، العلم الواسع المحيط بكل شيء

(١) هذا المبحث بكل فصوله مقتبس من كتاب «القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، المتوفى (١٤٢١هـ) بتصرف (١-٦٣).

جملة وتفصيلًا، سواء ما يتعلق بأفعاله أو أفعال خلقه، قال الله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩] ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦] ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ [التغابن: ٤].

ومثال ثالث: «الرحمن» اسم من أسماء الله تعالى، متضمن للرحمة الكاملة التي قال عنها رسول الله ﷺ: «**لَلهُ أرحم بعباده من هذه بولدها**» يعني: أم صبي وجدته في السبي فأخذته وألصقته ببطنها وأرضعته. ومتضمن أيضًا للرحمة الواسعة التي قال الله عنها: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال عن دعاء الملائكة للمؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

والحُسْنُ في أسماء الله تعالى يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره، فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال.

مثال ذلك: «العزيز الحكيم» فإن الله تعالى يجمع بينهما في القرآن كثيرًا. فيكون كل منهما دالًّا على الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو العزة في العزيز، والحكم والحكمة في الحكيم. والجمع بينهما دال على كمال آخر، وهو أن عزته تعالى مقرونة بالحكمة، فعزته لا تقتضي ظلمًا وجورًا وسوء فعل، كما قد يكون من أعزاء المخلوقين، فإن العزيز منهم قد تأخذه العزة بالإثم فيظلم ويجور ويسيء التصرف. وكذلك حكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعز الكامل، بخلاف حكم المخلوق وحكمته فإنهما يعتريهما الذل.

القاعدة الثانية: أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف: أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني، وهي بالاعتبار الأول مترادفة لدلالتها على مسمى واحد، وهو الله ﷻ، وبالاعتبار الثاني متباينة؛ لدلالة كل واحد منهما على معناه الخاص.

فـ«الحي، العليم، القدير، السميع، البصير، الرحمن، الرحيم، العزيز، الحكيم» كلها أسماء لمسمى واحد وهو الله ﷻ، لكن معنى الحي غير معنى العليم، ومعنى العليم غير معنى القدير... وهكذا.

وإنما قلنا بأنها أعلام وأوصاف لدلالة القرآن عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، فإن الآية الثانية دلت على أن الرحيم هو المتصف بالرحمة. ولإجماع أهل اللغة والعرف أنه لا يقال: عليم إلا لمن علم، ولا سميع إلا لمن سمع، ولا بصير إلا لمن له بصر. وهذا أمر أبين من أن يحتاج إلى دليل.

وبهذا عُلم ضلال من سلبوا أسماء الله تعالى معانيها من أهل التعطيل، وقالوا: إن الله تعالى سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وعزيز بلا عزة... وهكذا.

وعللوا ذلك بأن ثبوت الصفات يستلزم تعدد القدماء.

وهذه العلة عليلة، بل ميتة لدلالة السمع[1] والعقل على بطلانها.

أما السمع فلأن الله تعالى وصف نفسه بأوصاف كثيرة مع أنه الواحد الأحد، فقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٢ - ١٦]. وقال تعالى:

(١) السمع هو القرآن والسنة، وسيمر بك هذا التعبير كثيرًا فانتبه له.

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ [الأعلى: ١ - ٥] ففي هذه الآيات الكريمة أوصاف كثيرة لموصوف واحد، ولم يلزم من ثبوتها تعدد القدماء.

وأما العقل: فلأن الصفات ليست ذوات بائنة من الموصوف حتى يلزم من ثبوتها التعدد، وإنما هي من صفات من اتصف بها، فهي قائمة به، وكل موجود فلا بد له من تعدد صفاته، ففيه صفة الوجود، وكونه واجب الوجود أو ممكن الوجود، وكونه عينًا قائمًا بنفسه أو وصفًا في غيره

وبهذا أيضًا علم أن «الدهر» ليس من أسماء الله تعالى؛ لأنه اسم جامد لا يتضمن معنى يُلحقه بالأسماء الحسنى، ولأنه اسم للوقت والزمن، قال الله تعالى عن منكري البعث: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] يريدون: مرور الليالي والأيام.

فأما قوله ﷺ: قال الله ﷻ: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**» فلا يدل على أن الدهر من أسماء الله تعالى، وذلك أن الذين يسبون الدهر إما يريدون الزمان الذي هو محل الحوادث، لا يريدون الله تعالى، فيكون معنى قوله: «**وأنا الدهر**» ما فسره بقوله: «**بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**»، فهو سبحانه خالق الدهر وما فيه، وقد بَيَّن أنه يقلب الليل والنهار وهما الدهر، ولا يمكن أن يكون المقلِّب (بكسر اللام) هو المقلَّب (بفتحها).

وبهذا تبين أنه يمتنع أن يكون الدهر في هذا الحديث مرادًا به الله تعالى.

القاعدة الثالثة: أسماء الله تعالى إن دلت على وصف متعدٍّ تضمنت ثلاثة أمور:

أحدها: ثبوت ذلك الاسم لله ﷻ.

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها لله ﷻ.

الثالث: ثبوت حكمها ومقتضاها.

ولهذا استدل أهل العلم على سقوط الحد عن قُطاع الطريق بالتوبة، استدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ [المائدة: ٣٤]، لأن مقتضى هذين الاسمين أن يكون الله تعالى قد غفر لهم ذنوبهم، ورحمهم بإسقاط الحد عنهم.

مثال ذلك: «السميع» يتضمن إثبات السميع اسمًا لله تعالى، وإثبات السمع صفة له، وإثبات حكم ذلك ومقتضاه، وهو أنه يسمع السر والنجوى، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وإن دلت على وصف غير متعدٍّ تضمنت أمرين:

أحدهما: ثبوت ذلك الاسم لله ﷻ.

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها لله ﷻ.

مثال ذلك: «الحي» يتضمن إثبات الحي اسمًا لله ﷻ وإثبات الحياة صفة له.

القاعدة الرابعة: دلالة أسماء الله تعالى على ذاته وصفاته تكون بالمطابقة وبالتضمن وبالالتزام.

مثال ذلك: «الخالق» يدل على ذات الله، وعلى صفة الخلق بالمطابقة، ويدل على الذات وحدها وعلى صفة الخلق وحدها بالتضمن، ويدل على صفتي العلم والقدرة بالالتزام.

ولهذا لما ذكر الله خلق السماوات والأرض قال: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

ودلالة الالتزام مفيدة جدًّا لطالب العلم إذا تدبر المعنى ووفقه الله تعالى فهمًا للتلازم، فإنه بذلك يحصل من الدليل الواحد على مسائل كثيرة.

واعلم أن اللازم من قول الله تعالى وقول رسوله ﷺ إذا صح أن يكون لازمًا فهو حق، وذلك لأن كلام الله ورسوله ﷺ حقٌّ، ولازمُ الحق حق، ولأن الله تعالى عالم بما يكون لازمًا من كلامه وكلام رسوله ﷺ، فيكون مرادًا.

وأما اللازم من قول أحد سوى قول الله ورسوله ﷺ فله ثلاث حالات:

الأولى: أن يذكر للقائل ويلتزم به. مثل أن يقول مَّن ينفي الصفات الفعلية لمن يثبتها: يلزم من إثباتك الصفات الفعلية لله ﷻ أن يكون من أفعاله ما هو حادث. فيقول المثبِت: نعم، وأنا ألتزم بذلك؛ فإن الله تعالى لم يزل ولا يزال فعالًا لما يريد، ولا نفاد لأقواله وأفعاله كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

وحدوث آحاد فعله تعالى لا يستلزم نقصًا في حقه.

الحال الثانية: أن يذكر له ويمنع التلازم بينه وبين قوله. مثل أن يقول النافي للصفات لمن يثبتها: يلزم من إثباتك أن يكون الله تعالى مشابهًا للخلق في صفاته. فيقول المثبِت: لا يلزم ذلك؛ لأن صفات الخالق مضافة إليه، لم تذكر مطلقة حتى يمكن ما ألزمت به، وعلى هذا فتكون مختصة به لائقة به، كما أنك أيها النافي للصفات تُثبت لله تعالى ذاتًا وتمنع أن يكون مشابهًا للخلق في ذاته، فأي فرق بين الذات والصفات؟

وحكم اللازم في هاتين الحالين ظاهر.

الحال الثالثة: أن يكون اللازم مسكوتًا عنه، فلا يذكر بالتزام ولا منع، فحكمه في هذه الحال أن لا يُنسب إلى القائل؛ لأنه يحتمل لو ذكر له أن يلتزم به أو يمنع التلازم، ويحتمل لو ذكر له فتبين له لازمه وبطلانه أن يرجع

عن قوله؛ لأن فساد اللازم يدل على فساد الملزوم.

ولورود هذين الاحتمالين لا يمكن الحكم بأن لازم القول قول.

فإن قيل: إذا كان هذا اللازم لازمًا من قوله، لزم أن يكون قولًا له لأن ذلك هو الأصل، لا سيما مع قرب التلازم.

قلنا: هذا مدفوع بأن الإنسان بشر وله حالات نفسية وخارجية توجب الذهول عن اللازم، فقد يغفل، أو يسهو، أو ينغلق فكره، أو يقول القول في مضايق المناظرات من غير تفكير في لوازمه ونحو ذلك.

القاعدة الخامسة: أسماء الله تعالى توقيفية لا مجال للعقل فيها.

وعلى هذا فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة، فلا يزاد فيها ولا ينقص؛ لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه تعالى من الأسماء، فوجب الوقوف في ذلك على النص؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، ولأن تسميته تعالى بما لم يُسَمِّ به نفسه أو إنكار ما سمى به نفسه جناية في حقه تعالى، فوجب سلوك الأدب في ذلك، والاقتصار على ما جاء به النص.

القاعدة السادسة: أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معين.

لقوله ﷺ في الحديث المشهور: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك...**» الحديث، رواه أحمد وابن حبان والحاكم، وهو صحيح.

وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب لا يمكن أحدًا حصره ولا الإحاطة به.

فأما قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها[١] دخل الجنة**»[٢]. فلا يدل على حصر الأسماء بهذا العدد، ولو كان المراد الحصر لكانت العبارة: إن أسماء الله تسعة وتسعون اسمًا، من أحصاها دخل الجنة، أو نحو ذلك.

إذًا فمعنى الحديث: أن هذا العدد من شأنه أن من أحصاه دخل الجنة. وعلى هذا فيكون قوله: «من أحصاها دخل الجنة» جملة مكملة لما قبلها وليست مستقلة.

ونظير هذا أن تقول: (عندي مائة درهم أعددتها للصدقة) فإنه لا يمنع أن يكون عندك دراهم أخرى لم تعدها للصدقة.

ولم يصح عن النبي ﷺ تعيين هذه الأسماء، والحديث المروي عنه تعيينها ضعيف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (تعيينها ليس من كلام النبي ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه)[٣].

وقال قبل ذلك: (إن الوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين، كما جاء مفسرًا في بعض طرق حديثه) اهـ[٤].

وقال ابن حجر: (ليست العلة عند الشيخين [البخاري ومسلم] تفرد الوليد

---

(١) إحصاؤها: حفظها لفظًا، وفهمها معنًى، وتمامه: أن يتعبد لله تعالى بمقتضاها.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار، برقم (٢٧٣٦)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، برقم (٢٦٧٧).

(٣) «الفتاوى» (ص٣٨٢، ج٦) من مجموع ابن قاسم.

(٤) «الفتاوى» (ص٣٧٩، ج٦) من مجموع ابن قاسم.

فقط، بل الاختلاف فيه والاضطراب، وتدليسه، واحتمال الإدراج) اهـ[١].

ولما لم يصح تعيينها عن النبي ﷺ اختلف السلف فيه، ورُوِيَ عنهم في ذلك أنواع، وقد جمعتُ تسعة وتسعين اسمًا مما ظهر لي من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

فمن كتاب الله تعالى:

الله... الأحد... الأعلى... الأكرم... الإله... الأول

الآخر... الظاهر... الباطن... البارئ... البر... البصير

التواب... الجبار... الحافظ... الحسيب... الحفيظ... الحفي

الحق... المبين... الحكيم... الحليم... الحميد... الحي

القيوم... الخبير... الخالق... الخلاق... الرؤوف... الرحمن

الرحيم... الرزاق... الرقيب... السلام... السميع... الشاكر

الشكور... الشهيد... الصمد... العالم... العزيز... العظيم

العفو... العليم... العلي... الغفار... الغفور... الغني

الفتاح... القادر... القاهر... القدوس... القدير... القريب

القوي... القهار... الكبير... الكريم... اللطيف... المؤمن

المتعالي... المتكبر... المتين... المجيب... المجيد... المحيط

المصور... المقتدر... المقيت... الملك... المليك... المولى

المهيمن... النصير... الواحد... الوارث... الواسع... الودود

الوكيل... الولي... الوهاب...

(١) انظر: «فتح الباري» (ص٢١٥، ج١١، ط السلفية).

ومن سنة رسول الله ﷺ:

الجميل[١] الجواد[٢] الحكم[٣] الحيي[٤] الرب[٥] الرفيق[٦] السُّبوح[٧] السيد[٨] الشافي[٩] الطيب[١٠] القابض[١١] الباسط[١٢] المقدم[١٣] المؤخر[١٤] المحسن[١٥] المعطي[١٦] المنان[١٧] الوتر[١٨].

هذا ما اخترناه بالتتبع: واحد وثمانون اسمًا في كتاب الله تعالى، وثمانية عشر اسمًا في سنة رسول الله ﷺ، وإن كان عندنا تردد في إدخال

---

(١) مسلم.
(٢) أحمد والترمذي وحسنه والبيهقي في «شعب الإيمان».
(٣) أبو داود.
(٤) أحمد وأبو داود والترمذي.
(٥) أحمد والنسائي.
(٦) البخاري ومسلم.
(٧) مسلم.
(٨) أحمد وأبو داود.
(٩) البخاري.
(١٠) مسلم.
(١١) أبو داود.
(١٢) أبو داود.
(١٣) البخاري ومسلم.
(١٤) البخاري ومسلم.
(١٥) الطبراني في الأوسط، قال الهيثمي: رجاله ثقات.
(١٦) البخاري ومسلم.
(١٧) أبو داود والترمذي والنسائي.
(١٨) البخاري ومسلم.

(الحفي) لأنه إنما ورد مقيدًا في قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ وكذلك (المحسن) لأننا لم نطلع على رواته في الطبراني، وقد ذكره شيخ الإسلام من الأسماء.

ومن أسماء الله تعالى ما يكون مضافًا؛ مثل: مالك الملك، ذي الجلال والإكرام.

القاعدة السابعة: الإلحاد في أسماء الله تعالى هو الميل بها عما يجب فيها.

وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئًا منها أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام، كما فعل أهل التعطيل من الجهمية وغيرهم. وإنما كان ذلك إلحادًا لوجوب الإيمان بها وبما دلت عليه من الأحكام والصفات اللائقة بالله، فإنكار شيء من ذلك ميل بها عما يجب فيها.

الثاني: أن يجعلها دالة على صفات تشابه صفات المخلوقين، كما فعل أهل التشبيه؛ وذلك لأن التشبيه معنى باطل لا يمكن أن تدل عليه النصوص، بل هي دالة على بطلانه، فجَعْلها دالة عليه ميل بها عما يجب فيها.

الثالث: أن يسمى الله تعالى بما لم يُسَمَّ به نفسه، كتسمية النصارى له: (الأب)، وتسمية الفلاسفة إياه (العلة الفاعلة). وذلك لأن أسماء الله تعالى توقيفية، فتسمية الله تعالى بما لم يُسَمَّ به نفسه ميل بها عما يجب فيها، كما أن هذه الأسماء التي سموه بها نفسها باطلة، ينزه الله تعالى عنها.

الرابع: أن يشتق من أسمائه أسماء للأصنام، كما فعل المشركون في اشتقاق العزى من العزيز، واشتقاق اللات من الإله، على أحد القولين، فسموا بها أصنامهم. وذلك لأن أسماء الله تعالى مختصة به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ

ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ٨] وقوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [الحشر: ٢٤] فكما اختص بالعبادة وبالألوهية الحقة، وبأنه يسبح له ما في السماوات والأرض، فهو مختص بالأسماء الحسنى، فتسمية غيره بها على الوجه الذي يختص بالله ﷻ ميل بها عما يجب فيها.

والإلحاد بجميع أنواعه محرم؛ لأن الله تعالى هَدَّدَ الملحدين بقوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومنه ما يكون شركًا أو كفرًا حسبما تقتضيه الأدلة الشرعية.

الفصل الثاني: قواعد في صفات الله تعالى

القاعدة الأولى: صفات الله تعالى كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

كالحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة، والعزة، والحكمة، والعلو، والعظمة... وغير ذلك.

وقد دل على هذا: السمع والعقل والفطرة.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل: ٦٠] والمثل الأعلى: هو الوصف الأعلى.

وأما العقل: فوجهه أن كل موجود حقيقة فلا بد أن تكون له صفة إما صفة كمال وإما صفة نقص، والثاني باطل بالنسبة إلى الرب الكامل المستحق للعبادة؛ ولهذا أظهر الله تعالى بطلان ألوهية الأصنام باتصافها بالنقص والعجز، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ

يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ١٩ - ٢٠]، وقال عن إبراهيم وهو يحتج على أبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، وعلى قومه: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

ثم إنه قد ثبت بالحس والمشاهدة أن للمخلوق صفات كمال، وهي من الله تعالى، فمعطي الكمال أَوْلى به.

وأما الفطرة: فلأن النفوس السليمة مجبولة مفطورة على محبة الله وتعظيمه، وهل تُحِب وتُعَظِّم وتَعْبُد إلا من علمت أنه متصف بصفات الكمال اللائقة بربوبيته وألوهيته؟

وإذا كانت الصفة نقصًا لا كمال فيها فهي ممتنعة في حق الله تعالى، كالموت، والجهل، والنسيان، والعجز، والعمى، والصمم، ونحوها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله عن موسى: ﴿فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [فاطر: ٤٤]، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠]. وقال النبي ﷺ في الدجال: «**إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور**»، وقال: «**أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا**».

وقد عاقب الله تعالى الواصفين له بالنقص، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ونزّه نفسه عما يصفونه به من النقائص، فقال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾ [المؤمنون: ٩١].

وإذا كانت الصفة كمالاً في حال، ونقصًا في حال لم تكن جائزة في حق الله، ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق، فلا تُثْبَت له إثباتًا مطلقًا، ولا تُنْفَى عنه نفيًا مطلقًا، بل لا بد من التفصيل، فتجوز في الحال التي تكون كمالًا، وتمتنع في الحال التي تكون نقصًا.

وذلك كالمكر، والكيد، والخداع، ونحوها، فهذه الصفات تكون كمالًا إذا كانت في مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها؛ لأنها حينئذٍ تدل على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوه بمثل فعله أو أشد، وتكون نقصًا في غير هذه الحال؛ ولهذا لم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق، وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها، كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: ٥٤] وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ وقوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

ولهذا لم يذكر الله أنه خان من خانوه، فقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾ [الأنفال: ٧١] فقال: فأمكن منهم، ولم يقل: فخانهم. لأن الخيانة خدعة في مقام الائتمان،

وهى صفة ذم مطلقًا.

وبذا عُرِف أن قول بعض العوام: (خان الله من يخون) منكر فاحش يجب النهي عنه.

القاعدة الثانية: باب الصفات أوسع من باب الأسماء.

وذلك لأن كل اسم متضمن لصفة كما سبق في القاعدة الثالثة من قواعد الأسماء، ولأن من الصفات ما يتعلق بأفعال الله تعالى، وأفعاله لا منتهى لها، كما أن أقواله لا منتهى لها، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)﴾ [لقمان: ٢٧].

ومن أمثلة ذلك: أن من صفات الله تعالى: المجيء، والإتيان، والأخذ، والإمساك، والبطش... إلى غير ذلك من الصفات التي لا تحصى، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١]، وقال: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢)﴾ [البروج: ٢١]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال النبي ﷺ: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا**».

فنصف الله تعالى بهذه الصفات على الوجه الوارد، ولا نسميه بها، فلا نقول: إن من أسمائه الجائي، والآتي، والآخذ، والممسك، والباطش، والمريد، والنازل... ونحو ذلك، وإن كنا نخبر بذلك عنه ونصفه به.

القاعدة الثالثة: صفات الله تعالى تنقسم إلى قسمين: ثبوتية وسلبية.

فالثبوتية: ما أثبت الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه؛ كالحياة، والعلم،

والقدرة، والاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والوجه، واليدين... ونحو ذلك.

فيجب إثباتها لله تعالى حقيقة على الوجه اللائق به، بدليل السمع والعقل.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦] فالإيمان بالله يتضمن: الإيمان بصفاته. والإيمان بالكتاب الذي نزل على رسوله ﷺ يتضمن: الإيمان بكل ما جاء فيه من صفات الله. وكون محمد ﷺ رسوله يتضمن: الإيمان بكل ما أخبر به عن مرسله، وهو الله ﷻ.

وأما العقل: فلأن الله تعالى أخبر بها عن نفسه، وهو أعلم بها من غيره، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا من غيره، فوجب إثباتها له كما أخبر بها من غير تردد، فإن التردد في الخبر إنما يتأتى حين يكون الخبر صادرًا ممن يجوز عليه الجهل أو الكذب أو العيّ، بحيث لا يفصح بما يريد، وكل هذه العيوب الثلاثة ممتنعة في حق الله ﷻ، فوجب قبول خبره على ما أخبر به.

وهكذا نقول فيما أخبر به النبي ﷺ عن الله تعالى، فإن النبي ﷺ أعلم الناس بربه، وأصدقهم خبرًا، وأنصحهم إرادة، وأفصحهم بيانًا، فوجب قبول ما أخبر به على ما هو عليه

والصفات السلبية: ما نفاها الله سبحانه عن نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، وكلها صفات نقص في حقه، كالموت، والنوم، والجهل، والنسيان، والعجز، والتعب. فيجب نفيها عن الله تعالى لما سبق مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل، وذلك لأن ما نفاه الله تعالى عن نفسه فالمراد به بيان انتفائه لثبوت كمال ضده لا لمجرد نفيه؛ لأن النفي ليس بكمال إلا أن

يتضمن ما يدل على الكمال، وذلك لأن النفي عدم، والعدم ليس بشيء فضلًا عن أن يكون كمالًا، ولأن النفي قد يكون لعدم قابلية المحل له فلا يكون كمالًا، كما لو قلت: الجدار لا يظلم. وقد يكون للعجز عن القيام به فيكون نقصًا، كما في قول الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لا يغدرون بذمّة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

وقول الآخر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي حسب ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فنفي الموت عنه يتضمن كمال حياته.

مثال آخر: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] نفي الظلم عنه يتضمن كمال عدله.

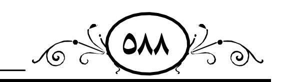
مثال ثالث: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤] فنفي العجز عنه يتضمن كمال علمه وقدرته؛ ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، لأن العجز سببه: إما الجهل بأسباب الإيجاد، وإما قصور القدرة عنه، فلكمال علم الله تعالى وقدرته لم يكن ليعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض.

وبهذا المثال علمنا أن الصفة السلبية قد تتضمن أكثر من كمال.

القاعدة الرابعة: الصفات الثبوتية صفات مدح وكمال، فكلما كثرت وتنوعت دلالاتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر؛ ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية كما هو معلوم.

أما الصفات السلبية فلم تذكر غالبًا إلا في الأحوال التالية:

الأولى: بيان عموم كماله، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾

[الشورى: ١١]،  ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤].

الثانية: نفي ما ادعاه في حقه الكاذبون، كما في قوله: ﴿أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ٩١، ٩٢].

الثالثة: دفع توهم نقص من كماله فيما يتعلق بهذا الأمر المعيّن، كما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان: ٣٨]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨].

القاعدة الخامسة: الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين: ذاتية وفعلية.

فالذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها، كالعلم والقدرة والسمع والبصر والعزة والحكمة والعلو والعظمة. ومنها الصفات الخبرية؛ كالوجه واليدين والعينين.

والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كالكلام، فإنه باعتبار أصله صفة ذاتية؛ لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلمًا، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية؛ لأن الكلام يتعلق بمشيئته، يتكلم متى شاء بما شاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]. وكل صفة تعلقت بمشيئته تعالى فإنها تابعة لحكمته.

وقد تكون الحكمة معلومة لنا، وقد نعجز عن إدراكها، ولكننا نعلم علم اليقين أنه سبحانه لا يشاء شيئًا إلا وهو موافق للحكمة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠].

القاعدة السادسة: يلزم في إثبات الصفات التخلي عن محذورين عظيمين: أحدهما: التمثيل والثاني: التكييف.

فأما التمثيل: فهو اعتقاد المثبِت أن ما أثبته من صفات الله تعالى مماثل لصفات المخلوقين.

وهذا اعتقاد باطل بدليل السمع والعقل.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤].

وأما العقل فمن وجوه:

الأول: أنه قد علم بالضرورة أن بين الخالق والمخلوق تباينًا في الذات، وهذا يستلزم أن يكون بينهما تباين في الصفات؛ لأن صفة كل موصوف تليق به، كما هو ظاهر في صفات المخلوقات المتباينة في الذوات، فقوة البعير مثلًا غير قوة الذرّة، فإذا ظهر التباين بين المخلوقات مع اشتراكها في الإمكان والحدوث فظهور التباين بينها وبين الخالق أجلى وأقوى.

الثاني: أن يقال: كيف يكون الرب الخالق الكامل من جميع الوجوه مشابهًا في صفاته للمخلوق المربوب الناقص المفتقر إلى من يُكَمِّله؟ وهل اعتقاد ذلك إلا تنقص لحق الخالق، فإن تشبيه الكامل بالناقص يجعله ناقصًا.

الثالث: أننا نشاهد في المخلوقات ما يتفق في الأسماء ويختلف في الحقيقة والكيفية، فنشاهد أن للإنسان يدًا ليست كيد الفيل، وله قوة ليست كقوة الجمل، مع الاتفاق في الاسم. فهذه يد وهذه يد، وهذه قوة وهذه قوة، وبينهما تباين في الكيفية والوصف، فعُلم بذلك أن الاتفاق في الاسم

لا يلزم منه الاتفاق في الحقيقة.

والتشبيه كالتمثيل، وقد يفرق بينهما بأن التمثيل التسوية في كل الصفات، والتشبيه التسوية في أكثر الصفات، لكن التعبير بنفي التمثيل أَوْلى لموافقة القرآن: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١].

وأما التكييف: فهو أن يعتقد المثبِت أن كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا، من غير أن يقيدها بمماثل.

وهذا اعتقاد باطل بدليل السمع والعقل.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦]، ومن المعلوم أنه لا علم لنا بكيفية صفات ربنا؛ لأنه تعالى أخبرنا عنها ولم يخبرنا عن كيفيتها، فيكون تكييفنا قفوًا لما ليس لنا به علم، وقولًا بما لا يمكننا الإحاطة به.

وأما العقل: فلأن الشيء لا تُعرف كيفية صفاته إلا بعد العلم بكيفية ذاته، أو العلم بنظيره المساوي له، أو بالخبر الصادق عنه. وكل هذه الطرق منتفية في كيفية صفات الله ﷻ، فوجب بطلان تكييفها.

وأيضًا فإننا نقول: أيُّ كيفية تقدرها لصفات الله تعالى؟

إن أيَّ كيفية تقدرها في ذهنك فالله أعظم وأجل من ذلك.

وأيَّ كيفية تقدرها لصفات الله تعالى فإنك ستكون كاذبًا فيها؛ لأنه لا علم لك بذلك.

وحينئذٍ يجب الكف عن التكييف تقديرًا بالجنان، أو تقريرًا باللسان أو تحريرًا بالبنان.

ولهذا لما سئل مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]: كيف استوى؟ أطرق رَحِمَهُ ٱللَّهُ برأسه حتى علاه الرحضاء (العرق) ثم قال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)، ورُوِيَ عن شيخه ربيعة أيضًا: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول). وقد مشى أهل العلم بعدهما على هذا الميزان.

وإذا كان الكيف غير معقول ولم يرد به الشرع، فقد انتفى عنه الدليلان العقلي والشرعي، فوجب الكف عنه.

فالحذر الحذر من التكييف أو محاولته، فإنك إن فعلت وقعت في مفاوز لا تستطيع الخلاص منها، وإن ألقاه الشيطان في قلبك فاعلم أنه من نزغاته، فالجأ إلى ربك فإنه معاذك، وافعل ما أمرك به فإنه طبيبك، قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ [فصلت: ٣٦].

القاعدة السابعة: صفات الله تعالى توقيفية لا مجال للعقل فيها، فلا نُثبت لله تعالى من الصفات إلا ما دل الكتاب والسنة على ثبوته.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث). انظر: القاعدة الخامسة في الأسماء.

ولدلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفة ثلاثة أوجه:

الأول: التصريح بالصفة، كالعزة والقوة والرحمة والبطش والوجه واليدين، ونحوها.

الثاني: تضمن الاسم لها، مثل: الغفور متضمن للمغفرة، والسميع متضمن للسمع، ونحو ذلك. انظر: القاعدة الثالثة في الأسماء.

الثالث: التصريح بفعل أو وصف دال عليها، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين العباد يوم القيامة، والانتقام من المجرمين، الدال عليها على الترتيب قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقول النبي ﷺ: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا**» الحديث. وقول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].



الفصل الثالث: قواعد في أدلة الأسماء والصفات

القاعدة الأولى: الأدلة التي تثبت بها أسماء الله تعالى وصفاته هي كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فلا تثبت أسماء الله وصفاته بغيرهما.

وعلى هذا: فما ورد إثباته لله تعالى من ذلك في الكتاب والسنة وجب إثباته.

وما ورد نفيه فيهما وجب نفيه مع إثبات كمال ضده.

وما لم يرد إثباته ولا نفيه فيهما وجب التوقف في لفظه، فلا يثبت ولا ينفى؛ لعدم ورود الإثبات والنفي فيه.

وأما معناه فيفصل فيه؛ فإن أريد به حقٌ يليق بالله تعالى فهو مقبول، وإن أريد به معنى لا يليق بالله ﷻ وجب ردّه.

فمما ورد إثباته لله تعالى: كل صفة دل عليها اسم من أسماء الله تعالى دلالة مطابقة أو تضمن أو التزام.

ومنه كل صفة دل عليها فعل من أفعاله، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين عباده يوم القيامة، ونحو ذلك من أفعاله التي لا تحصى أنواعها، فضلًا عن أفرادها ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. ومنه: الوجه والعينان واليدان ونحوها.

ومنه: الكلام والمشيئة والإرادة بقسميها الكوني والشرعي. فالكونية: بمعنى المشيئة. والشرعية: بمعنى المحبة.

ومنه: الرضا والمحبة والغضب والكراهة ونحوها(١).

(١) أدلة هذه مذكورة في مواضعها من كتب العقائد.

ومما ورد نفيه عن الله سبحانه لانتفائه وثبوت كمال ضده - الموت والنوم والسِّنة والعجز والإعياء والظلم والغفلة عن أعمال العباد، وأن يكون له مثيل أوكفؤٌ، أو نحو ذلك[1].

ومما لم يرد إثباته ولا نفيه لفظ: (الجهة)، فلو سأل سائل: هل نُثبت لله تعالى جهة؟ قلنا له: لفظ الجهة لم يرد في الكتاب والسنة إثباتًا ولا نفيًا، ويُغني عنه ما ثبت فيهما من أن الله تعالى في السماء. وأما معناه فإما أن يراد به جهة سفل أو جهة علو تحيط بالله، أو جهة علو لا تحيط به.

فالأول باطل؛ لمنافاته لعلو الله تعالى الثابت بالكتاب والسنة والعقل والفطرة والإجماع.

والثاني باطل أيضًا، لأن الله تعالى أعظم من أن يحيط به شيء من مخلوقاته.

والثالث حق لأن الله تعالى العلي فوق خلقه ولا يحيط به شيء من مخلوقاته.

ودليل هذه القاعدة السمع والعقل.

فأما السمع: فمنه قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ

(١) أدلة هذه مذكورة في مواضعها من كتب العقائد.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء ٥٩]، وقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩].

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على وجوب الإيمان بما جاء في القرآن والسنة.

وكل نص يدل على وجوب الإيمان بما جاء في القرآن فهو دال على وجوب الإيمان بما جاء في السنة؛ لأن مما جاء في القرآن الأمر باتباع النبي ﷺ والرد إليه عند التنازع. والرد إليه يكون إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته.

فأين الإيمان بالقرآن لمن استكبر عن اتباع الرسول ﷺ المأمور به في القرآن؟

وأين الإيمان بالقرآن لمن لم يرد النزاع إلى النبي ﷺ وقد أمر الله به في القرآن؟

وأين الإيمان بالرسول ﷺ الذي أمر به القرآن لمن لم يقبل ما جاء في سنته؟.

ولقد قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ﴾ [النحل: ٨٩]، ومن المعلوم أن كثيرًا من أمور الشريعة العلمية والعملية جاء بيانها بالسنة فيكون بيانها بالسنة من تبيان القرآن.

وأما العقل فنقول: إن تفصيل القول فيما يجب أو يمتنع أو يجوز في حق الله تعالى – من أمور الغيب التي لا يمكن إدراكها بالعقل، فوجب الرجوع فيه إلى ما جاء في الكتاب والسنة.

القاعدة الثانية: الواجب في نصوص القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف، لا سيما نصوص الصفات؛ حيث لا مجال للرأي فيها.

ودليل ذلك: السمع والعقل.

أما السمع: فقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣].

وهذا يدل على وجوب فهمه على ما يقتضيه ظاهره باللسان العربي إلا أن يمنع منه دليل شرعي.

وقد ذم الله تعالى اليهود على تحريفهم، وبَيَّن أنهم بتحريفهم من أبعد الناس عن الإيمان، فقال: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة:٧٥] وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ الآية [النساء: ٤٦].

وأما العقل فلأن المتكلم بهذه النصوص أعلم بمراده من غيره، وقد خاطبنا باللسان العربي المبين، فوجب قبوله على ظاهره، وإلا لاختلفت الآراء وتفرقت الأمة.

القاعدة الثالثة: ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار ومجهولة لنا باعتبار آخر، فباعتبار المعنى هي معلومة. وباعتبار الكيفية التي هي عليها مجهولة.

وقد دل على ذلك السمع والعقل.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ

﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾ [الزخرف: ٣]، وقوله جل ذكره: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. والتدبر لا يكون إلا فيما يمكن الوصول إلى فهمه ليتذكر الإنسان بما فهمه منه.

وكون القرآن عربيًّا ليعقله من يفهم العربية - يدل على أن معناه معلوم، وإلا لما كان فرق بين أن يكون باللغة العربية أو غيرها.

وبيان النبي ﷺ القرآن للناس شامل لبيان لفظه وبيان معناه.

وأما العقل: فلأن من المحال أن يُنَزِّل الله تعالى كتابًا، أو يتكلم رسوله ﷺ بكلام (يقصد بهذا الكتاب وهذا الكلام أن يكون هداية للخلق)، ويبقى في أعظم الأمور وأشدها ضرورة مجهول المعنى، بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يُفهم منها شيء؛ لأن ذلك من السفه الذي تأباه حكمة الله تعالى، وقد قال الله تعالى عن كتابه: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

هذه دلالة السمع والعقل على علمنا بمعاني نصوص الصفات.

وأما دلالتهما على جهلنا لها باعتبار الكيفية فقد سبقت في القاعدة السادسة من قواعد الصفات.

وبهذا عُلِم بطلان مذهب المفوضة الذين يفوضون علم معاني نصوص الصفات، ويَدَّعون أن هذا مذهب السلف. والسلف بريئون من هذا المذهب، وقد تواترت الأقوال عنهم بإثبات المعاني لهذه النصوص إجمالًا أحيانًا، وتفصيلًا أحيانًا، وتفويضهم الكيفية إلى علم الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما التفويض فمن المعلوم أن الله أمرنا بتدبر القرآن، وحضنا على عقله وفهمه، فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا

الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله؟!»[1]. **إلى أن قال:** (وحينئذٍ فيكون ما وصف الله به نفسه في القرآن، أو كثير مما وصف الله به نفسه - لا يعلم الأنبياء معناه، بل يقولون كلامًا لا يعقلون معناه» **قال:** «ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء، إذ كان الله أنزل القرآن وأخبر أنه جعله هدى وبيانًا للناس، وأمر الرسول ﷺ أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نُزِّل إليهم، وأمر بتدبر القرآن وعقله، ومع هذا فأشرف ما فيه وهو ما أخبر به الرب عن صفاته.. لا يعلم أحد معناه، فلا يعقل، ولا يتدبر، ولا يكون الرسول بَيَّنَ للناس ما نُزِّل إليهم، ولا بَلَّغ البلاغ المبين، وعلى هذا التقدير فيقول كل ملحد ومبتدع: الحق في نفس الأمر ما علمته برأيي وعقلي، وليس في النصوص ما يناقض ذلك؛ لأن تلك النصوص مشكلة متشابهة، ولا يعلم أحد معناها، وما لا يعلم أحد معناه لا يجوز أن يُسْتَدَل به، فيبقى هذا الكلام سدًّا لباب الهدى والبيان من جهة الأنبياء، وفتحًا لباب من يعارضهم، ويقول: إن الهدى والبيان في طريقنا لا في طريق الأنبياء؛ لأننا نحن نعلم ما نقول ونبينه بالأدلة العقلية، والأنبياء لم يعلموا ما يقولون فضلًا عن أن يبينوا مرادهم.

فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد»[2]. انتهى كلام الشيخ، وهو كلام سديد من ذي رأي رشيد، وما عليه مزيد، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجمعنا به في جنات النعيم.

---

(١) كتابه المعروف بـ«العقل والنقل» (١/ ١١٦) المطبوع على هامش «منهاج السنة».
(٢) كتابه المعروف بـ«العقل والنقل» (١/ ١١٨) المطبوع على هامش «منهاج السنة».

القاعدة الرابعة: ظاهر النصوص ما يتبادر منها إلى الذهن من المعاني وهو يختلف بحسب السياق وما يضاف إليه الكلام، فالكلمة الواحدة يكون لها معنى في سياق ومعنى آخر في سياق، وتركيب الكلام يفيد معنى على وجه ومعنى آخر على وجه.

فلفظ (القرية) مثلًا يراد به القوم تارة، ومساكن القوم تارة أخرى.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ﴾ [الإسراء: ٥٨].

ومن الثاني: قوله تعالى عن الملائكة ضيف إبراهيم: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَـٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ [العنكبوت: ٣١].

وتقول: صنعت هذا بيدي، فلا تكون اليد كاليد في قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، لأن اليد في المثال أضيفت إلى المخلوق فتكون مناسبة له، وفي الآية أضيفت إلى الخالق فتكون لائقة به، فلا أحد سليم الفطرة صريح العقل يعتقد أن يد الخالق كيد المخلوق، أو بالعكس.

وتقول: ما عندك إلا زيد، وما زيد إلا عندك. فتفيد الجملة الثانية معنى غير ما تفيده الأولى، مع اتحاد الكلمات، لكن اختلف التركيب فتغير المعنى به.

إذا تقرر هذا فظاهر نصوص الصفات ما يتبادر منها إلى الذهن من المعاني.

وقد انقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من جعلوا الظاهر المتبادر منها معنى حقًّا يليق بالله ﷻ، وأبقوا دلالتها على ذلك، وهؤلاء هم السلف الذين اجتمعوا على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، والذين لا يَصْدُقُ لقب أهل السنة والجماعة إلا عليهم. وقد أجمعوا على ذلك، كما نقله ابن عبد البر فقال: «أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان

بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئًا من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة» اهـ.

وقال القاضي أبو يعلى في كتاب «إبطال التأويل»: «لا يجوز رد هذه الأخبار، ولا التشاغل بتأويلها، والواجب حملها على ظاهرها، وأنها صفات الله لا تشبه صفات سائر الموصوفين بها من الخلق، ولا يعتقد التشبيه فيها، لكن على ما رُوِيَ عن الإمام أحمد وسائر الأئمة) اهـ نقل ذلك عن ابن عبد البر والقاضي شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتوى الحموية» (ص٨٧ - ٨٩، ج٥) من «مجموع الفتاوى» لابن القاسم.

وهذا هو المذهب الصحيح والطريق القويم الحكيم، وذلك لوجهين:

الأول: أنه تطبيق تام لما دل عليه الكتاب والسنة من وجوب الأخذ بما جاء فيهما من أسماء الله وصفاته، كما يعلم ذلك من تتبعه بعلم وإنصاف.

الثاني: أن يقال: إن الحق إما أن يكون فيما قاله السلف، أو فيما قاله غيرهم. والثاني باطل؛ لأنه يلزم منه أن يكون السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان تكلموا بالباطل تصريحًا أو ظاهرًا، ولم يتكلموا مرة واحدة لا تصريحًا ولا ظاهرًا بالحق الذي يجب اعتقاده. وهذا يستلزم أن يكونوا إما جاهلين بالحق، وإما عالمين به لكن كتموه، وكلاهما باطل، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم، فتعين أن يكون الحق فيما قاله السلف دون غيرهم.

القسم الثاني: من جعلوا الظاهر المتبادر من نصوص الصفات معنى باطلًا لا يليق بالله، وهو التشبيه، وأبقوا دلالتها على ذلك.

وهؤلاء هم المشبهة، ومذهبهم باطل، محرم من عدة أوجه:

الأول: أنه جناية على النصوص، وتعطيل لها عن المراد بها، فكيف يكون

المراد بها التشبيه وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

الثاني: أن العقل دل على مباينة الخالق للمخلوق في الذات والصفات، فكيف يحكم بدلالة النصوص على التشابه بينهما؟

الثالث: أن هذا المفهوم الذي فهمه المشبه من النصوص مخالف لما فهمه السلف منها، فيكون باطلًا.

فإن قال المشبِّه: أنا لا أعقل من نزول الله ويده إلا مثل ما للمخلوق من ذلك، والله تعالى لم يخاطبنا إلا بما نعرفه ونعقله.

فجوابه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الذي خاطبنا بذلك هو الذي قال عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ونهى عباده أن يضربوا له الأمثال، أو يجعلوا له أندادًا فقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤] وقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. وكلامه تعالى كله حق، يُصَدِّق بعضه بعضا ولا يتناقض.

ثانيها: أن يقال له: ألست تعقل لله ذاتًا لا تشبه الذوات؟ فسيقول: بلى. فيقال له: فلتعقل له صفات لا تشبه الصفات، فإن القول في الصفات كالقول في الذات، ومَن فرق بينهما فقد تناقض.

ثالثها: أن يقال: ألست تشاهد في المخلوقات ما يتفق في الأسماء ويختلف في الحقيقة والكيفية؟ فسيقول: بلى. فيقال له: إذا عقلت التباين بين المخلوقات في هذا، فلماذا لا تعقله بين الخالق والمخلوق، مع أن التباين بين الخالق والمخلوق أظهر وأعظم، بل التماثل مستحيل بين الخالق والمخلوق، كما سبق في القاعدة السادسة من قواعد الصفات.

القسم الثالث: من جعلوا المعنى المتبادر من نصوص الصفات معنى باطلًا

لا يليق بالله، وهو التشبيه، ثم إنهم من أجل ذلك أنكروا ما دلت عليه من المعنى اللائق بالله. وهم أهل التعطيل، سواء كان تعطيلهم عامًّا في الأسماء والصفات، أم خاصًّا فيهما، أو في أحدهما. فهؤلاء صرفوا النصوص عن ظاهرها إلى معانٍ عينوها بعقولهم، واضطربوا في تعيينها اضطرابًا كثيرًا، وسموا ذلك تأويلًا وهو في الحقيقة تحريف.

ومذهبهم باطل من وجوه:

أحدها: أنه جناية على النصوص، حيث جعلوها دالة على معنى باطل غير لائق بالله ولا مراد له.

الثاني: أنه صرف لكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ عن ظاهره. والله تعالى خاطب الناس بلسان عربيٍ مبين ليعقلوا الكلام ويفهموه على ما يقتضيه هذا اللسان العربي، والنبي ﷺ خاطبهم بأفصح لسان البشر، فوجب حمل كلام الله ورسوله ﷺ على ظاهره المفهوم بذلك اللسان العربي، غير أنه يجب أن يصان عن التكييف والتمثيل في حق الله ﷻ.

الثالث: أن صرف كلام الله ورسوله ﷺ عن ظاهره إلى معنى يخالفه قول على الله بلا علم، وهو محرم لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، ولقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

فالصارف لكلام الله تعالى ورسوله ﷺ عن ظاهره إلى معنى يخالفه قد قفا ما ليس له به علم، وقال على الله ما لا يعلم من وجهين:

الأول: أنه زعم أنه ليس المراد بكلام الله تعالى ورسوله ﷺ كذا، مع أنه ظاهر الكلام.

الثاني: أنه زعم أن المراد به كذا لمعنى آخر لا يدل عليه ظاهر الكلام. وإذا كان من المعلوم أن تعيين أحد المعنيين المتساويين في الاحتمال قولٌ بلا علم، فما ظنك بتعيين المعنى المرجوح المخالف لظاهر الكلام؟

مثال ذلك: قوله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] فإذا صرف الكلام عن ظاهره وقال: لم يرد باليدين اليدين الحقيقيتين، وإنما أراد كذا وكذا. قلنا له: ما دليلك على ما نفيت؟ وما دليلك على ما أثبت؟ فإن أتى بدليل وأنّى له ذلك، وإلا كان قائلًا على الله بلا علم في نفيه وإثباته.

الوجه الرابع في إبطال مذهب أهل التعطيل: أن صرف نصوص الصفات عن ظاهرها مخالف لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها، فيكون باطلًا؛ لأن الحق بلا ريب فيما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها.

الوجه الخامس: أن يقال للمعطل: هل أنت أعلم بالله من نفسه؟ فسيقول: لا.

ثم يقال له: هل ما أخبر الله ﷻ به عن نفسه صدق وحق؟ فسيقول: نعم.

ثم يقال له: هل تعلم كلامًا أفصح وأبين من كلام الله تعالى؟ فسيقول: لا.

ثم يقال له: هل تظن أن الله ﷻ أراد أن يعمي الحق على الخلق في هذه النصوص ليستخرجوه بعقولهم؟ فسيقول: لا.

هذا ما يقال له باعتبار ما جاء في القرآن.

أما باعتبار ما جاء في السنة فيقال له: هل أنت أعلم بالله من رسول الله ﷺ؟ فسيقول: لا.

ثم يقال له: هل ما أخبر به رسول الله عن الله صدق وحق؟ فسيقول: نعم.

ثم يقال له: هل تعلم أن أحدًا من الناس أفصح كلامًا وأبين من رسول الله ﷺ؟ فسيقول: لا.

ثم يقال له: هل تعلم أن أحدًا من الناس أنصح لعباد الله من رسول الله ﷺ؟ فسيقول: لا.

فيقال له: إذا كنت تُقر بذلك، فلماذا لا يكون عندك الإقدام والشجاعة في إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ على حقيقته وظاهره اللائق بالله؟ وكيف يكون عندك الإقدام والشجاعة في نفي حقيقته تلك وصرفه إلى معنى يخالف ظاهره بغير علم؟ وماذا يضيرك إذا أثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه في كتابه أو سنة نبيه ﷺ، على الوجه اللائق به فأخذت بما جاء في الكتاب والسنة إثباتًا ونفيا؟ أفليس هذا أسلم لك وأقوم لجوابك إذا سئلت يوم القيامة: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]؟ أو ليس صرفك لهذه النصوص عن ظاهرها وتعيين معنى آخر مخاطرة منك، فلعل المراد يكون على تقدير جواز صرفها إلى غير ما صرفتها إليه.

الوجه السادس في إبطال مذهب أهل التعطيل: أنه يلزم عليه لوازم باطلة، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم.

فمن هذه اللوازم:

أولًا: أن أهل التعطيل لم يصرفوا نصوص الصفات عن ظاهرها إلا حيث اعتقدوا أنه مستلزم أو موهم لتشبيه الله تعالى بخلقه، وتشبيه الله تعالى بخلقه كفر؛ لأنه تكذيب لقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]. قال نعيم ابن حماد الخزاعي أحد مشايخ البخاري رحمهما الله: (مَن شَبَّه

الله بخلقه فقد كفر، ومَن جَحَد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهًا اهـ.

ومن المعلوم أن مَن أبطل الباطل أن يجعل ظاهر كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ تشبيهًا وكفرًا أو موهما لذلك.

ثانيًا: أن كتاب الله تعالى الذي أنزله تبيانًا لكل شيء، وهدى للناس، وشفاء لما في الصدور، ونورًا مبينًا، وفرقانًا بين الحق والباطل - لم يبين الله تعالى فيه ما يجب على العباد اعتقاده في أسمائه وصفاته، وإنما جعل ذلك موكولًا إلى عقولهم، يثبتون لله ما يشاءون، وينكرون ما لا يريدون. وهذا ظاهر البطلان.

ثالثًا: أن النبي ﷺ وخلفاءه الراشدين وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها كانوا قاصرين أو مقصرين في معرفة وتبيين ما يجب لله تعالى من الصفات، أو يمتنع عليه، أو يجوز. إذ لم يرد عنهم حرف واحد فيما ذهب إليه أهل التعطيل في صفات الله تعالى وسمّوه تأويلًا.

وحينئذٍ إما أن يكون النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون وسلف الأمة وأئمتها قاصرين لجهلهم بذلك، وعجزهم عن معرفته، أو مقصرين لعدم بيانهم للأمة. وكلا الأمرين باطل.

رابعًا: أن كلام الله ورسوله ﷺ ليس مرجعا للناس فيما يعتقدونه في ربهم وإلههم، الذي معرفتهم به من أهم ما جاءت به الشرائع، بل هو زبدة الرسالات. وإنما المرجع تلك العقول المضطربة المتناقضة، وما خالفها فسبيله التكذيب إن وجدوا إلى ذلك سبيلًا، أو التحريف الذي يسمونه تأويلًا إن لم يتمكنوا من تكذيبه.

خامسًا: أنه يلزم منه جواز نفي ما أثبته الله ورسوله ﷺ، فيقال في قوله

تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]: إنه لا يجيء. وفي قوله ﷺ: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا...**»: إنه لا ينزل. لأن إسناد المجيء والنزول إلى الله مجاز عندهم. وأظهر علامات المجاز عند القائلين به صحة نفيه. ونفي ما أثبته الله ورسوله ﷺ من أبطل الباطل، ولا يمكن الانفكاك عنه بتأويله إلى أمره؛ لأنه ليس في السياق ما يدل عليه.

ثم إن من أهل التعطيل من طرد قاعدته في جميع الصفات، أو تعدى إلى الأسماء أيضًا.

ومنهم من تناقض فأثبت بعض الصفات دون بعض، كالأشعرية والماتريدية، أثبتوا ما أثبتوه بحجة أن العقل يدل عليه، ونفوا ما نفوه بحجة أن العقل ينفيه أو لا يدل عليه.

فنقول لهم: نفيكم لما نفيتموه بحجة أن العقل لا يدل عليه - يمكن إثباته بالطريق العقلي الذي أثبتم به ما أثبتموه، كما هو ثابت بالدليل السمعي.

مثال ذلك: أنهم أثبتوا صفة الإرادة، ونفوا صفة الرحمة.

أثبتوا صفة الإرادة لدلالة السمع والعقل عليها.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وأما العقل: فإن اختلاف المخلوقات وتخصيص بعضها بما يختص به من ذات أو وصف دليل على الإرادة.

ونفوا الرحمة قالوا: لأنها تستلزم لين الراحم ورقته للمرحوم، وهذا محال في حق الله تعالى.

وأولوا الأدلة السمعية المثبتة للرحمة إلى الفعل، أو إرادة الفعل، ففسروا الرحيم بالمنعم، أو مريد الإنعام.

فنقول لهم: الرحمة ثابتة لله تعالى بالأدلة السمعية، وأدلة ثبوتها أكثر عددًا

وتنوعًا من أدلة الإرادة.

فقد وردت بالاسم مثل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١] والصفة مثل: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ [الكهف: ٥٨]، والفعل مثل: ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [العنكبوت: ٢١].

ويمكن إثباتها بالعقل، فإن النعم التي تترى على العباد من كل وجه، والنقم التي تدفع عنهم في كل حين - دالة على ثبوت الرحمة لله ﷻ، ودلالتها على ذلك أبين وأجلى من دلالة التخصيص على الإرادة؛ لظهور ذلك للخاصة والعامة، بخلاف دلالة التخصيص على الإرادة، فإنه لا يظهر إلا لأفراد من الناس.

وأما نفيها بحجة أنها تستلزم اللين والرقة فجوابه: أن هذه الحجة لو كانت مستقيمة لأمكن نفي الإرادة بمثلها، فيقال: الإرادة ميل المريد إلى ما يرجو به حصول منفعة أو دفع مضرة. وهذا يستلزم الحاجة، والله تعالى منزه عن ذلك.

فإن أجيب: بأن هذه إرادة المخلوق. أمكن الجواب بمثله في الرحمة، بأن الرحمة المستلزمة للنقص هي رحمة المخلوق.

وبهذا تبين بطلان مذهب أهل التعطيل، سواء كان تعطيلًا عاما أم خاصًّا.

وبه عُلِم أن طريق الأشاعرة والماتريدية في أسماء الله وصفاته وما احتجوا به لذلك لا تندفع به شُبِّه المعتزلة والجهمية، وذلك من وجهين:

أحدهما: أنه طريق مبتدع لم يكن عليه النبي ﷺ ولا سلف الأمة وأئمتها، والبدعة لا تُدفع بالبدعة، وإنما تُدفع بالسنة.

الثاني: أن المعتزلة والجهمية يمكنهم أن يحتجوا لما نفوه على الأشاعرة والماتريدية بمثل ما احتج به الأشاعرة والماتريدية لما نفوه على أهل السنة،

فيقولون: لقد أبحتم لأنفسكم نفي ما نفيتم من الصفات بما زعمتموه دليلًا عقليًّا، وأولتم دليله السمعي، فلماذا تحرمون علينا نفي ما نفيناه بما نراه دليلًا عقليا، ونؤول دليله السمعي؟! فلنا عقول كما أن لكم عقولًا، فإن كانت عقولنا خاطئة فكيف كانت عقولكم صائبة؟ وإن كانت عقولكم صائبة فكيف كانت عقولنا خاطئة؟ وليس لكم حجة في الإنكار علينا سوى مجرد التحكم واتباع الهوى.

وهذه حجة دامغة، وإلزام صحيح من الجهمية والمعتزلة للأشعرية والماتريدية، ولا مدفع لذلك ولا محيص عنه، إلا بالرجوع لمذهب السلف الذين يطردون هذا الباب، ويثبون لله تعالى من الأسماء والصفات ما أثبته لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ إثباتًا لا تمثيل فيه ولا تكييف، وتنزيهًا لا تعطيل فيه ولا تحريف.

ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

الفصل الرابع: تنبيه

عُلِم مما سبق أن كل معطل ممثل، وكل ممثل معطل.

أما تعطيل المعطل فظاهر، وأما تمثيله فلأنه إنما عطل لاعتقاده أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه، فمَثَّل أولًا، وعَطَّل ثانيًا، كما أنه بتعطيله مَثَّلَهُ بالناقص.

وأما تمثيل الممثل فظاهر، وأما تعطيله فمن ثلاثة أوجه:

الأول: أنه عطل نفس النص الذي أُثبتت به الصفة، حيث جعله دالًّا على التمثيل، مع أنه لا دلالة فيه عليه، وإنما يدل على صفة تليق بالله ﷻ.

الثاني: أنه عطل كل نص يدل على نفي مماثلة الله لخلقه.

الثالث: أنه عطل الله تعالى عن كماله الواجب، حيث مثله بالمخلوق الناقص.

فصل:

اعلم أن بعض أهل التأويل أورد على أهل السنة شبهة في نصوص من الكتاب والسنة في الصفات، ادعى أن أهل السنة صرفوها عن ظاهرها؛ ليُلزم أهل السنة بالموافقة على التأويل أو المداهنة فيه. وقال: كيف تنكرون علينا تأويل ما أولناه مع ارتكابكم لمثله فيما أولتموه؟

ونحن نجيب بعون الله تعالى عن هذه الشبهة بجوابين: مجمل ومفصل.

أما المجمل فيتلخص في شيئين:

أحدهما: أن لا نُسَلِّم أن تفسير السلف لها صرف عن ظاهرها، فإن ظاهر الكلام ما يتبادر منه من المعنى، وهو يختلف بحسَب السياق وما يضاف إليه الكلام، فإن الكلمات يختلف معناها بحسب تركيب الكلام، والكلام مركب من كلمات وجمل، يظهر معناها ويتعين بضم بعضها إلى بعض.

ثانيهما: أننا لو سَلَّمنا أن تفسيرهم صرف عن ظاهرها، فإن لهم في ذلك دليلًا من الكتاب والسنة، إما متصلًا، وإما منفصلًا، وليس لمجرد شبهات يزعمها الصارف براهين وقطعيات يتوصل بها إلى نفي ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

وأما المفصل: فعلى كل نص ادعى أن السلف صرفوه عن ظاهره.

ولنمثل بالأمثلة التالية: فنبدأ بما حكاه أبو حامد الغزالى عن بعض الحنبلية أنه قال: «إن أحمد لم يتأول إلا في ثلاثة أشياء: الحجر الأسود يمين الله في الأرض. وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن. وإني أجد نَفَسَ

الرحمن من قِبل اليمن»[١].

المثال الأول: الحجر الأسود يمين الله في الأرض[٢].

---

(١) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو: أحمد (٢/ ١٦٨، و١٧٣)، ومسلم (٢٦٥٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٣٤٠).
وأخرجه من حديث أم سلمة: أحمد (٦/ ٣٠٢، و٣١٥)، والترمذي (٣٥٢٢).
وأخرجه من حديث النواس بن سمعان: ابن ماجه (١٩٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٣٤١).
وأخرجه أحمد (٦/ ٢٥١) من حديث عائشة، والترمذي (٢١٤٠) من حديث أنس، والحاكم (٢/ ٢٨٨- ٢٨٩) من حديث جابر.

(٢) الحديث رُوي مرفوعًا وموقوفًا:
أما المرفوع فرُوي من طرق:
أ - جابر بن عبد الله:
رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٣٢٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» كما نقله الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (٢/ ١٢٩).
ورواه أيضًا ابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٤٢)، وقال: إنه من رواية إسحاق بن بشر وهو في عداد من يضع الحديث. اهـ.
ورواه أيضًا الديلمي في «الفردوس» (٢/ ١٥٩).
وقال الذهبي في «تلخيص العلل» (ص١٩١): فيه إسحاق بن بشر - كذاب. اهـ.
وقال خلدون الأحدب في «زوائد تاريخ بغداد» (٥/ ٣٢١): إن الحديث موضوع.
ب - عبد الله بن عمرو:
رواه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٢٨).
وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ١٧٩): حديث «الحجر يمين الله في الأرض»، رواه الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو. اهـ.
ورواه أيضًا ابن خزيمة في «صحيحه» (٤/ ٢٢١)، والطبراني في «المعجم =

. . . .

= الأوسط» (١/ ١٧٨) من طبعة دار الحرمين، و(١/ ٣٣٧) من طبعة الطحان.
رواه الديلمي في «الفردوس» (٢/ ١٥٩).
ورُوي موقوفًا أيضًا من طريق ابن عباس.
فقد رواه ابن قتيبة في «غريب الحديث» (٢/ ٩٦)، والأزرقي في «تاريخ مكة» (١/ ٣٢٤).
وقال البوصيري في «إتحاف المهرة» (٤/ ٧٥): رواه محمد بن يحيى بن أبي عمر موقوفًا بإسناد الصحيح. اهـ.
وقال الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» من النسخة المسندة (٢/ ٣٧): هذا موقوف صحيح. اهـ.
وفي حاشية النسخة المجردة من الإسناد (١/ ٣٤٠)، قال: هذا موقوف جيد. اهـ.
وعزاه العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٣٤٩) إلى القضاعي والحارث بن أبي أسامة ولم أره في بغية الباحث ولا الإتحاف ولا المطالب.
وقد صحح الحديث موقوفًا السخاوي كما نقله عنه ابن الديبع في «تمييز الطيب من الخبيث» (ص٧٧).
وقال العجلوني: الحديث له شواهد فهو حديث حسن وإن كان ضعيفًا بحسب أصله، ومثله مما لا مجال للرأي فيه. اهـ.
والخلاصة أن الحديث صحح موقوفًا ومثله لا مجال للرأي فيه.
وأما مرفوعًا فقد اختلف فيه على أقوال:
١- أنه صحيح كما نقله العراقي عن الحاكم، وهو قول ابن خزيمة لأنه في صحيحه.
٢ - أنه حسن كما هو قول العجلوني.
٣ - أنه باطل وبه قال ابن الجوزي وابن العربي.
قالوا: فظاهر الأثر أن الحجر نفسه يمين الله في الأرض، وهذا معنى فاسد فيكون غير مراد. وقد ذكر ابن رجب في «طبقات الحنابلة» (٣/ ١٧٤) أن ابن الفاعوس الحنبلي، ت سنة (٥٢١هـ) كان يسمى بالحجري لأنه كان يقول: الحجر الأسود يمين الله حقيقة. وسننقل في الملحق نص كلامه.
والرد على المعطلة من وجهين ذكرهما المؤلف: =

والجواب عنه: أنه حديث باطل، لا يثبت عن النبي ﷺ.

قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: (هذا حديث لا يصح). وقال ابن العربي: «حديث باطل، فلا يُلتفت إليه». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (رُوي عن النبي ﷺ بإسناد لا يثبت) اهـ. وعلى هذا فلا حاجة للخوض في معناه.

لكن قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والمشهور [يعني: في هذا الأثر] إنما هو عن ابن عباس، قال: الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقَبَّله فكأنما صافح الله وقَبَّل يمينه. ومن تدبر اللفظ المنقول تبين له أنه لا إشكال فيه، فإنه قال: يمين الله في الأرض، ولم يطلق فيقول: يمين الله، وحكم اللفظ المقيد يخالف حكم المطلق، ثم «فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه»، وهذا صريح في أن المصافح لم يصافح يمين الله أصلًا، ولكن شبه بمن يصافح الله. فأول الحديث وآخره يبين أن الحجر ليس من صفات الله تعالى، كما هو معلوم عند كل عاقل) اهـ (ص ٣٩٨، ج٦) مجموع الفتاوى.

= أ-... عدم صحة الحديث وسيأتي أن بعض أهل العلم قد صححه.

ب-... على فرض صحته فقد قيده في الأرض ولم يطلق وسيأتي أنه قد أطلق في بعض الأحاديث ومع ذلك فإنه لا يدل على أن الحجر صفة لله.

وراجع «مجموع الفتاوى» (٣/ ٤٣- ٤٤)، و(٦/ ٣٩٧- ٤٠٠، ٥٨٠- ٥٨١)، و«درء التعارض» (٥/ ٢٣٩)، و«الاستغاثة» (ص٣٨٧)، ومسألة المعية والنزول (المجموعة العلمية الأولى (ص٧٥)، و«جامع المسائل» (المجموعة الثالثة / ١٦٣)، و«عدة الصابرين» (ص٨٣)، ونقض الدارمي (١/ ٢٨٢)، (٢/ ٦٩٥)، و«شرح الرسالة التدمرية» (ص٢١٧- ٢١٩).

المثال الثاني: «قلوب العباد بين إصبعين[١] من أصابع الرحمن»[٢].

والجواب: أن هذا الحديث صحيح، رواه مسلم في الباب الثاني من كتاب القدر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء**»، ثم قال رسول ﷺ: «**اللهم مصرف القلوب صَرِّف قلوبنا على طاعتك**».

وقد أخذ السلف أهل السنة بظاهر الحديث، وقالوا: إن لله تعالى أصابع حقيقة، نثبتها له كما أثبتها له رسوله ﷺ. ولا يلزم من كون قلوب بني آدم بين إصبعين منها أن تكون مماسة لها، حتى يقال: إن الحديث موهم للحلول فيجب صرفه عن ظاهره. فهذا السحاب مسخر بين السماء والأرض وهو لا يمس السماء ولا الأرض. ويقال: بدر بين مكة والمدينة، مع تباعد ما بينها وبينهما. فقلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن حقيقة، ولا يلزم من ذلك مماسة ولا حلول.

المثال الثالث: «إني أجد نَفَسَ الرحمن من قِبل اليمن».

والجواب: أن هذا الحديث رواه الإمام أحمد في المسند من حديث أبي

---

(١) أصبع مثلث الهمزة والباء، ففيه تسع لغات، والعاشرة أصبوع كما قيل:
وهمز أنملة ثلث وثالثة التسع في أصبع واختم بأصبوع، أصبوع بضم الهمزة.

(٢) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو أحمد (٢/ ١٦٨، و١٧٣)، ومسلم (٢٦٥٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٣٤٠).
وأخرجه من حديث أم سلمة أحمد (٦/ ٣٠٢، و٣١٥)، والترمذي (٣٥٢٢).
وأخرجه من حديث النواس بن سمعان: ابن ماجه (١٩٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٣٤١).
وأخرجه أحمد (٦/ ٢٥١) من حديث عائشة، والترمذي (٢١٤٠) من حديث أنس، والحاكم (٢/ ٢٨٨- ٢٨٩) من حديث جابر.

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبي ﷺ: «**ألا إن الإيمان يمان، والحكمة يمانية، وأجد نَفَسَ ربكم من قِبل اليمن**».

قال في «مجمع الزوائد»: (رجاله رجال الصحيح، غير شبيب وهو ثقة).
قلت: وكذا قال في «التقريب» عن شبيب: (ثقة، من الثالثة، وقد روى البخاري نحوه في التاريخ الكبير).

وهذا الحديث على ظاهره، والنفَس فيه اسم مصدر نَفَّس ينفس تنفيسًا ونَفَسًا، مثل فرّج يفرج تفريجًا وفَرَجًا. هكذا قال أهل اللغة، كما في «النهاية» و«القاموس» و«مقاييس اللغة»، قال في مقاييس اللغة: (النَّفَس: كل شيء يفرج به عن مكروب). فيكون معنى الحديث: أن تنفيس الله تعالى عن المؤمنين يكون من أهل اليمن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهؤلاء هم الذين قاتلوا أهل الردة، وفتحوا الأمصار، فبهم نَفَّسَ الرحمن عن المؤمنين الكربات» اهـ[1].

المثال الرابع: قوله: تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩].

والجواب: أن لأهل السنة في تفسيرها قولين:

أحدهما: أنها بمعنى ارتفع إلى السماء. وهو الذي رجحه ابن جرير، قال في تفسيره بعد أن ذكر الخلاف: (وأولى المعاني بقول الله جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾: علا عليهن وارتفع، فدبرهن بقدرته، وخلقهن سبع سماوات) اهـ. وذكره البغوي في تفسيره قول ابن عباس وأكثر مفسري السلف، وذلك تمسكًا بظاهر لفظ ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾، وتفويضًا لعلم كيفية هذا الارتفاع إلى الله ﷻ.

---

(١) (ص٣٩٨، ج٦) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» لابن قاسم.

القول الثاني: أن الاستواء هنا بمعنى القصد التام. وإلى هذا القول ذهب ابن كثير في تفسير سورة البقرة، والبغوي في تفسير سورة فصلت، قال ابن كثير: (أي: قصد إلى السماء، والاستواء هاهنا ضُمِّنَ معنى القصد والإقبال؛ لأنه عُدي بإلى)[(١)]. وقال البغوي: (أي: عمد إلى خلق السماء)[(٢)].

وهذا القول ليس صرفًا للكلام عن ظاهره؛ لأن الفعل ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ اقترن بحرف يدل على الغاية والانتهاء، فانتقل إلى معنى يناسب الحرف المقترن به، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، حيث كان معناها يَروَى بها عباد الله؛ لأن الفعل ﴿يَشْرَبُ﴾ اقترن بالباء فانتقل إلى معنى يناسبها وهو يَرْوَى، فالفعل يُضَمَّن معنى يناسب معنى الحرف المتعلق به ليلتئم الكلام.

المثال الخامس والسادس: قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله في سورة المجادلة: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

والجواب: أن الكلام في هاتين الآيتين حق على حقيقته وظاهره، ولكن ما حقيقته وظاهره؟

هل يقال: إن ظاهره وحقيقته أن الله تعالى مع خلقه معية تقتضي أن يكون مختلطًا بهم، أو حالًّا في أمكنتهم؟

أو يقال: إن ظاهره وحقيقته أن الله تعالى مع خلقه معية تقتضي أن يكون محيطًا بهم علمًا وقدرةً وسمعًا وبصرًا وتدبيرًا وسلطانًا... وغير ذلك من

---

(١) «تفسير ابن كثير» ت سلامة (١/ ٢١٣).

(٢) «تفسير البغوي» طيبة (١/ ٧٨).

معاني ربوبيته، مع علوه على عرشه فوق جميع خلقه؟

ولا ريب أن القول الأول لا يقتضيه السياق، ولا يدل عليه بوجه من الوجوه؛ وذلك لأن المعية هنا أضيفت إلى الله ﷻ، وهو أعظم وأجلّ من أن يحيط به شيء من مخلوقاته، ولأن المعية في اللغة العربية التي نزل بها القرآن لا تستلزم الاختلاط أو المصاحبة في المكان، وإنما تدل على مطلق المصاحبة، ثم تفسر في كل موضع بحسبه.

وتفسير معية الله تعالى لخلقه بما يقتضي الحلول والاختلاط باطل من وجوه:

الأول: أنه مخالف لإجماع السلف. فما فسرها أحد منهم بذلك، بل كانوا مجمعين على إنكاره.

الثاني: أنه منافٍ لعلو الله تعالى الثابت بالكتاب، والسنة، والعقل، والفطرة، وإجماع السلف. وما كان منافيًا لما ثبت بدليل كان باطلًا بما ثبت به ذلك المنافي.

وعلى هذا فيكون تفسير معية الله لخلقه بالحلول والاختلاط باطلًا بالكتاب والسنة والعقل والفطرة وإجماع السلف.

الثالث: أنه مستلزم للوازم باطلة لا تليق بالله سبحانه تعالى.

ولا يمكن لمن عرف الله تعالى وقدره حق قدره، وعرف مدلول المعية في اللغة العربية التي نزل بها القرآن - أن يقول: إن حقيقة معية الله لخلقه تقتضي أن يكون مختلطًا بهم أو حالًّا في أمكنتهم، فضلًا عن أن تستلزم ذلك. ولا يقول ذلك إلا جاهل باللغة، وجاهل بعظمة الرب جل وعلا.

فإذا تبين بطلان هذا القول تعين أن يكون الحق هو القول الثاني، وهو أن الله تعالى مع خلقه معية تقتضي أن يكون محيطًا بهم علمًا وقدرة وسمعًا وبصرًا وتدبيرًا وسلطانًا، وغير ذلك مما تقتضيه ربوبيته مع علوه على عرشه

فوق جميع خلقه.

وهذا هو ظاهر الآيتين بلا ريب؛ لأنهما حق، ولا يكون ظاهر الحق إلا حقًّا، ولا يمكن أن يكون الباطل ظاهر القرآن أبدًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد، فلما قال: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤] دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم، شهيد عليكم، ومهيمن، عالم بكم، وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه[١]، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته. وكذلك في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ الآية.

ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: «**لا تحزن إن الله معنا**» كان هذا أيضًا حقًّا على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع والنصر والتأييد ثم قال: «فلفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع يقتضي في كل موضع أمورًا لا يقتضيها في الموضع الآخر. فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها، وإن امتاز كل موضع بخاصية، فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب ﷻ مختلطة بالخلق، حتى يقال: قد صُرفت عن ظاهرها»[٢]. اهـ.

---

(١) كان هذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه. لأنه إذا كان معلومًا أن الله تعالى معنا مع علوه، لم يبقَ إلا أن يكون مقتضى هذه المعية أنه تعالى عالم بنا، مطلع شهيد، مهيمن، لا أنه معنا بذاته في الأرض.

(٢) في «الفتوى الحموية» (ص١٠٣، ج٥) من «مجموع الفتاوى» لابن القاسم.

ويدل على أنه ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب ﷻ مختلطة بالخلق: أن الله تعالى ذكرها في آية المجادلة بين ذكر عموم علمه في أول الآية وآخرها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧].

فيكون ظاهر الآية: أن مقتضى هذه المعية علمه بعباده، وأنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، لا أنه سبحانه مختلط بهم، ولا أنه معهم في الأرض.

أما في آية الحديد فقد ذكرها الله تعالى مسبوقة بذكر استوائه على عرشه وعموم علمه، متلوة ببيان أنه بصير بما يعمل العباد، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤].

فيكون ظاهر الآية: أن مقتضى المعية علمه بعباده وبصره بأعمالهم مع علوه عليهم واستوائه على عرشه، لا أنه سبحانه مختلط بهم، ولا أنه معهم في الأرض، وإلا لكان آخر الآية مناقضًا لأولها، الدال على علوه واستوائه على عرشه.

فإذًا تبين لك أن مقتضى كونه تعالى مع عباده أنه يعلم أحوالهم، ويسمع أقوالهم، ويرى أفعالهم، ويدبر شؤونهم، فيحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء... إلى غير ذلك مما تقتضيه ربوبيته وكمال سلطانه، لا يحجبه عن

خلقه شيء. ومن كان هذا شأنه فهو مع خلقه حقيقة ولو كان فوقهم على عرشه حقيقة(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكل هذا الكلام الذي ذكره الله سبحانه من أنه فوق العرش، وأنه معنا - حق على حقيقته، لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة»(٢). اهـ.

وقال في «الفتوى الحموية» (ص ١٠٢ - ١٠٣، ج ٥) من المجموع المذكور: «وجماع الأمر في ذلك: أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه، وقصد اتباع الحق، وأعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد في أسماء الله وآياته.

ولا يحسب الحاسب أن شيئًا من ذلك يناقض بعضه بعضًا البتة، مثل أن يقول القائل: ما في الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه الظاهر من قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، وقوله ﷺ: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قِبَلَ وجهه**» ونحو ذلك، فإن هذا غلط. وذلك: أن الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة، كما جمع الله بينهما في قوله سبحانه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤].

فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا، كما قال النبي ﷺ في حديث الأوعال: «**والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه**». اهـ.

---

(١) وقد سبق أن المعية في اللغة العربية لا تستلزم الاختلاط أو المصاحبة في المكان.

(٢) في «العقيدة الواسطية» (ص١٤٢، ج٣) من «مجموع الفتاوى» لابن قاسم، في فصل الكلام على المعية.

واعلم أن تفسير المعية بظاهرها على الحقيقة اللائقة بالله تعالى لا يناقض ما ثبت من علو الله تعالى لذاته على عرشه، وذلك من وجوه ثلاثة:

الأول: أن الله تعالى جمع بينهما بنفسه في كتابه المبين المنزه عن التناقض، وما جمع الله بينهما في كتابه فلا تناقض بينهما.

وكل شيء في القرآن تظن فيه التناقض فيما يبدو لك فتدبره حتى يتبين لك لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، فإن لم يتبين لك فعليك بطريق الراسخين في العلم، الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]. وكِلِ الأمر إلى مُنْزِلِه الذي يعلمه.

واعلم أن القصور في علمك أو في فهمك وأن القرآن لا تناقض فيه.

وإلى هذا الوجه أشار شيخ الإسلام في قوله فيما سبق: (كما جمع الله بينهما). وكذلك ابن القيم كما في «مختصر الصواعق» لابن الموصلي (ص ٤١٠، ط الإمام) في سياق كلامه على المثال التاسع مما قيل: إنه مجاز، قال: «وقد أخبر الله أنه مع خلقه مع كونه مستويًا على عرشه، وقرن بين الأمرين كما قال تعالى وذكر آية سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]، ثم قال: «فأخبر أنه خلق السماوات والأرض، وأنه استوى على عرشه، وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه، كما في حديث الأوعال: «**والله فوق العرش يرى ما أنتم عليه**»، فعلوه لا يناقض معيته، ومعيته لا تبطل علوه، بل كلاهما حق» اهـ.

الوجه الثاني: أن حقيقة معنى المعية لا تناقض العلو، فالاجتماع بينهما ممكن في حق المخلوق، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا. ولا يعد ذلك

تناقضًا، ولا يفهم منه أحد أن القمر نزل في الأرض. فإذا كان هذا ممكنًا في حق المخلوق، ففي حق الخالق المحيط بكل شيء مع علوه سبحانه من باب أَوْلى؛ وذلك لأن حقيقة المعية لا تستلزم الاجتماع في المكان.

وإلى هذا الوجه أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتوى الحموية» (ص١٠٣) المجلد الخامس من «مجموع الفتاوى» لابن القاسم، حيث قال: (وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قُيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو النجم معنا. ويقال: هذا المتاع معي؛ لمجامعته لك وإن كان فوق رأسك، فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة). اهـ.

وصدق رحمه الله تعالى، فإن من كان عالمًا بك، مطلعًا عليك، مهيمنًا عليك، يسمع ما تقول، ويرى ما تفعل، ويدبر جميع أمورك؛ فهو معك حقيقة، وإن كان فوق عرشه حقيقة؛ لأن المعية لا تستلزم الاجتماع في المكان.

الوجه الثالث: أنه لو فرض امتناع اجتماع المعية والعلو في حق المخلوق، لم يلزم أن يكون ذلك ممتنعًا في حق الخالق، الذي جمع لنفسه بينهما؛ لأن الله تعالى لا يماثله شيء من مخلوقاته، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وإلى هذا الوجه أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في «العقيدة الواسطية» (ص ١٤٣، ج ٣) من «مجموع الفتاوى»، حيث قال: (وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه) اهـ.

تتمة:

انقسم الناس في معية الله تعالى لخلقه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يقولون: إن معية الله تعالى لخلقه مقتضاها العلم والإحاطة في المعية العامة، ومع النصر والتأييد في المعية الخاصة، مع ثبوت علوه بذاته، واستوائه على عرشه.

وهؤلاء هم السلف، ومذهبهم هو الحق، كما سبق تقريره.

القسم الثاني: يقولون: إن معية الله لخلقه مقتضاها أن يكون معهم في الأرض، مع نفي علوه واستوائه على عرشه.

وهؤلاء هم الحلولية من قدماء الجهمية وغيرهم. ومذهبهم باطل منكر، أجمع السلف على بطلانه وإنكاره، كما سبق.

القسم الثالث: يقولون: إن معية الله لخلقه مقتضاها أن يكون معهم في الأرض، مع ثبوت علوه فوق عرشه. ذكر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٢٢٩، ج ٥) من «مجموع الفتاوى».

وقد زعم هؤلاء أنهم أخذوا بظاهر النصوص في المعية والعلو. وكَذَبوا في ذلك فضلّوا، فإن نصوص المعية لا تقتضي ما ادعوه من الحلول؛ لأنه باطل، ولا يمكن أن يكون ظاهر كلام الله ورسوله ﷺ باطلًا.

تنبيه:

اعلم أن تفسير السلف لمعية الله تعالى لخلقه بأنه معهم بعلمه لا يقتضي الاقتصار على العلم، بل يقتضي أيضًا إحاطته بهم سمعًا وبصرًا وقدرةً وتدبيرًا، ونحو ذلك من معاني ربوبيته.

أشرت فيما سبق إلى أن علو الله تعالى ثابت بالكتاب والسنة والعقل والفطرة والإجماع:

أما الكتاب: فقد تنوعت دلالته على ذلك.

فتارة بلفظ العلو والفوقية والاستواء على العرش، وكونه في السماء، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦].

وتارة بلفظ صعود الأشياء وعروجها ورفعها إليه، كقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وتارة بلفظ نزول الأشياء منه، ونحو ذلك، كقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢] ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥].

وأما السنة: فقد دلت عليه بأنواعها القولية والفعلية والإقرارية في أحاديث كثيرة تبلغ حد التواتر، وعلى وجوه متنوعة، كقوله ﷺ في سجوده: «**سبحان ربي الأعلى**». وقوله: «**إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي**». وقوله: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟!**». وثبت عنه أنه رفع يديه وهو على المنبر يوم الجمعة يقول: «**اللهم أغثنا**». وأنه رفع يده إلى السماء وهو يخطب الناس يوم عرفة حين قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال: «**اللهم اشهد**». وأنه قال للجارية: «**أين الله؟**» قالت: في السماء. فأقرها، وقال لسيدها: «**أعتقها فإنها مؤمنة**».

وأما العقل: فقد دل على وجوب صفة الكمال لله تعالى وتنزيهه عن النقص. والعلو صفة كمال، والسفل نقص، فوجب لله تعالى صفة العلو، وتنزيهه عن ضده.

وأما الفطرة: فقد دلت على علو الله تعالى دلالة ضرورية فطرية، فما من

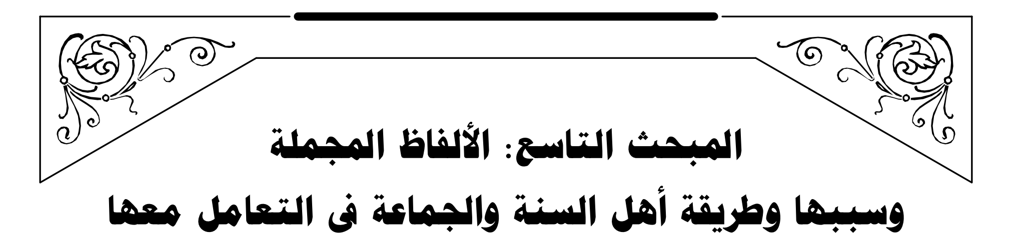
داعٍ أو خائف فزع إلى ربه تعالى إلا وجد في قلبه ضرورة الاتجاه نحو العلو، لا يلتفت عن ذلك يَمنة ولا يَسرة.

واسأل المصلين، يقول الواحد منهم في سجوده: «**سبحان ربي الأعلى**» أين تتجه قلوبهم حينذاك؟

وأما الإجماع: فقد أجمع الصحابة والتابعون والأئمة على أن الله تعالى فوق سماواته، مستوٍ على عرشه. وكلامهم مشهور في ذلك نصًّا وظاهرًا، قال الأوزاعي: (كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذِكره فوق عرشه، ونؤمن بما جاءت به السنة من الصفات)، وقد نقل الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم، ومحال أن يقع في مثل ذلك خلاف، وقد تطابقت عليه هذه الأدلة العظيمة، التي لا يخالفها إلا مكابر طمس على قلبه، واجتالته الشياطين عن فطرته. نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

فعلو الله تعالى بذاته وصفاته من أبين الأشياء وأظهرها دليلًا، وأحق الأشياء وأثبتها واقعًا.





المبحث التاسع: الألفاظ المجملة وسببها وطريقة أهل السنة والجماعة في التعامل معها

يَرِدُ في كتب العقائد مصطلح (الكلمات المجملة).

فما المقصود بها؟ وما معنى كونها مجملة؟ وما المراد من إطلاقها؟ وما الذي دعا إلى إطلاقها؟ وهل وردت في الكتاب والسنة؟ وما طريقة أهل السنة في التعامل مع هذه الألفاظ؟

والإجابة عن هذه الأسئلة تكون على النحو التالي:

أ - المقصود بالكلمات المجملة: أنها ألفاظ يطلقها أهل التعطيل.

أو: هي مصطلحات أحدثها أهل الكلام.

ب - ومعنى كونها مجملة: أنها تحتمل حقًّا وباطلًا.

أو يقال: لأنها ألفاظ مُشتركة بين معانٍ صحيحة، ومعانٍ باطلة. أو يقال لخفاء المراد منها؛ بحيث لا يدرك بنفس اللفظ إلا بعد الاستفصال والاستفسار.

ج - ومراد أهل التعطيل من إطلاقها: التوصل إلى نفي الصفات عن الله تعالى بحجة تنزيهه عن النقائص.

د - والذي دعاهم إلى ذلك: عجزهم عن مقارعة أهل السنة بالحجة؛ فلجؤوا إلى هذه الطريقة؛ ليخفوا عوارهم وزيفهم.

هـ - وهذه الألفاظ لم ترد لا في الكتاب، ولا في السنة؛ بل هي من إطلاقات أهل الكلام.

و - وطريقة أهل السنة في التعامل مع هذه الكلمات: أنهم يتوقفون في هذه الألفاظ؛ لأنه لم يرد نفيها ولا إثباتها في الكتاب والسنة؛ فلا يثبتونها ولا ينفونها.

أما المعنى الذي تحت هذه الألفاظ فإنهم يستفصلون عنه، فإن كان معنى باطلًا يُنَزَّه الله عنه رَدُّوه، وإن كان معنى حقًّا لا يمتنع على الله قبلوه، واستعملوا اللفظ الشرعي المناسب للمقام.

وإليك فيما يلي نماذج وأمثلة لبعض الألفاظ المجملة:

١- الجهة.

٢- الحد.

٣- الأعراض.

٤- الأبعاض أو الأعضاء والأركان والجوارح.

٥- الأغراض.

٦- حلول الحوادث بالله تعالى.

٧- التسلسل[١].

فإن قلت: فما الأسباب الداعية لأهل البدع أن يجنحوا إلى مثل هذه الألفاظ التي أوجبت عند أهل الحق ضلالهم وبُعدهم عن الهدى؟

قلت: هناك أسباب ولعل أهمها ما يلي:

الأول: الجهل بحقيقة لغة العرب، فإن هؤلاء المبتدعة إنما أخذوا هذه الأصول الفاسدة التي بنوا عليها معتقدهم من الفلاسفة اليونانيين الأعاجم من أفراخ اليهود والنصارى، الذين لا يعرفون لغة العرب ولا دلالات

(١) «توحيد الأسماء والصفات» (ص: ٢٤).

اللسان العربي، فَتَلَقَّفَ المبتدعة هذه الألفاظ من الأعاجم الدخلاء على عقيدة الأمة، من غير تمييز بين حقها وباطلها، وجعلوها أصول اعتقادهم وقاسوا عليها أدلة الكتاب والسنة فجاءوا بهذه الألفاظ المجملة المشتبهة من غير نظر ولا فهم ولا تمييز.

ولو أن هؤلاء المبتدعة سَلَّموا لأدلة الكتاب والسنة وأخذوا أصولهم من أهل السنة لما تكلموا بهذه الألفاظ الفاسدة المجملة، لكنهم جعلوا الأعاجم والأنباط وأفراخ اليونانيين أسيادًا لهم في أخذ معتقداتهم وتربوا في مدارسهم الكفرية، وأصّلوا أصولهم الفاسدة المناقضة للمعقول والمصادمة للمنقول فضلّوا وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل.

فالجهل بحقيقة اللفظ له دور كبير في نشوء هذه الألفاظ المجملة المحتملة للحق والباطل.

الثاني: قصر اللفظ العربي ذي الدلالات الكثيرة على دلالة واحدة فإن هؤلاء المبتدعة يأتون بألفاظ مجملة يدخل تحتها معانٍ متعددة فلا يفهمون منها إلا معنى واحدًا فيقصرون اللفظ على ذلك المعنى، وهذا تابع للأول في الجهل بدلالات الألفاظ العربية.

الثالث: إرادة التعمية والتلبيس على أهل السنة، فإن المبتدعة يعبرون بألفاظٍ مجملة فيها حق وباطل من باب تسويق معتقداتهم الفاسدة وترويج مذاهبهم الكاسدة؛ لأنهم لو عبروا عن باطلهم بلفظ لا يحتمل إلا الباطل لرده العامة والخاصة، لكنهم تستروا وراء هذه الألفاظ المجملة من باب التدليس والغش والمخادعة والمكر والكيد بالأمة.

الرابع: الضعف، فإن المبتدعة إذا صارت الرئاسة إليهم فإنك تراهم يعبرون عن الباطل بعبارات صريحة لا خفاء فيها. وأما إذا كانت الرئاسة

لأهل السنة فإنهم يختفون وراء هذه الألفاظ المجملة.

ويظهر ذلك جليًّا في مذهب المعتزلة، فإنهم لما كانت الشوكة لهم في عهد المأمون والمعتصم والواثق كانوا يصرحون بأن القرآن مخلوق، هكذا صراحة من غير اختفاء والويل لمن عارضهم من أهل السنة في ذلك لأن الولاية كانت بيدهم ومعهم الحديد والنار، فساموا أهل السنة بأشد العذاب، لكن لما كان في عهد المتوكل - وهو من أهل السنة - انكسرت شوكة المعتزلة فدخلوا في جحورهم ولم يقووا على التصريح بما كانوا يصرحون به سابقًا في فترة قوتهم، فاندسوا وراء لفظ مجمل يحتمل حقًّا وباطلًا لأنهم ضعفوا وجبنوا فقالوا: (ألفاظنا بالقرآن بالقرآن) وهم لا يريدون به إلا المعنى الباطل، لكن لأنه يحتمل معنى حقًّا كانوا يقولون: (نحن لا نريد إلا هذا المعنى الحق) وهم فيما بينهم إنما يريدون المعنى الباطل.

فالذي جعلهم يتكلمون بهذا اللفظ المجمل هو ضعفهم واستكانتهم وجبنهم عن التعبير بالباطل صراحة، وهذا واضح، فجمعوا في هذه الألفاظ بين الظلم والجهل.

الخامس: شدة عداوتهم الباطنية لنصوص الكتاب والسنة لاسيما نصوص الصفات، فإن القوم لا يريدون أصلًا إثبات الأسماء ولا إثبات الصفات، فاقترحوا على أنفسهم اختراع ألفاظ محدثة مبتدعة مجملة ليجعلوها فيصلًا فيما يُقبل من أدلة الكتاب والسنة مما لا يُقبل، فرأوا أن هذه الألفاظ المجملة المحدثة تحقق لهم ما يريدونه من نفي الأسماء والصفات فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ؛ لأنها يَسَّرت لهم نفث سمومهم وتحقيق مآربهم ونجاح خططهم في نسف نصوص الصفات والمعاد، فحرفوا آيات الاستواء

لأنها لم تتفق مع هذه الألفاظ المجملة، وحرفوا آيات العلو لأنها لا تتفق مع هذه الألفاظ. . . وهكذا في نصوص كثيرة، فلأن هذه الألفاظ تحقق لهم ما يريدون اخترعوها وابتلوا بها الأمة، نعوذ بالله من الضلال.

السادس: البعد عن النبع الصافي والمورد الشافي والمنهل المعصوم، والانطراح بين يدي المخالفين للشرائع والمتنكبين عن هدي الدليل، وتلقف ما يرد منهم تلقف العبد من سيده من غير تمحيص ولا نظر، فلأنهم بعدوا عن مذاهب السلف وأقبلوا على علم المتكلمين الجهال الضلال، أوجدوا هذه الألفاظ الباطلة، فإن هذه الألفاظ مستوردة من عند أهل الكلام اليوناني المذموم، وأما السلف رحمهم الله تعالى فإنهم لم يكونوا يتكلمون بهذه الألفاظ.

فلو أن هؤلاء تربوا في مدارس السلف لما حصل ما حصل، ولكنهم تربوا في مدارس المخالفين للشرائع فكان ما كان والله المستعان.

السابع: اعتماد علم الكلام والدخول فيه قبل التضلع من علوم الكتاب والسنة ومناهج السلف، فإن هذه الألفاظ إنما قرءوها في كتب علم الكلام فجاءوا بها إلى ديار أهل الإسلام وامتحنوهم بها وجعلوها أصل دينهم الذي لا يناقش فيه.

فعلم الكلام المذموم له دور كبير في نشر مثل هذه الألفاظ المحدثة البدعية المجملة.

الثامن: التعصب لنصر مذاهب أسيادهم، فإن مذاهب أئمتهم لا تنصر إلا بإحداث هذه الألفاظ، ولو لم يحدثوا هذه الألفاظ لبادت مذاهب أسيادهم ولما كان لها قبول في الأمة، فبذرة التعصب لهذه المذاهب الفاسدة وأسلافها ومؤسسيها جعلتهم يُحْدثون هذه الألفاظ المحدثة البدعية المجملة

ليتحقق بذلك نصرهم لمن يعظمون وعليه يعتمدون وإليه ينتسبون.

التاسع: زخرفة الشياطين لهم هذه الأقوال وإيحاؤهم بها إليهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١] وقال تعالى: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾ [البقرة: ١١٢] فلا تزال بهم الشياطين تملي لهم وتمنيهم وتعدهم وتزين لهم هذه الأقوال حتى اعتقدوا سلامتها وصحتها من المعارض، فنثروها في الأمة وقرروها في عقائدهم وأجلبوا بخيلهم ورَجْلهم على الدفاع عنها والذب عن حياضها، وذلك كله بسبب زخرفة الشيطان وتزيينه لهم هذه الأقوال الفاسدة.

العاشر: البغي والفجور الذي جُبلت عليه النفوس كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧، ٨] وهؤلاء المبتدعة الضُّلال طغى عليهم فجور نفوسهم فأورثهم الاعتداء والبغي. واختراع هذه الألفاظ والتعصب لها من آثار هذا البغي والطغيان والفجور.

فهذه بعض الأسباب التي أدت إلى انتشار هذه الألفاظ، نعوذ بالله من الخِذلان والضلال والطغيان[(١)].

وإليك فيما يلي تفصيلًا لهذه الألفاظ، وما يراد بها، وجواب أهل السنة المفصل على ذلك:

دراسة موجزة لبعض الكلمات المُجْملة

أولًا ـ الجهة: هذه اللفظة من الكلمات المجملة التي يطلقها أهل التعطيل، فما معناها في اللغة؟ وما مرادهم من إطلاقها؟ وما التحقيق في تلك اللفظة؟

(١) «توحيد الأسماء والصفات» (ص: ٢٤).

وهي هي ثابتة لله، أو منفية عنه؟

أ - معنى الجهة في اللغة: تطلق على الوضع الذي تتوجه إليه، وتقصده، وتطلق على الطريق، وعلى كل شيء استقبلته وأخذت فيه.

ب - ومراد أهل التعطيل من إطلاق لفظ الجهة: نفي صفة العلو عن الله ﷻ.

ج - والتحقيق في هذه اللفظة أن يقال: إن إطلاق لفظ الجهة في حق الله ﷻ أمر مبتدع لم يرد في الكتاب ولا السنة ولا عن أحد من سلف هذه الأمة.

وبناء على هذا لا يصح إطلاق الجهة على الله ﷻ لا نفيًا ولا إثباتًا، بل لابد من التفصيل؛ لأن هذا المعنى ـ يحتمل حقًّا ويحتمل باطلًا.

فإن أريد بها جهة سفل فإنها منتفية عن الله، وممتنعة عليه أيضًا؛ فإن الله أعظم وأجلّ من أن يحيط به شيء من مخلوقاته، كيف وقد وَسِع كرسيه السموات والأرض؟

وإن أريد بالجهة أنه في جميع الجهات، وأنه حالٌّ في خلقه، وأنه بذاته في كل مكان ـ فإن ذلك بالحل ممتنع على الله، منتفٍ في حقه.

وإن أريد نفي الجهة عن الله ـ كما يقول أهل التعطيل ـ حيث يقولون: إن الله ليس في جهة، أي: ليس في مكان، فهو لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصل، ولا منفصل، ولا فوق، ولا تحت ـ فإن ذلك ـ أيضًا ـ ممتنع على الله منتفٍ في حقه؛ إذ إن ذلك وصف له بالعدم المحض.

وإن أريد بالجهة أنه في جهة علوٍّ تليق بجلاله، وعظمته من غير إحاطة به، ومن غير أن يكون محتاجًا لأحد من خلقه ـ فإن ذلك حق ثابت له، ومعنى صحيح دلت عليه النصوص، والعقول، والفِطر السليمة.

ومعنى كونه في السماء، أي: في جهة العلو، أو أن «في» بمعنى على،

أي: على السماء، كما قال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: على جذوع النخل.

وبهذا التفصيل يتبين الحق من الباطل في هذا الإطلاق.

أما بالنسبة للفظ فكما سبق لا يُثبت ولا يُنفى، بل يجب أن يستعمل بدلًا عنه اللفظ الشرعي، وهو العلو، والفوقية.

ثانيًا ـ الحد: وهذا ـ أيضًا ـ من الألفاظ المجملة التي يطلقها أهل التعطيل.

فما معنى الحد في اللغة ؟ وماذا يريد أهل التعطيل من إطلاقه ؟ وما شبهتهم في ذلك ؟ وما جواب أهل السنة ؟

أ – معنى الحد في اللغة: يطلق على الفَصْل، والمنع، والحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر. يقال: حددت كذا، جعلت له حدًّا يميزه. وحد الدار ما تتميز به عن غيرها. وحد الشيء: الوصف المحيط بمعناه، المميز له عن غيره.

ب – وأهل التعطيل يريدون من إطلاق لفظ (الحد) نفي استواء الله على عرشه.

ج – وشبهتهم في ذلك: أنهم يقولون: لو أثبتنا استواء الله على عرشه للزم أن يكون محدودًا؛ لأن المستوي على الشيء يكون محدودًا؛ فالإنسان ـ مثلًا ـ إذا استوى على البعير صار محدودًا بمنطقة معينة، محصورًا بها، وعلى محدود ـ أيضًا ـ.

وبناء على ذلك فهم ينفون استواء الله على عرشه ويرون أنهم ينزهون الله ﷻ عن الحد أو الحدود.

د ـ جواب أهل السنة: أهل السنة يقولون: إن لفظ (الحد) لم يرد في الكتاب، ولا في السنة، ولا في كلام سلف الأمة؛ فهو ـ إذًا ـ لفظ مبتدع

حادث. وليس لنا أن نصف الله بما لم يصف به نفسه، ولا وصفه به رسوله ﷺ. لا نفيًا، ولا إثباتًا، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون.

هذا بالنسبة للفظ. أما بالنسبة للمعنى فإننا نستفصل. كعادتنا. ونقول: ماذا تريدون بالحد؟

إن أردتم بالحد أن الله ﷻ محدود، أي: متميز عن خلقه، منفصل عنهم، مباين لهم. فهذا حق ليس فيه شيء من النقص، وهو ثابت لله بهذا المعنى.

وإن أردتم بكونه محدودًا أن العرش محيط به وأنتم تريدون نفي ذلك عنه بنفي استوائه عليه. فهذا باطل وليس بلازم صحيح؛ فإن الله تعالى مستوٍ على عرشه، وإن كان ﷻ أكبر من العرش ومن غير العرش.

ولا يلزم من كونه مستويًا على العرش أن يكون العرش محيطًا به؛ لأن الله ﷻ أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه.

ثالثًا الأعراض: هذا اللفظ من الألفاظ المجملة التي يطلقها أهل الكلام. ومن أقوالهم في ذلك: «نحن نُنَزِّه الله تعالى عن الأعراض والأغراض، والأبعاض، والحدود، والجهات». ويقولون: «سبحان من تنزه عن الأعراض والأغراض والأبعاض».

والحديث في الأسطر التالية سيكون حول لفظ (الأعراض) أما بقية الألفاظ فسيأتي ذكرها فيما بعد.

أ - تعريف الأعراض في اللغة: الأعراض جمع عَرَض، والعَرَض هو ما لا ثبات له.

أو هو: ما ليس بلازم للشيء.

أو هو: ما لا يمتنع انفكاكه عن الشيء.

ومن الأمثلة على ذلك: الفرح بالنسبة للإنسان، فهو عَرَض؛ لأنه لا ثبات له بل هو عارض يعرض ويزول.

وكذلك الغضب، والرضا.

ب - العَرَض في اصطلاح المتكلمين: قال الفيومي: «العَرَض عند المتكلمين ما لا يقوم بنفسه، ولا يوجد إلا في محل يقوم به». وقال الراغب الأصفهاني: «والعرض ما لا يكون له ثبات، ومنه استعار المتكلمون العَرَض لما لا ثبات له إلا بالجوهر كاللون والمطعم.

ج - ما مراد المتكلمين من قولهم: «إن الله منزه عن الأعراض»؟ مرادهم من ذلك نفي الصفات عن الله تعالى لأن الأعراض عندهم هي الصفات.

د - ما شبهتهم؟ يقولون: لأن الأعراض لا تقوم إلا بالأجسام، والأجسام متماثلة؛ فإثبات الصفات يعني أن الله جسم، والله منزه عن ذلك؛ وبناء عليه نقول بنفي الصفات؛ لأنه يترتب على إثباتها التجسيم، وهو وصف الله بأنه جسم، والتجسيم تمثيل، وهذا كفر وضلال.

هذه هي شبهة المتكلمين.

هـ - الرد على أهل الكلام في هذه المسألة: الرد عليهم من وجوه:

١ - أن لفظة «الأعراض» لم ترد في الكتاب ولا في السنة لا نفيًا ولا إثباتًا، ولم ترد ـ كذلك ـ عن سلف الأمة.

وطريقة أهل السنة المعهودة في مثل هذه الألفاظ التوقف في اللفظ، فلا نثبت الأعراض ولا ننفيها.

أما معناها فيُستَفْصَل عن مرادهم في ذلك ويقال لهم: إن أردتم بالأعراض ما يقتضي نقصًا في حق الله تعالى كالحزن، والندم، والمرض،

والخوف؛ فإن المعنى صحيح، والله منزه عن ذلك؛ لأنه نقص، لا لأنها أعراض.

وإن أردتم نفي ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ. من الصفات كالغضب، والفرح، والرضا، ونحوها بحجة أنها أعراض؛ فإن ذلك باطل مردود، ولا يلزم من إثباتها أي لازم.

٢ - أن الصفات الربانية ليست كلها أعراض، بل إن بعضها أعراض كالفرح، والغضب. وبعضها ليست أعراضًا، كبعض الصفات الذاتية كاليد، والوجه، والقدم، والساق؛ فهذه ليست أعراضًا، بل لازمة للذات لا تنفك عنها.

٣ - أن قولكم: «إن الأعراض لا تقوم إلا بجسم» قول باطل؛ فالأعراض قد تقوم بغير الجسم كما يقال: «ليل طويل» فقولنا: طويل، وصف لـ: «ليل»، والليل ليس بجسم، ومثل ذلك: حر شديد، ومرض مؤلم، وبرد قارس.

٤ - أن القول بتماثل الأجسام قول باطل؛ فالأجسام غير متماثلة لا بالذوات ولا بالصفات ولا بالحدوث؛ ففي الحجم تختلف الذرَّة عن الجمل، وفي الوزن يختلف جسم القيراط عن جسم القنطار، وفي الملمس يختلف الخشن عن الناعم، واللين عن القاسي... وهكذا.

٥ - أن لفظ الجسم من إحداث المتكلمين، وهذا اللفظ كقاعدة الألفاظ المجملة؛ فإن كان إثبات الصفات بلزم منه أن يكون جسمًا في مفهومك فليس ذلك يضيرنا.

لكن إن أردت بالجسم الشيء القائم بنفسه المتصف بما يليق به، فهذا حق لأننا نؤمن بأن لله ذاتًا موصوفة بالصفات اللائقة بها.

فإن أردت بالجسم هذا المعنى فيصح.

وإن أردت بالجسم الشيء المكوَّن من أعضاء ولحم ودم المفتقر بعضه إلى بعض وما أشبه ذلك؛ فباطل غير صحيح؛ لأنه يلزم أن يكون الله حادثًا أو مُحْدَثًا. وهذا أمر مستحيل، على أننا لا نوافق على إثبات الجسم ولا نفيه؛ لأنه يحتمل حقًّا وباطلًا.

رابعًا – الأبعاض، أو الأعضاء، أو الأركان، أو الجوارح: وهذه أيضًا من الكلمات المجملة التي تطلق وتحتمل حقًّا وباطلًا؛ فإليك نبذة عن معانيها، ومقصود أهل التعطيل من إطلاقها وجواب أهل السنة على تلك الدعوى.

أ – معاني هذه الكلمات: معاني هذه الكلمات متقاربة من بعض.

فالأبعاض: جمع لكلمة بعض، يقال: بعض الشيء، أي جزؤه. وبعّضْتُ كذا، أي جعلته أبعاضًا.

والأركان: جمع ركن، وركن الشيء قِوامه، وجانبه القوي الذي يتم به، ويسكن إليه.

والأجزاء: جمع جزء، والجزء ما يتركب الشيء منه ومن غيره، وجزء الشيء ما يتقوم به جملتُه كأجزاء السفينة، وأجزاء البيت.

والجوارح: مفردها الجارحة، وتسمى الصائدة من الكلاب والفهود والطيور جارحة؛ إما لأنها تجرح، وإما لأنها تكسب.

وسميت الأعضاء الكاسبة جوارح تشبيهًا بها لأحد هذين.

ويشبه هذه الألفاظ لفظ: الأعضاء، والأدوات، ونحوها.

ب – مقصود أهل التعطيل من إطلاقها: مقصودهم نفي بعض الصفات الذاتية الثابتة بالأدلة القطعية، كاليد، والوجه، والساق، والقدم والعين.

ج – ما الذي دعاهم إلى نفيها؟ الذي دعاهم إلى نفي تلك الصفات هو

اعتقادهم أنها بالنسبة للمخلوق أبعاض، وأعضاء، وأركان، وأجزاء، وجوارح وأدوات ونحو ذلك، فيرون ـ بزعمهم ـ أن إثبات تلك الصفات لله يقتضي التمثيل، والتجسيم؛ فوجب عندهم نفيها قرارًا من ذلك. وقد لجؤوا إلى تلك الألفاظ المجملة لأجل أن يروج كلامهم ويلقى القبول.

د – جواب أهل السنة: أهل السنة يقولون: إن هذه الصفات وإن كانت تعد في حق المخلوق أبعاضًا، أو أعضاءً، وجوارح ونحو ذلك؛ لكنها تعدُّ في حق الله صفات أثبتها لنفسه أو أثبتها له رسوله ـ ﷺ ـ فلا نخوض فيها بآرائنا وأهوائنا، بل نؤمن بها ونُمرُّها كما جاءت ونفوض كنهها وحقيقتها إلى الله ﷻ لعدم معرفتنا لحقيقة الذات؛ لأن حقيقة معرفة الصفة متوقفة على معرفة حقيقة الذات كما لا يخفى، وهذه الصفات ـ أعني اليد، والساق ونحوها وكثير من صفات الله ـ قد تشترك مع صفات خلقه في اللفظ، وفي المعنى العام المطلق قبل أن تضاف. وبمجرد إضافتها تختص صفات الخالق بالخالق، وصفات المخلوق بالمخلوق؛ فصفات الخالق تليق بجلاله وعظمته وربوبيته، وقيومته. وصفات المخلوق تليق بحدوثه، وضعفه، ومخلوقيته.

وبناء على ذلك يقال لمن يطلق تلك الألفاظ المجملة السالفة: إن أردت أن تنفي عن الله ﷻ أن يكون جسمًا، وجثة وأعضاء، ونحو ذلك ـ فكلامك صحيح، ونفيك في محله.

وإن أردت بذلك نفي الصفات الثابتة له والتي ظننت أن إثباتها يقتضي التجسيم، ونحو ذلك من اللوازم الباطلة ـ فإن قولك باطل، ونفيك في غير محله.

هذا بالنسبة للمعنى. أما بالنسبة للفظ فيجب ألا تعْدِل عن الألفاظ

الشرعية في النفي أو الإثبات؛ لسلامتها من الاحتمالات الفاسدة.

يقول شارح الطحاوية ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «ولكن لا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء، أو جوارح، أو أدوات، أو أركان؛ لأن الركن جزء الماهية، والله تعالى هو الأحد، الصمد، لا يتجزأ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية، تعالى الله عن ذلك، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ [الحجر: ٩١].

والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع؛ وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرة.

وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالى؛ ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى، فالألفاظ الشرعية صحيحة المعاني، سالمة من الاحتمالات الفاسدة، فكذلك يجب أن لا يُعدل عن الألفاظ الشرعية نفيًا ولا إثباتًا لئلا يثبت معنى فاسد، وأن ينفى معنى صحيح.

وكل هذه الألفاظ المجملة عرضة للمحق والمبطل».

خامسًا – الأغراض: وهذا ـ أيضًا ـ من إطلاقات المتكلمين، وإليك بعض التفصيل في هذا اللفظ.

أ – الأغراض في اللغة: جمع غرض، والغرض هو الهدف الذي يُرمى فيه، أو هو الهدف الذي يُنصب فيرمى فيه.

والغرض يطلق في اللغة ـ أيضًا ـ على الحاجة، والبغية، والقصد.

ب – الغرض في اصطلاح علماء الكلام: قيل: هو ما لأجله يصدر الفعل من الفاعل.

وقال الجلا الدوائي: «الغرض هو الأمر الباعث للفاعل على الفعل، وهو المحرك الأول، وبه يصير الفاعل فاعلًا».

وبذلك نرى توافق المعنى اللغوي والاصطلاحي للغرض، وأنه غاية الفاعل من فعله، وهو الباعث له على فعله.

ج - ماذا يريد أهل الكلام بهذه اللفظة؟ يريدون إبطال الحكمة في أفعال الله ﷻ وشرعه.

د - حجتهم في ذلك: يقول المتكلمون ـ وعلى وجه الخصوص الأشاعرة: إننا ننزه الله عن الأغراض فلا يكون له غرض فيما شرعه أو خلقه. فأبطلوا الحكمة من ذلك، وقرروا أن الله لم يشرع إلا لمجرد مشيئته فحسب؛ فإذا شاء تحريم شيء حرَّمه، أو شاء إيجابه أوجبه.

وقالوا: لو قررنا أن له حكمة فيما شرعه لوقعنا في محذورين:

الأول: أنه إذا كان لله غرض فإنه محتاج إلى ذلك الغرض؛ ليعود عليه من ذلك منفعة، والله منزه عن ذلك.

والثاني: أننا إذا عللنا الأحكام ـ أي: أثبتنا الحكمة والعلة ـ لزم أن نوجب على الله ما تقتضيه الحكمة؛ لأن الحكم يدور مع علته، فنقع فيما وقع فيه المعتزلة من إيجاب الصلاح والأصلح على الله؛ لأن الغرض عند المعتزلة بمعنى الغاية التي فعل لها وهم يوجبون أن يكون فعله معللًا بالأغراض.

هـ - الرد عليهم:

١ - أن هذا اللفظ ـ الأغراض أو الغرض ـ لم يرد لا في الكتاب ولا في السنة، ولا أطلقه أحد من علماء الإسلام؛ لأن هذه الكلمة قد توهم النقص، ونفيها قد يفهم منه نفي الحكمة؛ فلابد ـ إذًا ـ من التفصيل والأَوْلى أن يعبر بلفظ: الحكمة، والرحمة، والإرادة، ونحو ذلك مما ورد به النص.

٢ - أن الغرض الذي ينزه الله عنه ما كان لدفع ضرر، أو جلب مصلحة له، فالله ـ سبحانه ـ لم يخلق، ولم يشرع لأن مصلحة الخلق والأمر تعود

إليه، وإنما ذلك لمصلحة الخلق. ولا ريب أن ذلك كمالٌ محض، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦] ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني**».

وهذا أمر مستقر في الفِطر.

٣ - أن إيجاب حصول الأشياء على الله متى وُجدت الحكمة. حق صحيح. لكنه مخالف لما يراه المعتزلة من جهة أن الله ﷻ هو الذي أوجب هذا على نفسه ولم يوجبه عليه أحد، كما قال ﷻ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وكما قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وكما في حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما كان رديف النبي ﷺ على حمار فقال: «**أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**» قال معاذ: الله ورسوله أعلم. قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به...**» الحديث.

فهذا حق أوجبه الله على نفسه، ولله أن يوجب على نفسه ما يشاء.

ثم إن مقياس الصلاح والأصلح ليس راجعًا إلى عقول البشر ومقاييسهم بل إن ذلك راجع إلى ما تقتضيه حكمة الله تعالى، فقد تكون على خلاف ما يراه الخلق بادئ الرأي في عقولهم القاصرة.

فانقطاع المطر قد يبدو لكثير من الناس أنه ليس الأصلح، بينما قد يكون هو الأصلح لكنه مراد لغيره لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

وكذلك استدراج الكفار بالنعم، وابتلاء المسلمين بالمصائب، كل ذلك يحمل في طياته ضروبًا من الحِكم التي لا تحيط عقول البشر إلا بأقل القليل

منها.

بل إن خلق إبليس، وتقدير المعاصي، وتقدير الآلام - يتضمن حِكمًا تبهر العقول وتُبين عن عظيم حكمة أحكم الحاكمين.

سادسًا: حلول الحوادث بالله تعالى: هذا اللفظ من إطلاقات أهل الكلام، وإليك بعض التفصيل في معناه، ومقصود أهل الكلام منه، والرد على ذلك.

أ - معنى كلمة (حلول): الحلول هو عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفًا للآخر؛ كحلول الماء في الكوز.

ب - معنى كلمة (الحوادث): الحوادث جمع حادث، وهو الشيء المخلوق المسبوق بالعدم، ويسمى حدوثًا زمانيًّا.

وقد يعبر عن الحدوث بالحاجة إلى الغير، ويسمى حدوثًا ذاتيًّا.

والحدوث الذاتي: هو كون الشيء مفتقرًا في وجوده إلى الغير.

والحدوث الزماني: هو كون الشيء مسبوقًا بالعدم مسبقًا زمانيًّا.

ج - معنى (حلول الحوادث بالله تعالى): أي: قيامها بالله، ووجودها فيه تعالى.

د - ما مقصود أهل التعطيل من هذا الإطلاق؟ مقصودهم نفي اتصاف الله بالصفات الاختيارية الفعلية، وهي التي يفعلها متى شاء، كيف شاء، مثل الإتيان لفصل القضاء، والضحك، والعجب، والفرح؛ فينفون جميع الصفات الاختيارية.

هـ - ما حجتهم في ذلك؟ وحجتهم في ذلك أن قيام تلك الصفات بالله يعني قيام الحوادث. أي: الأشياء المخلوقة الموجودة. بالله. وإذا قامت به أصبح هو حادثًا بعد أن لم يكن، كما أن تكون المخلوقات حالَّة فيه، وهذا

ممتنع.

و - جواب أهل السنة: أهل السنة يقولون: إن هذا الإطلاق لم يَرِدْ في كتاب ولا سنة، لا نفيًا ولا إثباتًا، كما أنه ليس معروفًا عند سلف الأمة.

أما المعنى فيستفصل عنه:

فإن أريد بنفي حلول الحوادث بالله أن لا يَحُلَّ بذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن له من قبل. فهذا النفي صحيح؛ فالله ﷻ ليس مَحَلًّا لمخلوقاته وليست موجودة فيه، ولا يحدث له وصف متجدد لم يكن له من قبل.

وإن أريد بالحوادث: أفعاله الاختيارية التي يفعلها متى شاء كيف شاء؛ كالنزول، والاستواء، والرضا، والغضب، والمجيء لفصل القضاء ونحو ذلك. فهذا النفي باطل مردود.

بل يقال له: إنه مثبتٌ ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ.

سابعًا: التسلسل: وهو أحد الألفاظ المجملة التي يطلقها المتكلمون.

ولأجل أن يتضح مفهوم هذه اللفظة، ومدلولها، ووجه الصواب والخطأ في إطلاقها إليك هذا العرض الموجز.

أ - تعريف التسلسل: قال الجرجاني: «التسلسل هو ترتيب أمور غير متناهية».

ب - سبب تسميته بذلك: سُمي بذلك أخذًا من السلسلة؛ فهي قابلة لزيادة الحِلَق إلى ما لا نهاية. فالمناسبة بينهما عدم التناهي بين طرفيهما؛ ففي السلسلة مبدؤها ومنتهاها، وأما التسلسل فطرفاه الزمن الماضي والمستقبل.

ج – مراد أهل الكلام من إطلاق هذه اللفظة: مرادهم يختلف باختلاف سياق الكلام، وباختلاف المتكلمين؛ فقد يكون مرادهم نفي قِدم اتصاف الله ببعض صفاته. وقد يكون مرادهم نفي دوام أفعال الله ومفعولاته. وقد يكون مرادهم نفي أبدية الجنة والنار. وقد يكون غير ذلك.

د – هل وردت هذه اللفظة في الكتاب أو السنة، أو أطلقها أحد من أئمة السلف؟ الجواب: لا.

هـ – ما طريقة أهل السنة في التعامل مع هذا اللفظ؟ طريقتهم كطريقتهم في سائر الألفاظ المجملة، حيث إنهم يتوقفون في لفظ «التسلسل» فلا يثبتونه ولا ينفونه؛ لأنه لفظ مبتدع، مجمل يحتمل حقًّا وباطلًا، وصوابًا وخطأ.

هذا بالنسبة للفظ. أما بالنسبة للمعنى فإنهم يستفصلون، فإن أريد به حق قبلوه، وإن أريد به باطل ردوه.

و – وبناء على ذلك فإنه ينظر في هذا اللفظ، وتطبق عليه هذه القاعدة: فيقال لمن أطلقوا هذه اللفظ:

١ – إذا أردتم بالتسلسل دوام أفعال الرب أزلًا وأبدًا، فذلك معنى صحيح دل عليه العقل والشرع؛ فإثباته واجب، ونفيه ممتنع، قال الله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]. والفعال هو من يفعل على الدوام، ولو خلا من الفعل في أحد الزمانين لم يكن فعالًا، فوجب دوام الفعل أزلًا وأبدًا.

ثم إن المتصف بالفعل أكمل ممن لا يتصف به، ولو خلا الرب. منه لخلا من كمال يجب له، وهذا ممتنع.

ولأن الفعل لازم من لوازم الحياة، وكل حي فهو فعال، والله تعالى حي، فهو فعال وحياته لا تنفك عنه أبدًا وأزلًا.

ولأن الفرق بين الحي والميت الفعل، والله حي فلابد أن يكون فاعلًا

وخلوه من الفعل في أحد الزمانين: الماضي والمستقبل - ممتنع، فوجب دوام فعله أزلًا وأبدًا.

فخلاصة هذه المسألة أنه إذا أريد بالتسلسل دوام أفعال الرب فذلك معنى صحيح واجب في حق الله، ونفيه ممتنع.

٢ - وإذا أريد بالتسلسل أنه تعالى كان معطلًا عن الفعل ثم فعل، أو أنه اتصف بصفة من الصفات بعد أن لم يكن متصفًا بها، أو أنه حصل له الكمال بعد أن لم يكن؛ فذلك معنى باطل لا يجوز.

فالله ﷻ لم يزل متصفًا بصفات الكمال. صفات الذات، وصفات الفعل. ولا يجوز أن يُعتقد أن الله اتصف بصفة بعد أن لم يكن متصفًا بها؛ لأن صفاته. سبحانه. صفات كمال، وفقدها صفة نقص؛ فلا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفًا بضده.

قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ: «ما زال بصفاته قديمًا قبل خلقه لم يزدد بكونهم شيئًا لم يكن قبلهم من صفته.

وكما كان بصفاته أزليًّا كذلك لا يزال عليها أبديًّا.

مثال ذلك صفة الكلام؛ فالله ﷻ لم يزل متكلمًا إذا شاء. ولم تحدث له صفة الكلام في وقت، ولم يكن معطلًا عنها في وقت، بل هو متصف بها أزلًا وأبدًا.

وكذلك صفة الخلق، فلم تحدث له هذه الصفة بعد أن كان معطلًا عنها».

٣ - وإذا كان المقصود بالتسلسل: التسلسل في مفعولات الله ﷻ وأنه ما زال ولا يزال يخلق خلْقًا بعد خلق إلى ما لا نهاية. فذلك معنى صحيح، وتسلسل ممكن، وهو جائز في الشرع والعقل.

قال الله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: ١٥].

ثم إنه ﷻ ما زال يخلق خلقًا ويرتب الثاني على الأول وهكذا؛ فما زال الإنسان والحيوان منذ خلَقَهُ الله يترتب خلقه على خلق أبيه وأمه.

٤ - وإن أريد بالتسلسل: التسلسل بالمؤثِّرين، أي: بأن يؤثِّر الشيء بالشيء إلى ما لا نهاية، وأن يكون مؤثرون كلُّ واحد منهم استفاد تأثيره مما قبله لا إلى غاية. فذلك تسلسل ممتنع شرعًا وعقلًا؛ لاستحاله وقوعه؛ فالله ﷻ خالق كل شيء، وإليه المنتهى؛ فهو الأول فليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فليس فوقه شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء والقول بالتسلسل في المؤثرين يؤدي إلى خلو المُحدَث والمخلوق من مُحْدِث وخالق وينتهي بإنكار الخالق جل وعلا.

خلاصة القول في مسألة التسلسل عمومًا:

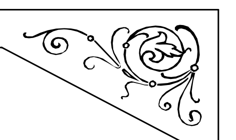
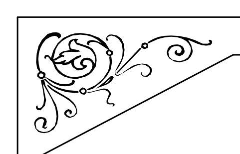
* أن التسلسل هو ترتيب أمور غير متناهية، وأنه سُمي بذلك أخذًا من السلسلة.

* وأن التسلسل من الألفاظ المجملة التي لابد فيها من الاستفصال. كما مر..

* وأنه إن أريد بالتسلسل: دوام أفعال الرب ومفعولاته، وأنه متصف بصفات الكمال أزلًا وأبدًا؛ فذلك حق صحيح، يدل عليه الشرع والعقل.

* وأنه إن أريد بالتسلسل أنه ﷻ كان معطلًا عن أفعاله وصفاته، ثم فعل، واتصف فحصل له الكمال بعد أن لم يكن متصفًا به، أو أريد بالتسلسل: «التسلسل في المؤثرين؛ فذلك معنى باطل مردود بالشرع والعقل»[(١)].

(١) «توحيد الأسماء والصفات» (ص: ٢٥).

المبحث العاشر: نواقض توحيد الأسماء والصفات

وبه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: نواقض الإيمان الاعتقادية في توحيد الأسماء والصفات

معلوم أن معنى لفظ (التأويل) في اصطلاح العلماء له ثلاثة معانٍ:

١- أن يراد بالتأويل حقيقة ما يؤول إليه الكلام وإن وافق ظاهره.

وهذا هو المعنى الذي يراد بلفظ التأويل في الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

ومنه قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا ولك الحمد، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن)[١].

٢- يراد بلفظ التأويل: (التفسير) وهو اصطلاح كثير من المفسرين؛ ولهذا قال مجاهد - إمام أهل التفسير -: إن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه. فإنه أراد بذلك تفسيره وبيان معانيه، وهذا مما يعلمه الراسخون.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، (باب التسبيح والدعاء في السجود) (٢/ ٢٩٩)، ومسلم، كتاب الصلاة، (باب ما يقال في الركوع والسجود) (١/ ٣٥٠).

٣- أن يراد بلفظ (التأويل): صرف اللفظ عن ظاهره الذي يدل عليه ظاهره إلى ما يخالف ذلك لدليل منفصل يوجب ذلك.

وهذا التأويل لا يكون إلا مخالفًا لما يدل عليه اللفظ ويبينه، وتسمية هذا تأويلًا لم يكن في عرف السلف، وإنما سمى هذا وحده تأويلًا طائفة من المتأخرين الخائضين في الفقه وأصوله والكلام، وهذا هو التأويل الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض، ورموا في آثارهم بالشهب...[١].

وهذا التأويل الذي عناه أكثر من تكلم من المتأخرين في مسألة الصفات والقدر ونحوها.

وهو من أعظم أصول الضلال والانحراف حيث صار ذريعة لغلاة الجهمية والباطنية والمتصوفة في تأويل التكاليف الشرعية على غير مقصودها أو إسقاطها أو تأويل جميع الأسماء والصفات.

وأهل التأويل المذموم (مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون الأخبار والأوامر، وما بين صائبة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله واليوم الآخر حتى عن أكثر أحوال الأنبياء، وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء في اليوم الآخر وفي آيات القدر ويتأولون آيات الصفات، وقد وافقهم بعض متأخري الأشعرية على ما جاء في بعض الصفات، وبعضهم في بعض ما جاء في اليوم الآخر، وآخرون من أصناف الأمة وإن كان تغلب عليهم السنة، فقد يتأولون أيضًا مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٦٨- ٧٠)، وانظر: (٣/ ٥٤- ٦٨)، (٥/ ٢٨- ٣٦)، (١٣/ ٢٧٧- ٣١٣)، و«الصواعق المرسلة» (١/ ١٧٥- ٢٣٣)، و«شرح الطحاوية» (٢٣١-٢٣٦).

مواضعه...)[(١)][(٢)].

بل قد يدخل من يفعل هذا في أصحاب التأويلات التي لا يُعذر أصحابها، فتأويلات الباطنية والفلاسفة ونحوهم ممن حقيقة أمرهم تكذيب للدين جملة وتفصيلًا، أو تكذيب لأصل لا يقوم الدين إلا به؛ كإنكار الفلاسفة لحشر الأجساد وقولهم: إن الله سبحانه لا يعلم الجزئيات. أو تأويل الفرائض والأحكام بما يخرجها عن حقيقتها وظاهرها، أو الاعتقاد بألوهية بعض البشر؛ كتأليه علي أو الحاكم بأمره كما عند النصيرية والدروز، أو القول بتحريف القرآن، أو تأويل جميع الأسماء والصفات أو القول بسقوط التكاليف عن البعض ونحو ذلك من الاعتقادات الغالية التي لا تعتمد على أي مستند نصي أو لغوي ولو من وجه محتمل.

يقول ابن الوزير رَحِمَهُ اللَّهُ: (...وكذلك لا خلاف في كفر من جحد ذلك المعلوم ضرورة للجميع، وتَسَتَّر باسم التأويل فيما لا يمكن تأويله؛ كالملاحدة في تأويل جميع الأسماء الحسنى بل جميع القرآن والشرائع والمعاد الأخروي من البعث والقيامة والجنة والنار. وإنما يقع الإشكال في تكفير من قام بأركان الإسلام الخمسة المنصوص على إسلام من قام بها إذا خالف المعلوم ضرورة للبعض أو للأكثر لا المعلوم له، وتأول وعلمنا من قرائن أحواله أنه ما قصد التكذيب أو التبس ذلك علينا في حقه وأظهر التدين والتصديق بجميع الأنبياء والكتب الربانية مع الخطأ الفاحش في الاعتقاد، ومضادة الأدلة الجلية، ولكن لم يبلغ مرتبة الزنادقة المقدمة...)[(٣)][(٤)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٨٧).

(٢) «نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف» (١/ ٢٥٧).

(٣) انظر: «إيثار الحق على الخلق» (٤١٥).

(٤) «نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف بتصرف» (١/ ٢٦٤).

الفصل الثاني: نواقض الإيمان القولية في توحيد الأسماء والصفات[(١)]

وبه خمس مسائل:

المسألة الأولى: تمهيد:

في بداية هذا المبحث نذكّر بأن معتقد أهل السنة والجماعة في هذا الباب هو الإيمان بما وصف الله به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولاتمثيل.

فأهل السنة وسط في هذا الباب بين المعطلة والممثلة، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، فيعطلون أسماءه وصفاته.

يقول الإمام أحمد: فعليه الإيمان بها والتسليم مثل: أحاديث الرؤية كلها، وإن نبت عن الأسماع، واستوحش منها المستمع، وإنما عليه الإيمان بها، وأن لا يردّ منها حرفًا واحدًا، وغيرها من الأحاديث المأثورات عن الثقات[(٢)].

كما يقول ابن القيم: «لا يستقر للعبد قدم في المعرفة - بل ولا في الإيمان - حتى يؤمن بصفات الرب جلّ جلاله، ويعرفها معرفة تخرجه عن حد

---

(١) هذا الفصل بمسائله مقتبس من كتاب «نواقض الإيمان القولية والعملية» بتصرف (ص: ٩٦).

(٢) «المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة» / جمع الأحمدي (١/ ٢٧٧).

الجهل بربه، فالإيمان بالصفات وتعرّفها هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمَن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام والإيمان وثمرة شجرة الإحسان»(١).

ويقول أيضًا: «والرسل من أولهم إلى خاتمهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أُرسلوا بالدعوة إلى الله... فعَرّفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفًا مفصّلًا، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه، وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يكلم ملائكته، ويدّبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم... ويرضى ويغضب، ويحبّ ويسخط، ويميت ويحيي، ويمنع ويعطى، يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا... وهذا مقصود الدعوة وزبدة الرسالة»(٢).

المسألة الثانية:توحيد الأسماء والصفات يناقضه ويخالفه الشرك والإلحاد في أسمائه وصفاته:

فالشرك في الصفات يكون باتخاذ شريك أو ند مع الله تعالى في ذلك.

وأما الإلحاد في أسمائه، فكما يقول ابن القيم: «الإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها. وهو مأخوذ من الميل، كما يدل عليه مادته (ل ح د).

والإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإله، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهًا، وهذا إلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا عن أسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣ / ٣٤٧).

(٢) المرجع السابق (٣ / ٣٤٨، ٣٤٩) باختصار.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله؛ كتسمية النصارى له أبًا، وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته، أو علة فاعلة بالطبع. ونحو ذلك.

الثالث: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود: إنه فقير. وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه.

الرابع: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقَّائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني...

خامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه. تعالى الله عما يقول المشبهون علوًّا كبيرًا»(١).

المسألة الثالثة: وهنا نأخذ مثالًا واحدًا على تلك النواقض القولية، وهو إنكار اسم أو صفة لله تعالى:

الإنكار بمعنى الجحود وعدم الاعتراف، كما أن الجهل ضد العرفان، وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره(٢).

و أما معنى الكفر في صفات الله تعالى: فهو إنكار ما علم ثبوته منها بعد البلاغ، أو الإلحاد فيه بتحريفه عن المقصود بدون شبهة يُعذر بمثلها(٣).

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٩٠-١٩٢) باختصار.

(٢) انظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، و«مفردات الأصفهاني» (ص٧٧٠)، و«اللسان» (٥/ ٧٣٢)، و«المصباح المنير» (ص٧٦٦)، و«مختار الصحاح» (ص٦٧٩).

(٣) «فتاوى اللجنة الدائمة» (٣/ ١٢٨).

ويقول الشيخ محمد بن عثيمين: «إنكار شيء من أسماء الله أو صفاته نوعان:

الأول: إنكار تكذيب، وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحدًا أنكر أسمًا من أسماء الله، أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة مثل: أن يقول ليس لله يد. فهو كافر بإجماع المسلمين؛ لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مُخرج عن الملة. =

وهذا يؤكد أهمية مراعاة ضوابط التكفير - التي سبق ذكرها في التمهيد - ولذا نجد أهل العلم يشيرون إلى مثل تلك الضوابط.

فها هو القاضي عياض يقول في موضع: «وأما من أضاف إلى الله تعالى ما لا يليق به، ليس على طريق السب والردة، وقصد الكفر، ولكن على طريق التأويل والاجتهاد والخطأ المفضي إلى الهوى والبدعة من تشبيه أو نعت بجارحة»[١].

أو نفي صفة كمال، فهذا مما اختلف السلف والخلف في تكفير قائله ومعتقده[٢].

جاء في موضع آخر من كتابه ما يلي: «فأما من نفى صفة من صفات الله تعالى الذاتية، أو جحدها مستبصرًا في ذلك؛ كقوله: ليس بعالم، ولا قادر، ولا مريد، ولا متكلم، وشبه ذلك من صفات الكمال الواجبة، فقد نص أئمتنا على الإجماع على كفر من نفى عنه تعالى الوصف بها وأعراه عنها»[٣].

= **الثاني:** إنكار تأويل، وهو أن لا يجحدها، ولكن يؤولها.

وهذا نوعان:

١- أن يكون لهذا التأويل مسوغ في اللغة العربية فهذا لا يوجب الكفر.

٢- أن لا يكون له مسوغ في اللغة العربية، فهذا موجب للكفر؛ لأنه نفاها نفيًا مطلقًا فهو مكذب حقيقة، ولو قال في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]: المراد بيديه السماوات والأرض فهو كافر؛ لأنه لا يصح في اللغة العربية، ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية فهو منكر مكذب، لكن إن قال: المراد باليد النعمة أو القوة، فلا يكفر؛ لأن اليد في اللغة تطلق على النعمة. «المجموع الثمين» (٢/ ٦٢، ٦٣).

(١) لفظ «الجارحة» من الألفاظ المجملة التي لابد من بيان وتفصيل معانيها.

(٢) «الشفا» (٢/ ١٠٥١).

(٣) «الشفا» (٢/ ١٠٨٠).

المسألة الرابعة: يُعَد إنكار اسم أو صفة لله تعالى كفرًا وناقضًا من نواقض الإيمان وذلك لوجوه، منها:

(أ) أن هذا الإنكار لمن بلغته تلك النصوص - يعد تكذيبًا لنصوص الوحيين، وردًّا للأخبار الصحيحة في إثبات تلك الأسماء أو الصفات لله تعالى.

وقد تضافرت أقوال أهل العلم في تقرير ذلك.

فقد سئل أبو حنيفة(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عمن يقول:** لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض، فقال: قد كفر؛ لأن الله تعالى يقول ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه، آية ٥]، وعرشه فوق سماواته. فقيل لأبي حنيفة: إنه يقول: أقول على العرش استوى، ولكن قال: لا يدري العرش في السماء أو في الأرض، قال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر(٢).

وقال الإمام الشافعي وقد سئل عن صفات الله وما يؤمن به، فقال: لله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه أمته، لا يسع أحدًا من خلق الله قامت عليه الحجة ردها؛ لأن القرآن نزل بها، وصح عن رسول الله ﷺ بها فيما روى عنه العدول، فإن خالف بعد ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر، فأما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يقدر بالعقل، ولا بالروية، والقلب، ولا نُكفر بالجهل بها أحدًا إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها، ونُثبت هذه الصفات، وننفي عنها التشبيه كما نفى التشبيه عن

---

(١) هو النعمان بن ثابت الكوفي، التيمي بالولاء، إمام المذهب الحنفي، الفقيه، المجتهد، نشأ بالكوفة، ورفض القضاء، له مؤلفات، تُوفي سنة (١٥٠هـ) ببغداد.

(٢) «مختصر العلو» للذهبي / الألباني (ص١٣٦)، وانظر: «الأربعين في صفات رب العالمين» للذهبي (ص٩٣).

نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][١].

ويقول الإمام أحمد: وصح الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**وكلتا يديه يمين**»[٢]. فمن لم يؤمن بذلك ويعلم أن ذلك حق، كما قال رسول الله ﷺ؛ فهو مكذب لرسول الله ﷺ[٣].

وقال محمد بن جرير الطبري في كتاب التبصير في معالم الدين له... بعد أن ذكر بعض نصوص الصفات: فإن هذه المعاني التي وصفت ونظائرها مما وصف الله بها نفسه ورسوله مما لا يثبت حقيقة علمه بالفكر والروية، ولا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهائها إليه[٤].

وقال عثمان بن سعيد الدارمي[٥] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نكفر الجهمية بكفر مشهور، وهو تكذيبهم بنص الكتاب، أخبر الله تبارك وتعالى أن القرآن كلامه، وادعت الجهمية أنه خلقه، وأخبر الله تبارك وتعالى أنه كلم موسى تكليمًا، وقال هؤلاء لم يكلمه الله بنفسه، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة، آية ٦٤]، وقال هؤلاء الجهمية: ليس لله يد، وما خلق آدم بيده، وإنما يداه نعمتاه ورزقاه. فادعوا بين يدي الله أوحش مما ادعته

---

(١) كتاب «إثبات صفة العلو» لابن قدامة (ص١٢٤)، وانظر: «مختصر العلو» (ص١٧٧).

(٢) أخرجه مسلم، ك الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل (٣/ ١٤٥٨)، (ح١٨٢٧). وأحمد (٢، ١٦٠).

(٣) «المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة» (١/ ٣٠٧).

(٤) «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم (ص١٩٥).

(٥) هو عثمان بن سعيد التميمي الدارمي، إمام حافظ ناقد، نصر مذهب أهل السنة، ورد على المبتدعة، له مؤلفات، تُوفي سنة (٢٨٠هـ).
انظر: «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٢١)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣١٩).

اليهود؛ قالت اليهود: يد الله مغلولة، وقالت الجهمية: يد الله مخلوقة؛ لأن النعم والأرزاق مخلوقة لاشك فيها، وذاك محال في كلام العرب، فضلًا أن يكون كفرًا[١].

وقال أبو العباس السراج[٢]: من لم يقر ويؤمن بأن الله تعالى يعجب، ويضحك، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: من يسألني فأعطيه؟ فهو زنديق كافر، يستتاب، فإن تاب وإلا ضُربت عنقه، ولا يصلى عليه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين.

وقال الذهبي معلقًا: إنما يكفر بعد علمه بأن الرسول ﷺ قال ذلك، ثم إنه جحد ذلك ولم يؤمن به[٣].

وقال الآجري: وكان مما بينه ﷺ لأمته أنه أعلمهم في غير حديث: «**إنكم ترون ربكم** ﷻ»[٤]. ورواه جماعة من صحابته ﷺ، وقبلها العلماء عنهم أحسن القبول، كما قبلوا عنهم علم الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وعلم الحلال والحرام، كذا قبلوا منهم الأخبار أن المؤمنين يرون الله ﷻ ولا يَشُكّون في ذلك، ثم قالوا: مَن رد هذه الأخبار

---

(١) «الرد على الجهمية» (ص١٧٣، ١٧٤) باختصار.

(٢) هو محمد بن إسحاق الثقفي مولاهم، النيسابوري، إمام حافظ محدث، كان مجاب الدعوة، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، دخل بغداد، تُوفي بنيسابور سنة (٣١٣هـ).

انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٨٨)، و«طبقات الشافعية» (٣/ ١٠٨).

(٣) «مختصر العلو» (ص٢٣٢)، وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٩٦).

(٤) أخرجه البخاري، ك التوحيد، (١٣/ ٤١٩)، ح (٧٤٣٤)، ومسلم، ك الإيمان (١/ ١٦٣) ح (٢٩٩).

فقد كفر[١].

وقال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «جحود الاستواء كفر؛ لأنه رد لخبر الله، وكفر بكلام الله، ومَن كفر بحرف متفق عليه فهو كافر، فكيف بمن كفر بسبع آيات، ورد خبر الله تعالى في سبعة مواضع من كتابه؟!»[٢].

وقال ابن تيمية: «الصواب أن الجهل ببعض أسماء الله وصفاته لا يكون صاحبه كافرًا، إذا كان مقرًّا بما جاء الرسول ﷺ، ولم يبلغه ما يوجب العلم بما جهله على وجه يقتضي كفره إذا لم يعلمه، كحديث الذي أمر أهله بتحريقه ثم تذريته[٣].

وقال أيضًا: «من قال: إن الله لم يكلم موسي تكليمًا، فهذا إن كان لم يسمع القرآن، فإن يُعَرف أن هذا نص القرآن، فإن أنكره بعد ذلك استتيب، فإن تاب وإلا قُتل، ولا يقبل منه إن كان كلامه بعد أن يجحد نص القرآن، بل لو قال: إن معنى كلامي إنه خَلَق صوتًا في الهواء فأسمعه موسى. كان كلامه - أيضًا - كفرًا، وهو قول الجهمية الذين كفّرهم السلف، وقالوا: يستتابون فإن تابوا وإلا قُتلوا، ولكن من كان مؤمنًا بالله ورسوله مطلقًا، ولم يبلغه من العلم ما يبين له الصواب فإنه لا يُحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي من خالفها كفر، إذ كثير من الناس يخطئ فيما يتأوله من القرآن، ويجهل مما يرد من معاني الكتاب والسنة، والخطأ والنسيان مرفوعان عن هذه الأمة، والكفر لا يكون إلا بعد البيان»[٤].

---

(١) «الشريعه» (ص٢٥٣).
(٢) «ذم التأويل» (ص٢٦)، ت: بدر البدر.
(٣) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٥٣٨).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥٢٣، ٥٢٤).

ومن خلال تلك النقول يظهر وجه كون إنكار اسم أو صفة لله تعالى كفرًا وناقضًا للإيمان؛ لما فيه من التكذيب للنصوص الشرعية.

(ب) إن في هذا النفي إلحادًا في أسماء الله تعالى، وتعطيلًا لما يجب لله ﷻ من الإثبات المفصل كما يليق بجلاله وعظمته.

فمن أنواع الإلحاد في أسمائه تعالى: التعطيل، كما ذكر ذلك ابن القيم عندما قال: «تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقَّائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني. فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة له، ولا سمع، ولا بصر، ولا كلام، ولا إرادة تقوم به. وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا وشرعًا ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه، ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب. وكل مَن جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك فليستقل أو ليستكثر»[(١)].

وقال ابن القيم أيضًا: «كلما كان الرجل أعظم تعطيلًا كان أعظم شركًا، وتوحيد الجهمية والفلاسفة مناقض لتوحيد الرسل من كل وجه، فإن مضمونه إنكار حياة الرب، وعلمه، وقدرته، وسمعه، وبصره، وكلامه، وإنكار وجهه الأعلى ويديه، ومجيئه، وإتيانه ومحبته، ورضاه، وغضبه، وضحكه، وسائر ما أخبر به الرسول عنه، ومعلوم أن هذا التوحيد هو نفس

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٩١، ١٩٢)، وانظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (٢/ ١١٠، ١١١).

تكذيب الرسول بما أخبر به عن الله»[١].

ويؤكد ابن القيم في نونيته على أن التعطيل هو أصل الزندقة وأساسها فيقول:

والله ما قام البناء لدين رسل الله بالتعطيل للديان
ما قام إلا بالصفات مفصلًا إثباتها تفصيل ذي عرفان
فهي الأساس لديننا ولكل دين قبله من سائر الأديان
وكذاك زندقة العباد أساسها التعطيل يشهد ذا أولو العرفان
والله ما في الأرض زندقة بدت إلا من التعطيل والنكران
والله ما في الأرض زندقة بدت من جانب الإثبات والقرآن[٢]

كما يقرر ابن القيم في نفس النونية تلازم التعطيل والشرك فيقول:

واعلم بأن الشرك والتعطيل مذ كانا هما لا شك مصطحبان
أبدًا فكل معطل هو مشرك حتمًا وهذا واضح التبيان
فالعبد مضطر إلى من يكشف الـ بلوى ويغني فاقة الإنسان
وإليه يصمد في الحوائج كلها وإليه يفزع طالب لأمان
فإذا انتفت أوصافه وفعاله وعلوه من فوق كل مكان
فزع العباد إلى سواه وكان ذا من جانب التعطيل والنكران
فمعطل الأوصاف ذاك معطل الـ توحيد حقًّا ذان تعطيلان[٣]

---

(١) «مختصر الصواعق المرسلة» (١/ ٢٤٣، ٢٤٤)، وانظر: «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٠٣)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٣٤٧).

(٢) «شرح النونية» لابن عيسى (٢/ ٣٤٣).

(٣) «شرح النونية» (٢/ ٤٤٨).

كما أن التعطيل سوء ظن بالله تعالى، يقول ابن القيم: «ولم يجئ في القرآن وعيد أعظم من وعيد من ظن به ظن السوء، قال تعالى: ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ⦗٦⦘﴾ [الفتح: ٦]. وقال تعالى: ﴿ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ⦗٢٢⦘ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ⦗٢٣⦘﴾ [فصلت: ٢٢، ٢٣].

فهؤلاء ظنوا أنه لا يعلم بعض الجزئيات، فكيف بمن ظن أنه لا علم له، ولا سمع، ولا بصر ولا تكلم ولا يتكلم، ولا استوى على عرشه...»[١].

وإضافة إلى ما سبق، فإن التعطيل تنقص للرب ﷻ، فالنفاة أنكروا الصفات حتى أوقعهم هذا التعطيل في التمثيل والتشبيه بالجمادات.. بل والمعدومات.

قال بعض أهل العلم: إن الجهمية هم المشبهة؛ لأنهم شبهوا ربهم بالصنم، والأصم، والأبكم الذي لا يسمع، ولا يبصر، ولا يتكلم، ولا يخلق[٢].

وقال ابن تيمية: إن المعطلين لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التعطيل والتمثيل، مثلوا أولًا وعطلوا آخرًا، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله ﷻ[٣].

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٣٥٦، ١٣٥٧)، وانظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٣٤٧).
(٢) «خلق أفعال العباد» للبخاري (ص٢٨).
(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٧)، وانظر: «مختصر الصواعق المرسلة» لابن القيم (٢/ ١١١).

وقال عن المعطلة في موضع آخر: «وهؤلاء الجهال يمثلون في ابتداء فهمهم صفات الخالق بصفات المخلوق، وينفون مضمون ذلك. ويكونون قد جحدوا ما يستحقه الرب من خصائصه وصفاته، وألحدوا في أسماء الله وآياته وخرجوا عن القياس العقلي والنص الشرعي، فلا يبقى بأيديهم لا معقول صريح، ولا منقول صحيح، ثم لابد لهم من إثبات بعض ما يثبته أهل الإثبات من الأسماء والصفات، فإذا أثبتوا البعض ونفوا البعض، قيل لهم: ما الفرق بين ما أثبتموه ونفيتموه؟ ولمَ كان هذا حقيقة، ولم يكن هذا حقيقة؟ لم يكن لهم جواب أصلًا، وظهر بذلك جهلهم وضلالهم شرعًا وقدرًا. وقد تدبرت كلام عامة من ينفي شيئًا مما أثبته الرسل من الأسماء والصفات فوجدتهم كلهم متناقضين...»[(١)].

وقال أيضًا: «إن هذا الذي فر من أن يجعل القديم الواجب موجودًا، موصوفًا بصفات الكمال؛ لئلًا يلزم ما ذكره من التشبيه والتجسيم، وجعل نفي هذا اللازم دليلًا على نفي ما جعله ملزومًا له، لزمه في آخر الأمر ما فر منه من جعله الموجود الواجب جسمًا يشبه غيره، مع أنه وصفه بصفات النقص التي يجب تنزيه الرب عنها، ومع أنه جحد الخالق جل جلاله، فلزمه مع الكفر الذي هو أعظم من كفر عامة المشركين، فإنهم كانوا يقرون بالصانع مع عبادتهم لما سواه، ولزمه مع هذا أنه من أجهل بني آدم وأفسدهم عقلًا ونظرًا وأشدهم تناقضًا.

وهكذا يفعل الله بالذين يلحدون في أسمائه وآياته[(٢)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٦٢)، وانظر: «رسالة منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» للشنقيطي (ص٣٥).

(٢) عندما نورد هذه اللوازم، فلا يعني بالضرورة أن تكون مذهبًا لأولئك النفاة، وإنما =

(جـ) يستلزم نفي الأسماء أو الصفات لوازم شنيعة جدًّا[١].

وقد ذكر ابن القيم عشرة لوازم، منها ما يلي:

أحدها: جحد الصانع ونفيه.

الثاني: سلب كماله عنه[٢].

الثالث: وصفه بالنقائص والعيوب.

الرابع: تشبيهه بالجمادات الناقصة.

الخامس: تشبيهه بالمعدومات بل بالممتنعات.

السادس: الطعن فيما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله.

السابع: القدح في علم الرسول أو بيانه أو نصحه.

الثامن: إفساد الفطر والعقول وتغييرها عما فُطرت عليه، كإفساد الشياطين لها بالشرك واتباع الغي[٣].

ونورد مثالاً لبعض اللوازم التي تلزم من قال بخلق القرآن، وأنكر كلام الله تعالى.

يقول الدارمي: أخبر الله تبارك وتعالى أن القرآن كلامه، وادعت الجهمية أنه خلقه؛ وأخبر الله تعالى أنه كلّم موسى تكليمًا، وقال هؤلاء: لم يكلمه الله بنفسه، ولم يسمع موسى نفس كلام الله، إنما سمع كلامًا خرج إليه من

= هو من باب الاستدلال بفساد تلك اللوازم على فساد الملزوم الذي هو التعطيل؛ لأن لوازم الأقوال من جملة الأدلة على صحتها أو فسادها. انظر: «توضيح الكافية الشافية» للسعدي (ص١١٣).

(١) نفي الأسماء والصفات هو في الحقيقة نفي للكمال عن الله تعالى.

(٢) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٣٥)، وانظر: (٣/ ١١٤٤، ١١٥٠)، (٤/ ١٤٢٧، ١٤٢٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٠٩).

مخلوق. ففي دعواهم دعا مخلوق موسى إلى ربوبيته، فقال: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢]، فقال له موسى في دعواهم: صدقت. ثم أتى فرعون يدعوه أن يجيب إلى ربوبية مخلوق كما أجاب موسى في دعواهم، فما فرق بين موسى وفرعون في مذهبهم في الكفر؟ إذًا فأي كفر أوضح من هذا؟[(١)].

ويقول ابن تيمية: «اشتهر عند خواص الأمة وعوامها أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وإطلاق القول أن من قال: (إنه مخلوق) فقد كفر.

ثم أورد ابن تيمية بعض أقوال السلف في ذلك كقول عبد الله بن المبارك: من قال ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤]مخلوق فهو كافر، ولا ينبغي لمخلوق أن يقول ذلك[(٢)].

ثم قال: ومعنى كلام هؤلاء السلف رضي الله عنهم أن من قال: إن كلام الله مخلوق خلقه في الشجرة أو غيرها، كان حقيقة قوله: إن الشجرة التي قالت لموسى: «**إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني**» ومن قال: هذا مخلوق قال ذلك؛ فهذا المخلوق عنده كفرعون الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. كلاهما مخلوق، وكلاهما قال ذلك، فإن كان قول فرعون كفرًا، فقول هؤلاء أيضًا كفر، ولا ريب أن قول هؤلاء يؤول إلى قول فرعون وإن كانوا لا يفهمون ذلك، فإن فرعون كَذَّب موسى فيما أخبر به أن ربه هو الأعلى، وأنه كلمه كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، وهو قد كَذَّب موسى في أن الله كلمه[(٣)].

---

(١) «الرد على الجهمية» (ص١٧٤)، وانظر: «الرد على بشر المريسي» (عقائد السلف) (ص٣٦٣ - ٣٦٥).

(٢) انظر: «خلق أفعال العباد» للبخاري (ص١٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥٠٩، ٥١٠).

المسألة الخامسة: جملة من أقوال أهل العلم في تكفير من أنكر اسمًا أو صفة ثابتة لله ﷻ:

يقول الإمام أحمد: إذا قال الرجل: (العلم مخلوق) فهو كافر؛ لأنه يزعم أنه لم يكن له علم حتى خلقه.

ويقول أيضًا: من قال: (القرآن مخلوق) فهو عندنا كافر؛ لأن القرآن من علم الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١](١).

ويقول رَحِمَهُ اللهُ: من قال: (إن الله ﷻ لا يُرى في الآخرة) فهو كافر(٢).

وقال هارون بن معروف(٣): من زعم أن الله ﷻ لا يتكلم فهو يعبد الأصنام.

وقال محمد بن مصعب العابد(٤): من زعم أنك لا تتكلم ولا تُرى في الآخرة فهو كافر بوجهك لا يعرفك، أشهد أنك فوق العرش، فوق سبع سماوات، وليس كما يقول أعداء الله الزنادقة.

وقال نعيم بن حماد(٥): من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما

---

(١) «السنة» للإمام عبد الله ابن الإمام أحمد (١/ ١٠٢، ١٠٣)، وانظر: (٢/ ٣٨٥)، وانظر: «أصول اللالكائي» (٣/ ٤٠٥، ٤٠٦)، و«الشريعة» للآجري (ص٨٠).

(٢) «مسائل الإمام أحمد» لأبي داود (عقائد السلف) (ص١٠٥)، وانظر: «الشريعة» للآجري (ص٢٥٥).

(٣) أبو علي هارون بن معروف المروزي البغدادي، وثقه أبو حاتم وغيره، مات سنة (٢٣١ هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٢٩)، و«شذرات الذهب» (٢/ ٧١).

(٤) هو أبو جعفر، محمد بن صعب، أحد العبّاد المشهورين، والقراء المعروفين، أثنى عليه أحمد ابن حنبل ووصفه بالسنة، مات ببغداد سنة (٢٢٨هـ).
انظر: تاريخ بغداد (٣/ ٢٧٩).

(٥) هو نعيم بن حماد الخزاعي الفرضي المروزي، الحافظ، أحد علماء الحديث، له تصانيف، نصر السنة، ومات في محنة القول بخلق القرآن سنة (٢٢٩ هـ). =

وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف به نفسه ورسوله تشبيه[١].

وقال ابن خزيمة[٢]: «من لم يقر بأن الله على عرشه، استوى فوق سبع سماواته، بائن من خلقه، فهو كافر يستتاب، فإن تاب وإلا ضُربت عنقه، وأُلقي على مزبلة لئلا يتأذى بريحه أهل القبلة وأهل الذمة»[٣].

وقال الآجري: «باب ذكر الإيمان بأن القرآن كلام الله ﷻ، وأن كلامه جل وعلا ليس بمخلوق، ومن زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر».

ثم قال: اعلموا رحمنا الله وإياكم أن قول المسلمين الذين لم تزغ قلوبهم عن الحق ووفقوا للرشاد قديمًا وحديثًا - أن القرآن كلام الله ﷻ ليس بمخلوق؛ لأن القرآن من علم الله تعالى، وعلم الله لا يكون مخلوقًا، تعالى الله ﷻ عن ذلك، دل على ذلك القرآن والسنة وقول الصحابة ﭫ وقول أئمة المسلمين رحمة الله تعالى عليهم، لا ينكر هذا إلا جهمي خبيث، والجهمية عند العلماء كفار»[٤].

وقال هارون الفروي[٥]: «لم أسمع أحدًا من أهل العلم بالمدينة وأهل السنن إلا وهم ينكرون على من قال: (القرآن مخلوق) ويكفرونه»[٦].

= انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥٩٥)، و«شذرات الذهب» (٢/ ٦٧).

(١) «أصول اللالكائي» (٣/ ٤٠٦)، وانظر: «مختصر العلو» للذهبي (ص١٨٤).

(٢) محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري الشافعي، إمام الأئمة، صاحب التصانيف، حافظ فقيه، نصر السنة وردّ على المبتدعة، تُوفي سنة (٣٢١ هـ).
انظر: «طبقات الشافعية» (٣/ ١٠٩)، و«سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٦٥).

(٣) «مختصر العلو» للذهبي (ص٢٢٥)، وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٧٣).

(٤) «الشريعة» (ص٧٥).

(٥) هارون بن موسى الفروي المدني، روى عنه الترمذي والنسائي وغيرهما، مات سنة (٢٥٣ هـ). انظر: «تهذيب التهذيب» (١١/ ١٣).

(٦) المرجع السابق (ص٧٨).

وقال النووي: «قال المتولي: لو نفى ما هو ثابت للقديم[١] بالإجماع، ككونه عالمًا قادرًا. . . كان كافرًا»[٢].

ويقول ابن تيمية: والذي عليه جمهور السلف أن من جحد رؤية الله في الدار الآخرة فهو كافر، فإن كان ممن لم يبلغه العلم في ذلك، عُرِّف ذلك، كما يُعَرَّف من لم تبلغه شرائع الإسلام، فإن أصر على الجحود بعد بلوغ العلم له فهو كافر»[٣].

ويقول أيضًا: «القول بأن الله تعالى فوق العالم معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة بعد تدبر ذلك؛ ولهذا كان السلف مطبقين على تكفير من أنكر ذلك؛ لأنه عندهم معلوم بالاضطرار من الدين»[٤].

وجاء في الفتاوى البزازية: «يجب إكفار القدرية في نفيهم كون الشر من خلق الله تعالى، وفي دعواهم أن كل فاعل خالق فعل نفسه»[٥].

وقال المرداوي: «من أشرك بالله، أو جحد ربوبيته، أو وحدانيته، أو صفة من صفاته؛ كفر بلا نزاع في الجملة»[٦].

---

(١) لفظ «القديم» من الألفاظ المجملة، والمتعين أن يوصف ربه سبحانه بالألفاظ الشرعية.

(٢) «روضة الطالبين» (١٠/ ٦٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٤٨٦).

(٤) «درء تعارض العقل والنقل» (٧/ ٢٦، ٢٧) باختصار، وانظر: (٩/ ٣٩٦، ٣٧٠).

(٥) «الفتاوى البزازية» (٦/ ٣١٨، ٣١٩).

(٦) «الإنصاف» (١٠/ ٣٢٦)، وانظر: «المبدع شرح المقنع» (٩/ ١٧١)، و«الفروع» (٦/ ١٦٤)، و«كشاف القناع» (٦/ ١٦٨)، و«شرح منتهى الإرادات» (٣/ ٣٨٦).

الفصل الثالث: ما يضاد توحيد الأسماء والصفات

يضاد توحيد الأسماء والصفات الإلحادُ فيها، ويدخل في الإلحاد التعطيلُ، والتمثيلُ، والتكييف، والتفويض، والتحريف، والتأويل.

١- الإلحاد: الإلحاد في اللغة هو: الميل، ومنه اللحد في القبر، ومنه قول عمرو بن معدي كرب الزبيدي:

كم من أخ كان لي ماجدٍ ألحدته في يديَّ الثرى

وقول جرير:

دعوت الملحدين أبا خبيب جماحًا هل شفيت من الجماح

ويُقصد بالملحدين: المائلين عن الحق.

أما في الاصطلاح: فهو العدول عما يجب اعتقاده أو عمله.

والإلحاد في أسماء الله هو: العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها.

أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته:

١ - أن ينكر شيئًا مما دلت عليه من الصفات كفعل المعطلة.

٢ - أن يجعلها دالة على تشبيه الله بخلقه، كفعل أهل التمثيل.

٣ - أن يُسمي الله بما لم يُسمِّ به نفسه؛ لأن أسماء الله توقيفية، كتسمية النصارى له «أبًا» وتسمية الفلاسفة إياه «علة فاعلة» أو تسميته بـ«مهندس الكون» أو «العقل المدبر» أو غير ذلك.

٤ - أن يشتق من أسمائه أسماء للأصنام، كاشتقاق «اللات» من «الإله» والعُزَّى «من» العزيز».

٥ - وصفه تعالى بما لا يليق به وبما ينزه عنه، كقول اليهود بأن الله تَعِبَ من

خلق السماوات والأرض، واستراح يوم السبت. أو قولهم: إن الله فقير.

٢- التعطيل: التعطيل في اللغة: مأخوذ من العطل، الذي هو الخلو والفراغ والترك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج: ٤٥]، أي: أهملها أهلها، وتركوا وردها. **وفي الاصطلاح:** هو إنكار ما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات، أو إنكار بعضه.

وهو نوعان: أ - تعطيل كلي: كتعطيل الجهمية الذين أنكروا الصفات، وغلاتهم ينكرون الأسماء أيضًا.

ب - تعطيل جزئي: كتعطيل الأشعرية الذين ينكرون بعض الصفات دون بعض، وأول من عرف ذلك من هذه الأمة الجعد بن درهم.

٣- التمثيل: هو: إثبات مثيل للشيء.

وفي الاصطلاح: اعتقاد أن صفات الله مثل صفات المخلوقين، كأن يقول الشخص: لله يد كيدي.

٤- التكييف: حكاية كيفية الصفة؛ كقول القائل: يد الله أو نزوله إلى الدنيا كذا وكذا، أو يده طويلة، أو غير ذلك، أو أن يسأل عن صفات الله بكيف.

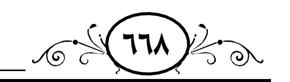
٥- التفويض: هو الحكم بأن معاني نصوص الصفات مجهولة غير معقولة لا يعلمها إلا الله. أو هو إثبات الصفات وتفويض معناها وكيفيتها إلى الله ﷻ. والحق أن الصفات معلومة معانيها، أما كيفيتها فيفوض علمها إلى الله ﷻ.

٦- التحريف: التحريف لغة: التغيير.

وفي الاصطلاح: تغيير النص لفظًا أو معنى.

والتغيير اللفظي قد يتغير معه المعنى، وقد لا يتغير، فهذه ثلاثة أقسام:

أ - **تحريف لفظي يتغير معه المعنى،** كتحريف بعضهم قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ إلى نصب لفظ الجلالة؛ ليكون التكليم من موسى عليه السلام.

ب – تحريف لفظي لا يتغير معه المعنى، كفتح الدال من قوله تعالى:  [الفاتحة: ٢]، وذلك بأن يقول: «الحمدَ لله...» وهذا في الغالب لا يقع إلا من جاهل؛ إذ ليس فيه غرض مقصود لفاعله غالبًا.

ج – تحريف معنوي: وهو صرف اللفظ عن ظاهره بلا دليل؛ كتحريف معنى «اليدين» المضافتين إلى الله إلى القوة والنعمة ونحو ذلك.

٧- التأويل: التأويل في اللغة يدور حول عدة معانٍ، منها الرجوع، والعاقبة، والمصير، والتفسير.

أما في الاصطلاح فيطلق على ثلاثة معانٍ، اثنان منهما صحيحان مقبولان معلومان عند السلف، والثالث مبتدع باطل.

وإليك بيان هذه المعاني:

المعنى الأول: التفسير، وهو إيضاح المعنى، وبيانه.

وهذا اصطلاح جمهور المفسرين كابن جرير وغيره، فتراهم يقولون: تأويل هذه الآية كذا وكذا، أي: تفسيرها.

الثاني: الحقيقة التي يؤول إليها الشيء، وهذا هو المعروف من معنى التأويل في الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥]، وقوله عن يوسف عليه السلام: «**هذا تأويل رؤياي من قبل**».

الثالث: صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى يخالف الظاهر.

وهذا ما اصطلح عليه المتأخرون من أهل الكلام وغيرهم. كتأويلهم الاستواء بالاستيلاء، واليد بالنعمة. وهذا هو الذي ذمه السلف[١].

---

(١) «توحيد الأسماء والصفات» (ص: ٢٠).



المبحث الحادي عشر:
الفِرق التي ضلت في باب الأسماء والصفات

هناك فِرق عديدة ضلت في هذا الباب، منها:

١- الجهمية: وهم أتباع الجهم بن صفوان، وهم ينكرون الأسماء والصفات.

٢- المعتزلة: وهم أتباع واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وهم يثبتون الأسماء، وينكرون الصفات، معتقدين أن إثباتها يؤدي إلى تعدد القدماء.

٣- الأشاعرة: وهم أتباع أبي الحسن الأشعري، وهم يثبتون الأسماء وبعض الصفات، فقالوا: إن لله سبع صفات عقلية يسمونها «معاني» هي «الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر والكلام».

وهي مجموعة في قول القائل:

حي عليم قدير والكلام له إرادة وكذلك السمع والبصر

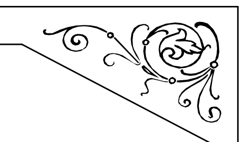
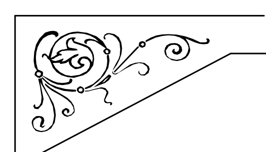
وإثباتهم لهذه الصفات مخالف لطريقة السلف.

٤- الماتريدية: وهم أتباع أبي منصور الماتريدي، وهم يثبتون الأسماء وبعض الصفات، وإن كان هذا الإثبات مخالفًا لطريقة السلف.

٥- الممثلة: وهم الذين أثبتوا الصفات، وجعلوها مماثلة لصفات المخلوقين، وقيل: إن أول من قال بذلك هو هشام بن الحكم الرافضي[1].

---

(١) «توحيد الأسماء والصفات» (ص: ٢٣).

فهرس الموضوعات

